

المبحث البديع

بيان

أسباب وآثار وحلول التميع

تأليف

أبي محمد الزعكري عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1432

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ العلامة يحيى بن علي الحجوري حفظه الله تعالى

الحمد لله الحافظ لدينه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن نشر شرعته وتبينه، أما بعد:

فقد طالعت هذا المبحث المسمى «المبحث البديع ببيان أسباب وآثار وحلول التميع» جمع أخينا المفضل: الشيخ عبد الحميد بن يحيى بن زيد الزعكري الحجوري حفظ الله، فرأيت كتاباً مفيداً، باطنه يشتمل على ما ذكر في عنوانه من ذكر أسباب وآثار وحلول التميع، وهذا تصدّ طيب لهذا الشر، وجهد نرجو أن ينفع ويُشكر، وبالله التوفيق.

كتبه يحيى بن علي الحجوري

بتاريخ 21/ جمادى الثاني/ 1432هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما بعد:

فإني - بعون الله تعالى - أقدم لإخواني المسلمين هذا الكتاب الذي أرجو نفعه وبره لي ولمن أراد الله عز وجل به خيراً من المسلمين والمستقيمين.

وموضوعه يهدف لبيان وعلاج مرض خطير من أمراض العصر، وهو مرض معنوي يفتك بالدعوة والدعاة، وهو أشد وطأة على المرء المسلم من الأمراض الحسية مهما بلغت شدتها؛ فإن المرء الصالح إن صبر عليها وكان محافظاً على الطاعات والمبرات ملازماً للسنن، إن عاش على خير، وإن مات على خير.

قال الرسول ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» الحديث عند مسلم (2999). عن صهيب رضي الله عنه.

وقد سلكت في هذا الكتاب المسلك الذي سلكه رسول الله ﷺ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، حيث ذكر سبيل السلامة والعافية ثم ذكر المرض ثم الحمية والعلاج، فعند أبي داود (4607)، والترمذي (2676) رحمهما الله قال العرباض بن سارية رضي الله عنه: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا،

فَوَعظْنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

والحديث حسن، وقد ذكر طرقه وشواهده الحافظ ابن رجب في كتابه المفيد النافع «جامع العلوم والحكم»، وهو مخرج أيضًا في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» لشيخنا أبي عبدالرحمن مقبل الوادعي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -.

فذكرت بعض مميزات أهل السنة المتمسكين بالإسلام الحق، الذين هم وسط بين طرفين، وحق بين باطلين. ثم المرض وهو إما إفراط أو تفريط. ثم نتائج هذا المرض ثم العلاج. وهذا المرض الذي أشير إليه هو مرض التميع نسأل الله السلامة. وسمّيته «المبحث البديع ببيان أسباب وآثار وحلول التميع» أو قل: «طاغوت التميع».

وربما يمر بك في البحث بعض الأدلة على تميع الكفار، فلا يظن ظان بأني أكفر دعاة التميع لمقاربتهم، وإنما الكافر من كفره الكتاب والسنة؛ لأن التكفير حق الله عز وجل ورسوله ﷺ، فمن كفره الله عز وجل ورسوله كفرناه، ومن بدّعه الدليل بدّعناه، وإنما الطاغوت هو ما تجاوز حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

ولا شك أن التميع فيه من المجاوزة للحد ما الله به عليم، على ما يأتي بيانه - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وأيضًا هو من أخلاق الطاغوت الذي هو الشيطان، وقد اختلف السلف في معنى الطاغوت اختلافًا مؤداه إلى هذا التعريف الجامع.

وبما أن الأمر على ما ذكرنا، فالطاغوت الواجب أن يجتنب، قال الله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، والطاغوت ينبغي أن يكفر به ويتنكر له، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256]، والإيمان الذي يثنى على المرء به هو الإيمان المطلق السالم من الإفراط والتفريط، وأصحاب الطاغوت يجب أن يجاهدوا للحد من شرهم، سواء كانوا من أهل الكفر والإلحاد، أو كانوا من أهل البدع والمعاصي، أولئك يقاتلون بالسنان، وهؤلاء باللسان والبيان، قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73].

وتلخص لنا أن بيان هذه الشرور وأسبابها يعتبر من الجهاد في سبيل الله عز وجل، فالاستقامة خير سبيل، قال الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِيكَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

وقسمته على أربعة فصول:

الفصل الأول: التمهيد والتعاريف.

الفصل الثاني: أسباب التميع.

الفصل الثالث: نتائج التميع.

الفصل الرابع: أسباب السلامة وعلاجات التميع.

سبب التوسع في هذا البحث

قد يقول قائل: كان بإمكانك تقليل هذا السرد، وإدخال بعض الأسباب في بعض؛ اختصاراً للكتاب، وتخفيفاً للأتعاب، وحفاظاً على الأوراق، وفراراً من الإطناب.

فأقول ما قاله الإمام ابن الوزير في «العواصم» (1/ 161): (ثم إني ترددت في كيفية الجواب من الإيجاز والإطناب؛ إذ كان في كلٍّ منهما محامد، ولكلٍّ فيهما مقاصد، ففي الإيجاز تأليف النفوس الأوابد، وفي الإطناب توسيع دائرة الفوائد.

وصدني عن التوسع والتكثير خشية التنفير والتأخير:

أما التنفير: فلأنه يُملُّ الكاتب والمكتوب إليه، والمتطلع إلى رؤية الجواب، والوقوف عليه، مع أن القليل يكفي المنصف، والكثير لا يكفي المتعسف، وضوء البرق المنير يدل على النور الغزير.

وأما التأخير: فلأن التوسع يحتاج إلى تمهيل عرائس الأفكار حتى يستكمل الزينة، ومطالعة نفائس الأشعار الحافلة بالأنظار الرصينة، والآثار المتينة، فهذا البحر - وهو الزَّخَّار - يحتاج من السُّحب إلى مدد، والبدْر - وهو النُّوَّار - يفتقر من الشمس إلى يد، ومن أين يتأتى ذلك، أو يتهياً لي، وأنا في بوادٍ خوالي، وجبال عوالي، فتمصَّصْتُ من بلل أفكارٍ برَّصًا، وما أكنى ذلك وأرضى، إذا كان طيباً محضاً.

سَاحِجًا بِالْقَلِيلِ مِنْ غَيْرِ عُدْرِ رَبِّمَا أَقْنَعَ الْقَلِيلُ وَأَرْضَى

ولكن هيهات لذلك، لا محيص لي عن أوفر نصيب من طَفِّ الصَّاع، ولا يدلي من الانخداع بداعية الطباع). اهـ

وقد يحتاج إلى التفصيل في مواطن التأليف الموضوعي أكثر من الإجمال، فمن هذا الباب وغيره من الأبواب تم جمع الكتاب.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبه نستعين، وعليه التكلان.

فالله أسأل أن ينفعني به ومن قرأه من المسلمين وأسأله أن يغفر لي ولوالديّ ولمشايجي وللمسلمين. هذا:

وَإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدِّ الْحَلَالَ قَدْ جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

كتبه: أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

الفصل الأول

التمهيد

الحمد لله الذي جعل هذه الأمة خير الأمم، وجعل نبيها خير الأنبياء، وحفظ كتابها، وجعله مهيمناً على سائر الكتب.

قال الله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط: العدل الخيار. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ نُوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسَأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شَهِدُوكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَجَاءُ بِكُمْ، فَتَشْهَدُونَ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عَدْلًا» ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وقال الله عز وجل ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقال الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

هذا وقد تكلمت - والله المنة - بتوسع عن فضل هذه الأمة، وفضل نبيها، وفضل كتابها، في كتابي الذي رقمته في الرد على دعاة وحدة الأديان.

وهذا الوصف يدخل فيه ابتداء أهل السنة والجماعة، أهل الفقه والنظر، والخير والأثر، الذين هم ملازمون لطريقة المعصوم محمد ﷺ. وأما غيرهم فقد غير وبدل، ويكون بُعد وقربه بقدر ما هو عليه من التنكب عن الكتاب والسنة، واستحقوا هذا الوصف للعدالة التي لازموها في أقوالهم وأفعالهم بعيداً عن طرق النصارى الضالين الذين غلو حتى بلغ بهم الغلو أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عز وجل، وألّهُوا عيسى عليه السلام، فقال الله عز وجل ناهياً لهم عن هذا الصنيع الذميمة: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح» (2/100): (ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء في طرف ضلال وهؤلاء في طرف يقابله والمسلمون هم الوسط وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك). اهـ

وقال ابن كثير: (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى ﷺ، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادّعوا فيهم العصمة

واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]. اهـ

وأما اليهود فقد وقع منهم الجفاء حتى قتلوا الأنبياء، قال الله عز وجل ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠].

هذا في جانب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووقع منهم الغلو في عزيز حتى ألَّهوه قال الله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] فكل من الفريقين اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالون وقع منهم الغلو من جانبيه.

قال الشنقيطي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في «أضواء البيان»: (وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً للتفريط والإفراط). اهـ

وقال الشوكاني - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في «فتح القدير» (1/633): (والمراد بالآية النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى ﷺ حتى جعلوه ربا ومن التفريط غلو اليهود فيه حتى جعلوه لغير رشده). اهـ

وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم الأئمة الأعلام على غاية من الأخذ بالدين الحق، بعيدين كل البعد عن الغلو والجفاء، حتى خلف من بعدهم خلفٌ يقولون ما لا يفعلون ويلبسون الحق بالباطل، قال رسول الله ﷺ عن بعضهم: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدُثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَخْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ،

يَمُرُّونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيُّمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». متفق عليه من حديث علي عليه السلام. البخاري (3611)، ومسلم (1066).

كفروا المسلمين وخرجوا على أئمة الدين، فلما وقع الخوارج في هذه البلية العظيمة المخالفة للطريقة المستقيمة، ظهرت بالمقابل فرقة أخرى ميّعوا الدين وفرطوا في الأوامر واستهانوا بأمر الكبائر فزعموا أنّ السارق والزاني والفاسق والمغني إيمانه كامل على إيمان جبريل ومكائيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى إيمان أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما فوقع بسببهم بلاء عظيم وخطر عظيم، كان تأثيره في البعد عن شرائع الدين أعظم من تأثير الخوارج حتى قال إبراهيم النخعي رحمه الله كما عند ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (274/6): (لأننا على الأمة من هؤلاء -يعني المرجئة- أخوف من عدتهم من الأزارقة -يعني الخوارج-). وأخرج عبدالله بن أحمد في «السنة» (733) عن يحيى بن أبي كثير وقتادة قالا: (ليس من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء). وأخرج رقم (258) عن مغيرة بن مقسم كان يقول: (والله الذي لا إله إلا هو ما أعرف منه شر منهم) قيل لأبي بكر: يعني المرجئة؟ قال: المرجئة وغير المرجئة.

وغلت الجبرية في إثبات القدر حتى زعموا أنّ الفاعل حقيقة هو الله عز وجل تعالى عن قولهم علوا كبيرا والإنسان إنما هو كالريشة في مهب الريح أو الميت بين يدي مغسله.

وبالمقابل غلت النفاة من القدرية في إثبات أفعال العباد حتى زعمت أن المخلوق المربوب هو خالق فعله وأن الله عز وجل ليس بخالق للشر وأخرجوا أفعال

العبد من عموم قول الله تعالى ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

وغلت الجهمية في جانب التنزيه زعموا، وهو التعطيل، فزعموا أن لهم رباً لا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارج عنه ولا حي ولا ميت وهكذا، وعند التحقيق تجد أن هذا رباً لا وجود له وإثما هو العدم ووافقتهم المعتزلة في نفي الصفات وخالفوهم في إثبات الأسماء.

وفي الضدّ قابلتهم طائفة الممثلة فغلوا في الإثبات حتى زعموا أن الله عز وجل له صفات كصفات المخلوقين الربوبيين المحتاجين الناقصين تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ولم يلتفتوا إلى مثل قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

مع أن أهل السنة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل له صفات تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كما أنه لا مثيل له في ذاته فكذلك لا مثيل له في صفاته.

وهكذا دواليك كل فرقة من فرق الضلال في الغلو، تضادهم فرقة من فرق الضلال في الجفاء والتميع بل وأهل الغلو والتميع تجد عند كل فريق منهم غلو من وجه وتميع من وجه آخر.

وأهل السنة هم الوسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين وحق بين باطلين، خرجوا من بين فرث الغلو ودم التميع لبناً سائغاً للشاربين؛ لأنهم عملوا بقول الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أما أهل البدع فإنما يأخذون ما وافق آرائهم وأيد أفكارهم فحادوا وزاغوا عن الصراط المستقيم والطريق القويم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واتبعوا سبيل المعرضين الضالين الذين أمرنا الله بالبعد عنهم بقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

ويجب أن يعلم أن هذا السبيل الذي نحذر من مخالفته هو طريق رسول الله ﷺ فكان اللازم الدفاع عنه والدعوة إليه وتعلّمه وتعليمه لعلّ الله أن ينقذ به من يشاء وللشوكاني رحمه الله تعالى كلام نفيس يبيّن ما نحن بصددده قال في «أدب الطلب» ص(68): (ومن أهم ما يجب على طالب العلم تصوّره عند الشروع واستحضاره عند المباشرة، بل وفي كل وقت من أوقات طلبه مبتدئاً أو منتهياً متعلّماً وعالمًا، أن يقر في نفسه أن هذا العلم الذي هو بصددده هو تحصيل العلم الذي شرعه الله لعباده، والمعرفة لما تعبد بهم في محكم كتابه وعلى لسان رسوله، والوقوف على أسرار كلام الله عز وجل ورسوله ﷺ).

وأن هذا المطلب الذي هو بسبب تحصيله ليس هو من المطالب التي يقصدها من هو طالب للجاه والمال والرئاسة، بل هو مطلب يُتاجر به الرب سبحانه، وتكون غايته العلم بما بعث الله به رسوله وأنزل فيه كتبه، وذلك سبب الظفر بما عند الله من خير ومثل هذا لا مدخل فيه لعصية ولا مجال عنده لحماية، بل هو شيء بين الله سبحانه وبين جميع عباده تعبد بهم به تعبدًا مطلقًا أو مشروطًا بشروط، وأنه لا يخرج عن ذلك فرد، منهم بل أقدامهم متساوية في ذلك، عالمهم وجاهلهم، وشريفهم ووضيعهم، وقديمهم وحديثهم، ليس لواحد منهم أن يدعي أنه غير متعبد بما تعبد الله به عباده، أو أنه خارج عن التكليف أو أنه غير محكوم عليه بأحكام الشرع

ومطلوب منه ما طلبه الله من سائر الناس، فضلاً عن أن يرتقي إلى درجة التشريع وإثبات الأحكام الشرعية وتكليف عباد الله سبحانه بما يصدر عنه من الرأي فإن هذا أمر لم يكن إلا لله سبحانه لا لغيره من البشر كائناً من كان إلا فيما فوضه إلى رسله، وليس لغير الرسل في هذا مدخل بل الرسل منهم متعبدون بما تعبدهم الله به مكلفون بما كلفوا به مطالبون بما طلبه منهم.

وتخصيصهم بأمور لا تكون لغيرهم لا يعني خروجهم عن كونهم كذلك، بل هم من جملة البشر، ومن سائر العباد في التكليف بما جاءوا به عن الله، وقد أخبروا بهذا وأخبر به الله عنهم، كما في غير موضع من الكتاب العزيز، ومن السنة النبوية، وكما وقفنا عليه في التوراة والإنجيل والزبور مكرراً في كل واحد منها.

وإذا كان هذا حال الرسل عليهم الصلاة والسلام في التعبد بالأوامر الشرعية، والتوقف في التبليغ على ما أمرهم تعالى بتبليغه، فلا يشرعون للناس إلا ما أذن لهم به وأمرهم بإبلاغه، وليس لهم من الأمر شيء إلا مجرد البلاغ عن الله والتوسط بينه وبين عباده فيما شرعه لهم وتعبدهم به، كما هو معنى الرسول والرسالة لغة وشرعاً عند من يعرف علم اللغة ومصطلح أهل الشرع.

ولا ينافي هذا وقوع الخلاف بين أئمة الأصول في إثبات اجتهاد الأنبياء، تجنب التحيز والمعصية ونفيه، فإن الخلاف المحرر في هذه المسألة لفظي عند من أنصف وحقن، فكيف بحال غيرهم من عباد الله ممن ليس هو من أهل الرسالة ولا جعله الله من أهل العصمة، كالصحابة فالتابعين فتابعيهم من أئمة المذاهب فسائر حملة العلم، فإن من زعم أن لواحد من هؤلاء أن يحدث في شرع الله ما لم يكن فيه، أو يتعبد عباد الله بما هو خارج عن ما هو منه، فقد أعظم على الله الفرية وتقول على الله تعالى بما لم

يقول، وأوقع نفسه في هوة لا ينجو منها إلا طرحها في مطرح سوء، ووضعها في موضوع شر، ونادى على نفسه بالجهل والجرأة على الله تعالى، والمخالفة لما جاءت به الشرائع، وما أجمع عليه أهلها فإن هذه رتبة لم تكن إلا لله، ومنزلة لا ينزلها غيره، ولا يدعيها سواه، فمن ادعاها لغيره تصريحاً أو تلويحاً فقد أدخل نفسه في باب من أبواب الشرك، وكان ذلك هو الفائدة التي استفادها من طلبه، والربح الذي ربحه من تعبته ونصبه، وصار اشتغاله بالعلم جناية عليه، ومحنة له، ومصيبة أصاب بها نفسه، وبليّة قادها إليها، ومعصية كان عنها بالجهل وعدم الطلب في راحة.

وهكذا من لم يحسن لنفسه الاختيار، ولا سلك فيها مسالك الأبرار، ولا اقتدى بمن أمر الله الاقتداء به من أهل العلم الذين جعلهم محلاً لذلك ومرجعاً). اهـ

هذا، وإننا في هذه السنوات الأخيرة قد ابتلينا بطوائف عديدة، وأفكار غير سديدة، ميعوا الدين، وخلطوا فيه أفكار المبطلين، وكان بداية ذلك الفكر الإخواني الذي أسس منهجه وطريقه على قاعدة باطلة مؤداها إلى عدم تميز الغث من السمين، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والنور من الظلام، والتوحيد من الشرك، والسنة من البدعة، ألا وهي قاعدة المبتدع الضال حسن البناء: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)، قاعدة يُعطل بسببها باب الولاء والبراء، وجانب إنكار المنكر، وجانب النصيحة، وباب الجرح لأهل الباطل، وغير ذلك من أبواب الدين.

فنتج عن هذه القاعدة البائرة، والأفكار الحائرة، الرضا بالباطل، والدعوة إلى التقارب بين الأديان، وبين أهل السنة والشيعة، وكثرة المذبذبين الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88].

ومن ثم قاعدةٌ سلكها أبو الحسن المصري حيث زعم أن: (منهج أهل السنة والجماعة منهج واسع أفيح يسع الأمة ويسع أهل السنة).

قاعدتان خبيثتان فيهما الدعوة إلى تميع الدين، والرضا بالباطل المشين.

وزد على ذلك قاعدة على الحلبي التي رفع عقيرته بها منافحا عنها وهي: (لا نجعل خلافتنا في غيرنا سبباً للخلاف فيما بيننا!!) التي تُلَمِّح إلى عدم التميّز عن المبتدعة الضلال، وعدم الإنكار على متعاطي ذلك، وغير ذلك من القواعد.

وبسبب الجهل وقلة العلم وقلة النصيحة أصبح كثير من المسلمين يطبقون مثل هذه القواعد شعروا أم لم يشعروا، وقَلَّ عندهم النقاء والصفاء والسنة، ومالوا إلى البدعة والركون إلى المبطلين، وزحزحة السنن، وانتشرت البدع، نسأل الله السلامة.

ولو تأملنا الأسباب التي أدت بثلة كثيرة من المسلمين للولوج في هذا الفكر الخبيث، الفكر التمييعي والتجميعي، البعيد عن التصفية والتربية، لرأيتهم مضيعين لهذه الأوصاف التي يُعرف بها الحق، واقعين في أسباب الولوج في الفتن، بعيدين عن التمسك بالآثار والسنن. نسأل الله السلامة.

مع أن السعادة كل السعادة كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتَنَ، وَلَمْ يَأْتِ فَصْبَرَ فَوَاهَا» الحديث أخرجه أبوداود (4263) عن المقداد بن الأسود، وهو في «الصحيح المسند».

وتجنب الفتن يكون بأسباب، منها: طلب العلم النافع، وملازمة العمل الصالح، ففي حديث معقل بن يسار «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ» أخرجه مسلم (2948).

وتكون بالبعد عن الفتن واتخاذ الملاجئ الشرعية، ففي الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، أَلَا تُمْ تَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا إِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ» أخرجه مسلم (2887).

ومن أسباب السلامة من الفتن البعد عنها وعدم غشيانها، ومنها دعاء الله عز وجل واللجوء إليه، وقد ذكرت شيئاً من هذه الأسباب بأدلته في كتابي «تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال»، أعادنا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأخبر الله عز وجل أن السعادة في طاعته وطاعة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

وأمر الله عز وجل بالاستجابة لأمره وأمر رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، فالاستجابة لله عز وجل ولرسوله ﷺ حياة للقلوب والأديان والأبدان دنيا وأخرى. ويقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]، فطاعة الرسول ﷺ طاعة الله عز وجل ولذي أرسله، قال الله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

ولما كان الأمر هكذا، لأن النبي ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 4].

وقد أتم الله له الدين، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، ويقول الله عز وجل: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وهذا الكتاب الذي ما فرط الله عز وجل فيه قال عنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

وأخبر النبي ﷺ أَنَّهُ تَرَكَنَا عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ. رواه ابن ماجه (5) عن أبي الدرداء، وعن العرياض بن سارية (44) واللفظ له - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

وأخبر النبي ﷺ أَن الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ، فَقَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى». رواه البخاري (7280)، ومسلم (1835) عن أبي هريرة ؓ.

وعند أحمد (153/5) من حديث أبي ذر ؓ قال: لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحْرَكُ طَائِرٌ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذَكَّرْنَا مِنْهُ عِلْمًا.

وفي مسلم (262) عَنْ سَلْمَانَ ؓ قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمُ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْجُرَاءَةَ! قَالَ: فَقَالَ: أَجَلٌ. الحديث

إلى غير ذلك مما يدل على كمال الدين وشموله وحفظه، ومع ذلك قال رسول الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاسْتَفْتَرَقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». أخرجه أبوداود (4596) عن أبي هريرة ؓ، والحديث جاء عن معاوية ؓ وفيه زيادة: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» والحديث له طرق ليس هذا موطن بسطها، المهم أنه حديث محتج به، ولا

أعلم ممن له جلالة وقدر طعن فيه، إلا ما كان من الإمام محمد بن إبراهيم الوزير والإمام الشوكاني من حيث أنهم زعموا نكارةً فيه، وهذه النكارة ليست على ما يقولون، فقد ردّ هذه الشبهة العلامة المقيّل صاحب كتاب «العَلَمُ الشامخ»، ونقلها عنه الإمام الألباني في كتابه «الصحيحه» عند حديث رقم (204) حيث قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ».

الحديث أخرجه أبوداود (4597)، والدارمي (241/2) وأحمد (102/4)، وكذا الحاكم (128/1)، والآجري في «الشریعة» (18)، وابن بطة في «الإبانة» (2/108، 1/119)، واللالكائي في «شرح السنة» (1/23، 1). وهو مخرج في «الصحيحه» (203) وقال الألباني - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بعد أن ساق طريقه: وأرى أن أنقل خلاصة كلامه المشار إليه لما فيه من الفوائد. قال رحمه الله تعالى في «العلم الشامخ» في إثبات الحق على الآباء والمشايع» ص(414): (حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا يبقى ريب في حصول معناها. (ثم ذكر حديث معاوية هذا، وحديث ابن عمرو بن العاص الذي أشار إليه الحافظ العراقي وحسنه الترمذي ثم قال: والإشكال في قوله: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً»، فمن المعلوم أنهم خير الأمم، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟ فبعض الناس تكلم في ضعف هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة. وبعضهم تأول الكلام. قال: ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة. إنما الكلام في

مخالفة تصير صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها. وإذا حققت ذلك فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل، وفيما يترتب عليه عظام المفسد لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تخص معينا من هذه الفرق التي قد تحزبت والتأمر بعضهم إلى قوم وخالف آخرون بحسب مسائل عديدة.

ثم أجاب عن الإشكال بما خلاصته: إن الناس عامة وخاصة، فالعامة آخرهم كأولهم، كالنساء والعبيد والفلاحين والسوقة ونحوهم ممن ليس من أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرهم من الابتداع كأولهم.

وأما الخاصة، فمنهم مبتدع اخترع البدعة وجعلها نصب عينيه، وبلغ في تقويتها كل مبلغ، وجعلها أصلا يرد إليها صرائح الكتاب والسنة، ثم تبعه أقوام من نمطه في الفقه والتعصب، وربما جددوا بدعته وفرعوا عليها وحملوه ما لم يتحملة، ولكنه إمامهم المقدم وهؤلاء هم المبتدعة حقا، وهو شيء كبير ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، كنفي حكمة الله تعالى، ونفي إقداره المكلف، وككونه يكلف ما لا يطاق، ويفعل سائر القبائح ولا تقبح منه، وأخواتهن! ومنها ما هو دون ذلك، وحقائقها جميعها عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث وسبعين فرقة.

ومن الناس من تبع هؤلاء وناصرهم وقوى سوادهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجع إلى الحق، وقد دس في تلك الأبحاث نقوضها في مواضع لكن على وجه خفي، ولعله تخيل مصلحة دنيئة، أو عظم عليه انحطاط نفسه وإيذاؤهم له في عرضه وربما بلغت الأذية إلى نفسه. وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل، وتخط في تصرفاته، وحسابه على الله سبحانه، إما أن يحشره مع من أحب

بظاهر حاله، أو يقبل عذره، وما تكاد تجد أحدا من هؤلاء النظار إلا قد فعل ذلك، لكن شرهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يفتن لتلك اللمحة الخفية التي دسوها إلا الأذكياء المحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يعلم الحق ويخفيه. والله المستعان.

ومن الناس من ليس من أهل التحقيق، ولا هيء للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث، وحفظ كثيرا من غشاء ما حصلوه ولكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل. وقد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء والرضا عن السلف لوقعهم في النفوس. وهؤلاء هم الأكثرون عددا، والأرذلون قدرا، فإنهم لم يحظوا بخصيصة الخاصة، ولا أدركوا سلامة العامة. فالقسم الأول من الخاصة مبتدعة قطعاً. والثاني ظاهره الابتداع، والثالث له حكم الابتداع.

ومن الخاصة قسم رابع ثلثة من الأولين، وقليل من الآخرين، أقبلوا على الكتاب والسنة وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدموا وأحجموا بهما وتركوا تكلف ما لا يعينهم، وكان تهمهم السلامة، وحياة السنة أثر عندهم من حياة نفوسهم، وقرة عين أحدهم تلاوة كتاب الله تعالى، وفهم معانيه على السليقة العربية والتفسيرات المروية، ومعرفة ثبوت حديث نبوي لفظاً وحكماً.

فهؤلاء هم السنية حقاً، وهم الفرقة الناجية، وإليهم العامة بأسرهم، ومن شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين، بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم.

إذا حققت جميع ما ذكرنا لك، لم يلزمك السؤال المحذور وهو الهلاك على معظم الأمة، لأن الأكثر عددا هم العامة قديماً وحديثاً، وكذلك الخاصة في الأعصار

المتقدمة، ولعل القسمين الأوسطين، وكذا من خفت بدعته من الأول، تنقذهم رحمة ربك من النظام في سلك الابتداع بحسب المجازاة الأخروية، ورحمة ربك أوسع لكل مسلم، لكننا تكلمنا على مقتضى الحديث ومصادقة، وأن أفراد الفرق المبتدعة وإن كثرت الفرق فلعله لا يكون مجموع أفرادهم جزءاً من ألف جزء من سائر المسلمين: فتأمل هذا تسلم من اعتقاد مناقضة الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة).

وقد حدث هذا الافتراق الذي أخبر عنه النبي ﷺ. وكان أصول أربع فرق، ذكرها يوسف بن أسباط، قال: أصول البدع أربعة: الجهمية، والمرجئة، والخوارج، والرافضة. أخرج الآجري في «الشرعية».

ثم تنوعت البدع وتفرعت، وكل من خالف كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ صار من عنده نوع تميع ونوع غلو على ما يأتي بيانه، وكان الأمل أن أتكلم في هذا المصنف على الجانب التمييعي عند أهل البدع والأهواء، لكن الوقت ضيق والعمر قصير، وما لا يدرك كله لا يترك جله، وإن جعل الله عز وجل في العمر متسع وفي الوقت فسحة عسى أن أقوم به - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وإن لا فعسى الله عز وجل أن ييسر من يقوم بهذا العمل المبارك - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -.

ثم اعلم أن هذه البدع خالفت الصراط المستقيم والطريق القويم ومنهج السلف رضوان الله عز وجل عليهم أجمعين، الذين أخذوا بالإسلام الحق الذي أنزله الله عز وجل على رسوله الكريم محمد الأمين ﷺ على ما يأتي بيانه - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عز وجل والحمد لله.

الأمر بلزوم الجماعة والاتباع والنهي عن الفرقة والابتداع

الجماعة: هي جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون ومن سار على سيرهم إلى يوم الدين.

وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح، والهدى والفلاح، المتمثل في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة، ومن سار على سيرهم من الأئمة.

وقد أمر ربنا سبحانه وتعالى بلزوم الجماعة، ونهى عن الفرقة، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: 31-32]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

وحدث رسول الله ﷺ على الجماعة؛ لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين، ففي حديث عمر رضي الله عنه عند الأجرى في «الشريعة» (6)، و«السنة» لابن أبي عاصم (88)، وأحمد (18/1) أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ».

وبحبوحة الجنة: وسطها كما في «النهاية».

وفي حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه عند الترمذي (2863)، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاهُمْ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجُمُعَةَ، قَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». أخرجه مسلم (1848) عن أبي هريرة ؓ.

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطأ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود ؓ عليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة. أخرجه ابن أبي عاصم (85). وجاء مرفوعاً عن ابن عباس ؓ أخرجه الحاكم (116/1).

والجماعة هي الإسلام الحق، والسنة تدل على ذلك.

أخرج أحمد (397/3) وغيره عن النّوّاس بن سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَحَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصَّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصَّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصَّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَجْهَكَ! لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. وَالصَّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مُحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصَّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وقال عبدالله بن مسعود كما في «الشریعة» رقم (16): (إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين، ينادون، يا عبد الله هلم هذا الصراط، ليصدوا عن سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله تبارك وتعالى. فإن حبل الله عز وجل هو كتاب الله جل وعلا).

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع الذي هو علم الكتاب والسنة على ما قرره علماء الأمة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: والعلم هو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين البخاري (71)، ومسلم (1037) عن معاوية ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وأخرج الآجري رقم (19) عن أبي العالية قوله: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا عن الصراط يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم ﷺ والذي عليه أصحابه، فإننا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء. فحدثت به الحسن فقال: صدق ونصح. وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: أحدثت بهذا محمداً؟ قلت: لا. قالت: فحدثه إذا).

فالواجب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة وملازمة الاتباع.

قال الله عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:3]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123] لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. هكذا فسرهما السلف.

باب بيان أن سبب الاختلاف والافتراق هو الأخذ بسنن المتقدمين من اليهود والنصارى

الله عز وجل هو العالم بالمصالح وأسبابها وأسباب الفساد؛ ولهذا حذر الله عز وجل من أسباب الضلال، ومن أعظمها موافقة اليهود والنصارى ومشابهتهم، وأخبر الله عز وجل أن الطريق الحق هو صراطه الذي هو الإسلام، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٦٢﴾.

والذين أنعم الله عز وجل عليهم هم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

والمغضوب عليهم هم اليهود، قوم عرفوا الحق وتركوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك.

والضالون النصارى، قوم عبدوا الله عن جهل، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك.

ولهذا بين النبي ﷺ أسباب ضلال هذه الأمة، ومنها ما تقدم. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ» قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ». رواه البخاري (7320)، ومسلم (2669).

قال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: السنن بفتح السين والنون وهو الطريق والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. اهـ

وفي البخاري (7319) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلُهَا، شَبْرًا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلَئِكَ؟!».

قال محمد بن الحسن الآجري - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الشریعة» بعد رقم (35): من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي ﷺ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمرء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشبه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي ﷺ. والله المستعان.

ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، وأن يميز هذا: إلا عاقل عالم قد أدبه العلم. اهـ

أقول: هذا في زمنه - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار، وقد تسلط الكفار، وقويت شوكتهم، فقلدهم الناس في الملبس والمأكل والمشرب وأمور الدول والجيوش والأعاب، فالله المستعان من غربة الزمان، ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يحفظه الله عز وجل إنجازاً لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضاً اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الصنف كما في

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 7] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ». رواه البخاري (4547)، ومسلم (2665).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات، وباب الإيذان باليوم الآخر من هذا الباب، حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعمل به إلا الله عز وجل والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم البين الواضح.

ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف: الجدل بالباطل، قال الله عز وجل: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: 4]، وفي حديث أبي أمامة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. أخرجه الترمذي (3253).

ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (2666) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ».

قال النووي - رحمه الله تعالى -: المراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدين بكفرهم، وإبتداعهم، فحذر رسول الله ﷺ من مثل فعلهم. اهـ

ومنها: الغلو في الدين، فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (2670) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

قال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: قَوْلُهُ ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) أَيُّ: الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمَجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَاهُمْ وَأَفْعَالِهِمْ. اهـ

والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانتقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتفجيرهم وصددهم عن الخير. والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 77]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى، وكلهم غلا في عيسى عليه السلام، فالنصارى أهوه، واليهود اتهموه أنه ولد زنا، والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة: الفتور عن السنة وعن الطريقة السلفية، ففي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» رواه الترمذي (2453)، وأحمد (210 / 2) واللفظ له.

ومن أسبابها: علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي البخاري (100)، ومسلم (2673) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». وفي رواية للبخاري (7307): «يفتتون برأيهم».

باب الحث على لزوم السنة

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]،
والأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي: يتعزى به فيقتدى به في جميع أفعاله،
ويتعزى به في جميع أحواله.

واختلف في هذه الأسوة بالرسول ﷺ هل هي على الإيجاب أو على
الاستحباب؟ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب،
والثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب. ويحتمل أن يحمل على
الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا. أفاده القرطبي.

والحق أن أمر النبي ﷺ يدل على الوجوب حتى يصرفه صارف إلى
الاستحباب وغيره، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ
عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» أخرجاه في الصحيحين
البخاري (7288)، ومسلم (1337) واللفظ له.

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - في الصحيحين البخاري (2697)،
ومسلم (1718) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»
وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

قال النووي - رحمه الله تعالى -: (الرَدُّ) هُنَا بِمَعْنَى الْمَرْدُودِ، وَمَعْنَاهُ: فَهُوَ بَاطِلٌ
غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ ﷺ
فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ كُلِّ الْبِدْعِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ.

وَفِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ زِيَادَةٌ وَهِيَ أَنَّهٗ قَدْ يُعَانِدُ بَعْضُ الْفَاعِلِينَ فِي بَدْعَةِ سَبَقٍ إِلَيْهَا،
فَإِذَا أُحْتِجَّ عَلَيْهِ بِالرَّوَايَةِ الْأُولَى يَقُولُ: أَنَا مَا أَحْدَثْتُ شَيْئًا فَيُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِالثَّانِيَةِ الَّتِي
فِيهَا التَّصْرِيحُ بِرَدِّ كُلِّ الْمُحْدَثَاتِ، سَوَاءَ أَحْدَثَهَا الْفَاعِلُ، أَوْ سَبَقَ بِإِحْدَاثِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ لِمَنْ يَقُولُ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي الْفَسَادَ.
وَمَنْ قَالَ: لَا يَقْتَضِي الْفَسَادَ يَقُولُ هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ، وَلَا يَكْفِي فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ
الْمُهَمَّةِ، وَهَذَا جَوَابٌ فَاسِدٌ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَنْبَغِي حِفْظُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَإِشَاعَةِ
الِاسْتِدْلَالِ بِهِ. اهـ

التميم مقصد المخالفين لدين رب العالمين

اعلم أن تميم الدين هو مقصود كفري من قبل ومن بعد، على ما سيأتي بيانه. وإن من أعظم الحركات والأفكار ضرراً على الدين في هذا الزمان هو ما يسمى بالنظام الديمقراطي، هذا النظام الإجرامي الذي هو دين أصحاب الشهوات المطلقة وأصحاب الكفر المطلق غرروا به على المسلمين فقبله جهالهم بعضهم يظن أن لا فرق بينه وبين الإسلام لجهله، وبعضهم قبله من أجل أطماع دنيوية ومناصب ورئاسات وغير ذلك. وهذا النظام الذي سيأتي التعريف به أدخل التميم على الأفراد والمجتمعات، والذكور والنساء، والأبرار والفجار، إلا من سلمه الله عز وجل؛ لأنه فكر قام على الحرية الفردية، ويدعو إلى الحرية المطلقة، ويهدم الدين، ويقيم بدلاً عنه القوانين الوضعية التي تخالف الإسلام في كثير من شئونها. فافهم هذا يا هداك الله، ولا تغتر ببعض المعاملات.

فمن أين انتشرت الحزبيات؟ ومن أين انتشرت الجمعيات؟ ومن أين حصل الاختلاط المحرم الرجال بالنساء الأجنيبات؟ ومن أين نُحيت الشريعة؟ ومن أين قُرب المبطلون ونُحِّي المصلحون؟ ومن أين بنيت المراقص والحانات وأهملت المساجد والمراكز العلمية؟ ومن أين عظم الكفار واحتقر المسلمون؟

كل ذلك بسبب النظام الديمقراطي الغاشم القائم على المساواة بين الرجال والنساء، والأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار، القائم على حرية الرأي والرأي الآخر، والقائم على حرية الفكر والدين والأخلاق حرية البهائم التي لا تزجرها أديان، ولا تمنعها عقول.

الديمقراطية قائمة على الدعوة إلى الإخاء أيضًا، أتدري أي إخاء؟! هل هي أخوة المسلمين؟! لا، يا مسكين!!! إنها أخوتك لجميع الكافرين والملحدين والمعرضين، ومعناه لا تنكر عليهم صنيعهم وتدعو إلى المساواة على ما تقدم، وتدعو إلى الحرية المطلقة، نعم، لكن إذا نظرت إلى تضيقهم على أهل الاستقامة وحربهم لأهل الإسلام علمت يقينًا أن الحرية التي ينادون بها هي حرية الشهوات، حرية الكفر، حرية الزندقة، وهم وإن نفّسوا قليلًا عن المسلمين، فإنما هو من باب ذر الرماد على العيون، ومن باب وضع السم في العسل.

فهلّا من إفاقة يا حكام المسلمين ودعاتهم وعلماءهم ومصلحيهم حتى يبتدى لهذا الخطر الداهم الذي منذ نزل بالبلدان والأوطان إلا وحصل الخلل في الأديان وقلة الغيرة على الدين والغيرة على المحارم، وقلّت النصيحة، وحلّت بدلًا عنها الفضيحة، وقلّ المعروف، وحل المنكر، وقلّت السنة، وحلّت البدعة، وضعف التوحيد، وحلّ الشرك.

متى أصبح لحوار الأديان رايات ومؤتمرات؟! متى أصبح لليهود دولة؟! ومتى أصبح للنصارى إشادة من أهل البلادة؟! كل ذلك لما نزل النظام الديمقراطي الظالم الذي هو زبالة أفكار الفلاسفة الحيارى، وسيأتي مزيد بيان لبعض ما عليه هذا النظام، فتنبه وفقنا الله وإياك.

ومما حصل بالمسلمين - وهو امتداد لهذا النظام - هو انتشار الجمعيات الحزبية المدعومة بالأموال الكثيرة، التي أخبر النبي ﷺ «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» أخرجه الترمذي (2336) عن كعب بن عياض، ففتكت بالعباد والبلاد، وفرقت الدعوات، وظهرت الحزبيات، وحصل الشر والبلاء؛ بما جعل العلماء الناصحين

والدعاة المصلحين يثنون ويصيحون وينصحون ويؤلفون ويحذرون من خطر هذا الأخطبوط، وكان من أشد هذه الجمعيات ضرراً، وأعظمها خطراً، هي جمعية إحياء التراث، التي ما نزلت إلى بلد إلا وفرقت دعائها، حالها مع الدعاة كحال البنك الدولي مع الحكومات، هذا يدخل على الحكومات الفقر والربا وسوء المعاش والاقتصاد، وهذه تدخل على الدعاة الأموال فيزهدون في العلم، ويقل عندهم العمل، وتذهب المروءات، ويقل التمسك، ويكون الولاء والبراء والمجالسات من أجل الدينار والدرهم.

وكم كان للشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - من طلاب نجباء وخطباء فصحاء ومؤلفين وعلماء، فلما أن دخلت مزقت شملهم، وبددت كلمتهم، وتفرع منها جمعيتي الحكمة والإحسان، وهكذا فرقت أبناء مصر والسودان والعرب والعجمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الإمام الوادعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في كتابه «تحفة المجيب» ص(171) في الإجابة عن السؤال السادس:

أما أكبر كبيرة حصلت منه [أي: عبدالرحمن عبدالخالق] فهي تفرقة بين أهل السنة والدعاة إلى الله، فقد غرهم بديناره لا بأفكاره، يركض من الكويت إلى أندونيسيا إلى مصر إلى الإمارات، وأنا أقول: إنه من الخطأ أن تسلم الأموال لجمعية إحياء التراث، لأنهم يستغلونها لتفرقة كلمة أهل السنة، ففرقت بين أهل السنة في جدة وفي السودان.

وعندنا في اليمن مجموعة من الغثاء غرهم بديناره لا بأفكاره، ونبش الشباب السلفي الكويتي أن جمعية إحياء التراث تنفق الأموال الباهظة على هؤلاء الممسوخين في اليمن، ومع هذا فدعوتهم ميتة ليس لها أثر.

وقال في موضع آخر ص(177) في الإجابة على السؤال التاسع:

ونود أن الإخوان المسلمين والإخوة أصحاب جمعية إحياء التراث يتركوا ما هم عليه من الحزبية.

وقال ص(199):

فقد فرق كلمة أهل السنة باليمن، فبعض أهل السنة في اليمن مثل عبدالمجيد الريمي، ومحمد البيضاني ومن اتبعهما أصبحوا من أتباع محمد سرور، ومثل محمد المهدي وبعض المسئولين في جمعية الحكمة اليمنية أصبحوا أتباعاً لجمعية إحياء التراث، وأنا أظن أن هذه سياسة بينهم من أجل أن يأكلوا بالجانين من الفم من ههنا ومن ههنا.

وقال ص(200):

فجمعية إحياء التراث فرق أهل السنة في السعودية، وفي السودان، حتى أنهم يسمون أتباع عبدالرحمن عبدالحالق مثل: محمد هاشم الهدية بالمصلحين، فقد باعوا الدعوة بالدينار الكويتي. انتهى كلامه - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -.

وقال الشيخ يحيى الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الكنز الثمين» (35/5):

جمعية إحياء التراث جمعية حزبية، وأمواها في البنوك، وفيها انتخابات، وفيها تصوير ذوات الأرواح، وفيها مناصرة للحزبيين على السلفيين، وغير ذلك، فالواجب التحذير من الفتن التي تفرق المسلمين وتوقعهم في التحزب والاختلاف والمعاصي كما هو الشأن في الجمعيات، والحمد لله. اهـ

تعريف التميع

لغة: مشتق من [المع وهو الذوبان] قاله ابن منظور في «لسان العرب» مادة (مع). وفي «النهاية» لابن الأثير مادة (ميع): مع الشيء يميعُ وانماع: إذا ذاب وسأل. اهـ

واصطلاحًا: هو التفلت عن الحق والذبذبة فيه. اهـ من «الثوابت المنهجية» للعلامة الحجوري ص(10).

وسئل - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - ليلة (9/ جمادى الأولى/ 1431هـ) علام يطلق التميع؟ قال: يُطلق على الذي ليس بسلفي صرف ولا حزبي صرف، وإنما يريد أن يكون وسطًا بين طرفين، يقرب أحدهما إلى الآخر، وهو في الحقيقة إلى الحزبيين أقرب. اهـ أفاده مفتي الإندونيسي.

وقال الشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - حين سئل عما يسمع كثيرًا من فضيلتكم اصطلاح (التميع) نرجو منكم بيان هذا المصطلح، وما رأيكم فيمن ينكر هذا الاصطلاح؟

فقال: هذا ما هو اصطلاح، هذه كلمة عابرة تقال، لكن يُقصد بها أن أناسًا يأتون إلى أصول الإسلام يميعونها، ويرققونها، ويهونون من شأنها، بل يجاربونها، بارك الله فيك، ويسمون - يعني - المنهج السلفي، ووقوف أهله في وجه أهل البدع، والذب عن السنة يسمونه شدة، يسمون ذلك شدة وتشدد، سموا ذلك غلوًا، وكذبوا، وأفكوا، والله الذي لا إله إلا هو أنه لا يوجد شدة الآن في السلفيين المساكين، وإنه مهما تشدد السلفيون في مواجهة الباطل والبدع، لا يبلغون عشر

معشار ما كان عليه السلف من الشدة على أهل البدع؛ لدرجة أنهم يأمرؤن بقتلهم،
 ويطاردونهم، ويهجرونهم، ويضربونهم، ويذلونهم، نحن السلفيون ما عندهم شيء
 مساكين... اهـ^(١)

(١) مفرغ من شريط «هل الجرح والتعديل خاص برواة الحديث» وجه (أ)، منقول من شبكة (سحاب).

شُبْهَةٌ وَالرَّدُّ عَلَيْهَا

يزعم بعض من التظى بنار التميع ويخشى أن يُنسب إليه: أن هذا المصطلح اصطلاح حادث، لم يكن على عهد السلف.

نقول: السلف رضوان الله عليهم كانوا ينسبون كل مبطل إلى باطله، فنسبوا معطي الصفات إلى الجهمية، وسموا أصحاب الثورات والخروج على الحكام خوارج، وسموا نفاة القدر قدرية، وهكذا.

وهذه الشبهة التي سقتها قد يقولها الجهمي: مصطلح الجهمية مصطلح حادث، لم يكن على عهد الصحابة!!! فماذا ستقول له؟

الجواب: أن السلف نسبوا من اعتقد الكتاب والسنة إلى الكتاب والسنة، ومن اعتقد عقيدة جهم إلى الجهمية.

وقد سئل شيخنا يحيى - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - يوم السبت (22/ جمادى الآخرة/ 1431): هل تسمية الشخص بأنه مميح موافق للشرع؛ لعدم ورود هذه التسمية من الكتاب والسنة؟

فأجاب - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى -: تسمية فلان مميحاً لا بأس، وهو اصطلاح لا يعارض الشرع. اهـ

وقد استخدم اصطلاح التميع العلماء السلفيين، منهم الإمام العلامة محمد ناصر الدين الألباني، قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «الفتاوى المنهجية» السؤال السادس في رده على إطلاق السرورية اسم أهل السنة والجماعة. قال: أنا لاحظت هذا الاستعمال في أكثر من موطن من كتب إخواننا هؤلاء، وخاصة مجلة السنة التي

ينشرها محمد سرور، وشعرت بأن هناك إشعار بتميع الدعوة السلفية القائمة على أساس الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وإدخال كل الطوائف المسلمة - على الأقل من المذاهب الأربعة - في دائرة أهل السنة والجماعة، قلنا لا، هذه الكلمة يدخل فيها من يخالفنا في عقيدتنا السلفية. اهـ

وقال الإمام العلامة مقبل الوداعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «المصارعة» ص(347)، دعوة الإخوان المسلمين مبيعة مضيعة. اهـ

وقال العلامة ربيع المدخلي - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «كلمة التوحيد» ص(95) لما أحال فالح الحربي الشباب على الاستفادة من «ظلال القرآن»: كيف تحيل الشباب عليه وتقول استفيدوا منه، هذه نظرة قطبية منك يا فالح، وهل أنت على علاقة خفية مع هؤلاء، تتظاهر بشيء من الطعن فيهم، وتبطن شيئاً آخر، أم ماذا؟! ماذا تجيب؟! ما هذا الغش يا فالح؟! هل ترى هذا من النصيحة؟! هل عاملت أهل السنة بمثل هذا اللطف؟! هل ترى الآن أنك من أكبر المميعين. اهـ

وقال - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في بيان ما يلحق الشباب عند تربيتهم عند الحزبيين: الثالث: التميع، وإماتة جانب الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله. انتهى «حاشية نقد الرجال» ص(44).

وكلامه كثير في هذا الباب.

ومن هؤلاء الذين استخدموا هذا الاصطلاح: العلامة أحمد بن يحيى النجمي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، قال في «الرد الشرعي» ص(159-160): فأني تميع للإسلام أعظم من هذا التميع؟! يرى الإخوان المسلمون أن المسلمين والمسيحيين واليهود

سواء، مستوون في الحقوق والواجبات، إن هذا تضيق لحقوق المسلم وتسوية له بالكافر... اهـ

وهكذا شيخنا العلامة يحيى بن علي الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - يستخدمه كثيراً كما رأيت، قال في «أضرار الحزبية» ص(23): إن دخول الحزبيين في أوساط السلفيين من أعظم التميع لهم، ألم يقل الله تعالى عن المشركين: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:9]. اهـ⁽¹⁾

قال الشيخ الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الثوابت المنهجية» ص(10) في الجواب عن سؤال: (نسمع كثيراً ما يقال: منهج تميعي، ومنهج غالٍ، فما ضابط كل واحد منهما؟).

فقال: التميع هو التفلت عن الحق والذبذبة فيه، والغلو هي مجاوزة الحق ورفع السنة إلى واجب، ووضع الأمور في غير منازلها، وتحميل الأدلة ما لا تحمل. فالتميع والغلو طرفا نقيض، وخير الأمور السالفات على الهدى، والغلو هلك به أمم، والتميع هلك به أمم. اهـ

ومنهم الشيخ بكر بن عبدالله أبوزيد، قال في «معجم المنهي اللفظية» في لفظة غير المسلمين، قال: هذا من أساليب التميع في هذا العصر التي كسرت حاجز النفرة من الكفر والكافرين. اهـ

(1) النقول مأخوذة من كتاب «التجلية لأمارات الحزبية» لأخينا أبي فيروز الإندونيسي ص(96-98).

صور التميع

- 1- تميع الدين الإسلامي على ما سيأتي بيانه - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وذلك بتقريبه مع الأديان الأخرى إلى غير ذلك.
- 2- تميع المنهج السلفي. وهو وإن كان داخلاً في الذي قبله دخولاً أولياً، لكن لكونه أخص منه؛ فكل سلفي مسلم، وليس كل مسلم سلفي، وأيضاً فإن تميع هذا المنهج غالبه من أهل الإسلام من أصحاب البدع والتحزبات.
- 3- تميع في الأخلاق من لباس وهيئة ومعاملات إلى غير ذلك، وقد ذكر الشيخ يحيى - حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في «الثوابت المنهجية» شيئاً من ذلك.

حكم التميع

من المعلوم أن الأحكام عند أهل الشأن خمسة: الواجب، والمندوب، والمحرم، والمكروه، والإباحة.

فالواجب: ما أمر به الشارع على وجه الإلزام.

والمستحب (المندوب): ما أمر به الشارع لا على وجه الإلزام.

والمحرم: ما نهى عنه الشارع على وجه الإلزام.

والمكروه: ما نهى عنه الشارع لا على وجه الإلزام.

والإباحة: ما لا يتعلق به أمر ولا نهى لذاته.

والمأمل لأضرار التميع يجد أن حكمه التحريم؛ لأنه ينخر في دين المسلمين من الداخل، ولأن الميع متشبه بالمنافقين في كثير من الصفات: كالتلون، ولأنه من ذوي الوجهين، ولأن الميع يتقارب مع المبتدعة والمخالفين، وغير ذلك مما هو مذكور في نتائج التميع.

كل مبتدع مميح

عرفنا أن التميع قد يصل بصاحبه إلى البدعة والتخبط، وهنا مسألة وهي: أن كل مبتدع مميح لدين رب العالمين؛ لتلبسه بكثير من الأمور المخالفة للشرع. فباب التميع أوسع من باب البدعة، فالتميع من أقصر الطرق المؤدية إلى البدعة، والمصر على التميع مصر على مخالفة شرعية تجره إلى الأهواء حتى يلحق بأهلها.

قال شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «المجموع» (7/493): (ولا ريب أن المعصية تكون سبباً للكفر كما قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر). اهـ

رمي الغلاة أهل السنة بالتميع

تكلم أهل العلم على مسألة نبز المبتدعة لأهل السنة بالألقاب التي هم أحق بها وأهلها، فالجهمية يسمون أهل السنة حشوية ومشبهة، والخوارج يسمون أهل السنة مرجئة، والمرجئة بالعكس، والقدرية يسمون أهل السنة جبرية، وهكذا.

ومن هذا الباب اتهام الغلاة لأهل السنة بأنهم مميعة؛ لأنهم لا يسرون على سيرهم، وقد تقدم بيان خطر الغلو وضرره، فتنبه تكن من المفلحين.

قال الشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «مجموع الكتب والرسائل» (487/1): فهذا مذهب جديد لا يعرفه أهل السنة، رمي أهل السن بأنهم مميعون، يعني مبتدعة، ونقصد أهل السنة بالذات، وأنا لا أستبعد أن بين هؤلاء ناساً مدسوسين على المنهج السلفي وأهله. اهـ

التمييز بين أهل البدع وأهل التميع

قال الشيخ الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الثوابت المنهجية» ص(12):

وأما التميع فقد أفسد الناس في دينهم، وأفسد الناس في أخلاقهم، فمنهج التميع الذي لا يكاد يتميز عن منهج أهل الباطل وأهل الأهواء، ولم يكن السلف رضوان الله عليهم سائرين على هذا المنهج، «تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ». اهـ

متى يعامل الرجل معاملة أهل البدع

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (172/24):

وَقَدْ كَانَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِذَا تَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ اتَّبَعُوا
أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وَكَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ مُنَاطَرَةً مُشَاوِرَةً
وَمُنَاصَحَةً وَرَبَّمَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَعَ بَقَاءِ الْأَلْفَةِ وَالْعِصْمَةِ
وَأُخُوَّةِ الدِّينِ. نَعَمْ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ الْمُسْتَتِينَ وَالسُّنَّةَ الْمُسْتَفِيزَةَ أَوْ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ
سَلَفُ الْأُمَّةِ خِلَافًا لَا يُعْذَرُ فِيهِ فَهَذَا يُعَامَلُ بِمَا يُعَامَلُ بِهِ أَهْلُ الْبِدْعِ. اهـ

وقال أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني في كتابه «الجامع» ص(386): ومن
قول أهل السنة أنه لا يعذر من وداه اجتهاده إلى بدعة؛ لأن الخوارج اجتهدوا في
التأويل فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة، فساهم النبي ﷺ مارقين
من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورًا وإن أخطأ. اهـ نقلًا عن «المحجة
البيضاء» للشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (270/5) من «المجموع».

حكم المبيعة على أهل السنة

وكذلك المبيعة يرمون الدعاة الثابتين من أهل السنة والجماعة بالغلو؛ لكون هذا الوصف من الألقاب التي يطلقها أهل البدع على أهل السنة، فلما قربوا منهم قالوا بقولهم، فلهذا تأثروا بهم، وعُلم خطر مجالسة أهل البدعة والضلالة، فأهل السنة على ما تقدم بيانه: وسط بين الغلاة والجفاة، بين المبيعة والغلاة، فلا يجوز نبزهم بهذه الألقاب الحقيرة.

الفرق بين الرفق والتميع

سئل شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى عن الفرق بين الرفق والتميع فأجاب جواباً مختصراً مفيداً، يستفيدة من أراد الله عز وجل به خيراً، فقال: (الرفق يزين وهو شرعي، والتميع يشين وهو غير شرعي، وهو التنازل عن الحق).

ضرر أهل التميع على الدعوة

التميع مرض خطير، علمت أسبابه، فإذا كان هذا هو الحال، فإن ضرره عظيم، وخطبه جسيم؛ إذ يذهب الأديان، والمروءات، ويحارب السنن، وينصر البدع، وهو عدو العلم، وصديق الجهل، ولما كانت الحياة الحقيقية هي حياة الدين، قال الله عز وجل: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، فمن مات دينه فهو ميت، وإن كان حياً.

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

علم أن مرض التميع كغيره من الأمراض الدينية ضرره على الأفراد والمجتمعات.

قال الشيخ العلامة ربيع بن هادي حفظه الله في رسالة له بعنوان: «التعصب الذميم وآثاره»: (والتحزب السياسي الوريث الجديد لتلك الأدواء. والمصابون به في ثلاثة أصناف:

- (1) منهم من ظهر إلحاده وكفره وإدارة ظهره للإسلام، فهؤلاء ليس لهم إلا الدعوة إلى الإسلام، أو سيف أبي بكر إن وجد إذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة.
 - (2) ومنهم من يرفع شعارات إسلامية لكنها خالية من العقيدة الإسلامية الصحيحة ومن أصول إسلامية مهمة ومثخنة بالأمراض الفتاكة السابقة.
- نشأ عنها:

- 1 - تولي الروافض، والانسجام معهم، والتهوين من رفضهم، بل إنكاره، وإنكار كفراتهم، وزندقتهم، والدعوة إلى التلاحم معهم تحت شعار التقريب.
- 2 - تولي الصوفية بمختلف طرقها، بل كثير منهم من أحلاس التصوف.
- 3 - كانوا يتظاهرون بالتركيز على مجابهة الكفار: الشيوعيين، واليهود، والنصارى، والعلمانيين؛ لإسكات أهل السنة والتوحيد، وإقامة الحواجز المنيعه من وصول دعوة الحق إلى كثير من ضحايا البدع بأصنافهم ممن عساه أن يستجيب لدعوة الحق.

وقد سلكوا أبشع الطرق، ونفذوا أفجر الخطط في هذا المضمار لصدد الناس عن سبيل الله، بل لإفساد كثير من أبناء التوحيد.

ثم إن الله تعالى شديد المحال هتك أستارهم، وكشف عوارهم، بعد قيام دولتهم والوصول إلى غايتهم، فأصبحوا يعقدون المؤتمرات للدعوة إلى وحدة الأديان والتآخي بين الإسلام وشتى الملل والنحل، ويتلاحمون مع أصناف الشيوعيين والبعثيين والعلمانيين في أنحاء الدنيا.

وفريق ثالث: متفرع عن هذا الصنف الثاني ومشتق منه، لكنه يدعى أنه على منهج السلف الصالح تلبسًا وخداعًا ومكرًا، فكان ضرره أشر من أصله، ومكره أشر من مكره.

هذا الفريق يتمسح بأعلام المنهج السلفي، لاسيما ابن تيمية؛ ليتمكن بهذا التمسح وتحريف كلامه وكلام غيره من حماية أهل البدع ومناهجهم الباطلة وإبقائهم على ما هم عليه من عقائد ومناهج وانحرافات سياسية وفكرية. اهـ

وقال حفظه الله في ص(12) من التعصب الذميم وآثاره: (فإلى المغرورين المخدوعين بهذه الأصناف، نوجه صرختنا هذه ضد الباطل بأصنافه، وضد التعصب المهلك الذي يجر إلى عبادة الأحرار والرهبان، والتضحية بحب الحق وأتباعه، وعدم المبالاة بسخط الرحمن، ومحاربة الحق وأهله، والارتقاء في أحضان أهل الباطل.

نهيّب بهؤلاء المخدوعين إلى كسر الأغلال التي لفها على أعناقهم أولئك الماكرون المخادعون، وإلى كسر الحواجز والحجب التي وضعوها بينهم وبين رؤية الحق بأنواره الساطعة؛ ليعيشوا في ظلمات العبودية للأهواء والباطل ومروجيه. اهـ

مَنْ الذي يحكم على الشخص بأنه مبيع؟

الحكم في هذا الباب وفي غيره من أبواب التبديع والتفسيق والتكفير هو للعلماء الناصحين العارفين بضوابط الجرح والتعديل، والذين عندهم من الورع والتقوى ما يمنعهم من المجازفات، وليس هذا مما يعقله الجاهل، والله عز وجل يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]، والمراد بأولي الأمر هنا العلماء. قال الشوكاني - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «فتح القدير» (1/567): قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهٖ﴾ يقال: أذاع الشيء وأذاع به: إذا أفشاه وأظهره، وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم، أفشوه وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك. قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم، أو هم الولاة عليهم ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم، والمعنى: أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يذيعها أو يكون أولي الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك؛ لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشى وما ينبغي أن يكتم. اهـ

قال الإمام الذهبي في «الموقظة»: والكلام في الرواة يحتاج إلى ورع تام، وبراءة

من الهوى والميل. اهـ

وسئل الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «تحفة المجيب» ص(226): من هو الذي يستطيع أن يُكفّر؟

فقال: هم أهل العلم الذين يستطيعون أن يحكموا على الشخص بأنه إما مسلم أو كافر، اللهم إلا إذا كان نصرانياً أو شيعياً، فهذا معلوم لدى المسلمين بأنهم كفار. اهـ

وقال شيخنا الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الكنز الثمين» (58/5): ذكر الإمام الذهبي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الموقظة» أنه لا بد للجرح من العلم والتقوى، وأن يكون مميزاً بين الحق والباطل، ثم قال: فلصعوبة اجتماع هذه الشروط عظم خطر الجرح والتعديل، وعلى هذا فالجرح لا بد فيه من علم، فإن غير العالم قد لا يتوفر فيه شروط الجرح فيقع في أعراض المسلمين بغير حجة، لكن لغير العالم أن ينقل ما قاله العالم من الجرح في المجروحين، وذلك من التعاون على تحذير الناس من الباطل وأهله. اهـ

ومع ذلك قد يعرف كثير من السلفيين - لا سيما طلاب العلم منهم - أموراً تميعية وأموراً بدعية من كثير من الدعاة، فلهم الحق في إنكارها وبيان باطلها والمناصحة فيها، لكن الذي نقصده هو الحكم على الشخص بعينه.

حكم الاستفادة ممن كان سنيًا ثم تبيع

قال الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «تحفة المجيب» ص(209) في إجابة سؤال الذين كانوا يعتبرون على المنهج الصحيح ثم زاغوا عنه، هل يجوز لنا الاستماع إلى أشرطتهم أو قراءة كتبهم المؤلفة قديمًا، وكذا محاضراتهم؟

الجواب: أنا لا أنصح بقراءة كتبهم ولا سماع أشرطتهم، وتعجبني كلمة عظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول فيها: لو أن الله ما أوجد البخاري ومسلمًا ما ضيع دينه.

فالله سبحانه وتعالى قد حفظ الدين، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]. فأنصح بالبعد عن كتبهم وأشرطتهم وحضور محاضراتهم وهم محتاجون إلى دعوة، وإلى الرجوع إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ وأن يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى من الذي حصل منهم في قضية الخليج وفي غيرها.

وقال الشيخ يحيى الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الإفتا على الأسئلة الواردة من دول شتى» ص(75): التي ألفها الحزبيون من كتب السنة ما كان فيها من خير موجود في كتب السنة وموجود في كتب الثابتين من أهل السنة والحمد لله، فما نقص المسلمين من شيء إذا تركوا كتب الحزبيين، فإن الحزبيين يدسون السم في العسل، ابتعد يا طالب العلم عنها وعن كتب الحزبيين، ابتعد عن هذه الشكوك والفتن والقلقل، وأنت في خير من كتب أهل السنة والحمد لله، أما العالم البصير المتمكن إذا قرأ في بعضها بحذر مع معرفة وبيان ما فيها من الباطل، فأمر لا بأس به، فعله عدد من الأئمة كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. اهـ

وقال الشيخ مقبل في «قمع المعاند» ص(505): وأيضاً كتب الحزبيين كونوا على حذر من كتب الحزبيين. اهـ

وحول الاستفادة من كتب أهل البدع والمييعين قال شيخ ربيع كما في «المجموع» (52/15) حول سؤال: هل يجوز أن نسمع أشرطة بعض الحزبيين ونستفيد منها؟

فقال: لا، لا تستمع لأشرطة الحزبيين، فضررها أكبر من نفعها، استفد من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومن كتب وأشرطة علماء السنة؛ لأن أهل الأهواء يفسون سمومهم بحيث لا ينتبه لها إلا الفطناء، والمساكين من طلاب العلم الصغار والعوام فإن هذه السموم المدسوسة تسري في عقولهم وفي كيانهم من حيث لا يشعرون.

فالْحَذَرُ الحذر من السماع لأهل البدع، ومن السماع لأهل الأحزاب المنحرفة عن منهج الله الحق، وهم يحذرون من كتب الحق ومن كتب السنة، فكيف تدعو إلى كتبهم وإلى أشرطتهم. اهـ

أصناف المخالفين لمنهج السلف وطريقة أهل الاستقامة

- 1- الكفار المشركون عبدة الأوثان ومن إليهم.
 - 2- كفرة أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى.
 - 3- المنافقون الاعتقاديون ومن إليهم من الرافضة والقرامطة والجهمية.
 - 4- أهل البدع والأهواء الذين ينتسبون إلى ملة الإسلام.
- وكل من هذه الأصناف عندهم من البعد والشقاق ما يوجب لهم الخلود في النار، إلا أهل البدع والاهواء غير المكفرة، فإنهم تحت المشيئة، وعندهم من الخير بقدر ما عندهم من الإسلام، وأما الثلاثة الأصناف المتقدمة فهم كفار، وفي نار جهنم خالدين فيها أبداً، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:6]، وقال الله عز وجل في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:145].
- وأما أهل البدع من أهل الإسلام فإنهم تحت المشيئة، إما أن يتجاوز الله عز وجل عنهم ابتداءً، وإما أن يُمَحَّصُوا ثم يدخلون الجنة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:48، 116].
- ومع ذلك، البدع ضررها عظيم، ففي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ»، ويقول رسول الله ﷺ: «وَسَتَفْتَرُقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً».

ومع ذلك فإن المخالفات الشرعية غير مقبولة من أحدٍ من كان، و تكون البراءة من كل مخالف لشرع الله عز وجل بحسبها، والتميع في المنهج السلفي يقع من أهل الملة أكثر مما يقع من أهل الشرك والإلحاد، لأسباب، منها:

إحسان الناس الظن بهم؛ لأنهم من أهل الإسلام، ولأنهم أعرف بالشبه من أولئك، ولأنهم يتكلمون باسم الإسلام.

وكل من خالف الدين مخالفة مطلقة فهو مكر بالدين وحملته، وكل من كان عنده مطلق مخالفة فعنده من الضرر بقدر ما عنده من المخالفة، فنسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يبصرنا بديننا، إنه ولي ذلك.

أساليب المميعين

كل من حاول الوصول إلى أمر من الأمور الدقيقة أو العظيمة اتخذ أساليب توصله إلى ما يريد ويرجو، والمبطلون عموماً والمميعون خصوصاً قد اتخذوا من الأساليب ما يعجز القلم عن حصرها وتكثير الأوراق برسمها، وتضييق الأوقات بكتابتها؛ لأن التميع طريق سلكه المبطلون من المتقدمين والمتأخرين من الكافرين والمبتدعين، لكن نذكر هنا أعظم الأساليب المسلوكة من قبل هذه الشلة المخالفة للملة:

1- المكروالكيد:

والمكر هو إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، وهذه الصفة الذميمة من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، ويقارب المكر: الكيد، وهو إرادة مضرة الغير خفية، وهو من الأخلاق السيئة.

وتتنوع أساليب المخالفين في المكر والكيد بأهل الاستقامة، قال الله عز وجل عن كفار قريش وشدة مكرهم برسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

فمن هذه الآية تظهر شدة عداوة المبطلين للمستقيمين، وكثرة الطرق التي يسلكونها لكتم الحق.

وهذه الصفة قديمة قدم إبليس اللعين، فقد مكر بأبينا آدم وأمنا حواء حتى أخرجهما من الجنة، حيث قال لهما: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: 120]، فدخل عليهما وعلى ذريتهما بسبب هذا المكر ما الله به عليم، قال

الله عز وجل: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 42]، وقال تعالى في وصف عظم مكر المبطلين من الكافرين بالمسلمين المستقيمين: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كِبَارًا﴾ [نوح: 22]، وقال: ﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [ابراهيم: 46]، وقال الله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: 60].

فأعظم وسائل وأساليب المميعين المكر والكيد بحملة الدين، وللمكر أساليب.

منها: إظهار المحبة للشخص الذي يُمكر به.

ومنها: المكر بصورة النصيحة والمشاورة.

ومنها: التزيي بزي أهل الحق تمويهًا ومكرًا.

والأساليب كثيرة، لكن تكفي الإشارات عن كثرة التفريعات والعبارات.

ومع ذلك يمكرون ويكيدون والله عز وجل لكل مبطل بالمرصاد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾ [فاطر: 10].

2- الخداع:

وهو إنزال الغير عما هو بصده بأمر يبيده على خلاف ما يخفيه، قاله الراغب.

وقال المناوي: إظهار خير يتوسل به إلى إبطال شرٍّ يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر.

قال الله عز وجل عن حال المنافقين المبطلين مع المؤمنين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]، وقال تعالى: ﴿وَلِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 62].

والخداع من الكبائر العظيمة، والبلايا الجسيمة التي ترتكب للصد عن دين رب العالمين من قبل الكافرين والمنافقين وغيرهم من المميعين، فاحذر على نفسك من خداع المخادعين، فالمكر والخديعة في النار، والحمد لله إنما ينفق الخداع على من تركه الله عز وجل لسوء عمله، وإلا فإن الله كافي المؤمنين المخلصين شر المخادعين.

3- ومن أساليب المميعين لدين رب العالمين: الخيانة:

والخيانة هي التفريط فيما يؤتمن الإنسان عليه، ونقيضها الأمانة.

وقال القرطبي: الخيانة: الغدر وإخفاء الشيء.

وسياتي مزيد كلام عنها في أسباب التميع.

وأبشر أيها المسلم إن استقامت على شرع ربك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52].

4- ومن أساليبهم: الكذب والتكذيب:

قال الله عز وجل: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: 14]، ويكون الكذب على أهل الحق بتشويههم، والكذب عليهم للمكر بهم، ويكون الكذب عليهم بإظهار الباطل حقاً، والحق باطلاً، والكذب قد يكون بالأفعال والأقوال، وهم أيضاً مكذبون للحق الذي جاء من عند الله عز وجل جملة، كما هو حال الكفار، وتكذيب جزئي إن لم يكن بلسان المقال، فهو بلسان الحال، كتكذيب أهل البدع، وقد

يكون التكذيب بسبب الكبر، قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَاطِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]، وقال فرعون في رد دين موسى عليه السلام: ﴿وإني لأظنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: 37]، فالذي يكذب على أهل الحق أو يكذبهم فرعوني، فالواجب الحذر من تكذيبهم والكذب عليهم، والكذب صفة نفاقية كما قال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ» وذكر منها: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ» أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) عن أبي هريرة ؓ .

5- ومنها التلون:

بحيث يتمكنون من نشر باطلهم، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: 72]، فانظر إلى هذه الصفة النفاقية كيف يتلون أهل الباطل حتى يتمكنوا من تميع السلفي عن عقيدته والمسلم عن دينه.

ولهذا جاء في الحديث: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هُوَ لَاءِ بَوَاجِهِ، وَهُوَ لَاءِ بَوَاجِهِ» أخرجه البخاري (3494)، ومسلم (2526). فأهل الباطل يتزيون بالحق من أجل أن يتوصلوا إلى ما يريدون من الباطل من زعزعة الناس عن دينهم، والطعن من الداخل حتى يكون الوقع أكبر والخطب أعظم.

6- ومن أساليبهم: الغدر:

وهو من الصفات النفاقية، ففي الحديث: «إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ» أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) عن أبي هريرة ؓ ، والغدر من كبائر الذنوب والآثام، وقد تعود أهل الباطل الغدر بأهل الإسلام من زمن بعيد، فكانت اليهود تنقض عهودها،

وهكذا أهل البدع يسرون على هذه الطريقة السيئة؛ مكرًا بالإسلام وأهله، ومحاولة في تمييع المسلمين عن دينهم.

وهذه الصفة من أشد الوسائل فتكًا؛ لأن الغادر يأتيك من موطن الأمان.

7- ومن أساليبهم: الغش:

فهم يغشون أهل الإيمان والاستقامة بالبضائع الفاسدة من العقائد الكاسدة، وقد قال النبي ﷺ في الذين يغشون في الطعام: «مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا» أخرجه مسلم (102) عن أبي هريرة ؓ، فما بالك بمن يمكر بالإسلام وأهله، وبالسنة وحملتها.

والغاش هو الذي يخلط الرديء بالجيد، والجيد هنا هو ما كان من الكتاب والسنة، والرديء ما كان من الكفر والبدعة، وإنك لتعجب من حال الناس إذا دخل السوق يجتهد في الشراء والنظر في الجيد من غيره، أما في مسألة العقيدة والدين فإنه قد سلم نفسه لكل مبطل يقوده كيف شاء، وأعظم من يقوم بهذه المهمة علماء السوء ودعاتهم، حيث يصورون لأتباعهم الزيوف ذهبًا، والباطل حقًا، فكم من ضرر قد لحق الأمة بسببهم وحالهم كما قال رسول الله ﷺ: «دُعَاةُ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَطَاعَهُمْ قَدْ فُتُوهُ فِيهَا» أخرجه البخاري (3606)، ومسلم (1847) عن حذيفة ؓ، فهؤلاء يغشون في النصيحة، ويغشون في العقيدة، ويغشون بالفتوى، ويغشون بلسان الحال والمقال، فإذا أردت الديانة والصيانة فليكن مرجعك أهل العلم الناصحين والدعاة المنصفين، أما إن اتخذت الغربان فلن يمروا بك إلا على المزابل وأماكن الجيف.

8- ومنها :التغريير:

الغرر مأخوذ من مادة (غ ر ر) التي تدل على النقصان، والغرر محرم في البيوع، فكيف بالغرر في العقائد، حيث يغرر أهل الباطل بأهل الحق ويغرونهم بالباطل من التميع والبدع وغير ذلك، تارة بتبشيرهم على باطلهم كما أخبر الله عز وجل عن الكافرين: ﴿وَأَنطَلَقُوا مَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:6]. ومنها إشغالهم بالاجتماعات الباطلة، قال تعالى مخبراً عن قوم فرعون: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) لَعَلَّنَا نَبْنِىَ السَّحَرَةَ إِنَّ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:39-40]. ومنها التغريير بهم بإلقاء الخطب الحماسية، قال الله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمُ آلَيْسَ لِي مَلِكٌ وَمَضَىٰ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:51].

9- المجادلة بالباطل:

قال الله عز وجل في بيان ذلك: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:5].

10- ليس الحق بالباطل وكنتم الحق:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:71].

11- التفريق بين المؤمنين أهل الاستقامة:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:107]، وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47].

12- ومن وسائل المميعين لدين رب العالمين: السرية:

ومن أعظم هؤلاء سرية اصحاب الديانة الماسونية، وأصحاب المخابرات، وأصحاب الحزبيات، يتسترون للتكتل والمكر، قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: 33].

13- إثارة النعرات القبلية:

قال الله عز وجل: ﴿فَدَعَا اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: 18]. والرسول ﷺ يقول كما في حديث جابر عند مسلم (2584): «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ».

14- الجمعيات:

وهذه - كما تقدم - من أعظم الوسائل التي اتخذها المبطلون من اليهود والنصارى وغيرهم في تفريق المؤمنين، والمكر بهم، وتعليقهم بالدنيا، وإدخال الشبه عليهم، وإدخال كثير من المعاصي في صفوفهم حتى يستسيغوها، كوضع الأموال في البنوك الربوية، وتصوير ذوات الأرواح، والسرية المذمومة، والتسولات، وأكل أموال الناس بالباطل، إلى غير ذلك مما هو متقرر عند أهل الحق والاستقامة، ومما يدل على ذلك ما نصت عليه بعض المحافل الماسونية بقولها: على الإخوان [أي: الماسونيين] أن ينفذوا في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيات على أن لا تُشَم منها رائحة حقيقة الدين.⁽¹⁾

وقد يقول قائل: كيف تكون الجمعيات أو الكثير منها دسيسة، وهي تبني المساجد؟ نقول: كما بنى المنافقون، وكما بنى القرامطة والرافضة، فتنبه أيها المسكين! لا تُخدع من حيث لا تشعر!!!

(1) انظر: «الأجوبة المفيدة» للدوسري ص (179).

فما فرّق الدعوة السلفية في اليمن، وشتت شبابها، وأذاب كثيراً من أتباعها حتى صاروا متحيزين للباطل مشاركين في الانتخابات، ظاهرين على الشاشات، مستمعين للأناشيد المائعات، لاهئين خلف حطام الدنيا البالي ولو على حساب الدين؛ إلا الجمعيات. وكذا في مصر والسودان وتنزانيا كم فعلت بهم جمعية إحياء التراث، والحق أنها جمعية (إخاد التراث الإسلامي). وكم فعلت الجمعيات في بلاد الحرمين، أخرجت كثيراً من الشباب تكفيراً سرورياً، إلى غير ذلك.

فمتى تفيق المجتمعات من سباتها وتعود إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ على فهم السلف الصالحين وأئمتها المهتدين، أهل العلم والأثر، والفقه والنظر.

15- ومن أساليبهم الماكرة : إنشاء الحزبيات:

وقديماً قال قائلهم: (فَرَّقْ تَسُدْ). وقال الشاعر العربي:

تَأْبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسُرًا وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكْسَرَتْ أَحَادًا

والله عز وجل حذر من الفرقة تحذيراً بليغاً، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: 31-32]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]. والأدلة في الباب كثيرة، ثم يأتي هؤلاء الذين يمكرون بديننا من الكفار وأفراخهم من المسلمين فينشئون الحزبيات التي فرقت ومزقت، وظهرت بسببها الشحناء والبغضاء، وسالت الدماء، وعُطلت كثير من أبواب الدين، وحصل التميع بسبب الحرص على الكثرة التجميعية، بعيد عن التصفية والتربية، إلى غير ذلك مما هو معلوم للخاص والعام، والمواطنين والحكام، لكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

16- ومن أساليبهم: إنشاء المؤتمرات:

لاسيما مؤتمرات حوار الأديان والحضارات، ومؤتمرات الشباب والشابات، فتلقى الشبه ويتلقاها الحاضرون، يلقيها منهم الغائبون، ويحصل الضرر العظيم في الدين، ولم تنشأ هذه المؤتمرات عفويًا، بل إنهم يُحَضِّرون لها تحضيرًا، مع معرفتهم بمواطن الضعف لدى الحاضرين والغائبين بسبب الجهل بالدين، وكذا كثرة المدسوسين بين أبناء المسلمين، فلا يخرج المؤتمر إلا وقد صوروا للمجتمعات أن النصرانية واليهودية من الأديان السماوية، ومعنى ذلك أنها أديان حق، وهيئات!!!

17- بذل الأموال:

من وسائل وأساليب تميع الدين والدعوات: بذل الأموال الكثيرة والملايين الوفرة، فيعطون أصحاب النفوس المرضية، فيشترونهم، ثم يتبعهم الكثير من المغفلين اتباع كل ناعق.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

18- ومنها التشكيك في نيات الدعوة إلى الله عز وجل ومناهجهم:

وهذه طريق سلكها المتقدمون والمتأخرون، حيث يتهمون أهل العقيدة الصحيحة بأنهم يريدون الملك والجاه والرياسة والأموال، وهكذا، فتجد في هذه الأيام أنهم يقولون: (الله أعلم أيش وراءكم) وهذا السبيل الجديد في شكله، قديم في نوعه، فكم من الناس الذين تصدوا لدعوة أهل السنة والجماعة، على أن دعائها عملاء للسعودية، أو أنهم وأنهم... ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلَقُ﴾ [ص: 7].

وقد من الله عز وجل بخطبة جمعة في دار الحديث بدماج، تكلمت على هذه الأساليب الخطيرة، ملخصها:

إن الله سبحانه وتعالى خلقنا لطاعته وعبادته، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ولمحبته لذلك بعث ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقال عز وجل: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوْلَدِينَ إِحْسَنًا﴾ [النساء: 36]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَاللَّوْلَدِينَ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: 23]، في آيات كثيرات طيبات مباركات، يحثنا ربنا سبحانه وتعالى على عبادته وطاعته، ولمحبته لذلك سبحانه وتعالى ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق، بالهدى الكامل، وبالدين التام، الذي أخبر الله عز وجل عنه بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

بعثه بالعلم النافع، المصاحب للعمل الصالح، وأخبر الله عز وجل: أنه لا نجاة من الخسارة إلا بالأخذ بهذين الشيئين، قال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ولما جاء رسول الله ﷺ بالهدى ودين الحق، عاداه من عاداه، وحاربه من حاربه ومقتته من مقتته، وخذله من خذله، ونصره من نصر، وأعز الله عز وجل بعد ذلك دينه، وأعلى كلمته ومكّن لأوليائه، وقام أهل السنة والجماعة بهذا الدين خير قيام، فحققوا توحيده عز وجل في جانب الربوبية والإلهية والأسماء والصفات، يؤمنون بالله عز وجل كما أخبر عن نفسه، وأخبر عنه رسوله ﷺ، لا يكتفون ولا

يمثلون، ولا يعطلون ولا يحرفون ولا يشركون ولا ينددون بل هم مستسلمون منقادون محققون لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: 208]، محققون لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4].

وحققوا جانب العبادات، ففي صيامهم يصومون كصيام رسول الله ﷺ.

وفي صلواتهم يصلون كما صلى رسول الله ﷺ؛ متمثلين قوله عليه الصلاة والسلام: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» أخرجه البخاري (631).

ويحجون كحججه؛ لقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» أخرجه مسلم (1218) عن جابر رضي الله عنه.

وهم أحسن الناس أخلاقاً؛ امتثالاً لحديث النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾.

وهم في جانب المعاملات يحرصون على أن يلازموا طريقة النبي ﷺ، فهم أهل الهدى والحق ومع ذلك لا غرو أن تجد من يتنكر ويعادي هذا الحق وحملته من الأنبياء والأولياء والصالحين، ومع ذلك: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (273)، وأحمد (381/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم (670/2) بلفظ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والحديث صحيحه الألباني رحمه الله تعالى، وصححه الوادعي رحمه الله.

وليُعلم أن هذا الدين لا يظهر إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33].

فينبغي لنا أن نحقق ذلك في أنفسنا وفي مجتمعاتنا، وندعو الأمة جميعاً إلى طاعة ربها وامتثال سنة نبينا ﷺ، ونكون في دعوتنا لسبيل رسول الله ﷺ سالكين وهدية مستمسكين مبشرين ومنذرين، مطبقين لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّسْبَةِ أَهْسَنُ﴾ [النحل: 125]، فإذا طبقنا ذلك رجونا أن نكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، وفي قول النبي ﷺ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَّكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» أخرجاه في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه البخاري (2942)، ومسلم (2406).

ألا وإننا بين الحين والآخر نسمع من يزهّد ومن يطعن ومن يحذّر من هذه الدعوة المباركة، ومن حملتها بصورة أو بأخرى، وهذا الأمر ليس بالأمر المستغرب فإن المخالفين قد سلكوا في حرب الحق وأهله سبلاً متفرقة وطرقاً معوجة يقتدي بعضهم ببعض، بسّ التابع والمتبوع، فأول ما يطعنون في الحق الذي جاء به، إن استطاعوا أن يصوروا الحق الذي جاء به باطلاً فعلوا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَرٌ﴾ (٢٤) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 24-25]، ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: 36]، ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَ فِيهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5].

يشوهون الحق، ويظهرونه بصورة الباطل، فإن فشلوا في ذلك جاءوا إلى سبيل آخر وهو؛ تشويه صاحب الحق، وحامله، والداعي إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿[الأعراف: 59]﴾ هذا نوح عليه السلام يدعو إلى توحيد الله عز وجل، وإلى عبادته، ويخاف على قومه من العذاب الأليم ومن الخزي العظيم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك ما استطاعوا أن يطعنوا في الحق الذي جاء به؛ لأنه يدعوهم إلى التوحيد، لكن قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60] وصفوه بالضلال، فبين نوح عليه السلام أنه ليس بضال وإنما يدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، فقال عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَتِي رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مَنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 61-62].

وهود عليه السلام اتهمه قومه بالسفه: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَلَمَّا لَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 65-66]، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5].

فلا ينبغي أن يشوه حامل الكتاب والسنة، ولا يطعن فيه؛ لأن الطعن فيه طعن في دين الله عز وجل الذي يحمله ويبلغه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 52-53].

وكان من عقيدة أهل الحديث: أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بغير الجميل فهو على غير السبيل.

ومن أساليبهم: المكر، هذا الداء العضال الذي استغله إبليس اللعين، وقذفه في قلوب أتباعه، يمكرون بالليل والنهار لزعة الحق وأهله والمكر بحملته، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُومُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَّعَكَ قَالَ طَعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿النمل: 45-51﴾ هؤلاء قوم ثمود يمكرون بنيهم لقتله.

وكفار قريش كان لهم باع عظيم في هذه الصفة الذميمة للمكر بمحمد ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

وسياتي اليوم الذي تقع البراءة بين الماكرين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: 33] هذا اعتراف من المستضعفين من التابعين لكبرائهم المجرمين الذين يمكرون بدين الله الحق، ومع ذلك ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [المدثر: 38]، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25].

ومع ذلك ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، ﴿لَهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15-16].

ومن أساليبهم: الطعن في الوطن الذي يظهر منه الحق، وهذا القول ليس بالجديد، فإن كفار قريش قالوا في صحابة النبي ﷺ: أوهنتهم حمى يثرب. الحديث أخرجه البخاري (1602)، ومسلم (1266) عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - .

ومن أساليبهم: إنفاق الأموال الكثيرة في الصد عن سبيل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: 36-37] هذا وعَد الله أنه يُمَيِّز بين الخبيث والطيب، فلا يمكن أن يتحقق للماكرين والصادقين مرادهم، فإنما هي أذية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20].

ومن وسائلهم: التخذيل، وهذا لا يضر شيئاً؛ لأن النبي ﷺ يقول: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(١).

فالمخذل إنما يظلم نفسه، لأنه تخلف عن واجب أوجه الله عز وجل عليه، وهو نصرة المؤمنين، أولياء الله المتقين، أهل الحق.

والمخذلون لا للحق نصروا، ولا للباطل كسروا.

ومن وسائلهم: التحريش، وهذا سنة شيطانية، ففي حديث جابر عند الإمام مسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(٢)، يحرّش بين المسلمين، بين حملة الدين، ويرسل أوليائه من الإنس والشياطين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 6]، والرسول ﷺ يقول: «مَنْ حَبَبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣)، فكيف بمن يخبب صاحب

(١) أخرجه مسلم (6881) من حديث المغيرة بن شعبة، وأخرجه البخاري (3441) بلفظ: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» من حديث المغيرة بن شعبة أيضاً.

(٢) أخرجه مسلم (2812) من حديث جابر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (352/5) من حديث بريدة وهو في الصحيح المسند للعلامة الوادعي وصححه الألباني رحمه الله تعالى.

الحق عن الحق، فكيف بمن يحب المستقيمين عن أهل الاستقامة ويزعزهم في دينهم، ويردهم إلى القهقري، صيداً لأهل الجمعيات والبدع والحزبيات والخرافات.

ومن وسائل الصد عن الحق: وهي صفة نفاقية، فعلها عبدالله بن أبي لعنه الله ومن معه من المنافقين، قال تعالى: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنَ الدِّينِ﴾ [المنافقون: 8].

ويحذرون من الإنفاق على رسول الله ﷺ وعلى الصالحين: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7].

ومن وسائلهم: التحذير من سماع كلام أهل الحق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 26] لا تسمعوا لهم، بل ربما ألهوا المستمعين ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا ۚ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 6-7] صد عن سماع الحق، وعن قراءته، والتبصر به.

المهم أنها حرب على الحق وعلى أهله، ولكن الله عز وجل بالمرصاد، ومما أخبر الله عز وجل مما يقع بين المبطلين وأتباعهم، وبين أهل الحق والمبطلين الذين يحاولون صدهم أنه قالوا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصفات: 27-28] أهل الباطل يأتون هؤلاء المساكين عن اليمين وعن الشمال يزهدونهم في الحق: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصفات: 28-29] تبرءوا منهم، انظر إلى صاحب الباطل حين صدك عن الحق وحذرك منه كيف يتبرأ منك يوم القيامة.

ونحنم هذه الوسيلة الشيطانية اليهودية التي يزهدون فيها من الحق وأهله، وهو البحث عن الفتاوى النابية التي تصدر إما من صاحب حسد أو من صاحب هوى أو من مخالف أو طاعن في حملة الدين. فإن الكافرين لما أعياهم أمر رسول الله ﷺ وظهر خيره ذهبوا إلى اليهود الذين ظاهرهم العلم في تلك الأيام، فقالوا: من أهدى، نحن أم محمد؟ هل يريدون التبصر؟! ومن يستفتي من؟!! ضَلِيلٌ يستفتي ضَلِيلًا، ومعرضٌ يستفتي معرضًا، ومخالفٌ يستفتي مخالفًا، وماذا ترجو ممن هذا حاله؟! هل ذهبوا يستفتون أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، يا أبا بكر ما رأيك في طريقة النبي ﷺ؟ لا، لكن ذهبوا إلى خبير، فأنزل الله في شأنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

سبحان الله!!! كيف تتغير المفاهيم على أصحابها؟! أهل الكتاب الذين كانوا قبل ذلك ينتظرون خروج النبي ﷺ يريدون الاستنصار به على الأوس والخزرج، فلما خرج أفتوا بهذه الفتوى؛ هوى في نفوسهم، ولحسد في باطنهم، ولمكر بالنبي ﷺ، ومع ذلك خيبهم الله تعالى.

ومن وسائلهم: السعي في الهزيمة النفسية للداعي إلى الله عز وجل: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 53-56] فهؤلاء الكفرة حاولوا هزيمة هود عليه السلام نفسياً فقالوا: هذا الكلام الذي تأتي به وتدعو إليه ما هو بواضح ولا بين، وكأنك مجنون أو مسحور أو ممسوس أو مريض، ومع ذلك ما بالي بهم، بل تحداهم أن يكيدوا.

فلا هزيمة للمتقي إلا من نفسه، أما إذا اعتصم بحبل الله فإنه منصور: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: 51].

ومن وسائلهم: قطع الطرق إلى أهل الحق، ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ الْوَفْدُ أَوْ مِنَ الْقَوْمِ؟» قَالُوا: رِبِيعَةُ، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى» قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرِ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ وَحْدَهُ، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ» وَمَنَاهُمْ عَنِ الدُّبَاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ، قَالَ شُعْبَةُ: رَبِّمَا قَالَ النَّقِيرُ، وَرَبِّمَا قَالَ الْمُقَيْرُ، قَالَ: «أَحْفَظُوهُ، وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ»⁽¹⁾.

ومن وسائلهم: بتر كلام صاحب الحق؛ ليظهر في صورة الباطل.

والبتر سنة يهودية، فقد جاء من حديث عبدالله بن عمر عند الإمام البخاري ومسلم، أن النبي ﷺ لما جاءه اليهود باليهودي واليهودية الَّذِينَ زِنَا، قال: «اُتُّوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُتُبَكُمْ صَادِقِينَ»⁽²⁾، فجاءوا بالتوراة ووضعوا أيديهم على آية الرجم، وأظهروا للنبي ﷺ ما يريدون إظهاره، فما كان من الله عز وجل إلا أن فضحهم على يد بعض الصالحين، وهو عبدالله بن سلام ؓ.

ومن وسائلهم: الكذب والتشويه، ومنها الزعم بأن الداعي إلى الله عز وجل قد تغير، وهذا أيضًا ليس بالأمر الجديد، وإنما هو سنة جاهلية، تركها السابقون منهم للاحقين من المخالفين للحق وأهل الحق؛ ولذلك كانت قريش تسمي النبي ﷺ بالصادق الأمين، وكانوا يوادونه ويحبونه ويشنون عليه، فلما جاء بالإسلام اتهموه وقالوا بأنه ساحر، كاهن، مسحور، وأنه كاذب، وأنه ليس بأمين إلى غير ذلك من الأكاذيب التي سلكوها بالصد عن دعوته وعن طريقته.

(1) أخرجه البخاري (87)، ومسلم (17) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (7104، 4280)، ومسلم (1699) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن وسائلهم: ذلك التضييق عليه والجرأة على صاحب الحق والاستهتار؛ يدل على ذلك حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه عند الإمام مسلم أنه قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة جرّاء عليه قومه، والنبي ﷺ مستخفٍ بين أظهرهم يدعو إلى الله وإلى توحيد الله ⁽¹⁾.

ومنها: ضرب أهل الحق إن استطاعوا، فقد جاء من حديث أبي ذر رضي الله عنه عند الإمام مسلم: أنه لما أسلم خرج بين أظهر المشركين ينادي أو يخبر بأنه على توحيد الله عز وجل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فما كان منهم إلا أن ضربوه حتى جاء العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وصد عنه، وأخبرهم أنه من قوم تجار، ربما تقطع تجارتهم ⁽²⁾.

وأيضاً جاء في مسلم أن رسول الله ﷺ كان يصلي بين أظهر القوم فجاء أبو جهل -عليه لعنة الله- ليطأ على رقة النبي ﷺ -زعم- فإذا به يرجع إلى القهقري، فقالوا: ما شأنك؟ قال: رأيت أهوالاً وخندقاً وأجنحة، قال النبي ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَا خُتَطَفَتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضُوءًا عُضُوءًا»، وأنزل الله عز وجل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَدَّعَ الرِّبَابَ ۚ كَلَّا لَا تَطِعُهُ ۖ وَأَسْجُدْ ۖ وَقَرَّبْ ۚ﴾ [العلق: 17-19] ⁽³⁾.

اللهم أنت عضدي وأنت نصيري بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل.

وكان الداعي والحامل لي على هذه الخطبة، التي أرجو من الله بركتها وخيرها وبرّها، وأمل في الله عز وجل أن يجعل فيها البركة؛ لأنها نصرّة لدينه، وللحق الذي أنزله، والذي جاء به النبي ﷺ. إننا نسمع في هذه الأيام كثيراً من المشوشين

(1) أخرجه مسلم (832) من حديث عمرو بن عبسة ؓ.

(2) أخرجه مسلم (2474) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) أخرجه مسلم (2797) من حديث أبي هريرة ؓ.

والمعرضين والمخالفين يزهدون من الحق وأهل الحق، وخصوصًا التزهيد من الدار السلفية العامرة، القلعة الشاخنة الجامعة العظيمة، التي أسسها وبنها شيخنا ووالدنا مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى حتى وصلت إلى الذروة في أواخر عهده، ملئت بالمحققين والمصنفين وحفاظ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والداعين والداعيات، والصالحين والصالحات، وغير ذلك. ثم خلفه عليها شيخنا يحيى بن علي الحجوري حفظه الله ووفقه وسدده، وما علمناه وما رأيناه إلا ناصحًا مبينًا للحق، ورفيقًا بأهله، ومحذرًا من الباطل، وقامعًا لأهله، فقام عليه المبطلون من كل حذب وصوب، يزهدون ويحذرون ويشوهون ويبترون الكلام، حتى يظهر بصورة المخالفة للحق، وينتقلون من عالم إلى عالم، ومن قطر إلى قطر من أجل تشويهه، والتزهيد من الدعوة التي هو عليها.

وايمُ الله، إننا ما رأينا عنده ولا في داره تغييرًا ولا تبديلًا، فهي دار سلفية وقلعة عامرة، تعظم ما عظم الله عز وجل، وتحقر ما حقر الله عز وجل، تبين وتدعو إلى طريق المستقيمين السلفيين من الصحابة والتابعين، وتحذر من طريقة الحزبيين المخالفين أصحاب البدع والحزبيات وأصحاب الجمعيات الحزبية المغلفة، فما كان منهم إلا أن قاموا بهذا التشويه، وبهذا الكذب، ولكن الله عز وجل مظهر لدينه وناصرٌ له وهو ولي ذلك والقادر عليه.

ولا أدعي العصمة لأهلها وطلابها، فهم يصيبون ويخطئون، ويعلمون ويجهلون، لكن بحسبهم أنهم يحبون الكتاب والسنة، والغالب في دعوتهم الخير، وإن أخطأ بعضهم ناصحوه لرده إلى الحق.

ومن طرقهم: الإشاعات التي استخدمها السابقون واللاحقون من المخالفين للطرق القويمة والفطر المستقيمة، فلما بُعث النبي ﷺ أشاع عنه الكفار أنه ساحر وكاهن ومجنون، وأنه معلم يتلقى هذا الدين وهذا القرآن من رجلين أعجميين كانا مَوْلَيْنِ للحضرمي، فأنزل الله عز وجل في شأن ذلك: ﴿لَسَاكُتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103]، ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَهَا فِيهِ نُمُلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 5-6].

والشاهد أنهم طعنوا فيما جاء به النبي ﷺ وأشاعوا ذلك وأذاعوه - كما أشرنا آنفاً - أشاعوا الطعن في ذاته بأنه مجنون كما في حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عند الإمام مسلم، أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنْوَاءَةٍ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مِنْ شَاءٍ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. الْحَدِيثُ (1)».

وربما يشيعون ما يزهد في قوله، كما أشاعوا بأنه كذاب وساحر، وأنه يأمر بقطيعة الأرحام، والرسول ﷺ يوضح طريقته، فقد جاء في حديث عمرو بن عبسة أنه كان يأمر بصلة الأرحام. وكما في حديث أبي سفيان أنه يأمر بصلة الأرحام. متفق عليه، ولما قال له مالك نضلة: إلامَ تدعوا؟ قال: «أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّحِمِ» (2).

(1) أخرجه مسلم (868) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه مسلم (832) من حديث عمرو بن عبسة السلمي ؓ.

وقد أشاع النصارى واليهود والمخالفون أن الإسلام دين الوحشية، ودين الظلم، ودين يسعى إلى الاستمتاع بالنساء... إلى غير ذلك من الإشاعات التي يتناولها المبطلون في كل وقت وحين.

ورحم الله الإمام ابن باز إذ يقول - وكنا نسمعها كثيرًا من شيخنا مقبل رحمه الله تعالى -: لو استطاعوا أن يتهموا العالم أو الداعي إلى الله بأنه يأتي أمه لفعلوا؛ تحذيرًا من دعوته.

ومن أمثلة ما أشاعوا عن الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى أنه يحرم حلب البقرة، ويحرم على المرأة أن تقطع الخيار والجزر، وأنه ألف كتابًا بعنوان (الصواعق والبوارق في تحريم الأكل بالملاعق). انتهى ملخصًا.

19- ومنها الإشادة بمن كان على طريقتهم وباطلهم؛ خيانة للناس وتغريباً لهم:

فكم يبطّلون للقرضاوي وعمرو خالد وغيرهم من البطالين الجاهلين.

20- ومنها الوشاية بأهل الاستقامة والحق واستعداد السلطة عليهم:

قال الله عز وجل مخبرًا عن قوم فرعون: ﴿أَنذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127].

وأساليب ووسائل المكر بالدين وحملته كثيرة جدًّا، ومتنوعة، يوحى شياطين الجن والإنس بعضهم إلى بعض، كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112].

21- ومن أساليبهم: تسمية الباطل بأسماء ظاهرها عدمه:

هذا الأسلوب قديم جداً، فإن الشيطان أظهر باطله لآدم في صورة النصيحة، وعباد الأصنام والقبور والاثاث زعموا أن ذلك من التوسل إلى الله عز وجل، وشرب الخمر سموه شراب روي، وأصحاب الربا سموه فوائد، وكل مبطل يسمي باطله بما عساه يروج به، فأصحاب وحدة الأديان يسمون باطلهم تعايش، مواطنة، حوار حضارات، وهلم جرأ، فانتبه لهذه المسميات.

22- ومن أساليبهم: الصبر على تمرير شرهم:

وذلك أنهم يرضون باليسير من المخالفة ابتداءً، وقد قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36]: هم ينفقون الأموال الكثيرة لا لترك المسلمون دينهم، ولكن ليتنازلوا عن بعض دينهم. بمعنى كلامه.

23- ومن أساليبهم: دعوتهم إلى الرفق:

وسياتي الكلام على أهمية الرفق في الدعوة إلى الله عز وجل في الفصل الذي عقدناه في أسباب السلامة من التميع.

وقال الشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى - كما في «المجموع» (1/485-486): الأصل في الدعوة اللين والرفق والرحمة، هذا هو الأصل فيها، فإذا وجدت من يعاند ولا يقبل الحق وتقيم عليه الحجة ويرفض فحينئذٍ تستخدم الرد. وأن كنت سلطاناً - وهذا داعية - فتؤدبه بالسيف.

وقد يؤدي إلى القتل إذا كان يصر على نشر الفساد. اهـ

وقال الشيخ يحيى في «الثوابت المنهجية»: (ص16): دعوة التميع بلباس الرفق، فتراهم يقولون الرفق الرفق الرفق، حتى خالط المبتدعة، والآن معهم وضاع، كل ذلك تحت إطار الرفق، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: 38]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: 8] والحسرات التألم، فكيف بمن يذهب مع المبتدعة والذبذبة والتميع على حساب أن هؤلاء يرفق بهم، نعم، الرفق مطلوب، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» أخرجه مسلم (2593) عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - .

هذه الأدلة على وجوب الرفق، لكن الناس غلوا في الرفق حتى ماعوا، فتميع الأخوان المسلمون جعلهم مقلدين للنصارى وجعلهم دعاة إلى الكفار حذو القذة بالقذة، يدعون إلى الانتخابات، والمظاهرات، ولباس الكفار، وأقوال الكفار، كل ذلك بدعوى الرفق، تميع الأخوان جعلهم يتنازلون حتى شاركت نساؤهم مواطن الاختلاط. اهـ

الفصل الثاني

أسباب تميع دين المسلمين المنهج السلفي القويم

وأكتب هذه الأسباب حتى يحذرها المسلم على نفسه، ولعله يسلم من شر عظيم وخطر جسيم، تهاوى فيه المثات من الدعاة والاعداد من الدعوات.

ومعرفة أسباب المرض والسلامة أمر مهم، فمن عرف أسباب المرض احتمى منها، ومن عرف المهالك احتمى منها، ومن عرف أسباب السلامة سلكها، وهذا الأمر الذي أسير عليه هو طريق سلفي أصيل سار عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عند أبي داود (4607)، والترمذي (2676) رحمهما الله قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بِعِدِّي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه في الصحيحين ⁽¹⁾ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا

(1) البخاري (7084)، ومسلم (1847).

فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»
 قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ:
 «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟
 قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي
 ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟
 قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعُصَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ
 وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

وفي كلام العرب:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقُّعِهِ
 وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنْ الْخَيْرِ يَقَعُ فِيهِ

فمن هذا الباب، إليك ذكر أسباب مرض الدعوات وهو التميع، والكيس
 الفطن من ابتعد عن موارد العطب والتزم موارد السلامة.

قال ابن القيم في «الزاد» (5/4): قَوَاعِدَ طِبِّ الْأَبْدَانِ ثَلَاثَةٌ: حِفْظُ الصَّحَّةِ،
 وَالْحِمْيَةُ عَنِ الْمُؤْذِي، وَاسْتِفْرَاجُ الْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ. اهـ

1- الرياء:

أعظم أسباب الضلال والبدعة والخبال ترك الإخلاص، ومراقبة الناس، وفي
 الحديث: «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» أخرجه البخاري
 (6499)، ومسلم (2987) عن جندب رضي الله عنه، وانفرد به مسلم (2986) عن ابن
 عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، وهذا كلام من لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَى ﴿١﴾، وهذا الحديث يدل على جزاء المرائي في الدين، حيث يحصل له الخزي والعار والانحراف، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأما في الآخرة فإنه من أهل الهلاك والعياذ بالله، نسأل الله السلامة، قال الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: 4-7].

قال صديق حسن خان في كتابه «قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر» ص(213): (وإنما يعرف الحق من جمع خمسة أوصاف أعظمها الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها وهو أقلها وجودا الحرص على معرفة الحق، وشدة الدعوة إلى ذلك). انتهى.

وهذه خمسة أسباب من فاته كان مميعة، فمن لم يحقق جانب الإخلاص الذي أمر الله تعالى به بقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، وقع في تميع دينه وضعف يقينه؛ لأن من هذا حاله سيكون حريصاً على إرضاء الناس ولو بالباطل، قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(92-96): (وإن لحسن النية وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في هذا المعنى، فمن تعكست عليه بعض أموره من طلبة العلم أو أكلف عليه مطالبه وتضايقت مقاصده فليعلم أنه بذنبه أصيب وبعدم إخلاصه عوقب، أو أنه أصيب بشيء من ذلك محنة له وابتلاء واختباراً؛ لينظر كيف صبره واحتماله، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازن العطايا ما لم يكن بحسبان، ولا يبلغ إليه تصوره فليعض على العلم بناجذه، ويشد عليه يده، ويشرح به صدره، فإنه لا محالة واصل إلى المنزل الذي ذكرنا، نائل للمرتبة التي بينا). اهـ.

وقال رحمه الله أيضاً ص(66): (فأول ما على طالب العلم أن يحسن النية، ويصلح طويته، ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له والأمر الذي أراده هو الشريعة

التي شرعها الله سبحانه لعباده، وبعث بها رسله، وأنزل بها كتبه، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا، أو يخلطه بما يكدره من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظفر بشيء من المال، أو يصل به إلى نوع من الشرف، أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا، أو جاه يحصله به، فإن العلم طيب لا يقبل غيره، ولا يحتمل الشركة والروائح الخبيثة، إذا لم تغلب على الروائح الطيبة فأقل الأحوال أن تساويها، وبمجرد هذه المساواة لا تبقى للطيب رائحة والماء الصافي العذب الذي يستلذه شاربه كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح فضلاً عن غير الماء من القاذورات بل تنقص لذته مجرد وجود القذاة فيه ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات وهيئات ذاك، فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة فقد أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلها وأعلاها، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5]، فقيد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها، وصح عن رسول الله ﷺ حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» وهو ثابت في دواوين الإسلام كلها، وقد تلقته الأمة بالقبول، وإن كان أحاديثاً، أجمع جميع أهل الإسلام على ثبوته وصحته. اهـ

وقال الذهبي رحمه الله كما في «سير أعلام النبلاء» (7/ 152-153): (فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشره بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم، فلهم ما نوا: قال عليه السلام: «مَنْ غَرَا يَنْوِي عِقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى»، وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا هم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبا لهم، فما هؤلاء بعلماء! وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار.

وبعضهم اجتراً على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار.

وهؤلاء الأقسام كلهم روى من العلم شيئاً كبيراً، وتضلّعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخنا يقتدي به في العلم، فصاروا همجا رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمّنة يخزنها وينظر فيها يوماً ما، فيصحف ما يورده ولا يقرره. فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم ولا رأيت عالماً. انتهى

2- قلة الفهم:

قال الله عز وجل ممتناً على سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79]، وقال ابن القيم في «الفوائد» ص (196) ط: الكتب العلمية، في كلامه على معرفة الله عز وجل، قال: (ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكير والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله ﷺ. والباب الثاني: التفكير في آياته المشهودة). اهـ

وقال في «البدائع» (1/164) ط: الباز: (وأما غليظ الفهم فلا ينجح فيه كثرة البيان). اهـ

وقال (3/677): (ولكن من أوتي فهماً في الكتاب وأحاديث الرسول استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيته من الفهم). اهـ

وقلة الفهم تجعل صاحبها يُورد الموارد الصعبة المخالفة للكتاب والسنة، ففي البخاري (6830): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ أُفَرِّقُ رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، فَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْزِلِهِ بِمِنًى، وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا، إِذْ رَجَعَ إِلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتَ رَجُلًا أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ لَكَ فِي فَلَانٍ يَقُولُ: لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَانًا، فَوَاللَّهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فُلْتَةً، فَتَمَّتْ. فَغَضِبَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَقَائِمُ الْعَشِيَّةِ فِي النَّاسِ، فَمَحَذَرُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رِعَاعَ النَّاسِ وَغَوَاءَهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطَيِّرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطَيِّرٍ، وَأَنْ لَا يَعُوهَا، وَأَنْ لَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا، فَأَمْهَلْ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ، فَإِنَّهَا دَارُ الْهِجْرَةِ وَالسُّنَّةِ، فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفَقْهِ

وَأَشْرَافِ النَّاسِ، فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا، فَيَعْبَى أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَاتَكَ، وَيَضْعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا. فَقَالَ عُمَرُ: أَمَّا وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَأَقُومَنَّ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ.

والشاهد من الحديث أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أشار على عمر رضي الله عنه بتأخير الكلام في هذا الباب خشية أن يوجد قليل الفهم فيلتبس عليه الأمر، والله أعلم.

فقلة الفهم متعبة لصاحبها ولغيره، والأعظم من هذا أن يتصدر في هذه الأيام من لا يفهم، وفي نفس الوقت لا يريد أن يفهم، بل تراه معرضاً عن العلم والتعليم وسلوك سبيل المؤمنين.

قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (2/431): (ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جدًا). اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (11/397): (قُرِبَ رَجُلٌ يَحْفَظُ حُرُوفَ الْعِلْمِ الَّتِي أَعْظَمَهَا حِفْظُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَلَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْفَهْمِ، بَلْ وَلَا مِنَ الْإِيمَانِ، مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَلَى مَنْ أُوِيَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يُؤْتَ حِفْظُ حُرُوفِ الْعِلْمِ). اهـ

ومن قل فهمه عظم خطؤه، وقل علمه، وزل قلمه. ودواء قلة الفهم: التضرع، والدعاء، وسؤال أهل العلم، والصدور عن الفتاوى المدعمة بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية.

3- قلة الإنصاف:

قلة الإنصاف جديرة بزحمة كل من قل إنصافه عن الخير والحق، قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(45) مبيناً بعض أسباب الإنصاف: (وأنت لا تخفى عليك بعد هذا، أن إنصاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله كائناً ما كان، فإنه لو ذهب العالم الذي قد تأهل للاجتهاد، يأخذ مثلاً الحديث عن أهله، ثم يريد أن يأخذ ما يتعلق بتفسيره في اللغة عنهم كان مخطئاً في أخذ المدلول اللغوي عنهم، وهكذا أخذ المعنى الإعرابي عنهم فإنه خطأ، بل يأخذ الحديث عن أئمة بعد أن يكشف عن سنده وحال رواته، ثم إذا احتاج إلى معرفة ما يتعلق بذلك الحديث من الغريب رجع إلى الكتب المدونة في غريب الحديث، وكذا سائر كتب اللغة المدونة في الغريب وغيره، وإذا احتاج إلى معرفة بنية كلماته رجع إلى علم الصرف، وإذا احتاج إلى معرفة إعراب أو آخر كلمة رجع إلى علم النحو، وإذا أراد الاطلاع على ما في ذلك الحديث من دقائق العربية وأسرارها رجع إلى علم المعاني والبيان، وإذا أراد أن يسلك طريقة الجمع والترجيح بينه وبين غيره رجع إلى علل أصول الفقه، فالعالم إذا صنع ظفر بالحق من أبوابه ودخل إلى الإنصاف بأقوى أسبابه، وأما أخذ العلم عن غير أهله ورجح ما يجده من الكلام لأهل العلم في فنون ليسوا من أهلها وأعرض من كلام أهلها فإنه يخطئ ويخلط ويأتي من الأقوال والترجيحات بما هو في أبعد درجات الإتقان وهو حقيق بذلك). اهـ

ولا يُستكمل إيمان العبد إلا بالإنصاف، فقد علق البخاري - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في صحيحه عن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلُهُ: (ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ:

الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ). والأثر صحيح، وقد خرجته - بحمد الله - في تحقيقي على كتاب الإيمان للقاسم بن سلام.

فالإنصاف يجعل العبد ملازمًا للحق، آخذًا له من عند نفسه، أو من عند غيره.

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (312/5): (وَلَا يَخْفَى - عَلَى مَنْ أَثَرَ الْعِلْمَ وَالْإِنْصَافَ وَجَانِبَ التَّعَصُّبِ وَنُصْرَةَ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْوَالِ - الرَّاجِحَ مِنَ الْمَرْجُوحِ). اهـ

قال الحافظ في «الفتح» عند حديث رقم (29): (لَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا انْتَصَفَ بِالْإِنْصَافِ، لَمْ يَتْرُكْ لِمَوْلَاهُ حَقًّا وَاجِبًا عَلَيْهِ إِلَّا آدَاءَهُ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا نَهَاهُ عَنْهُ إِلَّا اجْتِنَبَهُ). اهـ

وقال ابن القيم في «الزاد» (406/2) في كلامه على أثر عمار السالف: (وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَصُولَ الْخَيْرِ وَفُرُوعَهُ، فَإِنَّ الْإِنْصَافَ يُوجِبُ عَلَيْهِ آدَاءَ حُقُوقِ اللَّهِ كَامِلَةً مُؤَقَّرَةً، وَآدَاءَ حُقُوقِ النَّاسِ كَذَلِكَ، وَأَنْ لَا يُطَالِبَهُمْ بِمَا لَيْسَ لَهُ، وَلَا يُحْمَلَهُمْ فَوْقَ وَسْعِهِمْ، وَيُعَامِلَهُمْ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ). اهـ

4- عدم الحرص على معرفة الحق:

الحرص على معرفة الحق يعتبر من طريق المنعم عليهم؛ لما ذكر ذلك بان القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في «زاد المعاد» (176/4)، وذكر شيخ الإسلام كما في «المجموع» (44/2) أن الحكمة في القرآن هي معرفة الحق، وقوله، والعمل به. اهـ

وسبب ضلال كثير من الناس أنه لا يبالي على أيّ جنب سقط أو في أيّ واد هبط، بل الواجب على المسلم أن يكون حريصًا على معرفة الحق والعمل به، متفانيًا

في طلبه إن جهله أو غاب عنه؛ لأن الحق هو دين الله الذي أنزله وشرعه، وينبغي أن يكون المسلم حريصاً على طلب الحق ومعرفته؛ لأنه سبيل التوفيق، ومعلوم أنه ما من يوم إلا وتكثر فتنه، لاسيما في هذا الزمان، فعلى المسلم أن يظل باحثاً عن حكم الله عز وجل وحكم رسوله ﷺ حتى تفارق الروح الجسد، وقد يقع في عدم معرفة الحق لتفريطه في الاتباع، وحرصه عليه، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (313/3): (لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ضَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، فَإِنَّمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَتَرَكَ النَّظَرَ وَالِاسْتِدْلَالَ الْمَوْصِلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). اهـ

وانظر وفقك الله لطاعته على حرص سلمان عليه على معرفة الحق وتتبعه وطلبه (فإن الحق عزيز).

أخرج أحمد في مسنده (441/5) من حديث سلمان قال: كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جِيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرِيبِي، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِي، أَيُّ: مُلَازِمَ النَّارِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطْنَ النَّارِ، الَّذِي يُوقَدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَحْتَوُ سَاعَةً، قَالَ: وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ: فَشُغِلَ فِي بُنْيَانِ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانِ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَادْهَبْ فَاطْلِعْهَا، وَأَمْرِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ؛ لِحُبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِي، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي

نَحْنُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ، مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ صَيَعَةَ أَبِي، وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: بِالشَّامِ، قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي، وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي، وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، قَالَ: فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيُّ بُنْيَ، أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَاهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَاهَدْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ، مَا زِلْتُ عَنْدهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: أَيُّ بُنْيَ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلِي قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ.

قَالَ: وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَارُّ مِنْ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَارُّ مِنَ النَّصَارَى، قَالَ: فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَادْنُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَالْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ.

فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: الْأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّيَ مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَجُلٌ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، قَالَ: وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا؛ لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعْتُ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلًا سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُكُمْ فِيهَا، فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالُوا: وَمَا عَلِمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا أَذْكَكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، قَالُوا:

فَدَلَّنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ: فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا، فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ.

قَالَ: يَقُولُ سَلَامُنُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّيَ الْخُمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَرْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَذْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مِنْ قَبْلِهِ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرْتُهُ الْوَفَاةَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مِنْ قَبْلِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَلَيْلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، وَاللَّهِ، مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا، وَتَرَكَوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ، وَهُوَ فُلَانُ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ بِهِ.

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لِحَقَّتْ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّ الْحَقَّ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ، عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرْتُهُ الْوَفَاةَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَرَى، فَلَيْلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا بَنَصِييْنِ، وَهُوَ فُلَانُ، فَالْحَقُّ بِهِ.

وَقَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لِحَقَّتْ بِصَاحِبِ نَصِييْنِ، فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي، وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، قَالَ: فَأَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِيهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ، مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانُ إِلَيْكَ، فَلَيْلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا

تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بَعْمُورِيَّةً، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا.

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ بَعْمُورِيَّةَ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ: وَاکْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغَنِيمَةٌ، قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: أَيُّ بُنْيٍّ، وَاللَّهِ، مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظْلَكَ زَمَانُ نَبِيِّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى: يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كِتْفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ.

قَالَ: ثُمَّ مَاتَ وَغَيَّبَ، فَمَكَثْتُ بِبَعْمُورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ مُجَارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغَنِيمَتِي هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْوَهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرَّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذَقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ، إِذَا أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ

عَلَيْهِ فَقَالَ: فَلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ! وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ! قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذْتَنِي الْعُرَوَاءُ حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، قَالَ: وَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ: فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكَمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَشِيتَ عَمَّا قَالَ. وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ عُزْبَاءٌ، ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قَالَ: فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا» وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، قَالَ: فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَيْعِ الْعَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبَعَ جَنَازَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، عَلَيْهِ شَمَلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدْرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي؟ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدْرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي اسْتَشِيتُ فِي شَيْءٍ وَصَفَ لِي، قَالَ: فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَاِنْكَبْتُ عَلَيْهِ أُقْبِلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَوَّلْ» فَتَحَوَّلْتُ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ.

قَالَ: فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ شَغَلَ سَلَامَانَ الرَّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرٌ وَأُحُدٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَاتِبُ يَا سَلَامَانُ» فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أَحْيَاهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ، وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَعِينُوا أَخَاكُمْ» فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يَعْنِي: الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأَتْنِي؛ أَكُونُ أَنَا أَضْعُفُ بِيَدَيَّ» فَفَقَّرْتُ لَهَا، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا فَرَعْتُ مِنْهَا جِثَّتْ فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعِيَ إِلَيْهَا، فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ، مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَيْتُ النَّخْلَ، وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمَكَاتِبُ؟» قَالَ: فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ: «خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ» فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمَا عَلَيَّ؟ قَالَ: «خُذْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ» قَالَ: فَأَخَذْتُهَا، فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا - وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ - أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعَتَقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ.

فالمرء يحرص على معرفة الحق بدليله، فإذا ما وجده وفاز به ليتشبَّث به تشبُّث الغريق بالحبل.

فانظر إلى سلمان ؑ كم تعب وعانى وجاهد في سبيل معرفة الحق والوصول إليه، ومن صبر ظفر.

5- قلة الدعوة إلى الحق:

الله عز وجل يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]؛ وذلك كون الدعوة إلى الله عز وجل يحصل بها الهدى للناس والسلامة من طرق الردى.

والضعف في جانب الدعوة إلى الله يقع بسببه ظهور الباطل وفشوه وظهور مناصريه، بل الواجب على من عرف الحق أن يدعو إليه ويرغب فيه، ويوضحه ويجليه.

والناظر في طريقة الرسول ﷺ في الدعوة يرى هذا جلياً واضحاً، وقد أمر الله عز وجل بالدعوة إليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذا لأجل ظهور الحق قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وكلما قويت الدعوة بدعاتها انكسر الباطل، وكلما فترت الدعوة إلى الله عز وجل انتشر الباطل، فالدعوة علاج، والدعاة أطباء، والبدعة مرض، واتباعها مرض.

ولو تأمل المتأمل حال الأمة وما هي فيه من الهوان والتميع والجفاء والغلو والإفراط والتفريط لوجد أن السبب في ذلك قلة الدعاة الناصحين الذين يجلبون الحق ويوضحونه وينصرونه بنصر الله عز وجل لهم، ولأن قوة الحق ضعف للباطل، وضعف الحق قوة للباطل فتنبه!

6- الجهل:

الجهل داء عضال، كفى به مذمة أن ينكره من انغمس فيه، فالجاهل يقع في التميع أو الغلو؛ بسبب عدم معرفته للأوامر والنواهي، والحق والباطل؛ لأن الجهل سبب لكل بلاء، والعلم سبب لحصول كل خير؛ يدل على ذلك حديث معاوية ؓ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» أخرجاه في الصحيحين البخاري (71)، ومسلم (1037).

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (2/277): (ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلاً بالسراب، ومثلاً بالظلمات المتراكمة؛ وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان: أحدهما: من يظن أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة، يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له). اهـ

ولا يخفى على كل مسلم عنده أدنى معرفة بالإسلام وأحوال المسلمين أن جهلهم بشرائع الإسلام وأوامره ونواهيه وبأمور الشر وعواقبها أدى بهم إلى الانحطاط والفسوق والذهاب مع كل ناعق والقبول لقول كل مارق، وكيف لا، وربنا يقول: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَثُلُوا آلَآلِ بْنِ﴾ [الرعد: ١٩].

فالجهل عمى، بل نزل الله جل وعلا الجاهل - جهلاً مطلقاً - بمنزلة الأنعام، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والجاهل بدين الله بمنزلة الميت، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وإذا قام الجهل على أركانه الأربعة حصل الهلاك... وأركانه هي:

الكبر: وهو يمنع صاحبه من الانقياد للحق.

الحسد: وهو يمنع صاحبه من قبول النصيح وبذل الخير.

الغضب: وهو يمنع صاحبه من العدل.

الشهوة: وهي تمنعه من الصبر والعفاف والعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن أصيب بها^(١). اهـ

قال الإمام أحمد رحمه الله، كما في «إعلام الموقعين» (1/ 44): (وإنما جاء خلاف من خالف؛ لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها). اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (25/ 129): (وكثير ما يضيع الحق بين الجهال والأमीين). اهـ

وقال ابن القيم في «هداية الخيارى» ص(18): (والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً، فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس؛ فإن من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله). اهـ

وقال الشيخ مقبل رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(281): (والحزبية من أعظم أسباب جهل المسلمين، يشتغلون بها ويتركون العلم النافع، وأنا أتحدى أن يأتي بحزبي يُقبل على علم الكتاب والسنة (!)، ليس لديه وقت لهذه الأشياء، ثم تلقى الحزبية شباب طائش يبني أفكاره على خيالات... وكذلك إسناد الأمور إلى الجهال، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

(١) «تحذير البشر من أصول الشر» ص(49-50).

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاغًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». اهـ

فيا لله العجب! كيف يفعل الجهل بأهله؟! لا سيما إن كان صاحب الجهل يظن أنه يعلم، وهو ما يسمى بصاحب الجهل المركب! فإن هذا الصنف - لا كثره الله عز وجل - من قبله يؤتى الدين؛ لأن صاحبه عند العوام ممن يشار إليه بالبنان، وربما قلّده في دينهم، وكما قيل:

وَمَنْ جَعَلَ الْغُرَابَ لَهُ دَلِيلًا يَمُرُّ بِهِ عَلَى جِيفِ الْكِلَابِ

فيصبح مفتيًا بالباطل، داعيًا إليه، ومزيّنًا له، وهو متزيّ بزيّ أهله، فيقع الخلل في الدين والدعوة والاستقامة، ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس في ذم هذا الداء العضال حيث قال:

وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسُهُمَا يَلْقَى الرَّدَى بِمَذَلَّةٍ وَهَوَانٍ
ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ مِثْلُهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بُسْتِ الثَّوْبَانِ

وأصحاب الجهل المركب هم الذين أشار إليهم رسول الله ﷺ: «اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا»؛ لأنّ الناس لا يتخذون إلاّ من يظنون به العلم والخير والصلاح. «فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِرَأْيِهِمْ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

فكان من أعظم أسباب فساد الناس وأخذهم بالمذاهب التمييعية لهم دعاة السوء أصحاب الجهل المركب ومن كان على شاكلتهم.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «البدائع» (4/171): (الجهل قسمان: بسيط: وهو عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبس بضد. ومركب: وهو جهل أرباب

الاعتقادات الباطلة والقسم الأول هو الذي يطلب صاحبه العلم أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه. اهـ

7- سوء القصد:

وهذا وإن كان داخلاً في الإخلاص من حيث عدمه، لكن نذكره لخفائه، فكثير من المميعين في الدين حصل منهم ذلك؛ لمقاصدهم السيئة الخبيثة، من حب الرئاسة، والشهرة، والطعن في الدين، والرسول ﷺ يقول: «مَا ذُبُّبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» أخرجه الترمذي (2376) من حديث كعب بن مالك والحديث في «الصحيح المسند» للوادعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - (1094).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «إعلام الموقعين» (1/87): (صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم، الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين، الذين فسدت فهمهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفساد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغنى والرشاد، ويمدّه حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الربّ في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمّدة الخلق، وترك التقوى). اهـ

وأَسباب سوء القصد كثيرة، منها: الطمع والهلوع وراء الدنيا، ومنها: حبّ الرئاسة، ومنها: المكر بالدين، ومنها: الرياء، وغير ذلك، فكم أفسد روجيه جارودي المتمسلم، وجمال الدين الأفغاني الماسوني، وتلميذه محمد عبده المصري، وغيرهم من المدسوسين، وما كثير من الحركات المبتدعة إلا نتيجة لمكر القوم بالدين الحنيف، الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ، ليله كنهاره، لا يزيغ عنه إلا هالك.

8- الحرص على الدنيا:

«حُلُوهُ الدُّنْيَا مُرَّةٌ الْآخِرَةُ، وَمُرَّةُ الدُّنْيَا حُلُوهُ الْآخِرَةُ». أخرجه أحمد (5/ 342) وغيره، وهو في «الصحيح» (1817) عن أبي مالك الأشعري رحمه الله.

هذا هو الداء العضال، والسّم القتال، الذي يصيب المقاتل، وينكس الرءوس، ويذهب الاستقامات، حتّى قيل: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وفي الحديث: «الْفَقْرُ تَخَافُونَ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَصْبَنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا؛ حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيَ». وراه ابن ماجه رقم (5) عن أبي الدرداء رحمه الله، وفي حديث كعب بن عياض رحمه الله عند الترمذي برقم (2336): «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»، والحديث في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - (1093)، وقد قال الله عز وجل ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والرسول ﷺ يقول: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ».

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم (2742) رحمه الله: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»، فإذا كان هذا هو حال الدنيا كان الواجب علينا الزهد فيها والطمع في الآخرة دار القرار والنعيم المقيم.

قال ابن القيم في «الفوائد» (311-315): (لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص، والنغص، والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا، فهي كما قال الله سبحانه ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضي العقل إثارة، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه. فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا أثر الفاني الناقص كان ذلك؛ إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل، وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فان الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما إن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه،

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فيأثّر الدنيا على الآخرة، إما من فساد في الإيثار، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما؛ ولهذا نبذها رسول الله وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم، واطرحوها، ولم يألّفوها، وهجورها، ولم يميلوا إليها، وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فأثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر، لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور، لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل، قال النبي ﷺ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِأَدَا يَرْجِعُ»⁽²⁾.

وقال خالقها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرِبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿يُونُسُ: ٢٤-٢٥﴾، فأخبر عن خسة الدنيا، وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام، ودعا إليها، وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا

(1) رواه الترمذي (2377) عن ابن مسعود ؓ.

(2) رواه مسلم (2858)، والترمذي (2323) عن المستورد بن شداد ؓ، واللفظ للترمذي.

وَحَيْرٌ أَمَلًا ﴿[الكهف: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿[الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنكُمُ النِّسَاءُ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنكُمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ وَالْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَاقَبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْثِقْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿[آل عمران: ١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿[الرعد: ٢٦]، وقد تواعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[يونس: ٧-٨]، وعيّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿[التوبة: ٣٨]، وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تفاوله عن طاعة الله وطلب الآخرة، ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿[الشعراء: ٢٤-٢٥-٢٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿[يونس: ٤٥]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْهَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُورَثُهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤١-٤٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٣﴾ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١١-١١٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُفْخَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]. اهـ

فَكَمْ دَقَّتْ وَرَقَّتْ وَاسْتَرْقَتْ فُضُولُ الرُّزْقِ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

وقد شبه الله عز وجل من ترك الكتاب والسنة طمعاً في الدنيا بالكلب الذي هو أخس الحيوانات، قال الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وقال شيخ الإسلام ابن القيم (2/290): (وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته وإتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع. قلت: مراده

بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهث عليها؛ فهذا يلتهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلتهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال، فهو من أشد الحيوانات لهثاً، يلتهث قائماً وقاعداً وماشياً وواقفاً؛ وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه، توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلتهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلتهف. قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به. وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير، كالكلب، إن كان رابضاً لهث، وإن طرد لهث. وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يعظ، كالكلب يلتهث، طرد أو ترك. وقال عطاء: ينبج إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه. وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلتهث فإنما يلتهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلتهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش). اهـ

وكم من الدعاة من صار هذا حاله بعد الاستقامة والخير والعلم والدعوة، فإنه لما جاءت الجمعيات وأعطتهم الدنيا، وإذا بهم يرجعون على أعقابهم القهقري، يعرفون ما كانوا ينكرون، وينكرون ما كانوا يعرفون. فإننا لله وإنا إليه راجعون.

9- المكر بالدين والدعوة:

من أسباب تميع المسلمين هو المكر بالدين، فكثير من المميعين يتقمصون بلباس الدين والاستقامة؛ مكرًا بدين الله وأهله، ثم تقع منهم المخالفات باسم

الدين، فيغترّ بهم المغترّون، وينطلي تلبسهم على كثير من المسلمين، والمكر بالدين صفة ذميمة سلكها اليهود والنصارى والكافرون؛ مكرًا بحملة الدين الحق وأهله، ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى في بيان عظم مكرهم بالدين وأهله: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كُبَرًا﴾ [نوح: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، والمبطلون لاجئون في مكرهم ليل نهار، سرّ جهار، لا يفترّون ولا ينصبون ولا يتعبون، يؤزهم الشيطان إلى الباطل أزا، ويقذف بهم إلى الباطل قذفا، قال تعالى مبينًا حالهم في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

10- المصالح:

وقد قيل: (اليد التي تأخذ لا تصفع)، فكثير من الناس يترك الاستقامة الحقّة مخالطاً ومجالساً ومادحاً، وثانياً على أهل الباطل؛ حرصاً على وظيفة أو معاش أو إشادة أو غير ذلك، فلا تقدّم يا مسلم المصلحة الدنيوية - سواء البدنية أو الشهوانية - على دين ربّ العالمين، الذي تنتظم به المصالح الدينية والدنيوية، ومن أحسن ما يزهد في هذا الباب: النظر في العاقبة؛ فإنّ أصحاب المصالح يَمْنَعُونَهَا بمجرد الاستغناء عنك، ويقربونك وقت العوز إليك، ويقلونك ويبعدونك عند الاستكفاء عنك.

والتأمل لحال هرقل يجد أن السبب الذي جعله يمتنع عن الدخول في دين الله عز وجل هي مصلحة الملك، ففي البخاري رقم (7)، ومسلم (1773) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ، أَنَّ هِرْقَلًا أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءٍ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عِظَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا لِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُزْعَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذَّبُوهُ. فَوَاللَّهِ، لَوْ لَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ! ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فَيُكُفُّ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا! قَالَ: وَلَمْ تُتَكِنِّي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سَجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ» وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فَيُكُفُّ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبٍ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِيهِ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ

مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَلَّطْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَلَّطْتُكَ: أَشَرَفُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَلَّطْتُكَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَلَّطْتُكَ أَيْرَتُدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ. وَسَلَّطْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ. وَسَلَّطْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّسْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دَحِيَّةً إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلِمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ. ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَّغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وَأَخْرَجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أَخْرَجْنَا: لَقَدْ أَمَرَ

أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ! إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ! فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيُظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِبِلِيَاءَ وَهَرَقْلَ سُقْفًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ يُحَدِّثُ: أَنَّ هَرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِبِلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ! قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هَرَقْلُ حَزَاءً، يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَحْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَحْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يَهْمَنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هَرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَحْبَرَهُ هَرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا، أَمْحَتَيْنُ هُوَ أَمْ لَا؟ فَانْظُرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُحْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَحْتَتِنُونَ، فَقَالَ هَرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ.

ثُمَّ كَتَبَ هَرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةَ وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هَرَقْلُ إِلَى حِمَصَ، فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هَرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هَرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةِ لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ؛ فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ!!! فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هَرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنفًا اخْتَبَرْتُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ، وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هَرَقْلَ.

11- عدم التوبة النصوح:

كثير ممن يقع في المخالفات الشرعية تتخلف عنه التوبة النصوح؛ مما وقع فيه من المآخذ، فيظل يجامل من أجلها، ولو تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحاً كما أمره الله عز وجل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: ٨]؛ لرفع عقيرته وقويت شوكته، ولكن الله المستعان، وأذكر هنا من باب الفائدة شروط توبة من وقع في مخالفة دينية، وكان من الدعاة، وقد اغتر أحد بمخالفته، وهي:

الشرط الأول: الإخلاص له، بأن يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله عز وجل كي يتجاوز عنه سيئاته وزلاته ومخالفاته وهفواته ولا تكون نيته إرضاء زيد وعمرو من الناس.

وشرط لها الإخلاص؛ لأنها عبادة، والعبادة لا تكون صحيحة إلا بشرطين، على ما هو مبين في غير هذا الموطن. الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ﷺ، وكما يقال: توحيد المرسل، وتوحيد المرسل.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل من المعصية أو البدعة؛ لأن شعور الإنسان بالندم هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة، حتى قيل: (التوبة ندم)، أما إذا ظل مرتاحاً لما وقع فيه من قبل، أو يتبجح به، فهذا عين الخطل والذل والخذلان، والعياذ بالله، فمن استمر مقارفاً للذنب فربما كان فعله من قبيل السخرية والاستهتار بدين الله الحق، وتلاعب على الصالحين والمصلحين.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب الذي هو فيه، وهذا من أهم شروطه.

الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى هذا العمل؛ لأنه ما تركه إلا وهو باطل مخالف، فعزم العودة إليه مصيبة عظيمة.

الشرط الخامس: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة، وزمن قبول التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة. قال الرسول ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» أخرجه مسلم (158) عن أبي هريرة ؓ، وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ» أرجه أحمد (2/ 132).

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها: أن يبرأ من حق صاحبها، مع ما تقدم ذكره، وإن كانت بدعة، فشروطها ما تقدم، مع إصلاح ما أفسد، وبيان ما كان عليه من الضلال، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، فلا يكفي في حق مقارف البدعة ومقارنها والداعي إليها مجرد ما سبق، حتى يضيف إليه بيان الباطل الذي كان عليه، والدعوة إلى الحق والإصلاح. وقد تكلّمنا بتوسّع على شروط التوبة في رسالة مستقلة بحمد الله عز وجل، يرجع إليها من أراد التبصّر في هذا الباب، ذكرنا فيها - بحمد الله - شروط توبة العاصي فيما بينه وبين الله عز وجل، وفيما بينه وبين الخلق، وفيما إذا ما كان مبتدعاً أو منافقاً أو كافراً، والحمد لله على توفيقه وتسديده، واسأله المزيد من فضله.

12- تعظيم الرجال تعظيماً غير شرعي:

فيؤدي به هذا التعظيم إلى ترك الأدلة لقول زيد أو عمرو، وتكلف الدفاع عن الرجال الذين ثبتت مخالفتهم للحق، ومن المعلوم أن سبب ضلال اليهود والنصارى

وضلال الصوفية والشيعة والأخوان المسلمين بل وجميع المبطلين من هذا الباب، قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وذلك بتعظيم وتقديم أقوالهم المخالفة للحق على قول الله عز وجل وحكمه وشرعه، يوضح ذلك ما جاء عن عدي بن حاتم رضي الله عنه عند الترمذي (3095) قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِّنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ» وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ».

وقال المعلمي رحمه الله: (من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل). وهذا مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - يقول: (كلُّ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر) يعني رسول الله ﷺ. ويقول الشافعي رحمه الله: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). فالرجال يُعرفون بالحق، لا الحق يعرف بالرجال. ويا الله العجب كم من الناس الذين حادوا عن الصراط المستقيم والطريق القويم ووقعوا في مغضبات رب العالمين تعظيماً وتقديماً لأقوال ساداتهم وكبرائهم ومصيرهم الندم حيث لا ينفع، قال الله تعالى ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال الله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٣١]، ورحم الله الإمام أحمد إذ قال: (عجبت لمن عرف الإسناد وصحَّته ثم يعمد إلى قول سفيان). فلا عظيم إلا من عظمه الله عز وجل، وتشرف بتعظيم الأدلة، فالحذر من المهاوي ومسبباتها.

وليعلم المرء أن الحق لا يعرف بالرجال، وإنما الرجال يُعرفون بالحق، والمتأمل للساحة الدعوية يجد أن كثيرًا من الناس قد علقوا أنفسهم بأشخاص يميلون معهم، ويسرون معهم، دون نظر إلى مخالفة الدليل، أو موافقته، فتنبه! فمن كان مستنًا فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، وابن عباس رضي الله عنه لما سمع بعض المسلمين الذي يعظمون الدين أكثر من تعظيم أهل زماننا يقولون: قال أبو بكر وعمر - وأبو بكر وعمر هما من هما علمًا وورعًا وفقهًا وديانة، وكفى أنهما أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - قال رضي الله عنه: أقول قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر.

فأين أين المتجردون للأدلة بعيدًا عن الأفكار والأهواء المضلة!!!

13- مجالسة الممّيعين أو أهل البدع:

ما وصل حال هذه الأمة إلى هذا الانحطاط إلا بسبب مخالفة أمر الله عز وجل وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنها في هذا الباب، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». وصح عن أبي قلابة - رحمه الله تعالى - أنه قال: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تخاطوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم). أخرجه اللالكائي (244)، وأخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» عن الحسن بن محمد بن علي قال: (لا تجالسوا أهل القدر)، وفي المثل: (من جالس جانس).

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «مدارج السالكين» (39/2): (صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعايشة أخلاق من يقارنه ويعاشره، ولو أنه من الحيوان البهيم، فيصير من أخبت الناس أخلاقًا وأفعالًا، وتعود له تلك

طباعاً، ويتعذر أو يتعسر عليه الانتقال عنها، وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقاً وأفعالاً شريفة، تصير له كالطبيعة؛ فإن العوائد والمزاوالت تعطي الملكات والأخلاق). اهـ

وسياقي في فصل (وسائل السلامة من التميع) مزيد بسط وإيضاح - إِنَّ شَاءَ اللَّهِ تَعَالَى -.

14- التقليد:

التقليد: هو قبول قول القائل من غير ذكر الحجة على قوله، وقد نظمها بعضهم بقوله:

تَقْلِيدُنَا قَبُولُ قَوْلِ الْقَائِلِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ حُجَّةٍ لِلْسَّائِلِ

وهو من أعظم أسباب ضلال الأمم، فما عُبِدَت الأصنام والأوثان إلا بشبهة التقليد، قال الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]، وفي الحديث: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ». أخرجه البخاري (7320)، ومسلم (2669) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال ابن القيم في «الزاد» (221/5): (إِنَّ الْمُقَلِّدَ الْمُتَعَصِّبَ لَا يَتْرُكُ مِنْ قَلْدِهِ وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ، وَإِنْ طَالَبَ الدَّلِيلَ، لَا يَأْتِمُ بِسِوَاهِ، وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا بِإِيَّاهِ، وَلِكُلِّ مِنَ النَّاسِ مُورِدٌ لَا يَتَعَدَاهُ، وَسَبِيلٌ لَا يَتَخَطَاهُ، وَلَقَدْ عَذَرَ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ قَوَاهُ، وَسَعَىٰ إِلَىٰ حَيْثُ انْتَهَتْ إِلَيْهِ خَطَاهُ). اهـ

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (281/5): (فإن التقليد لا يورث إلا البلادة). اهـ

وزد إلى ذلك أنه يورث الخروج عن جادة الطريق، وترك الأدلة الشرعية، والطريقة المرضية؛ تبعاً لقول فلان، بينما الواجب على المسلمين الاتباع، قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، والمتأمل للساحة في هذه الفترة يرى دعوة صريحة إلى التقليد من كثير ممن تقمص لباس العلم والعلماء، فإننا لله وإننا إليه راجعون.

وقد ذكر ابن القيم وغيره من أهل العلم إجماع العلماء إلى أن المقلد ليس بعالم، ولما ان الشر كثير ودعائه كذلك، فقد انتقاد كثير من الناس إلى تقليد غيرهم من الدعاة دينهم، فأحلوا الحرام، ووقع الإجرام، وشارك الناس في الانتخابات، وعظموا الديمقراطية، ووضعوا الأموال في البنوك الربوية، وعظمت بذلك البلية، وانتشر السفور، ولبس الزور، وبيعت الخمر، كل هذا بسبب التقليد لدعاة السوء الذي هم دعاة على أبواب جهنم. من أنت يا هذا، ومن أنا حتى نُقلد! الواجب علينا أن نربط الناس بالدليل، والسنة والتنزيل؛ لأن الحق فيها.

15- التأويلات الفاسدة:

وبيان ذلك أنهم ينظرون إلى أدلة الأخوة الدينية وما يياثلها أو شاكلها، ويتركون أدلة هجر أهل البدع والتحذير منهم والبعد عنهم. والتأويل الفاسد خطره عظيم، وشره جسيم، فكم لحق الأمة من الويلات بسببه، وهل راجت البدع وانتشرت إلا بسبب التعاطي لهذا المرض الخطير؟! الذي هو في الحقيقة تحريف للدين، ولصراطه المستقيم، حيث يصرفون دلالة الأدلة من دلالتها الظاهرة إلى ما يوافق اعتقادهم المخالفة للدليل، إلا مجرد الهوى والظن، فتأمل قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

وإليك كلام نفيس لابن القيم رحمه الله يبين فيه كثيرًا من الحقائق والجنايات لهذا المرض النافق عند المبطلين، حيث قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الصواعق المرسلة» (1/348-381): (الفصل الخامس عشر: في جنایات التأویل على أديان الرسل، وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأويل).

إذا تأمل المتأمل فساد العالم، وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دفع إليه أهل الإسلام، وجده ناشئًا من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن، وأخبار الرسول، التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم، في أصول الدين وفروعه؛ فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين، والتحارب، وتفرق الكلمة، وتشتت الأهواء، وتصدع الشمل، وانقطاع الحبل، وفساد ذات البين؛ حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضًا، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين وتستحل منهم أنفسهم وحرمة أموالهم، ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم، فالآفات التي جنتها ويحنيها كل وقت أصحابها على الملة والأمة من التأويلات الفاسدة أكثر من أن تحصى أو يبلغها وصف واصف أو يحيط بها ذكر ذاك، ولكنها في جملة القول أصل كل فساد وفتنة، وأساس كل ضلال وبدعة، والمولدة لكل اختلاف وفرقة، والناجمة أسباب كل تباين وعداوة وبغضة، ومن عظيم آفات ومصيبة الأمة بها: أن الأهواء المضلة والآراء المهلكة التي تتولد من قبلها لا تزال تنمو وتتزايد على ممر الأيام وتعاقب الأزمنة، وليست الحال في الضلالات التي حدثت من قبل أصول الأديان الفاسدة كذلك، فإن فساد تلك معلوم عند الأمة وأصحابها لا يطمعون في إدخالها في دين الإسلام، فلا تطمع أهل الملة اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية ولا الثانوية ونحوهم أن يدخلوا أصول مللهم في الإسلام، ولا يدعوا مسلمًا إليه، ولا يدخلوه إليهم من بابه أبدًا، بخلاف فرقة التأويل، فإنهم يدعون المسلم من باب

القرآن والسنة وتعظيمهما وأن لنصوصهما تأويلاً لا يوجد إلا عند خواص أهل العلم والتحقيق، وأن العامة في عمى عنه. فضرر هذه الفرقة على الإسلام وأهله أعظم من ضرر أعدائه المنابذين له. ومثلهم ومثل أولئك كمثّل قوم في حصن حاربهم عدو لهم فلم يطمع في فتح حصنهم والدخول عليهم، فعمد جماعة من أهل الحصن ففتحوه له وسلطوه على الدخول إليه، فكان مصاب أهل الحصن من قبلهم.

وبالجملة فالأهواء المتولدة من قبل التأويلات الباطلة غير محصورة ولا متناهية، بل هي متزايدة نامية، بحسب سوانح التأويلين وخواطرهم وما تخرجه إليه ظنونهم وأوهامهم؛ ولذلك لا يزال المستقصي عناء نفسه في البحث عن المقالات وتتبعها يهجم على أقوال من مذاهب أهل التأويل لم تكن تخطر له على بال، ولا تدور له في خيال، ويرى أمواجاً من زبد الصدور تتلاطم ليس لها ضابط إلا سوانح وخواطر وهوس تقذف به النفوس التي لم يؤيدها الله بروح الحق، ولا أشرقت عليها شمس الهداية، ولا باشرت حقيقة الإيمان، فخواطرها وهوسها لا غاية له يقف عندها، فإن أردت الإشراف على ذلك تأمل كتب المقالات والآراء والديانات، تجد كل ما يخطر ببالك قد ذهب إليه ذاهبون، وصار إليه صائرون، ووراء ذلك ما لم يخطر لك على بال. وكل هذه الفرق تتأول نصوص الوحي على قولها، وتحمله على تأويلها، ومع ذلك فتجد أولي العقول الضعيفة إلى الاستجابة لهم مسارعين، وفي القبول منهم راغبين، فهم يبادرون إلى أخذ ما يوردونه عليهم وقبولهم إياه عنهم، وعلى الدعوة إليه هم أشد حرصاً منهم على الدعوة إلى الحق الذي جاءت به الرسل، ولم يوجد الأمر في قبول دعوة الرسل كذلك، بل قد علم ما لقي المرسلون في الدعوة إلى الله من الجهد والمشقة والمكابدة، ولقوا أشد العناء والمكروه، وقاسوا أبلغ الأذى، حتى استجاب لهم من استجاب إلى الحق الذي هو موجب الفطر، وشقيق الأرواح،

وحياة القلوب، وقرة العيون، ونجاة النفوس، حتى إذا أطلع شيطان التأويل رأسه، وأبدى لهم عن ناجذيه، ورفع لهم علماً من التأويل، طاروا إليه زرافات ووحدانا، فهم إخوان السفلة الطغام، أشباه الأنعام، بل أضل من الأنعام، طبل يجمعهم، وعصا تفرقهم، فانظر ما لقيه نوح وإبراهيم وصالح وهود وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم في الدعوة إلى الله من الرد عليهم، والتكذيب لهم، وقصدهم بأنواع الأذى، حتى ظهرت دعوة من ظهرت دعوته منهم، وأقاموا دين الله، وانظر سرعة المستجيبين لدعاة الرافضة والقرامطة الباطنية والجهمية والمعتزلة، وإكرامهم لدعاتهم، وبذل أموالهم، وطاعتهم لهم من غير برهان أتوهم به، أو آية أروهم إياها، غير أنهم دعوهم إلى تأويل تستغربه النفوس، وتستطرفه العقول، وأوهموهم أنه من وظيفة الخاصة الذين ارتفعوا به عن طبقة العامة، فالصائر إليه معدود في الخواص، مفارق للعوام، فلم تر شيئاً من المذاهب الباطلة، والآراء الفاسدة المستخرجة بالتأويل قبول الداعي إليه الآتي به أولاً بالتكذيب له، والرد عليه، بل ترى المخدوعين المغرورين يجفلون إليه إجماعاً، ويأتون إليه أرسالاً، تؤزهم إليه شياطينهم ونفوسهم أژاً، وتزعجهم إليه إزعاجاً، فيدخلون فيه أفواجاً، يتهافتون فيه تهافت الفراش في النار، ويثوبون إليه مثابة الطير إلى الأوكار، ثم من عظيم آفاته: سهولة الأمر على المتأولين في نقل المدعويين عن مذاهبهم وقبيح اعتقادهم إليهم، ونسخ الهدى من صدورهم، فإنهم ربما اختاروا للدعوة إليه رجلاً مشهوراً بالديانة والصيانة، معروفاً بالأمانة، حسن الأخلاق، جميل الهيئة، فصيح اللسان، صبوراً على التقشف والتزهد، مرتاضاً لمخاطبة الناس على اختلاف طبقاتهم، ويتهياً لهم مع ذلك من عيب أهل الحق والطعن عليهم والإزراء بهم ما يظفر به المفتش عن العيوب، فيقولون للمغرور المخدوع: وازن بين هؤلاء وهؤلاء،

وحكّم عقلك، وانظر إلى نتيجة الحق والباطل، فيتهياً لهم بهذا الخداع مالا يتهياً بالجيوش، وما لا يطمع في الوصول إليه بدون تلك الجهة، ثم من أعظم جنایات التأويل على الدين وأهله وأبلغها نكایة فيه أن المتأول يجد باباً مفتوحاً لما يقصده من تشييت كلمة أهل الدين، وتبديد نظامهم، وسبيلاً سهلة إلى ذلك، فإنه يحتجز من المسلمين بإقراره معهم بأصل التنزيل، ويدخل نفسه في زمرة أهل التأويل، ثم بعد ذلك يقول ما شاء، ويدعي ما أحب، ولا يقدر على منعه من ذلك؛ لادعائه أن أصل التنزيل مشترك بينك وبينه، وأن عامة الطوائف المقررة به قد تأولت كل طائفة لنفسها تأويلاً ذهبت إليه، فهو يبدي نظير تأويلاتهم، ويقول: ليس لك أن تبدي في التأويل مذهباً إلا ومثله سائغ لي، فما الذي أباحه لك وحظره عليّ؟ وأنا وأنت قد أقررنا بأصل التنزيل، واتفقنا على تسويغ التأويل، فلم كان تأويلك مع مخالفته لظاهر التنزيل سائغاً، وتأويلي أنا محرماً؟ فتعلقه بهذا أبلغ مكيدة يستعملها، وأنكر سلاح يحارب به، فهذه الآفات وأضعافها إنما لقيها أهل الأديان من التأويل، فالتأويل هو الذي فرق اليهود إحدى وسبعين فرقة، والنصارى ثنتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة. فأما اليهود فإنهم بسبب التأويلات التي استخرجوها بآرائهم من كتبهم صاروا فرقاً مختلفة بعد اتفاقهم على أصل الدين والإيمان بما في التوراة والزبور وكتب أنبيائهم التي يدرسونها ويؤمنون بها، وبسبب التأويلات الباطلة مسخوا قردة وخنزير، وجرى عليهم من الفتن والمحن ما قصه الله. وبالتأويل الباطل عبدوا العجل حتى آل أمرهم إلى ما آل، وبالتأويل الباطل فارقوا حكم التوراة، واستحلوا المحارم، وارتكبوا المآثم، فهم أئمة التأويل والتحريف والتبديل، والناس لهم فيه تبع، فلا تبلغ فرقة مبلغهم فيه. وبالتأويل استحلوا محارم الله بأقل الحيل. وبالتأويل قتلوا الأنبياء، فإنهم قتلوههم وهم مصدقون بالتوراة وبموسى،

وبالتأويل والتحريف حلت بهم المثالات، وتتابع عليهم العقوبات، وقُطِّعوا في الأرض أمماً، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله. وبالتأويل دفعوا نبوة عيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وقد استهلت التوراة وكتب الأنبياء بالبشارة بهما وظهورهما، ولا سيما البشارات بمحمد، فإنها متظاهرة في كتبهم بصفة رسول الله ومخرجه ومبعثه ودعوته وكتابه وصفة أمته وسيرتهم وأحوالهم؛ بحيث كان علماءهم لما رأوه وشاهدوه عرفوه معرفتهم أبناءهم، ومع هذا فجحدوا أمره ودفعوه على قومه وظهوره بالتأويلات التي استخرجوها من تلك الألفاظ التي تضمنتها البشارات حتى التبس الأمر بذلك على أتباعهم ومن لا يعلم الكتاب إلا أماني، وخيل إليهم بتلك التأويلات التي هي من جنس تأويلات الجهمية والرافضة والقرامطة أنه ليس هو فسطوا على تلك البشارات بكتمان ما وجدوا السبيل إلى كتمانها، وما غلبوا عن كتمانها حرفوا لفظه عن ما هو عليه، وما عجزوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه بالتأويل. وورثهم أشباههم من المنتسبين إلى الملة في هذه الأمور الثلاثة، وكان عصبية الوارثين لهم في ذلك ثلاث طوائف: الرافضة والجهمية والقرامطة، فإنهم اعتمدوا في النصوص المخالفة؛ لضلالهم هذه الأمور الثلاثة، والله سبحانه ذمهم على التحريف والكتمان.

والتحريف نوعان: تحريف اللفظ وهو تبديله، وتحريف المعنى وهو صرف اللفظ عنه إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ.

وأما فساد دين النصارى من جهة التأويل، فأول ذلك ما عرض في التوحيد الذي هو عمود الدين، فإن سلف المثلثة قالوا في الربوبية بالتثليث وحديث الأقانيم: والأب والابن وروح القدس، ثم اختلف من بعدهم في تأويل كلامهم اختلافاً

تباينوا به غاية التباين، وإنما عرض لهم هذا الاختلاف من جهة التأويلات الباطلة، وكانت حالهم فيما جنت عليهم التأويلات الباطلة أفسد حالاً من اليهود، فإنهم لم يصلوا بتأويلهم إلى ما وصل إليه عباد الصليب من نسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، ثم دفعوا بالتأويلات إلى إبطال شرائع التوراة، فأبطلوا الحتان، واستحلوا السبت، واستباحوا الخنزير، وعطلوا الغسل من الجنابة، وكان الذي فتح عليهم أبواب هذه التأويلات بولس، فاستخف جماعة من ضعفاء العقول، فقبلوا منه تلك التأويلات، ثم أورثت الخلاف بينهم؛ حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه من انسلاخهم عن شريعة المسيح في التوحيد والعمليات. ثم تأولت اليعقوبية أتباع يعقوب البراذعي تأويلاً. فتأولت النسطورية أتباع نسطور بن عبرة. فتأولت الملكية وهم الذين على دين الملك عبرة. فاضمحل الدين، وخرجوا منه خروج الشعرة من العجين، فلو تأملت تأويلاتهم لرأيتموها والله من جنس تأويلات الجهمية والرافضة والمعتزلة، ورأيت الجميع من مشكاة واحدة، ولولا خوف التطويل لذكرنا لك تلك التأويلات؛ ليعلم أنها وتأويلات المحرفين من هذه الأمة:

رَضِيعًا لِبَاسٍ ثَدْيٍ أُمٍّ تَقَاسَمًا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضٌ لَا تَنْفَرُ

ولو رأيت تأويلاتهم لنصوص التوراة في الإخبار والأمر والنهي لقلت إن أهل التأويل الباطل من هذه الأمة إنما تلقوا تأويلاتهم عنهم، وعجبت من تشابه قلوبهم، وقوع الحافر على الحافر، والخاطر على الخاطر، ولم يزل أمر بني إسرائيل مستقيماً حتى فشا فيهم المولدون أبناء سببا الأمم، فاشتقوا لهم الرأي، وسلطوا التأويل على نصوص التوراة، فضلوا وأضلوا، وهؤلاء النصارى لم يزل أمرهم بعد المسيح على منهاج الاستقامة حتى ظهر فيهم المتأولون، فأخذت عرى دينهم تنتقض، والمتأولون يجتمعون مجمعاً بعد مجمع، وفي كل مجمع يخرج لهم تأويلات تناقض الدين الصحيح،

فيلقاهم أصحاب المجمع الآخر ولا يوافقوا لهم عليها، حتى جمعهم الملك قسطنطين من أقطار الأرض، فبلغوا ثلاثمائة وثمانية عشر بتركا وأسقفًا، فتأولوا لهم هذه الأمانة التي بأيديهم اليوم، وأبطلوا من دين المسيح ما شاءوا، وزادوا فيه ونقصوا، ووضعوا من الشرائع ما شاءوا، كل ذلك بالتأويل، وقد ذكروا الظواهر التي تأولوها.

وبالتأويل جعلوا الله ثالث ثلاثة، وجعلوا المسيح ابنه، وجعلوه هو الله، فقالوا: هذا وهذا وهذا، تعالى الله عن قولهم!!! وبالتأويل تركوا الختان، وأباحوا الخنزير، وهم يعلمون أن المسيح اختتن، وحرم الخنزير. وبالتأويل نقلوا الصوم من محله إلى الفصل الربيعي، وزادوه حتى صار خمسين يومًا. وبالتأويل عبدوا الصليب والصور. وبالتأويل فارقوا حكم التوراة والإنجيل.

فصل

ومن أعظم آفات التأويل وجنباياته: أنه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وأصول الإسلام خمسة، وهي: كلمة الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

فعمد أرباب التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل؛ وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له، وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتغالها على ما عداه، وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوعها في غيره؛ وذلك لشرف

متعلقة، وعظمته، وشدة الحاجة إلى معرفته، وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره، وهذا من كمال حكمة الرب تبارك وتعالى، وتمام نعمته وإحسانه، أنه كلما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل، وهذا في الخلق والأمر، فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت كان موجودًا معهم في كل مكان وزمان، وهو أكثر من غيره، وكذلك لما كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة إذ هو مادة أقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم كان مبذولًا لهم أكثر من غيره، وكذلك حاجتهم إلى القوت لما كانت أشد من حاجتهم إلى الإيواء كان وجود القوت أكثر، وهكذا الأمر في مراتب الحاجات. ومعلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم جلّ جلاله فوق مراتب هذه الحاجات كلها، فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم، ونهاية مرادهم، وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم، وحياة قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالًا من الأنعام بكثير، وكانت الأنعام أطيّب عيشًا منهم في العاجل، وأسلم عاقبة في الآجل، وإذا علم أن ضرورة العبد إلى معرفة ربه ومحبته وعبادته والتقرب إليه فوق كل ضرورة، كانت الطرق المعرفة لهم ذلك أيسر طرق العلم على الإطلاق، وأسهلها وأهداها وأقربها، وبيان الرب تعالى لها فوق كل بيان، فإذا سلط التأويل على النصوص المشتملة عليها، فتسليطه على النصوص التي ذكرت فيها الملائكة أقرب بكثير، يوضحه أن الرب تعالى لم يذكر للعباد من صفات ملائكته وشأنهم وأفعالهم وأسمائهم عشر معشار ما ذكر لهم من نعوت جلاله وصفات كماله وأسمائه وأفعاله، فإذا كانت هذه قابلة للتأويل، فالآيات التي ذكرت فيها الملائكة أولى بقبوله؛ ولذلك تأولها الملاحدة كما تأولوا نصوص المعاد واليوم الآخر، وأبدوا له تأويلات ليست

بدون تأويلات الجهمية لنصوص الصفات، وأولت هذه الطائفة عامة نصوص الأخبار الماضية والآتية، وقالوا للمتأولين من الجهمية: بيننا وبينكم حاكم العقل، فإن القرآن بل الكتب المنزلة مملوءة بذكر الفوقية وعلو الله على عرشه، وأنه تكلم ويتكلم، وأنه موصوف بالصفات، وأن له أفعالاً تقوم به، هو بها فاعل، وأنه يرى بالأبصار، إلى غير ذلك من نصوص الصفات التي إذا قيس إليها نصوص حشر هذه الأجساد وخراب هذا العالم وإعدامه وإنشاء عالم آخر وجدت نصوص الصفات أضعاف أضعافها. فهذه الآيات والأخبار الدالة على علو الرب تعالى على خلقه وفوقيته واستوائه على عرشه قد قيل إنها تقارب الألف، وقد أجمعت عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، فما الذي سوغ لكم تأويلها وحرّم علينا تأويل نصوص حشر الأجساد وخراب العالم؟ فإن قلتم: الرسل أجمعوا على المجيء به، فلا يمكن تأويله. قيل: وقد أجمعوا على أن الله فوق عرشه وأنه متكلم مكلم فاعل حقيقة، موصوف بالصفات، فإن منع إجماعهم هناك من التأويل وجب أن يمنع ههنا. فإن قلتم: العقل أوجب تأويل نصوص الصفات ولم يوجب تأويل نصوص المعاد. قلنا: هاتوا أدلة العقول التي تأولتم بها الصفات، ونحضر نحن أدلة العقول التي تأولنا بها المعاد وحشر الأجساد، ونوازن بينها؛ ليتبين أيها أقوى. فإن قلتم: إنكار المعاد تكذيب لما علم من دين الرسل بالضرورة. قلنا: وإنكار صفات الرب وأنه متكلم أمرٌ ناهٍ فوق سمواته، وأن الأمر ينزل من عنده، ويصعد إليه، تكذيب لما علم أنهم جاءوا به ضرورة. فإن قلتم: تأويلنا للنصوص التي جاءوا بها لا يستلزم تكذيبهم ورد أخبارهم. قلنا: فمن أين صار تأويلنا للنصوص التي جاءوا بها في المعاد يستلزم تكذيبهم ورد أخبارهم دون تأويلكم؟! إلا لمجرد التحكم والتشهي. فصاحت القرامطة والملاحدة والباطنية وقالت: ما الذي سوغ لكم تأويل الأخبار وحرّم علينا

تأويل الأمر والنهي والتحريم والإيجاب؟! ومورد الجميع من مشكاة واحدة، فنحن سلطنا في تأويل الشرائع العملية نظير ما سلكتكم في تأويل النصوص الخبرية. قالوا: وأين تقع نصوص الأمر والنهي من نصوص الخبر؟! قالوا: وكثير منكم قد فتحوا لنا باب التأويل في الأمر، فأولوا أوامر ونواهي كثيرة صريحة الدلالة أو ظاهرة الدلالة في معناها بما يخرجها عن حقائقها وظواهرها، فهلم نضعها في كفة، ونضع تأويلاتنا في كفة، ونوازن بينهما، ونحن لا ننكر أنا أكثر تأويلاً منهم، وأوسع، لكننا وجدنا باباً مفتوحاً فدخلناه، وطريقاً مسلوفاً فسلكناه، فإن كان التأويل حقاً فنحن أسعد الناس به، وإن كان باطلاً فنحن وأنتم مشتركون فيه، ومستقل ومستكثر، فهذا من شؤم جنائية التأويل على أصول الإيمان والإسلام. وقد قيل: إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل؛ فإنه عارض النص بالقياس، وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود؛ فإنه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه، وهي: أن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها مقررة؛ لكونها معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود، وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته. والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، من ههنا اشتق هذه القاعدة وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه، وعرضت لعدو الله هذه

الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي، وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ فِيهِ أَئِذَا نَزَلَ بِآيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بسبب التأويل، وإلا فهو لم يقصد بالأكل معصية الرب والتجرؤ على مخالفة نهيه، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء بخروجه من الجنة، هذا لم يقصده أبو البشر قطعاً، ثم اختلف الناس في وجه تأويله، فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة، وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا الذي قالوه نظر ظاهر! فإن الله سبحانه أخبر أن إبليس قال له: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها، إما بعينها أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها، ولا أخرج الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهى تنزيه لا نهى تحريم، فأقدم على الأكل لذلك. وهذا باطل قطعاً من وجوه كثيرة، يكفي منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وأيضاً فحيث نهى الله عن فعل الشيء بقربانه لم يكن إلا للتحريم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَٰذَا حَتَّىٰ يَظْهَرَ لَكُم مَّا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهِ حَرَامٌ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ

الْيَتِيمِ ﴿[الأنعام: ١٥٢]، وأيضا لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة وأخبر أنه عصي ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانها وأكلها معاً، لا عن أكل كل منهما على انفراده؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ [البقرة: ٣٥]، نهى لهما على الجمع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد. وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب في تفسيره، وهو كما ترى في البطلان والفساد، ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة! وهما كانا أعلم بالله من ذلك، وأصح أفهاماً، أفترى فهم أحد عن الله من قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ونظائره، أي: إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به؟؟!! فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيان! وتجد لها حاملاً وقابلاً يستحسنها ويصغي بقلبه وسمعه إليها!

والصواب في ذلك أن يقال: إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد، أحدها: القسم، الثاني: تصديرها بالجملة اسمية لا فعلية، الثالث: تصديرها بأداة التأكيد، الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر، الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالاً على الحدث، السادس: تقديم المعمول على العامل فيه، ولم يكن آدم يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها على الله هذه الجرأة، فغره عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من

يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شك فيه، إذا أقدم على المعصية فوازن بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين يظهر لك الصواب من الخطأ، والله الموفق للصواب.

فصل

ومن جنيات التأويل ما وقع في الإسلام من الحوادث بعد موت رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا، بل في حياته صلوات الله وسلامه عليه، فإن خالد بن الوليد قتل بني جذيمة بالتأويل؛ ولهذا تبرأ رسول الله من صنعه، وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ خَالِدٌ».

ومنع الزكاة من منعها من العرب بعد موت رسول الله ﷺ بالتأويل، وقالوا: إنما قال الله لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا لا يكون لغيره، فجري بسبب هذا التأويل الباطل على الإسلام وأهله ما جرى.

ثم جرت الفتنة التي جرت قتل عثمان بالتأويل ولم يزل التأويل يأخذ مأخذه حتى قتل به عثمان، فأخذ بالزيادة والتولد حتى قتل به بين علي ومعاوية بصفين سبعين ألفاً أو أكثر من المسلمين.

وقتل أهل الحرة بالتأويل، وقتل يوم الجمل بالتأويل من قتل، ثم كان قتل ابن الزبير ونصب المنجنيق على البيت بالتأويل، ثم كانت فتنة ابن الأشعث وقتل من قتل من المسلمين بدير الجماجم بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج وما لقي المسلمون من حروبهم وأذاهم بالتأويل، ثم خروج أبي مسلم وقتله بني أمية وتلك الحروب العظام بالتأويل، ثم خروج العلويين وقتلهم وحبسهم ونفيهم بالتأويل، إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسلام التي جرّها التأويل، وما ضرب مالك

بالسياط وطيف به إلا بالتأويل، ولا ضرب الإمام أحمد بالسياط وطلب قتله إلا بالتأويل، ولا قتل أحمد بن نصر الخزاعي إلا بالتأويل، ولا جرى على نعيم بن حماد الخزاعي ما جرى وتوجع أهل الإسلام لمصابه إلا بالتأويل، ولا جرى على محمد بن إسماعيل البخاري ما جرى ونفى وأخرج من بلده إلا بالتأويل، ولا قتل من قتل خلفاء الإسلام وملوكه إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام عبدالله أبي إسماعيل الأنصاري رحمه الله ما جرى وطلب قتله بضعة وعشرين مرة إلا بالتأويل، ولا جرى على أئمة السنة والحديث ما جرى حين حبسوا وشردوا وأخرجوا من ديارهم إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى من خصومه بالسجن وطلب قتله أكثر من عشرين مرة إلا بالتأويل.

فقاتل الله التأويل الباطل وأهله، وأخذ حق دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم، فماذا هدموا من معقل الإسلام وهدوا من أركانه وقلعوا من قواعده، ولقد تركوه أرق من الثوب الخلق البالي الذي تطاولت عليه السنون وتوالت عليه الأهوية والرياح.

ولو بسطنا هذا الفصل وحده ما جناه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم لقام منه عدة أسفار، وإنما نبهنا تنبيها يعلم به العاقل ما وراءه وبالله التوفيق. اهـ فتأمل ما ذكره هذا الإمام في بيان ما عليه هذا المرض والسّم الزعاف الذي أتى إلى أصول الدين وأسسها لينقضها، ومع ذلك تجد أنّ المميّعين آخذين بهذا الباب الخطير حالاً وقالاً، فنسأل الله السلامة.

بل الوجوب على المسلمين إجراء نصوص الكتاب والسنة على ظاهرهما، حتى تأتي قرينة متصلة أو منفصلة تصرفهما عن هذا الظاهر، ثم أيضاً ظاهر القرآن والسنة هو ما يتبادر إلى ذهن العربي السليم لأول وهلة، وليس ما يتبادر إلى أذهان المعطلين

المنحرفين، فإنهم قد ادعوا في نصوص الصفات أن ظاهر القول بها كفر؛ فاحتاجت إلى تأويل.

16- الشبهة:

لها دور كبير في تميع الأفراد والجماعات، حيث ولها تأثير بالغ على القلوب، وقد حذر رسول الله من السماع لأصحابها لما في سماعهم من الضرر، ففي الصحيحين البخاري (4547)، ومسلم (2665) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7] قَالَتْ رضي الله عنها: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ».

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في «مفتاح دار السعادة» (1/ 442-443): (والشبهة: وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها، حتى يصير شاكاً مرتاباً. والقلب يتوارده جَيْشَانِ مِنَ الْبَاطِلِ: جَيْشُ شَهَوَاتِ الْعُيِّيِّ، وجيش شبهات الباطل، فأيا قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلاً بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشْرِبَ شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه. وقال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل

السفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرًا للشبهات.) أو كما قال. فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك، وإنما سميت الشبهة شبهة: لاشتباه الحق بالباطل فيها؛ فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس، فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين، فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد؛ نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه. فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته، وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله. وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر. وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله.). اهـ

وأكثر مروّجي الشبه هم أهل البدع والضلالات، فالواجب البعد عنهم، وعدم السماع لهم؛ لأنّ الشبه خطّافة، ففي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، قال الرسول ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالِدَّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ». رواه أبو داود (4319). فهذا الدجال الذي ظاهره يبيّن عن باطنه الخبيث، ومع ذلك يُتبع بسبب تليساته ودجله.

فالواجب على كل مسلم أن يأخذ دينه من كتاب الله عز وجل، بعيدًا عن تأويلات الجاهلين، وتخربات المبطلين، وشبه الماكرين، وفي البخاري (7068) عن أنس رضي الله عنه: «اضْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا

رَبِّكُمْ». فُشِبَهُ المخالفين في ههذ الايام كثيرة جدًّا، لا ينجو منها إلا من نجاه الله عز وجل، والمتأمل لحال أهل البدع في هذا الباب يجد أنهم ينكرون رؤية المؤمنين ربهم مع سوقهم لبعض الشبه، وكذا يقولون بخلق القرآن معرضين عن الأدلة المتواترة، بل وعن الدلالة الحقة لما يسوقونه محتجين به على باطلهم، والله المستعان.

قال العلامة الحجوري في «الثوابت المنهجية» ص(13): وهكذا دائماً أهل الباطل على هوى يسرون، فيأتون بشبهة من هنا، فهذا يريدك أن تبيع في لباسك ولحيتك، فتكون مثله مبنطلاً مكرفتاً على تلك الصورة المزرية التي لا يرغب فيها مستقيم. وهذا يريد منك أن تبيع في منهجك، فتبقى حزبياً أو جمعياً. اهـ

واعلم أن الشبهة لما كانت على ما تقدم، فقد بين الله عز وجل فساد كثير من الشبه في كتابه. قال ابن الوزير في «العواصم والقواصم» في خطبة الكتاب: (وقد شحن الله تعالى كتبه الكريمة المطهرة بكثير من شبه أعدائه الكفرة الفجرة، وأورد شنيع ألفاظهم وصريحها، ومنكرها وقبيحها؛ ليرد عليهم مقالاتهن، ويعلم المؤمنين معاملتهم، كما قال في محكم الآيات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:13]، ولم يمنعه علمه بعنادهم من الاحتجاج عليهم، وإرسال خير كتاب ورسول إليهم، بل قال مستنكراً الإضراب عن أعدائه الكافرين: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:5]. اهـ

17- عدم القناعة بالمنهج السلفي وما هو عليه من الصفاء والنقاء:

وفي حديث أبي سفيان ؓ عند البخاري (7)، ومسلم (1773) ما يدل على أن الاقتناع بالأمر يجعل هذا المقتنع مستمراً وملازماً ولا يبالي بمن خالفه، وكما قيل: وَإِذَا الْفَتَى عَرَفَ الرَّشَادَ لِنَفْسِهِ هَانَتْ عَلَيْهِ مَلَامَةُ الْعُدَّالِ

ففي الحديث أن قيصر سأل أبا سفيان: أَيَّرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قال أبو سفيان: لا، قال قيصر: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وفي حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه البخاري (41)، ومسلم (43): «وَأَنْ يَكْفُرَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْفُرُهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ».

فالقناعة بالحق الذي أنت عليه سبب لكل خير، بينما عدم القناعة تؤدي إلى التقلب والتزلف وهلم جرا؛ ولهذا لما كان صحابة رسول الله ﷺ على دراية عظيمة بالحق الذي هم عليه وقناعة عُدُّبوا وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم، مع ذلك ثبتوا ثبوت الجبال، فباللذات رضي الله عنه كان يعذب، وتوضع على صدره الحجار، ويطلبون منه كلمة سوء في رسول الله ﷺ، فلا يزيد أن يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. وَخَبَابٌ ﷺ لما أراد المشركون قتله صبراً، قالوا له: أَتَوَدُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فقال: مَا أُوَدُّ أَنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَوْكَةً، وقال تلك الآيات المشهورة:

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوِ مُنَزَّعٍ

والقصة بطولها في البخاري (3045).

قال شيخ الإسلام كما في شرح حديث «لَا يَزْنِي الزَّانِي» ص (35): (ولا تجد أحداً وقع في بدعة إلا لنقص إتباعه للسنة علماً وعملاً، وإلا فمن كان لها عالماً ولها متباعاً لم يكن عنده داعٍ إلى البدعة، فإن البدعة يقع فيها الجهال بالسنة). اهـ

وقديماً قيل: (القناعة كنز لا يفنى)، ولما كان أهل الإيمان الخُلَص على قناعة تامة بالمنهج الحق الذي يسرون عليه، لم ترعهم الخطوب، ولم يستصعبوا الدروب، فهؤلاء سحرة فرعون لما اقتنعوا بالحق ودخلوا في الإسلام وهددهم فرعونون ثبتوا

ثبوت الجبال الرواسي، قال الله عز وجل في سورة طه قاصًا خبرهم: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) قَالَ آمَنُتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿طه: 70-75﴾.

18- الحرص على التكثير والتجميع:

إذا كان من غير نظر إلى الاعتقادات والمخالفات للمنهج السلفي.

والتكثير يسبب الرضا بالباطل وانتشاره. وتميز هذه الإخوان المسلمون ومن شابههم، حتى أدخلوا في صفوف الإخوان النصارى، واتحدوا مع الاشتراكية والبعثية، مع أن الكثرة غير محمودة مطلقًا، قال الله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وعند البخاري (7483)، ومسلم (222) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا! فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ ﷺ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا،

فَقَالَ ﷺ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

فالحرص على التمييز، والأخذ بالكتاب والسنة علماً وعملاً، وإن كان العدد قليلاً، هو الواجب من التجميع البدعي، والتكثير الحزبي، والقليل مع الحق هم كثير؛ لأنهم يحملون الحق ويناضلون من أجله، ومن كان الله معه فهو الكثير، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومعلوم أننا في آخر الزمان، وقد قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». أخرجه مسلم برقم (145) عن أبي هريرة رضى الله عنه، وبرقم (146) عن ابن عمر - رضى الله عنهما -.

19- التعلل بمواجهة أعداء الإسلام:

ومن هذه التعلل بمواجهة اليهود والنصارى وغيرهم، ومرادهم من هذه الشبهة: تحذير الدعاة عن التحذير من البدع والمخالفات الواقعة فيمن يتسمى باسم الإسلام، وفي هذا ترك لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أن السبب العظيم للهزيمة أمام الكفار هو ترك السنة واتباع البدعة والتفرق بين المسلمين، ففي حديث ثوبان رضى الله عنه عند مسلم - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (2889) قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَزْنَينِ: الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لَأُمُتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَاثَةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لَأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَاثَةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ

اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَفْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيَّنَّ أَفْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وأعظم ما يواجه به أعداء الإسلام من اليهود والنصارى هو الأخذ بدين الله عز وجل الحق، ففي المأثور عن عمر رضي الله عنه: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله).

وكم من الفتوحات التي وقعت للمسلمين لما كانوا يحذرون من البدع كالجهمية والمعتزلة ومن سار على سيرهم، بل قد قاتل السلف أهل البدع بالسنان، كما فعل بهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل وقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال أهل البدع من الخوارج، فقال كما في الصحيحين ⁽¹⁾: «لَا إِنَّ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. فلا يترك الدين من أجل ظنون المبتدعين، فالواجب علينا الأخذ بالدين وهجر المبطلين، ولن نؤتى من شيء مثل معاصينا، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، مع العلم أن البراءة من أهل الباطل تكون بقدر ما عند أحدهم من الباطل، فالكفار تكون البراءة منهم مطلقة، وأهل البدع تكون البراءة منهم بحسب ما عندهم من البدعة، الله الموفق.

20- المراعاة الشديدة لرضا المخلوقين المربوبين:

مع أن إرضاء الناس غاية لا تدرك، «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ سَخَطَ النَّاسُ، كَفَاهُ اللَّهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَسَخَطَ اللَّهَ بَرَضَا النَّاسَ، وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ» والحديث مخرّج في

(1) رواه البخاري (3344)، ومسلم (1064).

«الصحيحة» برقم (2311) عن عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وغيرها، قال ابن القيم في «الفوائد» ص(475): من اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله. اهـ

فالواجب على المسلم أن يكون همه إرضاء الله عز وجل، وتقديم مرضاته على مرضاة ما سواه، ولو أردنا إرضاء الناس - لاسيما في هذا الزمان - لما بقي معنا شيء من ديننا، كيف لا، والناس قد تشعبت طرقهم، وكثرت أفكارهم، فأصبح هذا يريد الحزبية، والآخر يريد الديمقراطية، وذاك يريد كتميعي، وآخر يريدك تحييعي، والإسلام يصبح غريباً، وأهله كذلك، بينما لو سعينا في أن نرضي الله عز وجل فإذا رضي عنا أَرْضَى عَنَّا النَّاسُ: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:96]، وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيَنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

21-التوسع في باب وسائل الدعوة مع أنها توقيفية:

قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال: (فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع). اهـ

فالدعوة عبادة، والله عز وجل لا يُعبد إلا بما شرع في كتابه، وبما جاء به رسوله ﷺ، وإلا فالعبادة مردودة على أصحابها، فعلى هذا ما يفعله المبطلون من إدخال الدشوش والفيديوهات والأناشيد والتمثيلات في وسائل الدعوة هو إدخال باطل، وطريق غير سوي، وفعل غير مرضي، وهذا شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - يُسأل عن رجل محتسب يشغل اللصوص عن فعلهم بسلوك بعض الطرق، فينكر عليه صنيعة هذا، وأن هذا لم يكن على طريقة السلف وهديمهم، فالواجب على المرء أن يدعو كما دعا رسول الله ﷺ؛ لأن من ترك طريقه جاهلاً زل، ومن تركه متعمداً ضل.

22- التوسع في الحرص على هداية المخالفين:

الدعوة إلى الله فضلها عظيم، وأجرها جزيل، ففي حديث سهل بن سعد ؓ في الصحيحين البخاري (2942)، ومسلم (2406) قال: قال رسول الله ﷺ: «فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ مُجْرِ النَّعَمِ». وفي حديث أبي هريرة ؓ عند مسلم (2674): «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا».

مع أن الله لما عرض المشركون على النبي ﷺ ما عرضوا، وطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، ووقع في نفسه ما وقع، أنزل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الأنعام: ٥٢]﴾ أخرجهم مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ۖ، وقال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ ۖ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فالحرص على هداية المخالفين والمعرضين أمر طيب، لكن لا يصل الحال بالداعي إلى الله عز وجل إلى الزحزحة عن الحق أو عن شيء منه؛ لأجل الناس، فالله يقول: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

وكم كنا نسمع من شيخنا الوادعي وهو يقول: نحن لسنا مفوضين في دين الله عز وجل. يريد - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أنه لا يجوز لنا أن نتنازل عن شيء من الدين من أجل زيد أو عبيد، بل من أراد أن يكون مع أهل السنة نفع نفسه، ومن خالفهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

23 - الطمع فيما في أيدي الناس:

وما في أيدي أهل الباطل وسواء كان الطمع في أموال أو في وجاهات، والله يقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، والرفعة بيد الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، قال ابن

تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (10/181): (وهكذا كان حال من كان متعلقاً بالرئاسة أو ثروة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل سخط، فهذا عبدٌ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له إذا لم يحصل). اهـ

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعَ وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعَ

وقال القائل:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدْتَنِي وَلَوْ أَنِّي قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا

قال الراغب في «مفردات القرآن»: (الطمع طبع، وهو يندس؛ وذلك أن أكثر الطمع من أجل الهوى). اهـ

وفي «بصائر ذوي التمييز» (3/516):

لَا خَيْرَ فِي طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ وَغُفَّةٌ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِينِي

وقال الجرجاني كما في «أدب الدنيا والدين» ص (50):

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَّفْسِ لَعَظَّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَسُوا مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّأَا

فالطمع يجعل الداعي إلى الله تعالى لاهئاً ناظرًا لما في أيدي الناس، يخشى أن يتكلم بالحق فيتركوه، فيقع في التميع بعد ذلك. فكم من الناس الذين تلوثوا بالجمعيات والحزبيات وغير ذلك بسبب الطمع.

يقول ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الفوائد»: (التجرد من الطمع والفرع، فمتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع، فلا تطمع في هذا الأمر، ولا تحدث نفسك به،

فان قلت: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد، والتوكل، والثقة بالله.. اهـ

24- الجبن والخوف :

كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ» كما عند البخاري (2823)، ومسلم (2706) عن أنس ؓ؛ لأنَّ الجبان لا ينصر الدين والملة، بل ربما حصل الضرر من قبله؛ بسبب خوره وجبنه، فيصير محاييًّا للمبطلين؛ خوفًا على نفسه أو جاهه أو ماله أو غير ذلك. وكان السبب في عدم إسلام هرقل خوفه على ملكه، كما عند البخاري (7) من حديث أبي سفيان ؓ.

قال ابن القيم في «هداية الحيارى» ص(18): (فإنَّ هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الإسلام، فلم يطاوعه قومه، وخافهم على نفسه، فاختار الكفر على الإسلام من بعدما تبين له الهدى. اهـ

والمرء الجبان لا يستطيع أن يصدع بالحق؛ جبنًا وخورًا، وربما ارتكب مع ذلك بعض ما يتعاطاه القوم من المخالفات.

قال شيخ الإسلام في رده على الشاذلي ص(190): (وقد يرى بعض المؤمنين ما في ذلك من الخطأ والضلال، ولكن يهاب رده، إما خوفًا أن يكون حقًا لا يجوز رده، وإما عجزًا عن الحجة والبيان، إما خوفًا من المنتصرين له، فيجب نصح المسترشد، ومعونة المستنجد، ووعظ المتهور المتلبد⁽¹⁾).

(1) هو المتوقف المتحير.

وبيان الصراط المستقيم صراط الذين أعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين). اهـ

وقال ابن الزير في «العواصم» (1/161): (ولو أن العلماء رضي الله عنهم تركوا الذب عن الحق؛ خوفاً من كلام الخلق لكانوا قد أضاعوا كثيراً، وخافوا حقيراً).

ومن قصد وجه الله تعالى في عمل من أعمال البر والتقوى، لم يحسن منه أن يتركه؛ لما يجوز عليه في ذلك من الخطأ، وأقصى ما يخاف أن يكِل حسامه في معترك المناظرة، وينبو، ويعثر جواده في مجال المجادلة ويكبو، فالأمر في ذلك قريب، إن أخطأ فمن الذي عصم، وإن حُطّيَ فمن الذي ما وصم، والقاصد لوجه الله لا يخاف أن ينقد عليه خلل في كلامه، ولا يهاب أن يدل على بطلان قوله، بل يحب الحق من حيث أتاه، ويقبل الهدى ممن أهده، بل المخاشنة بالحق والنصيحة أحب إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة، وصديقك من أصدقك لا من صدّك، وفي نوابغ الكلم وبدائع الحكم: عليك من ينذر الإيسال والإبلاس، وإياك ومن يقول: لا بأس ولا تأس). اهـ

وكم من الأمور اليت يجبن الداعي إلى الله عز وجل بها لا داعي للجبن فيها، إلا كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: 175]﴾، فالشيطان يخوف المؤمنين والدعاة المصلحين من أوليائه من المبطلين، إذا تكلمت بالحق سيؤذّنك، سيفعلون بك، يا أخي، تكلم بالحق، وتميز عن الباطل، وارج من الله عز وجل الخير. والمتأمل لحال رسل الله عز وجل جميعاً يجد أنهم في غاية من الشجاعة، يصدعون بالحق وينصرونه مع أن المخالفين لهم هم

أصحاب القوة والملك، ولكن الله عز وجل ينصر أوليائه ويعزهم، فلا ينصر الدين جبان، ولن يكون له بين المصلحين مكان.

25- الورع البارد:

وبيان ذلك أنه يظن أن الكلام في المبطلين يعد من الغيبة ومن الفضول، فتراه مطأطأ رأسه، صاغياً لكل مبطل، وإذا ما سمع التحذير من المبطلين اعترته الدهشة، وظهر عليه التنسك، وحاله كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فما أورعهم عن الكلام في المبطلين! وما أشدَّ ألسنتهم على أهل السنة المستقيمين! يرمونهم بكل عظمة ويطوون كل جميلة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

فالورع الحقيقي يكون بملازمة الكتاب والسنة، ما أحله الله عز وجل ورسوله ﷺ أحلله، وما حرمه الله ورسوله ﷺ حرمناه، وما شرع لنا أتينا منه ما استطعنا ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، فالورع الحقيقي الممدوح هو ترك ما يخشى ضرره في الآخرة، والكلام في أهل البدع والتميز عنهم نفعه محقق في الدنيا والآخرة، قال أبو مسلم الحجوري وفقه الله:

أَفْيَابِنَ يَحْيَى سُلَّ سَيْفَكَ وَأَنْطَلِقُ	نَحْوَ التَّحَزُّبِ وَأَقْطَعَنَّ حَنَاجِرَهُ
لَا لَسْتَ تَسْفُلُ حِينَ تَهْجُو حِزْبَهُمْ	بَلْ أَنْتَ تَعْلُو فِي الدُّنَا وَالْآخِرَةِ
لَا لَسْتَ تَخْسِرُ حِينَ تَهْجُو شَيْخَهُمْ	بَلْ أَنْتَ تَرْبِحُ وَالزِّيَادَةُ حَاضِرَةٌ

وهؤلاء الذين تتورع ألسنتهم عن التحذير من أهل البدع والمبطلين ما أشدهم على إخوانهم المستقيمين حيث يُتهمون بالظلم والجور وعدم الروية والشدة إلى غير ذلك، وحالهم كما قيل:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءَ تَهْرُبُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى أَمْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

ويكون ورعهم كورع أهل العراق، سفكوا دم الحسين وذهبوا يستفتون في دم الذبابة!!! وورع الخوارج عن ثمرة أخذت من الطريق، ولم يتورعوا عن قتل عبد الله بن خباب، فأياك وطرق الشيطان! قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: 21].

26 - الخيانة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]. فالخائن جهده في إضلالك...

والخيانة في اللغة: مأخوذ من مادة (خ ون) التي تدل على النقص.

وفي الاصطلاح:

قال المناوي رحمه الله في «التوقيف» ص(162): (الخيانة: هي التفريط في الأمانة. وقيل: هي مخالفة الحق بنقض العهد في السر). اهـ

وقال ابن الجوزي رحمه الله كما في «نصرة النعيم»: (الخيانة: التفريط فيما يؤتمن الإنسان عليه. ونقيضها الأمانة). اهـ

وقال القرطبي رحمه الله في «جامعه» (7 / 395): (الخيانة: الغدر). اهـ

وقال الراغب في «المفردات» (1/330): (الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارًا بالدين. ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة الأمانة). اهـ

حكم الخيانة

الخيانة من كبائر الذنوب، كما ستأتي الأدلة المبينة كونها من الكبائر، وقد عدها من الكبائر الإمام الذهبي وابن حجر الهيتمي وغيرهم ممن صنف في الكبائر.

واعلم - وفقك الله عز وجل لكل خير - أن الخيانة دين اليهود، الذي عرفوا به، وتميزوا به أكثر من غيرهم، حتى قال الله عز وجل فيهم: ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ومن أجلها لعنوا، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وهي قبلهم طريقة إبليس اللعين الداعي إلى كل طريق مهين حيث قال لآدم عليه الصلاة والسلام ﴿هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَى﴾ [طه: ١٢٠]، وأخبر الله عنه في سورة الأعراف فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ١٠ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ١١ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ١٢ ﴿قَالَ فَأَهِيطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ١٣ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ ١٥ ﴿قَالَ

فِيمَا أَعْوَيْنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَكَدَّمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف: ١٠-٢٢].

فاستخدم الخيانة في إخراجهم من الجنة، وهي الخيانة في النصيحة، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في «سنن أبي داود» (5128): «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، لكن المشير الخائن لا يرعوي عن بث سمومه وتزيين باطله، فاللهم سلّم.

وانظر وفقك الله عز وجل إلى مغبة تصديق الخائن، أين كان آدم؟! وأين صار؟! لولا أن تداركه الله بالتوبة، كما قال تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، ومع ذلك كم لحقت البشرية من تبعات؛ حتى صاروا كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، والله عز وجل له الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وقد ضرب الله عز وجل في كتابه الكريم مثلاً عن بعض الخائنين بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿التحریم: ١٠﴾.

والخيانة طريقة قديمة ورثها الأصاغر الأندال، عن كل سافل محتال؛ للترهيد في الدعوة والدعاة، والعلم والعلماء، وتزيين البدع، واحتقار السنن.

ولنا في خيانة فرعون لقومه تحذيرًا من تصديق الخونة، وإن نَمَّقوها وجعلوها في صورة حسنة؛ صدًا منهم عن الدعوة الحققة، حتى قال عن دعوته كما أخبر الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

صَوَّرَ خيانتته لهم بأنه حريص عليهم من سبل الغواية؛ فاتبعه أقرانه وخلانه، فالله المستعان.

وقال لهم في موطن آخر وبأسلوب آخر من الخيانة ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفَوْرَ اللَّيْسَ لِي مَلِكٌ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا بُصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأَتِيكَةَ مُفْتَرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

فكانت عاقبة خيانتتهما البوار والخزي والدمار، وهكذا مصير الخائنين.

وقال تعالى في موطن آخر للملأ الذين هم حوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

صَوَّرَ لهم بأنه أخذ بمشورتهم، حريص عليهم من عدوهم، فانطلت الحيلة عليهم وأجابوا: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ

وأنت أيها المؤمن مأمور بأداء الأمانة، والبعد عن الخيانة، حيث قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

والأمانة تطلق ويراد بها الدين القويم والصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

ومن أعظم الخيانة لله عز وجل ورسول ﷺ: هي التمرد على شرع الله عز وجل، وبث السموم والإرجاف والدعاوي الباطلات، على المصلحين من العلماء الناصحين من السلفيين.

قال تعالى دائماً لهذه الصفة الذميمة، مبيناً أن من كان هذا حاله مآله إلى الخسران المبين والهوان العظيم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

فمهما كاد ومكر، ومهما تعدى وغدر، فإن صنيعه مبتور، وفعله فعل المغرور.

وإذا ظهرت الخيانة من أحد، فلا يجوز الدفاع عنه، ولا الخصومة من أجله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، أي: معيناً ومدافعاً؛ لأن الدفاع عن الخونة، وخصوصاً في محل الخيانة الدعوية، يعتبر في حد ذاته خيانة لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، وللدعوة الحقّة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، أي: معيناً لهم على باطلهم، فكذلك لا تكن ظهيراً ومعيناً للخونة.

والمجادلة عن الخونة من كبائر الذنوب، قال الله عز وجل محذراً من ذلك: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، أي: يظلمون أنفسهم بالخيانة. ويا لله! كم نرى هذه الأيام من دفاع واستماتة في الذب عن أعراض الخونة من المبتدعة وغيرهم.

وما أمر الله بترك الدفاع والمعاونة للخائنين؛ إلا لأن الخيانة مذمومة، وصاحبها عنده غير محبوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]. وقال تعالى مبيناً أنه مُمَكِّنٌ من الخائنين: ﴿وَلِإِن يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

وإننا لنرى أن كثيراً ممن ابتلاهم الله عز وجل بالخيانة الدعوية يتقادعون في مستنقعات الفضائح والبدع، وإن حسن حالهم فترة من الزمن، فاللهم سلم.

والخيانة من صفات المنافقين، كما جاء عند البخاري (2536) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، وفي رواية لمسلم (59): «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»، وجاء في حديث عند البخاري (34) ومسلم (58) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وجاء عند أبي داود (3534) والترمذي (1264) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُتِّمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». فإذا كان المؤمن مأموراً بأداء الأمانة

حتى في حق الخائن، فما بالك بخيانة هذا الخائن لمن أوّتمن عليهم من طلاب العلم من قبل العلماء والدعاة إلى الله.

والخيانة من أسباب دخول النار إذا كانت في عرض أو مال، فكيف بالخيانة الدينية؟! والصرف عن السنن المرضية، والصرف عن طلب العلم النافع علم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟! أخرج مسلم في «صحيحه» (2865) من حديث عياض ابن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ» وذكر منهم الخائن.

والخونة قد نهانا الله عز وجل عن التفرق بسببهم، حيث قال للمؤمنين لما اختلفوا في الخونة الذين رجعوا عن غزوة أحد: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88]، وحدّثنا من الركون إليهم بقوله جل وعلا: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 89]، فاحذر على نفسك يا طالب العلم، واستعد بالله من شر الخونة والخائنين.

وللخونة أساليب عجيبة في الخيانة، فتارة يتظاهرون بصورة الناصحين كما تقدم في قصة إبليس اللعين مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وتارة لا يستخدم الطعن المباشر في من يريد إبعادك عنه، ولكن يطعن فيمن حوله، وهذه في حد ذاتها طعن في المحاط به: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِللّٰهِ وَءَايٰتِهٖ وَرَسُوْلِهٖ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُوْنَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوْا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ اِيْمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

مع أنهم ما ذكروا رسول الله ﷺ من قريب ولا من بعيد، ولكن الطعن في المجلس طعن في المجالس، فليكن طالب العلم على حذر من هذه الأصناف الذين لا هم لهم إلا حرب أهل الحق بهذه الوسيلة المذمومة شرعاً وعقلاً.

هذا، وظهورها من أمارات الساعة، كما جاء عند البخاري (6131) من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». وقال ﷺ كما جاء عند ابن ماجه (4036) من حديث أبي هريرة ؓ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» قيل: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِي فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ». فلا غرو أن تجد كثيراً من خونة الدعوة يُصدقون ويُؤخذ عنهم باطلهم ودينهم.

ومن أساليب الخيانة الدعوية: تزهد الخونة في العلماء؛ وذلك بعدة أمور، منها:

أنهم لا يفقهون الواقع.

متشددون.

عندهم أخطاء وزلات وزلقات.

الافتئات عليهم والتزهد منهم وفي علمهم.

مجالسة الخونة أمثالهم وتبجيلهم والإشادة بذكرهم.

التنقيب عن أخطاء العلماء ومثالبهم وبثها للناس.

التعصب بدافع الغيرة على الحق، والحق أنه تعصب بدافع هوى النفس، قال ابن أبي العز في كتابه «الاتباع» ص(24-25): (وليس في الطبع السليم ما يقتضي التعصب دون هذا العالم، وإنما يأتي ذلك غالبًا من هوى النفس، فيكون حينئذ قد جبل على خلق ذميم).

بث الإشاعات، وتأجيج نارها، وغير ذلك.

الاستنكار لمنهج الجرح.

كثرة الأيمان الكاذبة؛ لرد ما نسب إليهم من الأقوال والأفعال.

الالتمام لكل من أنكر عليهم أنه يسير على الطريقة الحدادية.

وغالبًا ما يكون صيد الخونة الجهال وأشباه الجهال، والعجب أن طالب الحق يأتي إلى هذا الخائن ويجعله مستشارًا له، فيفسده، فيخرج من بلده صاحب سنة، فيرجع بسبب المجالسة وهو صاحب بدعة أو قريب من ذلك ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكما قيل:

وَمَنْ جَعَلَ الْغُرَابَ لَهُ دَلِيلًا يَمُرُّ بِهِ عَلَى حَيْفِ الْكِلَابِ

فلو لم يكن من عقوبة الخائن إلا أن الله عز وجل يمكن منه للنكال به في الدنيا؛ لكفى بها عقوبة، فكيف وهي أيضًا من أسباب دخول النار كما تقدمت الإشارة إليه في حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عند مسلم (2865) ولفظه: «وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي

لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ». وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكَذِبَ، وَالشُّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ.

فتبين لنا من الحديث أن الخائن الدعوي لا كثر الرجال من أمثاله يدخل في الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، وذنبه أعظم من ذنب المخادع في الأهل والمال.

إذ أن خيانة هذا المدبر كذب على الله عز وجل، وعلى رسوله ﷺ، وطعن في حملة الشريعة والملة، قال الشيخ العثيمين رحمه الله في «شرح رياض الصالحين» حديث رقم (349): (فإن العلماء ورثة الأنبياء؛ لأن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً)، فالعلم شريعة الله، فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ من ميراث الأنبياء، وإن كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك؛ أن يبجل ويعظم ويكرم.

وتوقير العلماء توقير للشريعة؛ لأنهم حملتها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس ...

فهذان الصنفان: العلماء، والأمرء، إذا احتقروا أمام الناس، فسدت الشريعة، وفسد الأمن، وضاعت الأمور... فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمرء ضاع الدين والدنيا، نسأل الله العافية. اهـ

وهل تكون طريقة أصحاب الخيانة الدعوية إلا التزهيد في العلماء؟! وكم رأينا ممن تأثر بهؤلاء الخونة صار العلماء عندهم أصاغر، وسقط الخونة وأتباعهم على أمهات رءوسهم، وبقي العلماء شامخوا الرءوس، منصورون مكنون، ولتعلم أن

العالم حتى ولو أخطأ فهو دائر بين الأجر والأجرين، كما في الحديث عند مسلم (1716) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

وأما من حذر، وتكلم فيهم، وأبعد عنهم، فإما أن يكون فعله صادراً عن نصح - كما زعم - وبهذه الطريقة أخطأ الطريقة، وحقه أن يؤخذ على يده، فإنه بصنيعه هذا يفعل فعل الخوارج الذين يخرجون، وكما أن الخروج على السلاطين محرم، فالخروج على العلماء من باب الأولى، فالخروج على الحكام والسلاطين يفسد البلدان والأديان، وإما أن يكون مراده الطعن والتزهيد من أول الأمر، فهذه الطامة التي تذهب الدين والدنيا، والله الحمد والمنة.

ولسوءتها - أي الخيانة - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيز منها كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود رحمه الله (1547): «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بُسْتُ الْبَطَانَةَ».

وقبل تمام الكلام في هذه الوريقة أنصح إخواني طلاب العلم أن يكونوا على حذر شديد من الخونة والخائنين، ومن الكسالى والمخذلين، والصوارف عن الخير والحق كثيرة.

كن متصدياً لها في ليلك ونهارك، وسرك وجهارك، فإن الشيطان حريص كل الحرص على إغوائك وإضلالك، قال الله تعالى مخبراً عن حال الشيطان مع الإنسان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وله أعوان وأنصار، وأحباب وأصحاب، ولا تغتر بما تسمع من الدعايات، فالواجب عليك الثبوت في الإشاعات ضد العلماء والدعاة، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكَ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَتِهِمْ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ [الحجرات: ٦]. وفي قراءة حمزة والكسائي: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

فإذا كان التثبيت واجب في الأمور العادية، فمن باب الأولى إذا طعن طاعن في عالم من العلماء، وإمام من الأئمة، فإن الأصل فيهم حسن الظن، ولو كان عندهم أخطاء - كما يقول هذا الخائن - فما هذا الخطأ؟ وما دليله على أنه خطأ؟ ومن وافقه من العلماء على أنه خطأ؟ ومع ذلك نحن لا ندعي العصمة لعلمائنا، ونعلم أنهم يصيبون ويخطئون، ويعلمون ويجهلون، لكن نستفيد منهم لأمر الله عز وجل بذلك: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، نسألهم عن الذكر والدليل والحق والشرع.

ثم إن كان ناصحاً كما زعم، فهل حصل منه ذلك؟ لا والله، وبالله، وتالله، ولكن هي الأهواء، وسوء المقصد، وسوء الفهم، وقلة الأدب، وقلة العلم. وأنصح الخونة بالتوبة إلى الله عز وجل؛ فإن الله لهم بالمرصاد، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ إِلَيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

وهذا المبحث مأخوذ من كتابي «الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق الدعوة السلفية».

27- قلة الغيرة على دين الله الحق:

والغيرة في الدين محمودة، فصاحب الغيرة الحقّة تراه مغيّراً للمنكر، أمراً بالمعروف، متميّزاً عن المبطلين، وفي الحديث: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ» والرسول ﷺ يقول: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٍ؟! وَاللَّهِ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي» أخرجه البخاري (7416)، ومسلم (1499) عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» ص(345): (الغيرة غيـرتان: غيرة على الشيء، وغيرة من الشيء. فالغيرة على المحبوب: حرصك عليه، والغيرة من المكروه: أن يزاحمك عليه. فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب، تقبح المشاركة في حبه كالمخلوق، وأما من تحسن المشاركة في حبه كالرسول والعالم، بل الحبيب القريب سبحانه، فلا يتصور غيرة المزاحمة عليه، بل هو حسد، والغيرة المحمودة في حقه أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره، أو يغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه، أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه، أو يغار عليها أن يشوبها ما يكره محبوبه من رياء أو إعجاب أو محبة لإشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منته عليه فيها.

وبالجملة، فغيرته تقتضي أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله، وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رضى محبوبه، فهذه الغيرة من جهة العبد، وهي غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه، وأما غيرة محبوبه عليه فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره، بحيث يشاركه في حبه؛ ولهذا كانت غيرة الله إن يأتي العبد ما حرم عليه؛ ولأجل غيرته سبحانه حرم

الفاحشة ما ظهر منها وما بطن؛ لأن الخلق عبيده وإماؤه، فهو يغار على إماءته كما يغار السيد على جواريه، والله المثل الأعلى، ويغار على عبيده أن تكون محبتهم لغيره. (هـ).

فالغيور على دين الله عز وجل الحق تراه أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، معظماً للسنة، محقراً للبدعة، آخذاً للسنة، قالياً للبدعة. واعلم أن قلة الغيرة مع كثرة المعاصي تدل على ضعف الإيمان لدى الشخص، والمتأمل لحال السلف يجد أنهم كانوا على قدر عظيم من الغيرة على دين الله عز وجل، فهذا عمر رضي الله عنه في غير ما موطن، إذا وجد من يخالف شرع الله عز وجل قال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

28- ضعف جانب الولاء والبراء:

والله عز وجل يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١]، فينبغي من المسلم أن يكون ولاءه لله عز وجل ويجب فيه ويبغض فيه، ففي حديث انس عند الشيخين، قال «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ».

أما أصحاب التمييع والتقريب فقد ضيعوا هذا الجانب العظيم من جوانب الدين، بل ويسمون البراء من أهل الباطل كرهاً؛ تلبسًا على العوام، والله المستعان، فصاروا يقربون ممن يشاكلونه، وينفرون من أهل الحق والصدق، بل يُنفرون فيُحرّمون الخير العظيم، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين البخاري (660)، ومسلم (1031) قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِهَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ».

وضابط الولاء في الله عز وجل والحب فيه: أنه لا يزيد بصلة، ولا ينقص بجفاء، وإنما بقدر التمسك بالسنة، والبعد عنها.

29- ضعف الإيمان:

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (2664): «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

فمن ضعف إيمانه قل صفاؤه ونقاؤه، وكثرت مخالفاته وزلقاته، فعلى المرء أن يلازم العلم والعمل. وأسباب قوة الإيمان كثيرة، منها: العلم النافع، علم الكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ومنها: قراءة القرآن وتدبره والعمل به، ومنها: معرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى، وتأدية آثارها ومقتضاها، ومنها: تأمل سيرة

الرسول ﷺ والسلف الصالحين، والسير على ذلك، ومنها: الدعاء، ومنها: القيام بالأعمال الصالحة، ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». فأُنكر أيها المسلم النكر بقدر استطاعتك حتى لا تقع في مرض التميع، وفي ضعف الإيمان، وربما هلكت وأهلك.

30- البحث عن أنصاف الحلول:

وهذا حاصل من المميعين، الذين يريدون أن يرضوا جميع الأطراف، ومذهبهم: اسكت عني أسكت عنك؛ وهذا يحصل منهم بسبب عدم الاقتناع بالحق، وكذلك بالحرص على إرضاء الجميع، ولعجزهم عن مواجهة الباطل. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن مسيلمة لما طلب من رسول الله ﷺ أن يجعل له الأمر من بعده، قال له رسول الله ﷺ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا وَلَكِنْ أَتَعَدَّى أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ وَلَيْسَ أَدْبَرْتُ لِيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ». أخرجاه في الصحيحين البخاري (4373)، ومسلم (2273). وأيضاً عامر بن الطفيل رضي الله عنه قال: يا محمد، لك المدر ولي الوبر، فأبى عليه رسول الله. فلا مساومة بالدين؛ لأنه دين الله عز وجل ولم يفوض لنا ذلك، وإلا لصار الدين لعبة، ويقع التنازل عن الكثير من الأوامر، وترتكب كثير من الزواجر، والدين إما حلال وإما حرام، والأمر إما حق وإما باطل، ولماذا إذا أراد أهل البدعة الحلول - كما يزعمون - لا يرجعون إلى الحق الذي أمر الله عز وجل بالرجوع إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

31- التقارب مع المخالفين:

ومن أسباب التميع: التقارب مع المخالفين، وذلك بترك شيء من دين الإسلام الحق، وقد انتشرت في الفترة الأخيرة دعوات هدامة، منها: دعوة التقارب بين السنة والشيعة، ودعوة التقارب بين الأديان، مع أن هذه الدعوة دعوة إلى الردة الصريحة، وسيأتي الكلام على ذلك، دع عنك دعوات التقارب الأخرى، والواجب على المسلمين جميعاً من أهل بدع وغيرهم، القرب من أهل السنة، والعمل بالكتاب والسنة، أما التقارب مع أهل البدع فإنه تقارب مع الباطل.

32- التخذيل:

التخاذل: مصدر قولهم: تحذل القوم، أي: حذَل بعضهم بعضاً، وهو مأخوذ من مادة (خ ذ ل) التي تدل على ترك الشيء والقعود عنه، فالحذلان ترك المعاونة، قال الراغب: الحذلان ترك النصرة ممن يظن به أن ينصر.

وأشد المخذلين للعبد هو الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 29]، وحذلان الله عز وجل للعبد أن لا يعصمه من الشبه فيقع فيها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 160].

والتخذيل لأهل الحق مرض خطير، لا يدخل في شخص إلا أفسده، ولا دعوة إلا ميعها. ففيه السكوت عن الباطل، وفيه البعد عن نصرة الحق، وفيه زعزعة الحق في قلوب كثير من الناس. والتخذيل صفة نفاقية، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقد عاتب الله المؤمنين حين هموا بالفشل الذي يكون بسبب التخذيل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١﴾ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢٢﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٣﴾ [آل عمران: 121-122].

والتخذيل قد أخبر النبي ﷺ عن سريانه في الأمة، ومع ذلك لا يضر المخذلون إلا أنفسهم، ففي الحديث الصحيح: «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ». أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037) من حديث معاوية رضي الله عنه. وجاء عن غيره كما في كتاب الإمارة من صحيح مسلم.

وهذا التخذيل سبب للزيغ والانحراف؛ لأنه إما أن يكون قولاً للباطل أو سكوت عن الباطل، والإمام مالك يقول: (لا تقل الباطل فتهلك، ولا تسكت عن الباطل فتزيغ عن الحق).

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (2/ 132) مبيناً حال المخذل المتعاون مع المبتدعة وما يجب نحوه: (وَيَجِبُ عُقُوبَةُ كُلِّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِمْ، أَوْ ذَبَّ عَنْهُمْ، أَوْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ، أَوْ عَظَّمَ كُتْبَهُمْ، أَوْ عَرَفَ بِمُسَاعَدَتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ، أَوْ كَرِهَ الْكَلَامَ فِيهِمْ، أَوْ أَخَذَ يَعْتَدِرُ لَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَدْرِي مَا هُوَ، أَوْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ صَنَّفَ هَذَا الْكِتَابَ، وَأَمْثَالَ هَذِهِ الْمَعَاذِيرِ الَّتِي لَا يَقُولُهَا إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُنَافِقٌ؛ بَلْ تَجِبُ عُقُوبَةُ كُلِّ مَنْ عَرَفَ حَالَهُمْ، وَلَمْ يُعَاوِنْ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْقِيَامَ عَلَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْوَاجِبَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا الْعُقُولَ وَالْأَدْيَانَ عَلَى خَلْقٍ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ، وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَيَصْدُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ). اهـ

والطائفة المنصورة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ابتليت بالتخذيل والتكذيب والمخالفة، ومع ذلك هي المنصورة بنصر الله عز وجل لها، والغالب في التخذيل أن يكون من داخل الصف، والمخذلون أشد ضرراً على الدعوة من المكذبين والمخالفين، كون المخذل ربما يكون من المتقمصين بقميص أهل الحق، وهم يطعنون من الداخل.

وقد أمر الله عز وجل المؤمنين بالتناصر، فقال النبي ﷺ كما في حديث أنس: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ». وفي رواية: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ». أخرجه البخاري (2443)، وهو في مسلم (2584) عن جابر رضي الله عنه.

وأكثر الفتن الحاصلة الآن يطول مداها، ويعظم بلاها؛ بسبب سكوت الكثير ممن ينبغي لهم الكلام؛ نصرته للمظلوم، ومنعاً للظالم، والله المستعان.

33- الضعف في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وفي الحديث التحذير من ذلك: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمُ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّ إِذَا رَأَاهُ، أَوْ شَهِدَهُ، أَوْ سَمِعَهُ». أخرجه الترمذي (2191)، وابن ماجه (4007)، وأحمد (5/3) واللفظ له.

فالغلو والتميع من المنكرات الخطيرات، فيجب التحذير منهما، والأخذ بالدين القويم والصراط المستقيم هو المعروف الذي يجب أخذه، وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب الاستقامة والسلامة من الفتن، والتصدي للبدع، وبهذه الشعيرة العظيمة أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وهي وظيفة الرسل، وورثتهم ومن سار على سيرهم، بل هي من أعظم ميراث هذه الأمة على ما

تقدم، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وقال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وفي وصية لقمان لولده: ﴿يَبْنَى أَفْئِرَ الصِّلَوةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وستأتي أدلة الأمر بالمعروف وبيان أهميته في الحلول إن شاء الله.

34- عدم العمل بالعلم :

قد جاء الوعيد العظيم في ترك العمل بالعلم، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عند البخاري (7047)، وفيه: «فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهَّدَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَيِّمَ رَأْسَهُ، وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ» فقال في آخر الحديث مفسراً له هذا الصنيع: «وَالَّذِي رَأَيْتُهُ يُشْدُخُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهو من الجهل، قال الإمام مالك: (إذا قل العلم، ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار كثرت الأهواء) قال ابن القيم في «المدارج» (1/469): (الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة، قال موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]؛ لما قال له قومه: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]، أي: من المستهزئين. وقال الله تعالى مخبراً عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا

التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴿النساء: 17﴾ قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصى الله به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة رضي الله عنهم أن كل من عصى الله فهو جاهل. وقال الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وسمى عدم مراعاة العلم جهلاً؛ إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله). اهـ

فالعلم يدعو إلى العمل بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة بعيداً عن الرأي والتقليد والهوى، فالعلم النافع هو الهدى وما سواه ضلال وهو الحق وما سواه باطل، وهو النور وما سواه ظلام، وقد أمر الله عز وجل بالاستقامة الحقة بعيداً عن الغلو والتميع، فقال: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، وهذا لا يكون إلا بتحقيق العلم والعمل. والله ﷻ أمر نبيه ﷺ وأمر من تاب معه بالأخذ بدين الله عز وجل الحق، بعيداً عن الغلو والجفاء: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد حذر الله عز وجل من عدم العمل بالعلم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-3]، وقد تكلمت على هذه المسألة في كتابي «الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق الدعوة السلفية» وكتاب «الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية»، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - مزيد بيان في علاج التميع.

المدارة خلق طيب، استعمله الأنبياء والمصلحون؛ لما فيه من ترغيب الناس، قال الله عز وجل في شأن شعيب وترفقه مع قومه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أرىكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومٍ مُحيط ٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿[هود: 64-86]، وهذا إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه: ﴿يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ٤٢﴾ يَتَأْتٍ إِيَّيَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ٤٣﴾ يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ٤٤﴾ يَتَأْتٍ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابِرْهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيّاً ٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴿[مريم: 42-47]، وقال تعالى أمراً موسى وهارون بمدارة فرعون عليه لعنة الله: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿[طه: 43-44] إلى غير ذلك من القصص القرآني، وسيأتي شيء من فعل النبي ﷺ في الفصل الرابع - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -.

ولكن إلى أن يصل إلى المداينة، فهذا خطر عظيم! وبلاء جسيم! زل بالأمّة، وأتعب الأئمّة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، والمدارة: هي خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ لهم في القول. قال ابن حجر المدارة: الدفع برفق. اه من «الفتح» (528/10). وقد غلط كثير من الناس فوقعوا في الرضا بالباطل وكتبوا الحق، بل وخالفوه؛ زعمًا منهم أنهم يدارون الناس، ويتألفونهم مع أنهم يداهنونهم ويعصون رب العالمين، ويخالفون الطريق القويم. قال ابن حبان في «روضة العقلاء»

(70-73): (الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع اليه في العشرة، من غير مقارفة المداهنة؛ إذ المداراة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه، والفصل بين المداراة والمداهنة هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلق المرء بتخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه فهذا هو المداهنة؛ لأن عاقبتها تصير إلى قل، ويلازم المداراة؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله، ومن لم يدارِ الناس ملوه، كما أنشدني على بن محمد البسامي:

دَارِ مِنَ النَّاسِ مِلَالَاتِهِمْ مَنْ لَمْ يُدَارِ النَّاسَ مَلَّوْهُ
وَمُكْرِمِ النَّاسِ حَيْبُ هُمْ مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَحْبَبُوهُ

وقال ابن القيم في «الروح» ص(208): (المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله، ويتركه على هواه. فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق. وقد ضرب لذلك مثل مطابق، وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق، فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فسادها، ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت. والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء، فاسترها عن العيوب بخرقه، ثم ألّه عنها، فلا تزال مادتها تقوى وتستحکم، حتى عظم فسادها). اهـ

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(91-92): (ومما أسوقه إليك أيها الطالب وأعجبك منه، أنه كان لي صديق بمدينة من مدائن اليمن، جمعي وإياه الطلب والإلفة والوداد، وكان عالي القدر، رفيع المنزلة في العلم، كبير السن، بعيد الصيت، مشهور الذكر، ولعله كان يفيد الطلبة في الفقه قبل مولدي، وقرأ عليه بعض شيوخه، ورحل إلى صنعاء، وطلب علوم الاجتهاد في أيام طلبي لها، وكان بيني وبينه من المودة أمر عظيم، وله معي مذكرات ومباحثات وترسلات في فوائد كثيرة هي في مجموع رسائله. فلما حدث ما حدث من قيام ما قام عليّ من الخاصة والعامة، وكان إذ ذاك قد فارق صنعاء وعاد إلى مدينته، وعكف عليه الطلبة، واستفادوا به في الفنون، فقاموا عليه، وقالوا: إنه بلغ إلينا ما حدث من أليفك الذي تكثر الثناء عليه، والمذاكرة له من مخالفة المذهب، والتظاهر بالاجتهاد، فإن كنت موافقاً له قمنا عليك كما قام عليه أهل صنعاء، وإن كنت تخالفه فيما ظهر منه فترسل عليه. فوصلت منه رسالة في عدة كراريس، وما حمله على ذلك إلا المداراة لهم والتقية منهم، وظاهرها المخالفة، وباطنها الموافقة، مع حسن عبارة، وجودة مسلك، ولم أستنكر ذلك منه، ولا أنبته عليه، فإن الصدع بالحق والتظاهر بما لا يوافق الناس من الحق لا يستطيعه إلا الأفراد، وقليل ما هم). اهـ

فيا حملة الدين، أين أنتم من الخلق النبوي، والهدي السلفي؟ تداهنون على حساب دينكم، والله عز وجل يحذر من هذا فيقول: ﴿وَدُّوا لَوْ نَدُّهُنَّ فَيَذَرُوهُنَّ﴾ [القلم:9]؛ لأن أهل الباطل يتدرجون معك، ويقبلون شيئاً من مخالفتك، حتى يجعلونك في صفهم، وانظر إلى تهديد الله عز وجل لنبيه محذراً له من هذه الخلعة الذميمة: ﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا

قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾ [الإسراء: 73-75]، قال القرطبي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «تفسيره» (202/18): قوله تعالى: (ودوا لو تدهن فيدهنون) قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم. وعن ابن عباس أيضًا: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك. وقال الفراء والكلبي: لو تلين فيلينون لك. والادهان: التلين لمن لا ينبغي له التلين، قاله الفراء. وقال مجاهد: المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيماثلونك. وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. الحسن: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضًا: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فيناققون ويراءون. وقيل: ودوا لو تضعف فيضعفون، قاله أبو جعفر. وقيل: ودوا لو تدهن في تدهن في دينك فيدهنون في أديانهم، قاله القتيبي. وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة. فهذه اثنا عشر قولاً. ابن العربي: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة والمعنى. أمثلها قولهم: ودوا لو تكذب فيكذبون، ودوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى، فإن الادهان: اللين والمصانعة. وقيل: مجاملة العدو وممايلته. وقيل: المقاربة في الكلام والتلين في القول. قال الشاعر:

لَبَعُضُ الْغُشْمِ أَحْزَمُ فِي أُمُورٍ تَنْوُبُكَ مِنْ مُدَاهَنَةِ الْعِدَاةِ

وقال المفضل: النفاق وترك المناصحة.

فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة، وكل شيء منها لم يكن. قال المبرد: يقال أدهن في دينه وداهن في أمره، أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمّر. وقال قوم: داهنت بمعنى وارىت، وأدهنت بمعنى غششت. اهـ

فالناظر في الساحة يرى العجب العجائب! تقرب إلى الحزبيين، والسكوت على مخالفتهم، والركون إليهم، وغير ذلك.

36- مقاضاة الأغراض مع أهل السنة والجماعة والعلماء الصادعين بالحق:

من أعظم أسباب التميع مقاضاة الأغراض من صاحب الحق، والمتأمل لحال الدعوة السلفية الآن يجد أن الكثير ممن يعرفون الحق والمنهج القويم يسكتون ويخذلون ويميعون لشيء في نفوسهم، والناظر في سيرة رسول الله ﷺ يجد أن السبب العظيم في عدم إسلام عبدالله بن أبي وكثرة مكره برسول الله ﷺ هو مقاضاة لغرضه الباطل، ففي صحيح البخاري (1269)، ومسلم (2774) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ ؓ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا. وَقَالَ أَيْضًا: لَيْتَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِْبْنِي مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ».

وقد بين سعد بن عباد سبب هذه المعاندة والمكر، مبيناً أنه يقاضي غرضه السيئ، ففي البخاري (4566) عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال لسعد: «يَا سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» - يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي - «قَالَ: كَذًا وَكَذًا» قَالَ سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، لَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّوهُ، فَيَعْصِبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِّقَ بِذَلِكَ؛ فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ. الحديث.

37- التهوك والتحير:

وهو بمعنى الشك في الحق الذي هو عليه؛ ولهذا لما قرأ عمر رضي الله عنه في التوراة زجره الرسول ﷺ وقال له: «أَمْتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيِّضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتَكْذِبُوا بِهِ، أَوْ بِيَاطِلٍ فَتَصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» رواه أحمد (387/3).

فالواجب على صاحب السنة أن يكون على بينة من أمره، لا تحركه العواصف يمينة ويسرة فيهلك.

ولياخذ هذا الحق بقناعة وهدوء بال، فإن احتار في أمرٍ من الأمور فليعرضه على الكتاب والسنة، وليلجأ إلى الله عز وجل، وقد ذم الله عز وجل الحيرة في القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْ

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [الأنعام: 71]، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (383/11)، وفي الجملة، فالخيرة من جنس الجهل والضلال. اهـ

وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (216/4): (ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه، وفي «سنن النسائي» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «سَلُّوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ؛ فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ يَقِينٍ خَيْرًا مِنْ مُعَافَاةٍ»، وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلية بالمعافاة؛ فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية. اهـ

وقال ابن الوزير في «العواصم» (156/1): (فسبب الشك والكفر هو النظر في التشابهات التي لم يُحِطَ البشر بها علمًا، ولا عرفوا تأويلها، كما أشار إليه القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَكَمَا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: 39]، وما أعظم نفعها للمتأملين، وما يعقلها إلا العالمون، هي أثقاب الدر دقاق، وفهمك حبل، فما يصح النظر). اهـ

38- النزول عند الحزبيين والمبتدعة:

وهذه من الأسباب المؤدية إلى التميع سواء للنازل نفسه حيث يُحذر عن قول الحق وقبوله، ويتأثر بما يسمع وما يقال ومن جالس جانس، وإما بتأثر من يغتر به من المغرورين المغمورين أتباع كل ناعق.

فالواجب على العاقل أن يبتعد عن مجالسة ومزاورة ومؤانسة المبتدعة الضالين، الذين يُلبَّسون على الناس دينهم، ويغمسونهم في الفتنة، وأين أنت أيها المخالف لنهي الله عز وجل عن النزول عند هؤلاء القوم، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ

يَخُوضُونَ فِيءَ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿[الأنعام: 68]﴾، فالمبتدعة يخوضون في آيات الله
بالباطل، والمبتدعة يلبسون الحق بالباطل، والمبتدعة حرب على السنة وأهلها، قال
الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]، فالبعد البعد يا من أراد لنفسه السلامة، ولدينه الاستقامة،
وكم من الناس من كان على خير عظيم وطريق قويم، يدعو إلى السنة ويحذر من
البدعة، فلما جالس هؤلاء المبطلين ضاع وماع، وصار في عداد الهمج الرعاع.
والعجب أن الحزبية في هذه الأيام قد تنوعت طرقها وأساليبها، ومكر أصحابها،
حتى اشتد الوقع وحصل الضرر، والعياذ بالله.

39- زعمهم البدء بالأهم فالأهم:

مع أن هذه القاعدة مهمة جدًا وأهم المهمات هو تحقيق توحيد رب العالمين
والدعوة إليه والتحذير من المبطلين المخالفين والمشركين الكافرين، ففي حديث ابن
عباس لما بعث رسول الله ﷺ معاذًا ﷺ إلى اليمن قال: «وَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ» أخرجه البخاري (1398)، ومسلم (17)، بينما أهل البدع جعلوا
أهم المهمات الوصول إلى دفعة الحكم والتجميع إلى غير ذلك، فالبداءة بالأهم فالأهم
تكون وفق الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

والأهم عند أهل السنة والجماعة سلامة المعتقد، ففي ابن ماجه (61) عن
جندب قال: كنا نتعلم الإيمان على عهد رسول الله ﷺ ثم نتعلم القرآن فنزداد به
إيمانًا. ومن المهمات معرفة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد جملة وتفصيلاً، عملاً
واعتقاداً ودعوة، والله عز وجل قد جعل التوحيد وصيته، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا

أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا
 أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
 وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿[الأنعام: 151]﴾، وجعله قضاءه الحتم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
 إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وأمر به: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]،
 وبعث به رسله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الطُّغُوتَ﴾ [النحل: 36]، ومن المهمات تعلم السنن والواجبات والفرائض وغير
 ذلك، ثم نرى واقع أهل البدع يخالف ذلك حالاً وقالاً، فإلى أين يا أصحاب
 الحزبيات والبدع والخرافات؟! أين أنتم من الكتاب والسنة؟!

40- دعوتهم إلى الرحمة والشفقة وسلامة الصدر على المسلمين:

هذه من الوسائل التي يسلكها الحزبيون والمميعون حيث يزعمون أن أعداء
 الإسلام كثير من اليهود والنصارى، فينبغي أن تنصب العداوة لهم، وهذا صحيح،
 يجب علينا أن نبغض ونحذر من اليهود والنصارى، ثم نحذر ونحذر ممن سلك
 سبيلهم وشابهم في كثير من الأمور، وهم المبتدعة الضلال الذين قال عنهم سفيان
 بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من جهالنا ففيه شبه
 من النصارى).

مع العلم أن اغترار المسلمين بالمتشبهين باليهود والنصارى من أبناء الإسلام
 أعظم من اغترارهم بالكفار؛ ولهذا لما سئل أحمد عن استئجار الجهمي أم اليهودي
 والنصراني، قال: اليهودي والنصراني! ثم بيّن ذلك أن الناس لا يغترون باليهود
 والنصارى، بمثل اغترارهم بأهل البدع.

41- التظاهر بنصرة السنة:

وهذه من صفات أهل النفاق فالواجب نصرة السنة ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فقد يأخذ المبطل بالحق ظاهراً من أجل الوصول إلى زعزعة أهل الحق عن دينهم.

قال القرطبي: ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين... وقال: ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الايمان بمحمد في أول النهار ثم أكفروا به آخره، فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا. اهـ

وهكذا يعمل مع سنة رسول الله ﷺ في هذه الأيام، ومن يفعل ذلك الجواسيس أشكالهم.

42- التملق:

التملق صفة نفاقية، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: 56].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(117): (ومن هذه الحثيثة تنازل منصب العلم وتهاون الناس به؛ لأنهم يرون رجلاً قد لبس لباس أهل العلم وتزين بزيهم وحضر مجالسهم، ثم ذهب إلى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليها من وزير أو أمير، فتصاغر لهم وتذلل وتهاون وتحقر حتى يصير في عداد خدمهم ومن هو في أبوابهم، ثم أعطوه منصباً من

المناصب فعمل ما يريدونه منهم وإن خالف الشرع، واعتمد على ما يرسمونه له وإن كان طاغوتاً بحثاً، فيظن من لا علم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكذا، وأنهم ينسلخون من العلم إذا ظفروا بمنصب من المناصب هذا الانسلاخ، ويمسحون هذا المسخ، ويعود أمرهم إلى هذا المعاد، فيزهد في العلم وأهله، وتنفر عنه نفسه، وتقل فيه رغبته، ويؤثر الحرف الدنيوية عليه؛ ليربح السلامة من المهانة التي رآها نازلة بهذا المشئوم الجالب على نفسه وعلى أهل العلم ما جلب من الذل والصغار، وإذا كان ما جناه هؤلاء النوكاء على العلم وأهله بالغاً إلى هذا الحد عند سائر الناس، فما ظنك بما يعتقده فيهم من يطلبونه من المناصب بعد أن شاهد منهم ما يشاهد من الخضوع والذلة والانسلاخ عن الشرع إلى ما يريدونه منه وبذل الأموال لهم على ذلك ومهاداتهم بأفخر الهدايا والوقوف على ما يطلبونه منه على أي صفة تراد منهم، وينظم إلى هذا خلوهم عن العلم وجهلهم لأهله الذين هم أهلهم فيظنون أن هؤلاء الذين قصدوهم وتعثروا على أبوابهم هم رءوس أهله؛ لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر الذي لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم، فهل تراهم بعد هذا يميلون إلى ما يقوله أهل العلم وينزجرون بما يوردونه عليهم من الزواجر الشرعية المتضمنة لإنكار ما هو منكر والأمر بما هو معروف والتخويف لهم عن مجاوزة حدود الله؟! هيهات أن يصغوا لهذا سمعاً، أو يفتحوا له طرفاً، فإلى الله المشتكى. (أهـ)

فتبين مما تقدم أن كثيراً من الناس يقعون في المخالفات الشرعية تملقاً، سواءً للخاص أو العام، للمواطنين أو الحكام، فإياك والتملق، فإنه صفة أهل النفاق، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مٌسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: 4].

43- عدم الصراحة:

عدم الصراحة والوضوح لدى كثير من الناس لاسيما الدعاة توقعهم في التمييع بأنفسهم، ثم يقع بعدد من يغتر بهم، فكن يا أيها المسلم صريحاً، والأمور بيد الله عز وجل، وابتعد عن صفات المنافقين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]، وكما قال سلمة بن دينار: (ما أردت أن تجده في الآخرة فقدمه اليوم، وما كرهت أن تجده في الآخرة فأخره اليوم). وهل تظن أنك بفعلك هذا وصنيعك غير مفضوح، بلى وربي! قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30]، وفي المثل السائر: (الصراحة راحة)، والسنة هي دين الحق، فلماذا الخوف والخور؟!!!

44- جعل العلم مكسباً:

وهذا يحصل منه البلاء العظيم حيث لا يقع منهم العمل بالعلم والتميز والدعوة، وغاية ما يريده هذا الصنف أن يتكسب بالعلم، ويتحصّل على الدنيا ومناصبها، وكم يقع بسببهم من شرور وفتن، فاللهم سلّم، وعند ابن أبي شيبة في «المصنف» (38311) عن عبدالله بن مسعود ؓ قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويتخذها الناس سنة، فإن غير منها شيء قيل: غيرت السنة؟! قالوا: متى يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلت أمتاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت فقهاؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

وفي الأبيات لابن المبارك:

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيَا يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ
اِحْتَلَّتْ لِلدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالْأَدِينِ

ومن كان هذا حاله فإن التميع مآله، والبدعة نواله، والجزاء من جنس العمل.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(211) مبيّنًا لحال الناس في هذا الباب: (وأما من كان أهلاً للعلم وفي مكان من الشرف فإنه يزداد بالعلم شرفاً إلى شرفه، ويكتسب به من حسن السمعة وجميل التواضع ورائق الوقار وبديع الأخلاق ما يزيد عمله علوّاً، وعرفانه تعظيماً، فيتخلق بأخلاق الأنبياء، ومن يمشي على طريقهم من عامل العلماء وصالح الأمة، ويعرف للعلم حقه، ويعظمه بما ينبغي من تعظيمه، فلا يكدره بالمطامع، ولا يشوبه بالخضوع لأهل الدنيا، ولا يحجمه بالتوصل به إلى ما في يد الأغنياء، فيكون عنده مخدوماً لا خادماً، ومقصوداً لا قاصداً، وبين هذه الطائفتين طائفة ثالثة ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء، جعل العلم مكسباً من مكاسب الدنيا، ومعيشة من معاش أهلها، لا غرض لهم فيه إلا إدراك منصب من مناصب أسلافهم، ونيل رئاسة من الرئاسة التي كانت لهم، كما نشاهده في غالب البيوت المعمورة بالقضاء أو الإفتاء أو الخطابة أو الكتابة أو ما هو شبيه بهذه الأمور، فإن من كان طالباً للوصول إلى شيء من هذه الأمور ذهب إلى مدارس العلم يتعلم ما يتأهل به لما يطلبه وهو لا يتصور البلوغ إلى الثمرة المستفادة من العلم والغاية الحاصلة لطالبه، فيكون ذهنه كليلاً، وفهمه عليلاً، ونفسه خائرة، ونيتة خاسرة، بل غاية تصوره ومعظم فكرته في اقتناص المنصب والوصول إليه، فيخدم في مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ومن يرجو منهم الإعانة على بلوغ مراده أكثر مما يخدم العلم، ويتردد إلى أبوابهم ويتعثر في مجالسهم ويذوق به من الإهانة ما فيه أعظم مرارة، ويتجرع من الغصص ما يصغر قدر الدنيا بالنسبة إليه، فإذا نال ذلك المنصب ضرب بالدفاتر وجه الحائط وألقاها خلف الصور؛ لعدم الباعث عليها من جهة نفسه والمنشط على العلم والمرغب فيه). اهـ.

45- التحريف للحق:

وهذا من أعظم الأسباب التي يتوصل بها المبطلون إلى نشر باطلهم وشرهم حيث يحرفون دلالة النصوص إلى ما يوافق أهوائهم وأرائهم، وقد قال الله عز وجل محذراً من التحريف، ومبيناً لحال اليهود مع الكتب السماوية: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (1/215): (والتحريف العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه. والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود، فهم الراسخون فيهما، وهم شيوخ المحرفين وسلفهم؛ فإنهم حرفوا كثيراً من ألفاظ التوراة، وما غلبوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه؛ ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم، ودرج على آثارهم الرافضة، فهم أشبه بهم من القذة بالقذة، والجهمية فإنهم سلكوا في تحريف النصوص الواردة في الصفات مسالك إخوانهم من اليهود، ولما لم يتمكنوا من تحريف نصوص القرآن حرفوا معانيه وسطوا عليها وفتحوا باب التأويل لكل ملحد يكيد الدين). اهـ

فوقع تميع عظيم في الدين بسبب تحريف الجهمية والمعتزلة والباطنية والرافضة، وهكذا دواليك، يحرفون دلالة القرآن والسنة إلى مقتضى شبهاتهم وشهواتهم وأهوائهم، فأحلوا الحرام وفعلوا الآثام.

46- اللامبالاة:

قديماً قيل: (واحر قلباه ممن قلبه شيم)، فبعض الناس ليس عنده مبالاة بنصرة الحق أو تقهقره بظهور الباطل أو خموده؛ وهذا لقلة دينه وورعه وتقواه، وإلا فإن الله يقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَهْمًا لَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، فيجب على المسلم أن يكون هواه وحركته وسكونه لنصرة الحق وأهله، يسكن باله ويرتاح إذا انتصر الحق وظهر، ويغضب وينكر إذا هُضم الحق وخولف.

وتقع قلة المبالاة بسبب ضعف الدين وقلة العلم والركون إلى الدنيا، فأين أنت أيها المسلم من سلفك الصالحين، وأئمة الدين الذين حفظ الله بهم الملة، فآلفوا وصنفوا وجاهدوا وبذلوا؟!

47- عدم الأخذ بنصح أهل العلم المميزين الأثبات:

الله عز وجل أرسل رسوله بالنصيحة، قال عز وجل عن نوح: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، وقال عن هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68]، وقال عن صالح: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: 79]، ونبينا ﷺ يقول: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» أخرجه مسلم (55) عن أبي رقية.

والله عز وجل أخذ الميثاق في النصح والبيان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وأمرنا بسؤالهم والأخذ بنصحهم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ

كُنْتُ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ [الأنبياء: ٧]، فالواجب قبول نصحهم والاستفادة منهم وإذا لم تقتنع بنصحهم الموافق للأدلة فاتهم عقلك وعلمك القاصر.

واعلم أن مصيرك إلى البوار إن لم يلطف الله عز وجل بك، فإن العالم يعرف الفتنة وهي مقبلة، فيحذرك منها، بينما العامي لا يعرفها إلا إذا أدبرت.

48- الطعن في فهم أهل العلم:

وهذا يحصل من المميعين حيث يزعمون أن أهل العلم لا يفقهون الواقع، وأن علمهم لا يتعدى سراويل النساء، فإذا ما أفتى بفتوى وإذا بهم يردونها بهذه الدعاوي.

ويا سبحان الله! كم فتكت هذه الدعاية بأناس مع أن أهل العلم من أفعه الناس بواقع الناس؛ ولذلك يوجهونهم إلى مرضاة الله عز وجل، ويحذرونهم من المعصية، يفتونهم بالشرع، ويحذرونهم من البدع، وهذا يدل على فقههم لواقع الحال أكثر من غيرهم، لكن مراد أهل البدع بفقه الواقع هو تتبع القنوات الإخبارية والصحف اليومية والمواقع الإلكترونية والشبكات العنكبوتية، إلى غير ذلك، فتضيع أوقاتهم، وهم في القيل والقال، بينما فقه الواقع حقاً هو ما عرفه شيخ الإسلام الألباني - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بقوله: فقه الواقع هو الوقوف على ما بهم المسلمين مما يتعلق بشؤونهم أو كيد أعدائهم؛ لتحذيرهم والنهوض بهم واقعياً لا كلاماً نظرياً، أما الكلام النظري الذي ليس له من يتبناه عملاً ويخرجه إلى حيز الواقع فعلاً أو انشغالاً بأخبار الكفار، وأنبائهم، أو إغراقاً بتحليلاتهم وأفكارهم، فمعرفة الواقع للوصول به إلى حكم الشرع واجب مهم من الواجبات التي يجب أن يقوم بها

طائفة مختصة من طلاب العلم المسلمين النبهاء كأي علم من العلوم الشرعية. انتهى المراد.

قال الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «فضائح ونصائح» ص (109) في إجابة على سؤال: ما هو الضابط الشرعي لفقه الواقع؟

قال: هو فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن هذه الفتن التي حدثت بسبب ذنوبنا، فما أصاب المسلمين هو بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، نعرف من هذا أن فقه الواقع هو أن ننظر بأي شيء حصل لنا هذا التدهور، وهذا الفتور، وقد ظن بعض المغفلين أن فقه الواقع هو أن تعرف كم شوارع باريس، وكم شوارع القاهرة، وكم شوارع أمريكا، وإذا لم تعرف الجغرافيا فما عرفت الواقع! فأعلم الناس بفقه الواقع هم أهل السنة، وعلى رأسهم الشيخ ابن باز، والشيخ الألباني حفظهما الله، فأما فقه الواقع أن نصرف شبابنا إلى قراءة الجرائد والمجلات وإلى استماع الإذاعات - ولسنا نحرم على الناس شيئاً أحله الله لهم - لكن أن نصرف الشباب الذين يصلحون لطلب العلم نصرفهم إلى التمثيليات، فالذي لا يمثل ما عرف الواقع، والذي ما عرف النشيد ما عرف الواقع... اهـ

49- إتياع الهوى وعدم التجرد للدليل:

في حديث قطبة بن مالك ؓ عند ابن أبي عاصم رقم (14)، أن الرسول ﷺ قال: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بُطُونَكُمْ وَفُرُوجَكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ»، والله عز وجل يقول قبل ذلك: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الشاطبي في «الاعتصام» (3/133): (والثاني من أسباب الخلاف: اتباع الهوى؛ ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدرُوا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك. وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقييح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين؛ لنيل ما عندهم أو طلبًا للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم ويتأول عليهم فيما أرادوا حسبما ذكره العلماء ونقله من مصاحبي السلاطين. فالأولون ردوا كثيرًا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأسأوا الظن بما صح عن النبي ﷺ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة حتى ردوا كثيرًا من أمور الآخرة وأحوالها، من الصراط، والميزان، وحشر الأجساد، والنعيم والعذاب الجسمي، وأنكروا رؤية الباري، وأشبهوا ذلك، بل صيروا العقل شارعًا جاء الشرع أو لا، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل، إلى غير ذلك من الشناعات.

والآخرون خرجوا عن الجادة إلى البيئات وإن كانت مخالفة لطلب الشريعة؛ حرصًا على أن يغلب عدوه أو يفيد وليه أو يجر إلى نفسه نفعًا). اهـ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على مسألة السماع ص(99): (كل ما الناس فيه فإما طاعة للرسول وإما هوى النفوس). اهـ

وأكثر ما يجرّ المرء إلى الباطل هم إتياع الهوى؛ ولهذا كان جهاد الهوى من أفرض الجهاد، بل لا يتم جهاد الكفار إلّا به.

قال في «الفوائد» ص(177) مبيّنًا كون جهاد النفس والهوى من أفرض الجهاد: (قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] علّق سبحانه

الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد. قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر الا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه. اهـ

فيا أصحاب التميع، خذوا بكتاب ربكم وسنة نبيكم بفهم سلفكم، وإياكم واتباع أهوائكم فتهلكوا وتهلكوا، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

50- الطبع:

بعض الناس طبعه فيه لؤم، يقوده إلى هذا البلاء العظيم، ومن عجيب ما يذكره أصحاب القصص: أن كلبًا ذهب إلى ملك الغاب فقال: أريد أن أكون أسدًا، فقال له: لا يصلح لك إلا كلب، قال الكلب: بل أريد أن أكون أسدًا، فقد شغلني الناس، فلما ألح على ملك الغابة أعطاه قطعة لحم، فقال: احفظ هذه إلى الغد، فإن أتيت بها كنت أسدًا، فذهب الكلب وجعل ينظر إلى القطعة ثم يتركها لرغبته في تغير اسمه، وفي الأخير أخذ اللحمه وأكلها، وقال: كلب كلب! وأيش فيها. فصاحب الطبع السيئ عائد إلى ما هو فيه.

والطبع ينقسم إلى قسمين جبلي ومكتسب، قال ابن القيم في «الزاد» (4/279): (فالأرواحُ الطيبة تُحِبُّ الرائحة الطيبة، والأرواحُ الخبيثة تُحِبُّ الرائحة الخبيثة، وكل روح تميل إلى ما يناسبها، فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات،

والطيباتُ للطيبين، والطيبون للطيبات، وهذا وإن كان في النساء والرجال، فإنه يتناولُ الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب، والملابس والروائح، إما بعموم لفظه، أو بعموم معناه.. اهـ

51- التشكك في الحق الذي هو عليه:

وهذا من أسباب التميع؛ لأنه غير ثابت على الدين الحق، نظرًا لشكّه الحاصل، فإن فالتميز عن المبتدعة صادرٌ عن العلم والاعتناع بالحق، وهذا التشكك مرض يجب علاجه، وإلا فإنه متلفٌ للعقائد، وجالبٌ للمعائب.

52- عدم الصبر على الثبات:

كثير من الناس يتساقط في مهاوي الردى والبدع والحزبيات والتميع؛ لعدم الصبر على جلاء ووضوح ومكاريه الثبات على الحق، مع أن الرسول ﷺ يقول: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» في البخاري (6487)، ومسلم (2823) عن أبي هريرة ؓ، وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: قال الرسول ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: فَوَعَزَّتْكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتِ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتِ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ، وَعَزَّتْكَ، لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعَزَّتْكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتِ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا،

فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا» رواه الترمذي (2560).

فالواجب الثبات على الحق والصبر على المكاره، ويحصل عدم الثبات بسبب الجهل وضعف الهمة والركون إلى الدون.

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (98/2) مبيناً حال من أراد العاقبة في الدنيا والآخرة: (فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة وإن لم يجزموا به، فإن الغالب صدق العادة وإطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم، فلو طرد هذا القياس الفاسد وقال: السفر مشقة متحققة والكسب مُرٌّ موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية. وكذلك عمال الآخرة، لو قالوا: تعب العمل ومشقة أمر محقق وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة. وكذلك الإجراء والصناع والملوك والجنود وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر). اهـ

وقال في «مدارج السالكين» (397/2): (وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى ويقول به يهدي المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أَمْرُنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. اهـ

وكما قيل:

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

53- الجهل بأهل الباطل ومقالاتهم المخالفة للحق:

وهذا السبب الذي أخبر الرسول ﷺ عن ظهوره: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُزْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ، وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ» رواه البخاري (7062)، ومسلم (2672) عن أبي موسى ﷺ.

فالواجب الحرص على العلم الشرعي، فقد أخرج البخاري (7084)، ومسلم (1847) من حديث حذيفة ﷺ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ خَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ». قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ ﷺ: «قَوْمٌ يَسْتَتُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالْبِسْتِنَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ ﷺ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا؟ قَالَ ﷺ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ». ففي الحديث دلالة على أن معرفة طرق الشر وأساليبه تقع بها السلامة إن شاء الله عز وجل، مع التمسك بسبيل أهل الحق، وكما قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقُّيهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ يَقَعْ فِيهِ

54- عدم تصور الباطل على ما هو عليه:

بعض الناس بل الكثير منهم يقول الباطل ويدعو إليه مع عدم تصوره له، وهذا من أسباب بقائه على الباطل وركونه إليه، مع أنه لو قُرِّرَ وبُيِّنَ له وجه الباطل

ربما رجع عنه، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (2/145): (وَاعْلَمَ أَنَّ الْمَذْهَبَ إِذَا كَانَ بَاطِلًا فِي نَفْسِهِ لَمْ يُمَكِّنِ النَّاقِدَ لَهُ أَنْ يَنْقُلَهُ عَلَى وَجْهِ يَتَصَوَّرُ تَصَوُّرًا حَقِيقِيًّا؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْحَقِّ. فَأَمَّا الْقَوْلُ الْبَاطِلُ فَإِذَا بَيَّنَّ فَبَيَّانُهُ يَظْهَرُ فَسَادُهُ حَتَّى يُقَالَ كَيْفَ اشْتَبَهَ هَذَا عَلَى أَحَدٍ وَيَتَعَجَّبُ مِنْ اعْتِقَادِهِمْ إِيَّاهُ وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعَجَبَ فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُتَحَيَّلُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَاطِلِ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا وَصَفَ اللَّهُ أَهْلَ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ ﴿أَمَوْتُ﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدَّرُونَ﴾، وَأَنَّهُمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾. (.). اهـ

وكان شيخ الإسلام إذا ناظر أحداً من المخالفين يكرر له المقالة، قال رحمه الله كما في «المجموع» (2/345-346): (وَهُؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ بِالْوَحْدَةِ قَوْلُهُمْ مُتَنَاقِضٌ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ الشَّيْءُ وَنَقِيضُهُ، وَإِلَّا فَقَوْلُهُ: (مِنْهُ وَإِلَّا عِلَاقَةُ يُبْدَى وَيُعِيدُ) يُنَاقِضُ الْوَحْدَةَ، فَمَنْ هُوَ الْبَادِي وَالْعَائِدُ مِنْهُ وَإِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَاحِدًا؟! .) وَقَوْلُهُ:

وَمَا أَنَا فِي طَرَاكِ الْكَوْنِ شَيْءٌ لَا يِيْ مِثْلُ ظِلٍّ مُسْتَحِيلٍ
يُنَاقِضُ الْوَحْدَةَ؛ لِأَنَّ الظِّلَّ مُغَايِرٌ لِصَاحِبِ الظِّلِّ، فَإِذَا شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِالظِّلِّ لَزِمَ
إِثْبَاتُ اثْنَيْنِ، كَمَا إِذَا شَبَّهَهُ بِالشُّعَاعِ، فَإِنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ لَيْسَ هُوَ نَفْسُ قُرْصِ
الشَّمْسِ، وَكَذَلِكَ إِذَا شَبَّهَهُ بِضَوْءِ السَّرَاجِ وَغَيْرِهِ. وَالنَّصَارَى تُشَبِّهُ الْخُلُوفَ وَالْإِتِّحَادَ
بِهَذَا. (وَقُلْتُ لِمَنْ حَضَرَنِي مِنْهُمْ وَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا: فَإِذَا كُنْتُمْ تُشَبِّهُونَ الْمَخْلُوقَ
بِالشُّعَاعِ الَّذِي لِلشَّمْسِ وَالنَّارِ وَالْخَالِقِ بِالنَّارِ وَالشَّمْسِ فَلَا فَرْقَ فِي هَذَا بَيْنَ الْمَسِيحِ
وغيرِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ - عَلَى هَذَا - هُوَ بِمَنْزِلَةِ الشُّعَاعِ وَالضَّوْءِ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ

المسيح ويَنَ إبراهيمَ ومُوسى؟ بَلْ مَا الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى هَذَا؟. وَجَعَلْتُ أُرَدِّدُ عَلَيْهِ هَذَا الْكَلَامَ، وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ جَمَاعَةٌ حَتَّى فَهِمَهُ فَهَمًّا جَيِّدًا وَتَيَّيَنَ لَهُ وَلِلْحَاضِرِينَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَأَنَّ مَا أُثْبِتُوهُ لِلْمَسِيحِ إِمَّا مُتَمَنِّعٌ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ وَإِمَّا مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمَسِيحِ وَغَيْرِهِ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَتَخْصِيصُ الْمَسِيحِ بِذَلِكَ بَاطِلٌ. اهـ

والشاهد أن جهل الباطل يؤدي إلى ظنه دينًا، فالواجب على الداعي إلى الله عز وجل أن يبصر الناس، وأن يريهم أوجه فساد الباطل الذي هم عليه بالكتاب والسنة، مع فهم سلف الأمة.

55- صدور الباطل من شيخ له قبول:

والناس تبع لمن يثقون به، فإذا صدر الباطل من شيخ له قبول بين الناس اتبعوه بدون نظر إلى دليل قوله وفعله، إلا ممن بصره الله عز وجل وقليل ما هم، وقديماً قيل: (حبك للشيء يعمي ويصم)، فيا مسكين، وضعيف العزيمة، هذا الشيخ يُقبل منه ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أما المخالفة فمردوده عليه، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (عجبت ممن عرف الإسناد وصحته ويعمد إلى قول سفيان)، أتدري من سفيان الذي يتعجب الإمام أحمد رحمه الله تعالى من الأخذ بقوله بدون دليل؟! إنه سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله تعالى، أمير المؤمنين في الحديث، العابد الخير. وأرفع من ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: (أراكم ستهلكون، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر). فإلى أين ذهبت عقول الناس؟ رحماك ربنا رحماك!.

قال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» (3/14): (حبك الشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه، فلا تراها ولا تسمعها وإن كانت فيه). اهـ

وقال المقبلي في «العلم الشامخ» ص(98): (فإن الناس يدورون بدوران ما يقوم به الوقت من حدوث مقالة يوطئها شيخ قد ابتلي بالقبول فيهم). اهـ

وقال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(43): (وقد جرت قاعدة أهل البدع في سابق الدهر ولاحقه بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ويبالغون في إشهارها وإذاعتها فيما بينهم ويجعلونها حجة لبدعتهم ويضربون بها وجه من أنكر عليهم). اهـ

وقال رحمه الله ص(122): (فإن المجتهد هو الذي لا ينظر إلى من قال بل إلى ما قال فإن وجد نفسه تنازعه إلى الدخول في قول الأكثرين والخروج عن قول الأقلين أو إلى متابعة من له جلالة قدر ونبالة ذكر وسعة دائرة علم لا لأمر سوى ذلك، فيعلم أنه قد بقي فيه عرق من عروق العصبيية وشعبة من شعب التقليد وأنه لم يوف الاجتهاد حقه). اهـ

فالواجب علينا اتباع الدليل؛ لقول الله عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، والرسول ﷺ يقول كما في حديث العرباض بن سارية ؓ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وقد تقدم.

56- انتساب أهل الباطل بجليل القدر:

هذه عادة مطردة أن صاحب الباطل الذي يريد أن يروج باطله ينسبه إلى جليل القدر، فأصحاب الانتخابات ينسبون باطلهم إلى شيخ إسلام عصرنا الشيخ ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، وأصحاب الرفض ينسبون باطلهم إلى آل البيت وكثير من المميعين ينسبون باطلهم إلى العلماء الربانيين. والخوارج الإباضية ينسبون أنفسهم إلى أبي الشعثاء جابر بن زيد.

قال ابن القيم رحمه الله كما في «مختصر الصواعق» (1/79): (فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون: هو أعلم بالله ورسوله منا. وبهذه الطريق توصل الرافضة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية إلى تنفيق باطلهم وتأويلاتهم، حتى أضافوها إلى أهل بيت رسول الله؛ لما علموا أن المسلمين متفقون على محبتهم وتعظيمهم وموالاتهم وإجلالهم، فانتموا إليهم وأظهروا من محبتهم وموالاتهم والهج بذكرهم وذكر مناقبهم ما خيل إلى السامع أنهم أولياؤهم وأولى الناس بهم، ثم نفقوا باطلهم وإفكهم بنسبته إليهم، فلا إله إلا الله! كم من زندقة وإلحاد وبدعة وضلالة قد نفقت في الوجود بنسبتها إليهم وهم براء منها). اهـ

وقال شيخ الإسلام في «رده على الشاذلي» ص(190): (ولولا ما أوجبه الله نصيحة للخلق ببيان الحق لما كان إلى بيان كلام هذا وأمثاله حاجة، ولكن كثير من الناس يأخذون الكلام الذي لا يعلمون ما اشتمل عليه من الباطل فيقتدون بما فيه؛ اعتقاداً وعملاً ويدعون الناس إليه). اهـ

57- تقاعس أهل الحق عن التحذير من التمييع وصور الباطل:

وهذا ما يحصل كثيراً حيث يسكت أهل الحق عن نشر الحق، والله يقول: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي حديث مالك بن نضلة رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «أَتُنِي رَسُولَهُ مِنْ رَبِّي، فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا، وَرَأَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكْذَّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ» أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» ص(99)، فالواجب بيان الحق والدعوة إليه والتحذير من الشر.

قال ابن قتيبة في «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية» ص(60): (وإنما يقوى الباطل بالسكوت عنه). اهـ

وقال ابن عقيل الحنبلي في «شفاء الصدور» ص(147): (لو سكت المحقون ونطق المبطلون لتعود البشر ما شاهدوه وأنكروا ما لم يشاهدوا، فمتى رام المتدين إحياء سنة أنكرها الناس وظنوها بدعة. اهـ

وقال شيخ الإسلام في «التدمرية» ص(194): (وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة. اهـ

وقال المقبلي في «العلم الشامخ» ص(301): (وما ضل وأضل إلا تهاون العلماء بالصدع بالحق. اهـ

وقال الشاطبي في «الاعتصام» (1/ 101-102) مبيناً سبب رواج البدع: (أن يعمل بها العوام وتشيع فيهم وتظهر فلا ينكرها الخواص ولا يرفعون لها رءوسهم وهم قادرون على الإنكار فلم يفعلوا، فالعامي من شأنه إذا رأى أمراً مجهلاً حكمه يعمل العامل به فلا ينكرها عليه، اعتقد أنه جائز وأنه حسن، أو أنه مشروع بخلاف

ما إذا أنكر عليه فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين. هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشرعية، لأن مستنده الخواص والعلماء في الجائز مع غير الجائز، فإذا عدم الإنكار ممن شأنه الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجوده القدرة عليه، فلم يفعل، دل عند العوام على أنه فعل جائز لا حرج فيه. اهـ

58- اعتقاد المميع المبطل أنه على حق:

ومن أسباب التميع عن المنهج السلفي أن صاحب هذا المنهج يظن أنه على الحق ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

قال شيخ الإسلام في «الاستقامة» (1/13): (وأول من ضل في ذلك هم الخوارج المارقون حيث حكموا لنفوسهم بأنهم المتمسكون بكتاب الله وسنته، وأن علياً ومعاوية والعسكرين هم أهل المعصية والبدعة، فاستحلوا ما استحلوه من المسلمين). اهـ

وقال في «التسعينية» (3/306): (وَكَذَلِكَ دَعَاوَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ أَنَّهُمُ الْمُحِقُّونَ، أَوْ أَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ أَوْ أَهْلُ التَّحْقِيقِ أَوْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَتَّى تُوَقَّفَ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَيَكُونُونَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ أَقْرَبَ، وَإِلَى الْإِبْطَالِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ إِلَى التَّحْقِيقِ بِكَثِيرٍ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ شَبَهَ قَوِيٍّ بِمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿البقرة: ١١١-١١٣﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]. اهـ

59- الكبر:

قال الله عز وجل: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد فسر رسول الله ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، كما هو عند مسلم (91) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعند أحمد عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - وبطر الحق: رده، وغمط الناس: احتقارهم.

وقال ابن القيم في «الزاد» (271 / 4): (ولولا مانع الكبر والحسد، والرياسة والمعاداة في الكفار، لكانت الرُّسل أحبَّ إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال). اهـ

وما أنت والكبر والمتكبرون أكثر أهل النار، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (4850)، ومسلم (2846): «اُخْتَبَتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتْ هَذِهِ: يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتْ هَذِهِ: يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَرُبَّمَا قَالَ أُصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ -، وَقَالَ هَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤُهَا».

فكثير ممن يقع في التميع بسبب كبره وبطره للحق ورده له، وإنما وقع إبليس فيما وقع فيه لما قارف هذه البلية العظيمة، قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ

مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿[ص:74]، بل وما الذي صد فرعون وقومه عن الإيمان إلا الكبر، وكذا أبو جهل وكل مبطل، فتواضع لربك أيها المسلم توفق وتسلم من العطب.

قال شيخ الإسلام في «الرد على الشاذلي» ص(207): (وكثير من المنتسبين إلى العلم يبتلى بالكبر، كما يُبتلى كثير من أهل العبادة بالشرك؛ ولهذا فإن آفة العلم الكبر، وآفة العبادة الرياء، وهؤلاء يُجرمون حقيقة العلم كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:146]، قال أبو قلابة: منع قلوبهم فهم القرآن.^(١)

ولهذا كان الكبر كثيرًا في اليهود وأشباه اليهود الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، والشرك كثير في النصارى وأشباه النصارى الذي يعملون ويعبدون بغير علم، والمهتدون هم الذين يعلمون الحق ويعملون به). اهـ

60- العجب:

آفة من الآفات العظام التي تهلك الفرد وتسلب الاستقامة، قال ابن منظور: (العجب الزهو ورجل معجب مزهو بما يكون منه حسنًا كان أو قبيحًا). اهـ

قال الله عز وجل ﴿إِنَّ قُلُوبَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيْتَنَاهُ مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76]، فبسبب البطر والفرح والعجب يقع المرء في المهاوي والمرادي، والله المستعان؛ لأن الله عز وجل لا يوفقه ولا يسدده، فالواجب عليك أيها المسلم أن تكون متواضعًا لربك سبحانه وتعالى، آطرًا لنفسك عن الزهو والغرور، فإن كنت ذا علم فاشكر الله عز وجل على ذلك، ولا تعجب بنفسك، وإن

(١) هو عند ابن جرير (443/10) عن سفيان بن عيينة.

كنت ذا مال فكذلك، وإن كنت ذا وجاهة... وهلم جراً، فالأمر بيد الله عز وجل أولاً وآخرًا، والحمد لله رب العالمين.

والعجب أصله رؤية النفس، ولا شيء أفسد للأعمال منه، بل إنما يقع الرياء بسبب الإعجاب بالنفس والزهو بأعمالها، فمن كان هذا حاله أركسه الله عز وجل وأسقطه على أم رأسه فانخفض من حيث أراد الرفعة، وهوى من حيث أراد العلو، وسقط من حيث أراد الصعود، فاللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري.

61- الحسد:

وبيان ذلك أنّ الحسد يحمل المرء على مخالفة الحق؛ لأنّ الحامل له والداعي إليه فلان، وانظر إلى ما حلّ بإبليس من اللعن والطرود من رحمة الله عز وجل إلا الحسد؟! وما الذي صد أهل الكتاب عن الإيمان إلا هو، قال الله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109].

بل الحسد قد يجعل صاحب العلم يفتي بغير الصواب؛ مقاضاة لغرضه في الذي يحسد، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ﴾ ٥١ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ﴾ ٥١ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ٥٢ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ٥٣ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ [النساء: 51-55].

وللحاسد شر عظيم؛ ولهذا أمر الله عز وجل بالاستعاذة منه، قال الله تعالى:
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ
وَالنَّاسِ﴾.

والحسد يجر إلى كل شر من الشرور والآثام ففي حديث عبدالله بن عمرو
عند مسلم (2962)، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ
قَوْمٍ أَنْتُمْ؟» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ
غَيْرَ ذَلِكَ؟! تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ» أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ
«ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ».

وقد عده ابن القيم في «الفوائد» (أحد أركان الكفر) كيف لا؟! وهو يمنع من
قبول الحق، والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

وقال الشوكاني في كتابه «أدب الطلب» ص(173): (ومن الأسباب المانعة من
الإنصاف: ما يقع من المنافسة بين المتقاربين في الفضائل أو في الرئاسة الدينية أو
الدنيوية، فإنه إذا نفخ الشيطان في أنفهما وترقت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل
واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك وإن كان صحيحاً جاريّاً
على منهج الصواب، وقد رأينا وسمعنا من هذا القبيل عجائب صنع فيها جماعة من
أهل العلم صنيع أهل الطاغوت وردوا ما جاء به بعضهم من الحق وقابلوه بالجدال
الباطل والمراء القاتل، وإني لأذكر أيام اشتغال الطلبة بالدرس علي في كثير من العلوم

وكننت أجيب عن مسائل ترد عليّ يحررها الطلبة ويحررها غيرهم من أهل العلم من أمكنة قريبة وبعيدة، فكان يتعصب على تلك الأجوبة جماعة من المشاركين لي في تدريس الطلبة في علوم الاجتهاد وغيرها، وقد يسلكون مسلكاً غير هذا، فيقع منهم الإيهام على العوام بمخالفة ذلك الكلام لما يقوله من يعتقدون قوله من الأموات، فينشأ عن ذلك فتن عظيمة وحوادث جسيمة، وكان بعض نبلائهم يكتب على بعض ما أكتبه ثم يهديه إلى السائل وإن كان في بلد بعيد من دون أن يقصده بسؤال ولا طلب منه تعقب ما أجبت به من المقال، وقد أفف على شيء من ذلك فأجده في غاية من الاعتساف، فأتعقبه تعقباً فيه كشف عواره وإيضاح بواره، وقد ينضم إلى ذلك كلمات والاستشهاد بأبيات اقتضاها الشباب والنشاط واشتعال الغضب لما أراه من التعصب والمنافسة على ما ليس فيه اختيار، فإن ورود سؤالات السائلين إلي من العامة والخاصة وانثيال المستفتين من كل جهة لم يكن بسعي مني ولا احتيال، وكذلك اجتماع نبلاء الطلبة لدي وأخذهم عني وتعدد دروسهم عندي ليس لي فيه حيلة ولا هو من جهتي/ فكان هذا الصنع منهم يملني على مجاباتهم بما لا يعجبني بعد الصحو من سكر الحداثة والقيام من رقدة الشباب، لا لكونه غير حق أو ليس بصواب، بل لكون فيه من سهام الملام وصوارم الخصام ما لا يناسب هذا المقام، فإذا كان هذا في المشتركين في التدريس والإفتاء وهما خارجان عن مناصب الدنيا؛ لأنهما في ديارنا لا يقابلان بشيء من الدنيا لا من سلطان ولا من غيره من نوع الإنسان، فما بالك بالرئاسات التي لها مدخل في الدين والدنيا أو التي هي خاصة بالدنيا متمحضة لها، فإنه لا شك أن التنافس بين أهلها أهم من الرئاسات الدينية المحضة التي لم تشب بشيء من شوائب الدنيا. فينبغي للمنصف أن لا يغفل عن هذا السبب؛ فإن النفس قد تنقبض عن كلام من كان منافساً في رتبة معارضا في فضيلة وإن كان حقاً،

وقد يحصل مع الناظر فيه زيادة على مجرد الانقباض فيتكلم بلسانه أو يحرر بقلمه ما فيه معارضة للحق ودفع للصواب، فيكون مؤثراً لحمية الجاهلية وعصبية الطاغوت على الشريعة المطهرة، وكفى بهذا فإنه من الخذلان البين، نسأل الله الهداية إلى سبيل الرشاد). اهـ

ورد الحق من قبل أهل الحسد أمر مشهور وغير منكور، قال كفار قريش في بيان سبب ردهم للحق: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْحَارًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿[الزخرف: 31-32]، وغذا ما تكلم الآن علماء الجرح والتعديل بالحق وإذ بكثير من الناس ممن يتزيون بلباس العلماء يردون أقوالهم، لا لشيء، إلا حسداً وبغياً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

62- التفريط في تحري الحق والأخذ به؛ إعراضاً:

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝١١ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: 99-100].

والإعراض حال الكافرين وليس هو من طريق المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: 4].

والتفريط في تحري الحق يسلكه كثير من المبطلين، حيث يرضى بما هو عليه من الباطل من دون أن يكلف نفسه البحث عن الحق والأخذ به، وهذه الحال مزرية

والله يجعل صاحبها من مصاف المبطلين، يتلقى ما يأتيه من الباطل المشين، فكما تبحث عن قوت الأبدان فابحث عن علم الأديان.

قال صديق حسن خان في «قطف الثمر» ص(175): (وإنما يعرف الحق من جمع خمسة أوصاف: أعظمها الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها - وهو أقلها وجودًا وأكثرها فقدانًا - الحرص على معرفة الحق وشدة الدعوة إلى ذلك. والبدع قد كثرت والمحدثات قد عمت البلوى بالإشراك وكثر الدعاء إليها والتعويل عليها، وطلاب الحق اليوم شبه طلابه في أيام الفترة، وهم: سلمان الفارسي، وزيد بن عمر بن نفيل رضي الله عنهما، وأضرابهما، فإنهم قدوة لطالب الحق، وفيهم له أعظم أسوة لما حرصوا على الحق وبذلوا الجهد في طلبه حتى بلغهم الله إليه وأوقفهم عليه وفازوا من بين العوالم الجمّة، فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة وكم عمي عنه من طلبه في زمن النبوة، فاعتبر بذلك واقتد بأولئك الكرام، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا نفيسًا كريماً لا ينال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشوق والإشراف إلى سببه ولا يهجم على البطالين المعرضين ولا يناجي أشباه الأنعام الضالين). اهـ

63- اعتقاد غموض الحق واشتباؤه:

فكثير من الناس يقول ما ندري أين الحق مع أن الله عز وجل قد بين الحق وجلاله قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وما أشكل من ذلك أوجب الرجوع إلى أهل العلم الصادقين الناصحين، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، وقد قال بعضهم:

فَهَذَا الْحَقُّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءٌ فَدَعْنِي مِنْ بَنِيَاتِ الطَّرِيقِ

فالذي يعتبر الحق غامضاً فليتهم نفسه فإما أن يكون ذلك لقلة فهمه وتوفر جهله وعدم سعيه في معرفة الحق أو لرضاه بالباطل. فالحق نور، والحق واضح، والحق مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

64- عدم إفصاح صاحب الحق بالحق الذي يدعو إليه:

وهذا ما يقع كثيراً إما الجبن صاحب الحق وعدم صدعه وبيانه وإما لقلة غيرته على دين الله عز وجل أو لعلة فيه تمنعه من الإفصاح بالحق والدعوة إليه والعمل به، والرسول ﷺ كان مفصلاً بما هو عليه من الحق، ناشراً له في الأسواق وغير ذلك، ففي حديث طارق المحاربي رحمه الله عند الدارقطني (3/ 44) قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين مرة بسوق ذي المجاز وأنا في تباعة لي - هكذا قال - أبيعها فمر وعليه حلة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته يقول: ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، وعند أحمد (3/ 322) عن جابر رحمه الله قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى.

وجاءه ﷺ مالك بن نضلة كما عند البخاري في «خلق أفعال العباد» ص (99) فقال: إلام تدعو يا رسول الله، قال: «أدعوا إلى الله والرحم». أخرجه أحمد. وفي مسلم (832) عن عمرو بن عبسة ؓ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي». فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله». فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلوة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء». إلى غير ذلك من النصوص، فيجب على الداعي إلى الله عز وجل أن يفصح بالحق ويبينه ويوضحه ويجليه ولا يعميه.

65- الجدل المذموم والمرء وحب الظهور والغلبة:

الجدل لنصرة الباطل مذموم شرعاً وعقلاً؛ ولهذا ذمّه الله عز وجل ورسوله ﷺ، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] قالت رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله، فاحذروهم». أخرجه البخاري (4523) ومسلم (2668).

وقال الله عز وجل: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [غافر: 4]، والجدال بالباطل - وزد الجدال عن المبطلين الغاشين المنحرفين المحرفين لدين رب العالمين - منكر وزور، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]، والجدال بالباطل سبب للنكبات، قال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿[غافر:5]، والجدال بالباطل عن المبطلين سبب لطبع القلب على الإعراض، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:35]، وفي حديث أبي هريرة ؓ عند أبي داود (4603) وله طرق وشواهد، قال: قال رسول الله ﷺ: «مِرَاءٌ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ». أي: الجدال بالباطل.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿مَا صَرِيهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:58]. أخرجه الترمذي (3253)، والجدل صاحبه في آخر أمره مفضوح، ففي قصة كعب بن مالك قال: جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَخْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضَعَّةٍ وَتَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ «تَعَالَ». فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي ﷺ: «مَا خَلَفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَتْ ظَهْرَكَ». فَقُلْتُ بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ. متفق عليه.

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (4/194): (وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يُخْتَجُّ بِهِ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى عِلْمٍ أَوْ عِبَادَةٍ بِحُجَجٍ لَيْسَتْ مِنْ أَصُولِ الْعِلْمِ، وَقَدْ يُبْدِي ذَوُوا الْعِلْمِ لَهُ مُسْتَنَدًا مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا وَعَمَلُهُ بِهَا لَيْسَ مُسْتَنَدًا إِلَى ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَذْكُرُهَا دَفْعًا لِمَنْ يُنَازِرُهُ. وَالْمُجَادَلَةُ الْمَحْمُودَةُ: إِنَّمَا هِيَ إِبْدَاءُ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ مُسْتَنَدُ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَأَمَّا إِظْهَارُ غَيْرِ ذَلِكَ: فَتَنُوعٌ مِنَ النِّفَاقِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ). اهـ.

قال الآجري في «أخلاق العلماء» ص(39): (اعلموا رحمكم الله، ووفقنا وإياكم للرشاد، أن من صفة هذا العالم العاقل الذي فقهه الله في الدين، ونفعه بالعلم، أن لا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي، وذلك يحتاج في وقت من الأوقات إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ، ليدفع بحقه باطل من خالف الحق، وخرج عن جماعة المسلمين، فتكون غلبته لأهل الزيغ تعود بركة على المسلمين، على الاضطرار إلى المناظرة، لا على الاختيار لأن من صفة العالم العاقل أن لا يجالس أهل الأهواء، ولا يجادلهم، فأما في العلم والفقه وسائر الأحكام فلا. فإن قال قائل: فإن احتاج إلى علم مسألة قد أشكل عليه معرفتها، لاختلاف العلماء فيها، لا بد له أن يجالس العلماء وينظرهم حتى يعرف القول فيها على صحته، وإن لم ينظر لم تقو معرفته؟ قيل له: بهذه الحجة يدخل العدو على النفس المتبعة للهوى، فيقول: إن لم تناظر وتجادل لم تفقه، فيجعل هذا سببا للجدال والمراء المنهي عنه، الذي يخاف منه سوء عاقبته، الذي حذرناه النبي ﷺ، وحذرناه العلماء من أئمة المسلمين وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ صَادِقٌ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ». وعن مسلم بن يسار ﷺ أنه كان يقول: (إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ، فَإِنَّهَا سَاعَةٌ جَهْلٍ الْعَالَمِ، وَبِهَا يَبْتَغِي الشَّيْطَانُ زَلَّتُهُ). وعن الحسن رحمه الله قال: (ما رأينا فقيها يماري). وعن الحسن رحمه الله أيضًا قال: (المؤمن يداري، ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله). وروى عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: (إذا أحببت أخا فلا تماره، ولا تشاره، ولا تمازحه). قال محمد بن الحسين: (وعند الحكماء: أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفرقة بعد الألفة، والوحشة بعد الأنس). وعن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ».

فالمؤمن العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء. فإن قال قائل: فما يصنع في علم قد أشكل عليه؟ قيل له: إذا كان كذلك، وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه، قصد إلى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله، ممن يرتضى علمه وفهمه وعقله، فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة وأعلمه أن مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق، وليست مناظرة مغالب، ثم ألزم نفسه الإنصاف له في مناظرته، وذلك أنه واجب عليه أن يحب صواب مناظره، ويكره خطأه، كما يجب ذلك لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ويعلمه أيضًا: إن كان مرادك في مناظرتي أن أخطئ الحق، وتكون أنت المصيب ويكون أنا مرادي أن تخطئ الحق وأكون أنا المصيب، فإن هذا حرام علينا فعله، لأنّ هذا خلق لا يرضاه الله منا، وواجب علينا أن نتوب من هذا. فإن قال: فكيف نتناظر؟ قيل له: مناصحة، فإن قال: كيف المناصحة؟ أقول له: لما كانت مسألة فيما بيننا أقول أنا: إنها حلال، وتقول أنت: إنها حرام، فحكمنا جميعاً أن نتكلم فيها كلام من يطلب السلامة، مرادي أن ينكشف لي على لسانك الحق، فأصير إلى قولك، أو ينكشف لك على لساني الحق، فتصير إلى قولي مما يوافق الكتاب والسنة والإجماع، فإن كان هذا مرادنا رجوت أن تحمد عواقب هذه المناظرة، ونوفق للصواب، ولا يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب. ومن صفة هذا العالم العاقل إذا عارضه في مجلس العلم والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرته للجدل، والمراء والمغالبة، لم يسعه مناظرته، لأنه قد علم أنه إنما يريد أن يدفع قوله، وينصر مذهبه، ولو أتاه بكل حجة مثلها يجب أن يقبلها، لم يقبل ذلك، ونصر قوله. ومن كان هذا مراده لم تؤمن فتنته، ولم تحمد عواقبه. اهـ.

وقال ابن رجب في «فضل علم السلف» ص(34): (فما سكت من سكت من كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلاً ولا عجزاً، ولكن سكتوا عن علم

وخشية الله. وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم، ولكن حباً للكلام وقلة ورع، كما قال الحسن وسمع قومًا يتجادلون: هؤلاء قوم ملوا العبادة وخف عليهم القول وقل ورعهم فتكلموا. اهـ.

66- التعصب للآباء والأجداد والإخوان والخلان:

قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23].

ومبدأ:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرُشِدْ غَزِيَّةٌ أَرْشِدْ

مذهب جاهلي قائم على السير على طريقة الآباء والأجداد والإخوان والخلان، ضاعت بسببه السنن، وانتشرت البدع، وهُجر العلم، وطبق الجهل، وإنا لله وإنا إليه راجعون، قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كَيْفَيْنِ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 69-74].

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(111): (ومن الأسباب المقتضية للتعصب: أن يكون بعض سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول ومال إلى رأى، فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ، وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه: إنه صحيح، ويتطلب له الحجج، ويبحث عن ما يقويه، وإن كان بمكان من الضعف ومحل من السقوط، وليس له في هذا حظ ولا معه فائدة إلا مجرد المباهاة لمن يعرفه والتزين لأصحابه بأنه في العلم معرق وإن بيته قديم فيه؛ ولهذا ترى كثيراً منهم

يستكثر من: قال جدنا، قال والدنا، واختار كذا، صنع كذا، فعل كذا. وهذا لا شك أن الطباع البشرية تميل إليه، ولا سيما طبائع العرب؛ فإن الفخر بالأنساب والتحدث بما كان للسلف من الأحساب يجدون فيه من اللذة ما لا يجدونه في تعدد مناقب أنفسهم، ويزداد هذا بزيادة شرف النفس وكرم العنصر ونبالة الآباء، ولكن ليس من المحمود أن يبلغ بصاحبه إلى التعصب في الدين، وتأثير الباطل على الحق، فإن اللذة التي يطلبها والشرف الذي يريده قد حصل له بكون من سلفه ذلك العالم، ولا يضره أن يترك التعصب له، ولا يمحى عليه شرفه، بل التعصب مع كونه مفسداً للحظ الأخرى يفسد عليه أيضاً الحظ الديني؛ فإنه إذا تعصب لسلفه بالباطل فلا بد أن يعرف كل من له فهم أنه متعصب، وفي ذلك عليه من هدم الرفعة التي يريدونها والمزية التي يطلبها ما هو أعظم عليه وأشد من الفائدة التي يطلبها بكون له قريب عالم، فإنه لا ينفعه صلاح غيره مع فساد نفسه، وإذا لم يعتقد فيه السامع التعصب اعتقد بلاده الفهم ونقصان الإدراك وضعف التحصيل؛ لأن الميل إلى الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك وقوة فهم وفضل دراية وصحة رواية، بل ذلك دأب من ليست له بصيرة نافذة ولا معفرة نافعة فقد حصل عليه بما تلذذ به وارتاح إليه من ذكر شرف السلف ما حقق عند سامعه بأنه من خلف الخلف. ولقد رأيت من أهل عصري في هذا عجباً، فإن بعض من جمعي وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد يتعصب لبعض المصنفين من قرابته تعصباً مفرطاً، حتى أنه إذا سمع من يعترض عليه أو يستبعد شيئاً قاله، اضطرب وتزيد وجهه وتغيرت أخلاقه، سواء عليه من اعترض بحق أو بباطل، فإنه لا يقبل سمعه في هذا كلاماً، ولا يسمع من نصيح ملاماً، ومع هذا فهو بمحل من الإنصاف ومكان من العرفان قد تحصلت له علوم الاجتهاد تحصلاً قوياً، ونظر في الأدلة نظراً مشبعاً. اهـ

فالواجب على العاقل أن يتعد عن التعصبات والتأثر بالمجاورة بل عليه أن يكون متأثراً منقاداً لما قاله الله عز وجل فيه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

67- العوامل السياسية والاجتماعية:

السير على طريقة الحكّام الذين يميلون إلى المنهج التمييعي والتجمييعي بعيداً عن الصفاء والنقاء والتصفية والترقية؛ لأنّ همهم إرضاء الجماهير والجمع الغفير، والناس على دين ملوكهم، فإن كانوا أهل استقامة انتشر الخير والاستقامة، وإن كانوا أهل بدعة انتشرت البدع، وإن كانوا أهل فسق انتشر الفسق، وهكذا، فالواجب على من أراد الخير لنفسه في الدنيا والآخرة أن يلزم طريق الكتاب والسنة في غربتها وظهورها بعيداً عن التأثر بالمحيط السياسي والاجتماعي؛ لأنّ الجميع عبيد الله عز وجل. وانظر إلى ما كان عليه قوم فرعون من السحر لما كان ملكهم داعٍ إليه ومعظم له، وهكذا.

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(113): (فالناشئ في دولة ينشأ على ما يتظهر به أهلها ويجد عليه سلفه فيظنه الدين الحق والمذهب العدل، ثم لا يجد من يرشده إلى خلافه إن كان قد تظاهر أهله بشيء من البدع، وعلموا على خلاف الحق؛ لأن الناس إما عامة وهم يعتقدون في تلك البدع التي نشئوا عليها ووجدوها بين ظهرانيتهم إنما هي الدين الحق والسنة القويمة والنحلة الصحيحة، وإما خاصة ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها بل وعامتها، فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في الناس لخشي على

نفسه وأهله وماله وعرضه. ومنهم من يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه وقد يترك التكلم بالحق الذي هو خلاف ما عليه الناس استجلاباً لخواطر العوام ومخافة من نفورهم عنه، وقد يترك التكلم بالحق؛ لطمع يظنه ويرجو حصوله من تلك الدولة، أو من سائر الناس في مستقبل الزمان كمن يطمع في نيل رئاسة من الرئاسات ومنصب من المناصب كائناً ما كان ويرجو حصول رزق من السلطان أو أي فائدة، فإنه يخاف أن تفوت عليه هذه الفائدة المظنونة والرئاسة المطموع فيها، فيتظاهر بما يوافق الناس ويتفق عندهم ويميلون إليه ليكون له ذلك ذخيرة وبذا عندهم ينال بها عرض الدنيا الذي يرجوه، فكيف تجد ذلك الناشئ بين من كان كذلك من يرشده إلى الحق ويبين له الصواب ويحول بينه وبين الباطل ويجنبه الغواية وهيئات ذاك فالدنيا مؤثرة والدين تبع لها، ومن شك في هذا فليخبرنا من ذاك الذي يستطيع أن يصرخ بين ظهري دولة من تلك الدول بما يخالف اعتقاد أهلها وتألفه عامتها وخاصتها ووقوع مثل ذلك نادراً إنما يقوم به أفراد من مخلصي العلماء ومنصفينهم، وقليل ما هم، فإنهم لا يوجدون إلا على قلة وإعواز وهم حملة الحجة على الحقيقة والقائمون ببيان ما أنزل الله والمترجمون للشريعة وهم العلماء حقاً، وأما غيرهم ممن يعلم كما يعلمون ولا يتكلم كما يتكلمون بل يكتم ما أخذ الله عليه بيانه ويعمل بالجهل مع كونه عالماً بأنه جهل ويقول بالبدعة مع اعتقاده أنها بدعة، فهذا ليس بأهل لدخوله في مسمى العلم ولا يستأهل أن يوصف بوصف من أوصافه أو يدخل في عداد أهله بل هو متظاهر وأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته بالجهل والبدعة مطابقة لأهل الجهل والابتداع وتنفيهاً لنفسه عليهم واستجلاباً لقلوبهم ومداراة لهم، حتى يبقى عليه جاهه ويستمر له رزقه الجاري عليه من بيت مال المسلمين أو وقفهم أو نحو ذلك فهذا هو من البائعين عرض الدين بالدنيا

المؤثرين العاجلة على الآجلة فضلاً عن أن يستحق الدخول في أهل العلم والوصول إلى هذا العلم.

ومن شك فيما ذكرته أو تردد في بعض ما سقته فليمعن النظر في أهل عصره هل يستطيع أحد من أهل العلم أن يخالف ما يهواه السلطان من المذاهب فضلاً عن أن يصرح للناس بخلافه هذا على فرض أن ذلك الذي يهواه الملك بدعة من البدع الشنيعة التي لا خلاف في شناعتها ومخالفتها للشريعة كما تعتقده الخوارج والروافض، فإن السنة الصريحة المتواترة التي لا خلاف فيها قد جاءت بقبح ذلك وذم فاعله وضلاله. فانظر هداك الله وإياي من يتكلم من أهل العلم الساكنين في أرض الخوارج كبلاد عمان ونحوها بما يخالف مذهب الخوارج أو ينكر ذلك عليهم أو يرشد الناس إلى الحق، وكذلك من كان ساكناً من أهل العلم ببلاد الروافض كبلاد الأعاجم ونحوها هل تجد رجلاً منهم يخالف ما هم عليه من الرفض فضلاً عن أن ينكره عليهم، بل قد تجد غالب من في بلاد أهل البدع من العلماء الذين لا تخفى عليهم مناهج الحق وطرائق الرشد يتظاهرون للملوك والعامّة بما يناسب ما هم عليه ويوهمونهم بأنهم يوافقونهم وأن تلك البدعة التي هم عليها ليست ببدعة بل هي سنة وحق وشريعة ويعملون كعملهم ويدخلون في ضلالهم، فيكونون ممن أضله الله على علم، فمن كان من أهل العلم هكذا فهو لم ينتفع بعلمه فضلاً عن أن ينتفع به غيره، فعلمه محنة له وبلاء عليه، والجاهل خير منه بكثير، فإنه فعل البدعة ووقع في غير الحق معتقداً أن ما فعله هو الذي تعبد به الله به وأراد منه. اهـ

ولكن بحمد الله وتوفيقه أهل السنة والجماعة سالكون لأعظم السبل آخذين بهدي النبي ﷺ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ بِالْمَعْرُوفِ» البخاري (4340)، ومسلم (1840) عن

علي عليه السلام. وقال عليه الصلاة والسلام: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ». فهم متميزون عن أهل الباطل مميزون للحق من الباطل مع عدم الخروج على الحاكم المسلم والدعاء له. بينما لو نظرت في حال المعتزلة والصوفية والرافضة والإخوان المسلمين ومثل شاكلتهم لرأيت العجب. إذا تكلم الحاكم بالزور صفقوا وأيدوا وبحثوا له عن الشبه التي تنصر الباطل.

68- الإصرار على التمسك بالخطأ وعدم التراجع عنه بعد معرفته للحق والصواب:

الإصرار على التمسك بالخطأ بعد معرفته أنه خطأ خطر وزلل، وليس الخطأ أن لا تخطئ، فهذا يتعذر جداً، ففي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ». رواه مسلم (2749) عن أبي هريرة. ولكن الخطأ هو الاستمرار عليه بعد معرفته.

والواجب الرجوع إلى الحق ولا غضاضة (نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً)، والمراد الأخذ بدين الله عز وجل لا السير على مراد المرء وهواه وشهوته فإن كان صدر منك ما يخالف الحق إما جهلاً أو نسياناً أو اجتهداً، فإذا ما ظهر الحق ارجع إليه وهي الرفعة لا الضعة بإذن الله عز وجل، ولو تأملت حال العلماء والأسلاف لوجدتهم يفتون بالمسألة ثم إذا تبين لهم الخطأ عادوا رافعي الرأس فرحين بمعرفة الحق بعد خفاءه عنهم، قوم تجردوا لله عز وجل وسنة رسوله ﷺ بعيداً عن الرغبات والشهوات والحظوظ، فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، ولهذا تجد للشافعي قولين: القديم والجديد، مع ذلك يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبي).

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(141-142): (ومن آفات التعصب الماحقة لبركة العلم: أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة - كما يصدر ممن يفتي أو يصنف أو يناظر غيره - ويشتهر ذلك القول عنه، فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه وإن علم أنه الحق وتبين له فساد ما قاله، ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين، فإنه قد يسول له الشيطان أو النفس الأمارة أن ذلك ينقصه ويحط من رتبته ويخدش في تحقيقه ويغض من رئاسته، وهذا تخيل مختل وتسويل باطل فإن الرجوع إلى الحق يوجب له من الجلالة والنبالة وحسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والإضرار عليه والاستصغار لشأنه فإن منهج الحق واضح المنار يفهمه أهل العلم ويعرفون براهينه ولا سيما عند المناظرة، فإذا زاغ عنه زانغ تعصباً لقول قد قاله أو رأي رآه فإنه لا محالة يكون عند من يطلع على ذلك من أهل العلم أحد رجلين: إما متعصب مجادل مكابر إن كان له من الفهم والعلم ما يدرك به الحق ويتميز به الصواب، أو جاهل فاسد الفهم باطل التصور إن لم يكن له من العلم ما يتوصل به إلى معرفة بطلان ما صمم عليه وجادل عنه. وكلا هذين المطعنين فيه غاية الشين، وكثيراً ما تجد الرجلين المنصفين من أهل العلم قد تباريا في مسألة وتعارضاً في بحث فبحث كل واحد منهما عن أدلة ما ذهب إليه فجاءا بالتردية والنطيحة على علم منه بأن الحق في الجانب الآخر، وأن ما جاء به لا يسمن ولا يغني من جوع، وهذا نوع من التعصب دقيق جداً يقع فيه كثير من أهل الإنصاف، ولا سيما إذا كان بمحضر من الناس، وأنه لا يرجع المبطل إلى الحق إلا في أندر الأحوال، وغالب وقوع هذا في مجالس الدرس ومجامع أهل العلم أن يكون المنافس المتكلم بالحق صغير السن أو الشأن. ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السن

بالنسبة إلى من يناظره أو قليل العلم أم الشهرة في الناس والآخر بعكس ذلك، فإنه قد تحملته حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفة من الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سنًا أو أقل منه علمًا أو أخفى شهرة؛ ظنًا منه أن في ذلك عليه ما يحط منه وينقص ما هو فيه، وهذا الظن فاسد فإن الخط والنقص إنما هو في التصميم على الباطل، والعلو والشرف في الرجوع إلى الحق بيد من كان وعلى أي وجه حصل. اهـ.

فعلى هذا فكم من الخاص والعام من يترك السنة وَيَقْلُوهَا، لا لشيء، إلا أنه أخطأ فاستمر عليه عنادًا وكبرًا وإعجابًا بنفسه وزهوًا وغير ذلك من موانع الرجوع إلى الصواب. بينما لو لازم الإنصاف وراجع نفسه ولزم التواضع لم يكن في الأمر ثمت مانع، وعند أبي داود (4399) عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن مجنونة زنت، فأراد عمر أن يرحمها، فقال علي عليه السلام: علام ترجمها، وقد رفع القلم عن ثلاثة، وذكر منهم المجنون حتى يفيق، فكبر عمر وترك رجمها؛ تجردًا للحق والدليل، لا اتباعًا للرأي والهوى، قوم أخلصوا لله فأخذوا الحق حيث وجدوه.

69- المجاملة والتزلف للخاص والعام:

المجاملة والتزلف تُتبع الاستقامات؛ لأنَّ صاحبها يترك الحق مجاملة لفلان وتزلفاً إلى علان، بل الواجب إرضاء الله عز وجل، والسعي في ذلك، فمن أَرْضَى الله بسخط المخلوقين رضي الله عنه وأرضى عنه، ومن أسخط الله عز وجل برضا المخلوقين يسخط الله عليه وأسخط عليه. فأين تذهب أيها المجامل؟! أتدري أنَّ هذا الصنيع الذي تصنعه، وهذا السبيل الذي تسلكه مؤداه إلى وقوعك في الباطل ورضاكَ به وبعذك عن الحق وهضمك له؟! فلازم الحق وادع إليه، وإياك والتزلف والتلوُّث؛ فإنَّ الرسول ﷺ يقول: «وَتَحْدُوثُ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هُوْلَاءَ بِوَجْهِهِ وَيَأْتِي هُوْلَاءَ بِوَجْهِهِ» في البخاري (3439)، ومسلم (2526) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وربما ترك هذا الداعي الحق بسبب المجاملة والمجاراة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص (142-165): (ومن الآفات ما يقع تارة من الشيوخ وأخرى من تلامذتهم، فإن الشيخ قد يريد التظاهر لمن يأخذ عنه بأنه بمحل من التحقيق وبمكان من الإتقان، فيحمله ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمه إلى الباطل لئلا يظن من يأخذ عنه أنه يخطئ ويغلط، وهو لو عرف ما عند ذلك الذي يأخذ عنه العلم أن رجوعه عن الخطأ إلى الصواب أعظم في عينه وأجل عنده وزاده ذلك رغبة فيه ومحبة له، وإذا استمر على الغلط وصمم على الخطأ كان عنده دون منزلة الرجوع إلى الحق بمنازل، وهكذا التلميذ قد يخطر بباله التزين لشيخه والتجمل عنده بأنه قوي الفهم سريع الإدراك صادق التصور، فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ والتشبث بما دفع له من الغلط. وبالجمل

فالأسباب المانعة من الإنصاف لا تخفى على الفطن، وفي بعضها دقة تحتاج إلى تيقظ وتدبر، وتتفق في كثير من الحالات لأهل العلم والفهم والإنصاف). اهـ

وهذا الذي جعلنا نرى في هذه الأيام الكثرة المتكاثرة من المميعين والمخالفين. قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(106): (ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف، ويصدر عنها البعد عن الحق، وكتم الحجة، وعدم ما أوجبه الله من البيان: حب الشرف والمال اللذين هما أعدى على الإنسان من ذئبين ضاريين، كما وصف ذلك رسول الله ﷺ، فإن هذا هو السبب الذي حرف به أهل الكتاب كتب الله المنزلة على رسله، وكنتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدى، كما وقع من أحبار اليهود، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز، وأخبرنا به رسول الله ﷺ في الثابت عنه في الصحيح؛ وبهذا السبب بقى من بقى على الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم، وبه نافق من نافق، ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ، وكم من عال قد مال إلى هوى ملك من الملوك فوافقه على ما يريد وحسن له ما يخالف الشرع وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب، بل قد وضع بعض المحدثين للملوك أحاديث عن رسول الله ﷺ، كما وقع من وهب بن وهب أبوالبختري مع الرشيد، ووقع من آخر في حديث: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ أَوْ نَضْلٍ» أخرجه أبوداود (2574) فزاد في الحديث: (أو جناح) موافقةً للملك الذي رآه يلعب بالحمام ويسابق بينها، ووضع جماعة مناقب لقوم، وآخرون مثالب لآخرين، لا حامل لهم على ذلك إلا حب الدنيا والطمع في الحطام والتقرب إلى أهل الرئاسة بما ينفق لديهم ويروح عليهم، نسأل الله الهداية والحماية من الغواية. وكم قد سمعنا ورأينا في عصرنا من أهله، فكثيراً ما نرى الرجل يعتقد في نفسه اعتقاداً يوافق الحق ويطابق الصواب، فإذا تكلم عند من يخالفه في

ذلك ويميل إلى شيء من البدعة - فضلاً عن أن يكون من أهل الرئاسة وممن بيده من الدنيا، فضلاً عن أن يكون من الملوك - وافقه وساعده وسانده وعاضده، وأقل الأحوال أن يكتم ما يعتقده من الحق، ويغمط ما قد تبين له من الصواب عند من لا يجوز منه ضرراً، ولا يقدر منه نفعاً، فكيف ممن عداه، وهذا في الحقيقة من تأثير الدنيا على الدين، والعاجلة على الآجلة، وهو لو أمعن نظره وتدبر ما وقع فيه لعلم أن ميله إلى هوى رجل أو رجلين أو ثلاثة أو أكثر ممن يجاملهم في ذلك المجلس ويكتم الحق مطابقة لهم واستجلاباً لمودتهم واستبقاء لما لديهم وفراراً من نفورهم، وهو من التقصير بجانب الحق والتعظيم لجانب الباطل، فلولا أن هؤلاء النفر لديه أعظم من الرب سبحانه لما مال إلى هواهم وترك ما يعلم أنه مراد الله سبحانه ومطلبه من عباده، وكفاك بهذه الفاقة العظيمة والداهية الجسيمة، فإن رجلاً يكون عنده فرد من أفراد عباد الله أعظم قدرًا من الله سبحانه ليس بعد تجربته على الله شيء، أرشدنا الله إلى الحق بحوله وطوله). اهـ

فيا ضعيف العزم، وبيا دنيء النفس، تتزيا للمخلوق بإغصاب الخالق، وتضيع حق الله عز وجل الذي هو المقدم من أجل إرضاء زيد وعمرو.

70- رد كثير من المتمذهبة والمتحزبة لكل ما يخالف قواعد أهوائهم ونحلهم:

وهذا صنيع المعرضين من الكفار والمنافقين، ولا صنيع من قال الله عز وجل فيهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [آل عمران: 172]، والذين قال الله تعالى آمراً لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]،

وأما المخالفين إذا جاءهم الحق قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24]، ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5].

فيلتبس الأمر على الجهال الرعاع المتبعين لكل ناعق، ويظنون أن الحق ما قاله هؤلاء المتهوكة فيهلكون ويهلكون.

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(166): (ومن جملة أسباب التعصب التي لا يشعر بها كثير من المشتغلين بالعلوم: ما يذكره كثير من المصنفين من أنه يرد ما خالف القواعد المقررة، فإن من لا عناية له بالبحث يسمع هذه المقالة ويرى ما صنعه كثير من المصنفين من رد الأدلة من الكتاب والسنة إذا خالف تلك القاعدة، فيظن أنها في اللوح المحفوظ، فإذا كشفها وجدها في الغاب كلمة تكلم بها بعض من يعتقد الناس من أهل العلم الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى لا مستند لها إلا محض الرأي وبحث ما يدعى من دلالة العقل، وكثيراً ما تجد في علم الكلام الذي يسمونه أصول الدين قاعدة قد تقررت بينهم واشتهرت وتلقنها الآخر من الأول وخطوها جسراً يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإذا كشفت عنها وجدتها في الأصل كلمة قالها بعض حكماء الكلام زاعماً أنه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه، وليس إلا مجرد الدعوى على العقل وهو عنه بريء، فإنه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده، بل قضى به عقل قد تدنس بالبدع وتكدر بالتعصب وابتلى بالجهل بما جاء به الشرع، وجاء بعده من هو أشد بلاء منه واسخف عقلاً وأقل علماً وأبعد عن الشرع فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية فدفع بها جميع ما جاء عن الشارع، عرف هذا من عرفه وجهله من جهله، ومن لم يعرف هذا فليتهم نفسه، فيا لله العجب من مزية يفترها على العقل بعض من حرم علم الشرع، ثم يأتي من

بعده فيجعلها أصولاً مقررة وقواعد محررة، ويؤثرها على قول الله عز وجل وقول الأنبياء.

وهكذا تجد في علم أصول الفقه قاعدة قد أخذها الآخر عن الأول وتلقنها الخلف عن السلف وبنوا عليها القناطر وجعلوها إماماً لأدلة الكتاب والسنة يميزون ما أجازته ويردون ما ردته، وليست من قواعد اللغة الكلية ولا من القوانين الشرعية، بل لا يستند لها إلا الخيال المختل والظن الفاسد والرأي البحت، ومع هذا فهم يزعمون أن هذا العلم لا تقبل فيه إلا الأدلة القطعية، دعوى ظاهرة البطلان، واضحة الفساد، فإن غالبها لا يوجد عليه دليل من الآحاد صحيح ولا حسن، بل لا يوجد أحادي ضعيف، وغالب ما يوجد الموضوعات التي لا يمتري من له حظ من العلم في كذبها، كاستدلالهم بمثل: (حكمي على الواحد حكمي على الجماعة)، وبمثل، (نحن نحكم بالظاهر) ونحو هذه الأكاذيب، فالمغرور من اغتر بهذه الدلس، والمخدوع من خدع بها، وترقى بها من كونها موضوعة، إلى كونها صحيحة، ثم من كونها صحيحة إلى كونها قطعية.

فيا لله العجب من نفاق مثل هذه الأمور على كثير من أهل العلم، وانقراض القرن بعد القرن والعصر بعد العصر وهي عندهم مسائل قطعية وقواعد مقررة، والذنب لمن تكلم بها وذكرها في مؤلفاته ولم يقف حيث أوقفه الله من جهله بما جاء في الشريعة.

وهكذا ما وقع في كثير من أبواب الفقه من ذكر قواعد يطردونها في جميع المسائل ويظنون أنها من قواعد الشرع الثابتة بقطعيات الشريعة، ومن كشف عن ذلك وجد أكثرها مبنياً على محض الرأي الذي ليس عليه أثارة من علم، ولا يرجع

إلى شيء من الشرع، ومن خفى عليه هذا فليعلم أن قصوره وعدم اشتغاله بالعلم هو الذي جنى عليه وغره بما لا يغتر به من عض على العلم بناجذه وكشف عن الأمور كما ينبغي، فعلى من أراد الوصول إلى الحق والتمسك بشعار الإنصاف أن يكشف عن هذه الأمور، فإنه إذا فعل ذلك هان عليه الخطب ولم يحل بينه وبين الحق ما ليس من الحق). اهـ

71- عدم العودة إلى منهج السلف عند الاختلاف:

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، ويكون ذلك بفهم السلف الصالحين الذين هم أعرف الناس بالكتاب والسنة، وهم أعلم الأمة، وطريقتهم أسلم وأحكم.

ومنهج السلف هو الطريق اللائق الموصل إلى مرضاة رب العالمين وإلى جنّة النعيم قوم رضي الله عنهم ورضوا عنه، وإنما حصل لهم ذلك؛ لأنهم أنقى الناس قلوبها، وأطهرهم أخلاقاً، وأعظمهم أعبالاً، إن تكلموا بعلم، وإن سكتوا بعلم، فمن دونهم مقصّر، ومن فوقهم محسر، وهم مع ذلك لعلى هدى مستقيم، فمن تنكب لطريقتهم ضلّ، ومن خالفهم زلّ، وطريقتهم أعلم وأحكم وأسلم.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص (101-102): (وإني أقول بعد هذا: إنه لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة وإبراز الصفات كما جاءت، ورد علم المتشابه إلى الله سبحانه، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد

المدونة في هذا العلم المبنية على شفى جرف هار من أدلة العقل التي لا تعقل ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيما إذا كانت مخالفة لأدلة الشرع الثابتة في الحديث والسنة فإنها حينئذ حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصلون به إلى معرفة ما يتعلق بالرب سبحانه وبالوعد والوعيد والجنة والنار والمبدأ والمعاد إلا ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عن الله سبحانه، وليس للمعقول وصول إلى تلك الأمور ومن زعم ذلك فقد كلف العقول ما أراحها الله منه ولم يتعبدها به، بل غاية ما تدركه وجل ما تصل إليه هو ثبوت الخالق الباري، وأن هذه المصنوعات لها صانع وهذه الموجودات لها موجد، وما عدى ذلك من التفاصيل التي جاءتنا في كتب الله عز وجل وعلى ألسن رسله فلا يستفاد من العقل بل من ذلك النقل الذي منه جاءت وإلينا به وصلت.

واعلم أني عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزد بها إلا حيرة، ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات خزعبلات، فقلت إذ ذاك مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم:

وَمَا غَايَةُ مَا حَصَلَتْهُ مِنْ مَبَاحِثِي وَمِنْ نَظَرِي مِنْ بَعْدِ طُولِ التَّدَبُّرِ
هُوَ الْوَقْفُ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ حَيْرَةً فَمَا عِلْمٌ مَنْ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ التَّحِيرِ
عَلَى أَنَّنِي قَدْ خُضْتُ مِنْهُ غَمَارَهُ وَمَا قَنِعْتُ نَفْسِي بِدُونِ التَّبَحُّرِ

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حائق، وطرحتها خلف الحائط، ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنة المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم السالكين مسالكهم، فطاحت الحيرة وانجابت ظلمة العماية وانقشعت وانكشفت ستور الغواية، والله الحمد.

على أني والله الشكر لم أشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله مبنية على غير أساس رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع ويدمغ زائفها من أنوار الكتاب والسنة، ولكنني كنت أقدر في نفسي أنه لو لم يكن لدي إلا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ إلا حيرة، ولا أمشي إلا في ظلمة، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها، ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه، كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة، وفي دعة من تلك الخزعبلات، والحمد لله رب العالمين، عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان. اهـ

فالله عز وجل قد أحكم الدين وأتمه ونقله إلينا سلفنا صافيًا نفيًا، فما من أمر من أمور الدين إلا وعندهم حكم منه، إما خاص وإما عام، فلنرجع إلى فهمهم للكتاب والسنة، وقواعدهم التي ساروا عليها، فطريقهم سلامة للأمة، قال النبي ﷺ: «وَأَصْحَابِي أُمَّةٌ لَا تُمَيُّ فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ» أخرجه مسلم (2531) عن أبي موسى رضي الله عنه. فلسنا بحاجة إلى أقوال الصاوي أو قطب أو البنا أو فتحي يكن، أو غيرهم من المخالفين لدين رب العالمين ولسنة سيد المرسلين.

72- الالتباس بين ماهو من الرأي وبين ما هو من الدين:

الله عز وجل قد حذر من لبس الحق بالباطل، فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]، فلبس الحق بالباطل والتباسه على العبد يؤدي إلى الزعزعة وعدم الثبات فابحث عن الجلي واترك الخفي، وابتحث عن التبين واترك التلبس وأسبابه.

قال الشوكاني في «الأدب» ص(174): (ومن أسباب التعصب الحائلة بين من أصيب بها وبين المتمسك بالإنصاف: التباس ما هو من الرأي البحت بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد). اهـ

وهذا غالبًا ما يقع بسبب الجهل والبعد عن الدليل وإتباع الرخص والاعتداد بالأقوال دون النظر في أدلتها.

73- إتباع زلات العلماء:

الزلة: هي الخطأ من العالم، والخطأ يجب رده ممن حصل منه كبيرًا أو صغيرًا، وعظيمًا أو حقيرًا.

ففي الحديث: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». أخرجه البخاري (7352)، مسلم (1716) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه. فالعالم دائر بين الأجر والأجرين، والآخذ بالزلة دائر في الإثم، حيث وهو يقلده من غير ذكر حجة على قوله.

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(116): (وقد جرت قاعدة أهل البدع في سابق الدهر ولاحقه بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ويبالغون في إشهارها وإذاعتها فيما بينهم ويجعلونها حجة لبدعتهم ويضربون بها وجه من أنكر عليهم). اهـ

مع أن الواجب الأخذ بقول النبي ﷺ وهديه، فكل يؤخذ من قوله ويرد.

قال الذهبي رحمه الله تعالى في «تذكرة الحفاظ» (1/16): (وكل إمام يؤخذ من قوله ويترك إلا إمام المتقين الصادق المصدوق الأمين المعصوم صلوات الله وسلامه

عليه، فيا لله العجب من عالم يقلد دينه إمامًا بعينه في كل ما قال مع علمه بما يرد على مذهب إمامه من النصوص النبوية فلا قوة إلا بالله). اهـ

وقد قال عمر رضي الله عنه: (ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدل منافق، وأئمة مضلون). وجاء عن أبي الدرداء. لأن العالم إذا زل زل بزلته أناس كثير، ولهذا كان يقول ابي بن كعب: (إني لست عليهم آسى، ولكن آسى على من أضلوا) أخرجه النسائي (808).

74- استغلال سكوت العلماء:

الناس يتجهون إلى العلماء حين حصول الفتن، فإذا سكتوا ظن الناس أن سكوت العلماء إقرار لهذا الشر، واستغل أهل البدع هذا السكوت، وجعلوا يصلولون ويجولون بباطلهم، والشبه خطافة، فيجدون لهم آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، فتقع الفتنة وتعظم الرزية، وكم من العلماء الذين يركزون على جانب الفقه ويتركون جانب العقيدة والتوحيد، ويترك جانب السنة، والواجب معالجة جميع الأمور، وقد أخذ الله عز وجل الميثاق على العلماء في الصدع بالحق وعدم كتم العلم على ما تقدم بيانه، وقد تكلم الناس على مسألة الإجماع السكوتي، وردوه؛ لأن الدافع إلى السكوت قد يكون الخوف، وقد يكون عدم بلوغ القضية، وقد يكون لعدم تصورهما، إلى غير ذلك.

قال الشيخ ربيع في «الحدّ الفاصل» ص(170): ويجب أن يعلم علماؤنا الأفاضل أن لأهل الأهواء والتحزب أساليب رهيبة لاحتواء الشباب، والتسلط والسيطرة على عقولهم، ولإحباط جهود المناضلين في الساحة عن المنهج السلفي.

من تلكم الأساليب الماكرة: استغلال سكوت بعض العلماء عن فلان وفلان، ولو كان من أضل الناس، فلو قدم الناقدون أقوى الحجج على بدعة وضلاله فيكفي عن هؤلاء المغالطين لهدم جهود المناضلين الناصحين التساؤل أمام الجهالة: فما بال فلان وفلان من العلماء سكتوا عن فلان وفلان؟ ولو كان فلان على ضلال لما سكتوا عن ضلاله؟! وهكذا يلبسون على الدهماء، بل وكثير من المثقفين، وغالب الناس لا يعرفون قواعد الشريعة ولا أصولها التي منها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، فإذا قام به البعض سقط عن الباقيين.

ومن أساليبهم: انتزاع التزكيات من بعض العلماء لأناس تدينهم مؤلفاتهم ومواقفهم ونشاطهم بالبعد عن المنهج السلفي ومنازمة أهله، وموالاته خصومه، وأمور أخرى، ومعظم الناس لا يعرفون قواعد الجرح والتعديل، وأن الجرح المفصل مقدم على التعديل؛ لأن المعدل يبني على الظاهر وعلى حسن الظن، والجرح يبني على العلم والواقع، كما هو معلوم عند أئمة الجرح والتعديل (. اهـ

75- استخدام قواعد أهل البدع:

أهل البدع نكبة على المسلمين وضرر، وقد قعدوا قواعد تضاد الأدلة والآثار المروية، وتنصر البدع، وتخذل السنن، فالأخذ بها هلاك، وتركها سلامة، ومن أمثلتها:

قاعدة حسن البناء: (نتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه)، فكثير من الناس صاروا يترجمون هذه القاعدة في واقعهم بالدعوة إليها حالاً وقالاً وغير ذلك، فكم رفعت من الرايات الباطلة ونكست راية الحق بسبب هذه القاعدة الظالمة التي هي حرب على الكتاب والسنة وعلى باب الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وعلى باب النصيح، وتلحق بها قواعد أبي الحسن المصري وعلي الحلبي ومن وافقهم.

76- القياس الفاسد:

القياس هو إلحاق فرع بأصل لعلّة جامعة بينهما، وليس هو من الأدلّة الشرعيّة على الصحيح، فما بالك إذا استخدمه أصحاب الآراء الفاسدة والقياسات الكاسدة فيحلّلون ما حرّم الله ويحرّمون ما أحلّ الله، وينسبون ما هم عليه إلى الدين، فيا سوءت هؤلاء! وما وقع الرائيون فيما وقعوا فيه إلّا بسبب طردهم لهذا الأصل، بعيداً عن الأدلّة الشرعيّة والآثار المرويّة.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(252-254): (أما القياس فاعلم أنه قد رسمه أهل الأصول بأنه: مساواة أصل للفرع في علة حكمه، ثم شرطوه بشروط وقيدوه بقيود، هي معلومة عند من يعرف الفن، لكنهم توسعوا في هذه المساواة وأثبتوها بأمور هي مجرد خيال ليس على ثبوته أثارة من علم.

وبيانه: أنهم جعلوا مسالك العلة أنواعاً، فأكثر ما قيل أنها عشرة، ثم جميع هذه المسالك إلّا القليل هي بحث الرأي ومحصل الدعاوي المجردة.

فعليك أن تضع قدمك موضع المنع، وتقوم في مقام الإنكار، حتى يوجب عليك المصير إلى شيء منها ما لا يقدر على دفعه ولا يشك في صحته، كمسلك النص على العلة، ومسلك القطع بانتفاء الفارق، ومثل هذا فحوى الخطاب، وما شابه هذه الأمور، وإياك أن تثبت أحكام الله بخيالات تقع لك أو لعالم مثلك من سابق الأمة أو لاحقها، فإن عليك من الوزر والوبال ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب.

وبالجملة فالقياس الذي يذكره أهل الأصول ليس بدليل شرعي تقوم به الحجة على أحد من عباد الله، ولا جاء دليل شرعي يدل على حجيته، وإن زعم ذلك من لا خبرة له بالأدلة الشرعية ولا بكيفية الاستدلال بها، يعرف هذا من يعرفه وينكره من ينكره.

وأما ما كانت العلة فيه منصوصة فالدليل هو ذلك النص على العلة؛ لأن الشارع كأنه صرح باعتبارها إذا وجدت في شيء من المسائل من غير فرق بين كونه أصلاً أو فرعاً.

وهكذا ما وقع القطع فيه بنفي الفارق، فإنه بهذا القدر قد صار الأمران اللذان لا فارق بينهما شيئاً واحداً ما دل على أحدهما دل على الآخر، من دون أصل أو فرع، وهكذا ما وقع القطع فيه بنفي الفارق، فإنه بهذا القدر قد صار الأمران اللذان لا فارق بينهما شيئاً واحداً ما دل على أحدهما دل على الآخر، من دون تعدية ولا اعتماد أصلية ولا فرعية.

وأما فحوى الخطاب ولحنه فهذان هما راجعان إلى المفهوم والمنطوق، وإن ساهما بعض أهل العلم بقياس الفحوى، وبحث العمل بالمفهوم خارج عما نحن بصدد، وقد جاءت لغة العرب الحاكية لما كانوا يفهمونه ويتحاورون به ويعملون عليه أن مثل هذا المفهوم كان معتبراً لديهم مأخوذاً به عندهم؛ ولهذا قال من قال من العلماء إنه منطوق لا مفهوم.

ولقد تلاعب كثير من أهل الرأي بالكتاب والسنة تلاعباً لا يخفى إلا على من لا يعرف الإنصاف بهذه الذريعة القياسية، وعولوا على ما هو منه أوهن من بيت العنكبوت، وقدموه على آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

وما هذه بأول فاقرة جاء بها الشيطان، وحسنها لنوع الإنسان، وذاد بها عباد الله عن شرائعه.

ومن أنكر هذا فليُنظر المصنفات في الفقه، ويتتبع مسائلها المبنية على مجرد القياس، المبني على غير أساس، مع وجود أدلة نيرة وبراهين مرضية.

ومن هذا الباب دخل أهل الرأي وإليه خرجوا من أبواب الأدلة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَهُ هِمَّتُهُ فِي الثُّرَيَّا

وكل من له فهم لا يغرب عنه أن الله تعالى لم يتعبد عباده بمجرد قول عالم من العلماء، أنه قد أفاده مسلك تخريج المناط أو تنقيح المناط أو الشبه أو الدوران، أو نحو هذا الهذيان، هذا على فرض أنه لم يوجد في الكتاب والسنة ما يخالف هذا المسلك الذي لا يسلكه المتورعون، ولا يمشي عليه المتدينون، فكيف إذا كان الدليل المخالف له واضح المنار، ظاهر الاشتهار، قريب الديار، لمن سافر إليه من أهل الاعتبار.

والكلام في هذا البحث طويل الذيل، وقد أفردته جماعة من أهل العلم بالتصنيف، وليس المراد هنا إلا مجرد التنبيه لطالب العلم، وإني وإن حذرته عن العمل بهذا القياس فلا أحذره عن العلم به، وتطويل الباع في معرفته، والإحاطة بما جاء به المصنفون من أهل الأصول في مباحثه، فإنه لا يعرف صحة ما قلته إلا من عرفه حق معرفته، وقد يعرف الشيء ليجتنب ويحذر، ويعرف الشر لا للشر. اهـ

وقال كما في «المجموع» (505/20): (وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف قياس: علمنا قطعاً أنه قياس فاسد، بمعنى أن صورة النص امتازت عن تلك الصور

التي يظن أنها مثلها بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحكم، فليس في الشريعة ما يخالف قياسًا صحيحًا، لكن فيها ما يخالف القياس الفاسد وإن كان من الناس من لا يعلم فسادة.. اهـ

وكان الشيخ مقبل رحمه الله تعالى يقول: (للعالم أن يقيس، لكن لا يلزم غيره..). اهـ
هذا إذا لم يكن القياس فاسدًا مخالفًا للمتقول ومناقضًا للأصول، يحل به الحرام، ويحرم به الحلال.

77- الأخذ بالمتشابه وعدم الجمع بين الأدلة:

قال الشاطبي في «الاعتصام» (52/2): (من اتباع المتشابهات الأخذ بالمطلقات قبل النظر في مقيداتها، أو في العمومات من غير نظر: هل لها مخصصات أم لا. وكذلك العكس، بأن يكون النص مقيدًا فيطلق، أو خاصًا فيعم بالرأي، من غير دليل سواه، فإن هذا المسلك رمي في عمارة واتباع للهوى في الدليل، وذلك أن المطلق المنصوص على تقييده مشتببه إذا لم يقيد، فإذا قيد صار واضحًا، كما أن إطلاق المقيد رأي في ذلك المقيد معارض للنص من غير دليل.

فمثال الأول: أن الشريعة قد ورد طلبها على المكلفين على الإطلاق والعموم، ولا يرفعها عذر إلا العذر الراجع للخطاب رأسًا، وهو زوال العقل، فلو بلغ المكلف في مراتب الفضائل الدينية إلى أي رتبة بلغ بقي التكليف عليه كذلك إلى الموت، ولا رتبة لأحد يبلغها في الدين كرتبة رسول الله ﷺ، ثم رتبة أصحابه البررة، ولم يسقط عنهم من التكليف مثقال ذرة إلا ما كان من تكليف ما لا يطاق بالنسبة إلى الآحاد، كالزمن لا يطالب بالجهاد، والمقعد لا يطالب بالصلاة قائمًا، والحائض لا تطالب بالصلاة المخاطب بها في حال حيضها، ولا ما أشبه ذلك، فمن رأى أن التكليف قد

يرفعه البلوغ إلى مرتبة ما من مراتب الدين - كما يقوله أهل الإباحة - كان قوله بدعة مخرجة عن الدين. اهـ

ومن هذا أن يأخذ أهل البدع بأدلة الأخوة الدينية وأدلة فضل لا إله إلا الله، ومع ذلك تجد أنهم على خلاف، وبعد، فالواجب الجمع بين الأدلة وما تشابه منها، يُسأل عنه أهل العلم والدين، فإن شفاء العيِّ السؤال.

قال الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب» ص(3): (فأخبره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل، وبعضه يشهد بصدق بعض ولا ينافيه؛ لأن الآيات فصلت من لدن حكيم خبير). اهـ

فمن رام لنفسه النجاة ولدينه السلامة فليكن متجرداً للحقّ عاملاً به جامعاً بين الأدلة آخذاً بالمحكم الواضح، وما أشكل عليه رده إلى من هو أعلم منه، قال الله عز وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، والتشابه نسبي في الأحكام الشرعية والأدلة الصحيحة، فقد يكون متشابهاً عندك ومحكم عند غيرك، فالله عز وجل لم ينزل الكتاب للتعمية ولكن للتذكّر والتدبّر والتعقل والعمل، فتنبه أرشدك الله.

78- الغفلة عن سؤال الهداية من الله عز وجل:

قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، صح ذلك عن النبي ﷺ من أوجه عدة، منها: ما أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمرو (2654)، فالمسلم بحاجة ماسة إلى لجوئه إلى ربه، والاعتصام به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ

فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٠١]، والذي يكله الله عز وجل إلى نفسه يَهْلِكُ وَيُهْلِكُ، فاللهم سلم! وفي المأثور قال الرسول ﷺ: «وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»، ومن وكله الله عز وجل إلى نفسه طرفة عين هلك، وكان من أهل الحين، فنسأل الله الهداية والسداد. وفي فتوى الشيخ محمد بن إبراهيم قال: (لا تجب ولا تجوز الثقة بالنفس) وفي الحديث: «وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». اهـ

مع أن الله عز وجل افترض علينا أن نقول في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى» أخرجه مسلم (2721) رحمه الله عن عبدالله بن مسعود ؓ، وعنده عن علي ؓ علمه رسول الله ﷺ أن يقول: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّادَاتِ» أخرجه مسلم (2725)، وفي حديث الحسن بن علي ؓ عند الترمذي (464): «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ».

فسؤال الهداية من الله عز وجل متعين، ولا حول لنا والله ولا قوة إلا به تعالى، فالموثق من وفقه الله، والمخذول من تركه.

79- الغلو:

قد تقدّم الكلام على خطر هذه المسألة، وضررها، وبيان كونها من أسباب التمييع من وجهين:

الأول: أن الغالي مصيره الانقطاع؛ لحديث الرسول ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». أخرجه مسلم (2670) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولحديث: «إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا ظَهْرًا أَبْقَى وَلَا أَرْضًا قَطَعَ».

فالغالي هالك لغلوه في جانب، ولجفائه في آخر، فإنه يجفو الأحاديث النبوية والآثار المروية والسنن الشرعية والطريق المرضية، وسلك الطريقة المعوجة، فما أشأم الغالي على نفسه وعلى غيره! قاتله الله وأراح المسلمين من شرِّ حاله، كما قال الرسول ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ». أخرجه مسلم (2623) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والوجه الثاني: أن هذا الغالي بشدته على إخوانه ربما أدى بهم إلى النفور من الحق بسببه، فالرسول ﷺ لما بعث معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن قال ﷺ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» أخرجه البخاري (1652)، ومسلم (1733)، فأسألكم بالله يا أصحاب القلوب المريضة بهذا المرض العضال، اربعوا على أنفسكم، وارحموا إخوانكم، واتركوا المسلمين من شروركم، فإن ضرركم على الدعوة أنكى من ضرر اليهود والنصارى لعنهم الله عز وجل، يُبدعون ويفسقون ويهجرون لغير ما دليل يدل على ما هم فيه وما هم عليه، وما رأينا رسول الله شدد في حرب على أحد من أهل البدع بمثل حرب هؤلاء البغاة الظلمة، أراح الله المسلمين من شرورهم.

80- أسلوب المخاطبة بالحق:

البيان المطلوب شرعاً وعقلاً؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

وَالْمِيزَانُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]، وإذا توفرت في الكلام ثلاث صفات: صدق المخبر، وعلمه، وبيانه، لا يتردد في قبوله إلا من في عقله لوث، وكم من حق تنكر له لضعف حملته عن البيان والإفصاح بالحق الذي هم عليه.

والواجب أن يتولى البيان أهله، حتى يرفع الإشكال، ويذهب الإعضال، أما أن يتكلم في الأمور من لا يحسن، فإنما تزداد الأمور شرًا وبعثًا، وكم نرى من يكتب في هذا الزمان ويحاول المشاركة فيفسد أكثر مما يصلح، ويضر أكثر مما ينفع، فإذا كنت لا تحسن فلا تشغل وتُشغل، فإن لكل مقام مقال، ولكل دولة رجال، وإذا كان العلم في الأصاغر فانتظر الساعة.

81- الرضى بالعلم اليسير:

قد تقدم الكلام على خطر الجهل، ومن الجهل أن يرضى المرء بالدون، وبما لا يغني ولا يُسمن - كما يقال - من العلوم والفنون.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(50-51): (وسبب ذلك أن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطلبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأسًا من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً؛ لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً، فإذا سمعوا آية من كتاب الله أو حديثاً من سنة رسول الله ﷺ مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة

من أهل طبقتهم، كان ذلك هيناً عندهم، كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب، بل مفهوم من مفاهيمه، وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم، وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفًا مستقلًا من أدلة الكتاب والسنة يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ما يجاوز المتين أو الألف كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذي قد عرفه من الفقه، لم يلتفت إلى شيء من ذلك ولو انضم إلى الكتاب والسنة المنقولة في ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من يتسبب إلى العلم على خلاف ما في ذلك المختصر، لم يرفع رأسه إلى شيء من ذلك، ولا أستبعد أنه لو جاءه نبي مرسل أو ملك مقرب يخبره أن الحق الذي شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر لم يسمع منهما ولا صدقهما، بل لو انشقت السماء وصرخ منها ملك من الملائكة بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذي في المختصر لم يصدقه ولا رجع إلى قوله.

وأعظم من هذا: أنك ترى الواحد منهم يعترف بأنه مقلد ثم يحفظ عن شيخه مسألة يعترف أنها من أفكاره وأنه لم يسبق إليها مع اعترافه بأن ذلك الشيخ مقلد واعترافه بأن تقليد المقلد لا يصح، ثم يأخذ هذه المسألة عن شيخه ويعمل بها قابلاً لها قبولاً تاماً ساكناً إليها مثلج الخاطر بها مؤثراً لها على أدلة الكتاب والسنة وأنظار المبرزين من العلماء، ولو أجمعوا جميعاً، فإن إجماعهم ودليلهم لا يثني هذا القدم الجافي الجلف عن كلام شيخه المقلد الذي سمعه منه. اهـ

من أعظم أسباب دخول البلاء على الأمة هو ترك علم السلف الذي هو أسلم وأعلم وأحكم، والأخذ بعلم الكلام الذي كثر بسببه الخلاف وكثرت بسببه البدع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالواجب كما قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، قال الذهبي رحمه الله تعالى في «تذكرة الحفاظ» (1/ 328-329): (لَمَّا قُتِلَ الْأَمِينُ وَاسْتُخْلِفَ الْمَأْمُونُ عَلَى رَأْسِ الْمَائَتَيْنِ، نَجَمَ الشَّيْعُ، وَأَبْدَى صَفْحَتَهُ، وَبَزَغَ فَجْرُ الْكَلَامِ، وَعَرَبَتْ حِمَةُ الْأَوَائِلِ وَمَنْطَقُ الْيُونَانِ، وَعَمِلَ رَصْدُ الْكَوَاكِبِ، وَنَشَأَ لِلنَّاسِ عِلْمٌ جَدِيدٌ مُرْدٌ مُهْلِكٌ، لَا يَلِائِمُ عِلْمَ النَّبُوَّةِ، وَلَا يُوَافِقُ تَوْحِيدَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْهُ فِي عَافِيَةٍ، وَقَوِيَتْ شَوْكَةُ الرَّافِضَةِ وَالْمَعْتَزَلَةِ، وَحَمَلَ الْمَأْمُونُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَامْتَحَنَ الْعُلَمَاءُ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. إِنْ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تَنْكَرُ، وَتَنْكَرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ. وَتَقْدَمَ عَقُولُ الْفَلَّاسِفَةِ، وَيَعْزَلَ مَنْقُولُ أَتْبَاعِ الرِّسْلِ، وَيَهَارَى فِي الْقُرْآنِ، وَيَتَبَرَّمُ بِالسِّنَنِ وَالْآثَارِ، وَتَقَعُ فِي الْخَيْرَةِ، فَالْفِرَارُ قَبْلَ حُلُولِ الدَّمَارِ، وَإِيَّاكَ وَمُضْلَاتِ الْأَهْوَاءِ وَمَجَارَاةَ الْعُقُولِ، وَمَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ قَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). اهـ

وما عورضت السنن إلا بعلم الكلام، وما انتشرت البدع إلا بسببه، وما تركت الآثار وانتشرت الآراء الفاسدة إلا به، فهل من مدكر؟! وقد ذم العلماء علم الكلام، قال الشافعي: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويثطاف بهم في الأسواق). فرحمه الله من إمام حكم فيهم حكماً يقلص من شرهم ويفضح أمرهم.

83- الأخذ ببعض الحق وترك البعض:

وهذه صفة ذميمة اتصف بها اليهود، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْثَمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥]، فالواجب الأخذ بجميع الحق، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، أي: خذوا بجميع جوانب الدين، فالواجب الأخذ بجميع الحق، ففي حديث أبي هريرة ؓ، أن الرسول ﷺ قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» أخرجه البخاري (7288)، ومسلم (2357).

فصاحب التميع قد ترك كثيراً من الحق الذي يجب عليه أن يأخذ به ويدين به، واستبدله بالباطل، قال الله عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61].

84- التلقّي والتلمذ على غير موثوق من كتب ومشايخ:

وهذا سبب ضلال كثير من متأخري الأمة، حيث ونحن في زمن يرفع فيه العلم، ويظهر فيه الجهل، كما في الصحيح البخاري (80)، ومسلم (2671) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُنْبَتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزَّنا». وجاء بنحوه في الصحيحين عن ابن مسعود وأبي موسى وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

ومما يبين ذلك قول الرسول ﷺ: «حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَقْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» رواه البخاري (7307)، ومسلم (2673) عن عبدالله بن عمرو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، فما ترجو أيها السكين ممن هو في عماء وبعده، وكما قيل:

أَعْمَى يَقُودُ بَصِيرًا لَا أَبَا لَكُمْ قَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَتْ الْعُمَيَانُ تَهْدِيهِ

فالتلمذ على غير موثوق من مشايخ وكتب سبب للضلال والإضلال، ومن جالس جانس، ولهذا نهى السلف عن طلب العلم عند أهل البدع والقراءة لكتبهم التي دسوا فيها السم مخلوطاً بالعسل، فانتبه لنفسك أيها المسكين، ولا تقل أنا ذكي أميز الغث من السمين، فقد زل بسبب هذا الأمر من هو أعلم وأذكى وأحرص منك، (ومن جازر الحيات لدغ)، قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(158): (وبالجملة، فليس المتعصب بأهل لأن يؤخذ الحق من مؤلفاته، فإذا لم ينتفع بالعلم ويهتدي بما عرف منه، فكيف يهتدي به غيره أو يتوصل بما جمعه إلى ما هو الحق؟! فالمصاب بالعمى لا يقود الأعمى، فإن فعل كانت ظلمات بعضها فوق بعضه، والمريض لا يداوي من هو مصاب مثل مرضه). اهـ

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(91): (واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جدًّا، فمنها: النشوء في بلد متمذهب بمذهب معين، وهو أكثرها وقوعًا، وأشدّها بلاء، أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين واقتدوا بعالم مخصوص، وهذا الداء قد طبق في بلاد الإسلام وعم أهلها، ولم يخرج عنه إلا أفراد قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة وقد لا يوجد؛ لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين مبين لسبيل المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك؛ والسبب أنهم نشئوا فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم على ذلك ورثه الخلف عن السلف والآخر عن الأول، وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم، وإذا وجد فيهم من يعرف الحق فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه وأقرب قرابته فضلاً عن غيره؛ لما يخافه على نفسه أو على ماله أو على جاهه بحسب اختلاف المقاصد وتباين العزائم الدينية، فيحصل من قصورهم مع تغير فطرتهم بمن أرشدتهم إلى البقاء على ما هم عليه وأنه الحق وخلافه الباطل، وسكوت من له فطنة ولدينه عرفان وعنده إنصاف عن تعليمهم معالم الإنصاف وهدايتهم إلى طرق الحق، ما يوجب جهودهم على ما هم عليه واعتقادهم أن الحق مقصور عليه منحصر فيه وأن غيره ليس من الدين ولا هو من الحق، فإذا سمع عالماً من العلماء يفتي بخلافه أو يعمل على ما لا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ومن الدعاة إلى البدعة، وهذا

إذا عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه، فإن تمكن من ذلك فعله معتقداً أنه من أعظم ما يتقرب به إلى الله، ويدخره في صحائف حسناته ويتاجر الله، وهذا معلوم لكل أحد، وقد شاهدنا منه ما لا يأتي عليه حصر، ولا تحيط به عبارة، بل قد بلغ هذا المتعصب في معاداة من يخالفه إلى حد يجاوز به عدواته لليهود والنصارى، ولو علم المخدوع المغرور بأن سعيه ضلال وعمله وبال وأنه من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] لأقصر عن غوايته وأرعوى عن بعض جهله، لكنه جهل قدر نفسه وخسران سعيه وتحامي غيره من أهل المعرفة والفهم إرشاده إلى الحق وتنبيهه على فساد ما هو فيه؛ مخافة على نفسه منه ومن يشابهه في ذلك، فتعاطم الأمر، وعم البلاء، وتفاقم الأمر، وعم الضرر. ولو نظر ذلك المتعصب بعين الإنصاف ورجع إلى عقله وما تقتضيه فطرته الأصلية لكف عن فعله وأقصر عن غيه وجهله، ولكنه قد حيل بينه وبين ذاك، وفرغ الشيطان منه إلا من عصم الله وقليل ما هم.

وهكذا صاحب المعرفة وحامل الحجة وثاقب الفهم، لو وطن نفسه على الإرشاد وتكلم بكلمة الحق ونصر الله سبحانه ونصر دينه وقام في تبين ما أمره الله بتبيينه لحمد مسراه وشكر عاقبته وأراه الله سبحانه من بدائع صنعه وعجائب وقايته وصدق ما وعد به من قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] ما يزيده ثباتاً ويشد من عضده ويقوى قلبه في نصرة الحق ومعاوضة أهله. اهـ

قال شيخ الإسلام في «الفتاوى الكبرى» (5/97-98): (وَأَكْثَرُ النَّاسِ إِنَّمَا التَّزَمُوا الْمَذَاهِبَ بَلِ الْأَدْيَانُ بِحُكْمِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْشَأُ عَلَى دِينِ أَبِيهِ أَوْ

سَيِّدِهِ أَوْ أَهْلِ بَلَدِهِ كَمَا يَتَّبِعُ الطِّفْلُ فِي الدِّينِ أَبَوَيْهِ وَسَادَتَهُ وَأَهْلَ بَلَدِهِ، ثُمَّ إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، حَيْثُ كَانَتْ وَلَا يَكُونُ يَمِّنٌ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَكُلُّ مَنْ عَدَلَ عَنِ اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى عَادَتِهِ وَعَادَةِ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِلْوَعِيدِ). اهـ

86- توسيد الأمور إلى غير أهلها:

سبب ضلال كثير من الناس عن الكتاب والسنة وإلى الرأي والبدعة هو توسيد الأمور إلى غير أهلها، واستفتاء من ليس بأهل، ففي حديث عبد الله بن عمرو ابن العاصي رضي الله عنه عند الشيخين البخاري (100)، ومسلم (2673) يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكِرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» أخرجه البخاري رحمه الله رقم (59)، قال الحافظ في شرح الحديث: (وَلَفْظُ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ فِي الرَّقَاقِ «إِذَا أُسْنِدَ»... وَمُنَاسَبَةُ هَذَا الْمَتْنِ لِكِتَابِ الْعِلْمِ: أَنَّ إِسْنَادَ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ غَلَبَةِ الْجَهْلِ وَرَفْعِ الْعِلْمِ). اهـ

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند أحمد (220/3) قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَمَامَ الدَّجَالِ سِنِينَ خَدَاعَةً، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُحَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الْفُؤَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

فيجب أن تُرجع الأمور إلى أنصبتها ويوسد الأمر إلى أهله حتى لا يختلط الحابل بالنابل، والبعر بالتمر.

وأنه قد وقع بالامة بسبب توسيد الأمور إلى غير أهلها البلاء العظيم، فأصبح المفتون والقائمون بأمور المسلمين بأمر من حكامهم إلى أمثال القرضاوي الذي يتكلم بكلام الزنادقة، وعمرو خالد الزنديق، والتراي، والزنداني، وعائض القرني، وسلمان العودة، وأحمد الطيب رئيس الأزهر، وعلي جمعة مفتي مصر، وهكذا، فتجد أنهم يفتون الفتاوى النابية التي تمييع الدين، ويذل بسببها المسلمون، بينما إذا تكلوا عن الغرب تجد المدح والإطراء، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

والمأمل لحال الأمة لما وسد الأمر إلى المعتزلة ومن إليهم في زمن المأمون يجد عياناً ما حل بالامة من انحطاط العقيدة وفشو البدعة. فالواجب أن توسد الأمور إلى أهلها من أهل الحل والعقد والديانة والصيانة.

87- تلقى العلم النافع على أيدي الأصاغر:

وهذا من أعظم أسباب التمييع.

والأصاغر هم أهل البدع والجهالات.

قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1052): (عن أبي أمية الجمحي رضي الله عنه)، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثًا: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ». قال: نعيم: قيل لابن المبارك: من الأصاغر؟ قال: الذين يقولون برأيهم، فأما صغير يروي عن كبير فليس بصغير. وذكر أبو عبيد في تأويل هذا الخبر عن ابن المبارك، أنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البدع، ولا يذهب إلى السنن. قال أبو عبيد: وهذا وجه. قال أبو عبيد: والذي أرى أنا في الأصاغر: أن يؤخذ العلم ممن كان بعد أصحاب رسول الله ﷺ ويقدم ذلك على رأي أصحاب رسول الله ﷺ وعلمهم، فذاك أخذ العلم عن الأصاغر).

وقال برقم (1060): (عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه)، قال: لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم، فإذا جاء العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا.

قال أبو عمر: قد تقدم من تفسير ابن المبارك وأبي عبيد لمعنى الأصاغر في هذا الباب ما رأيت.

وقال بعض أهل العلم: إن الصغير المذكور في حديث عمر وما كان مثله من الأحاديث، إنما يراد به الذي يُستفتى ولا علم عنده، وإن الكبير هو العالم في أي سن كان. وقالوا: الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً. واستشهدوا بقول الأول:

تَعَلَّمَ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَفَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ

واستشهدوا بأن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان يستفتى وهو صغير، وأن معاذ بن جبل رضي الله عنه وعتاب بن أسيد كانا يفتيان الناس وهما صغيرا السن، وولاهما رسول الله ﷺ الولايات مع صغر سنهما، ومثل هذا في العلماء كثير.

ويحتمل أن يكون معنى الحديث على ما قاله ابن المعتز: عالم الشباب محذور وجاهله معذور، والله أعلم بما أراده.

وقال آخرون: إنما معنى حديث عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في ذلك: أن العلم إذا لم يكن عن الصحابة رضي الله عنهم كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولا كان له أصل في القرآن والسنة والإجماع فهو علم يهلك به صاحبه، ولا يكون حامله إماماً ولا أميناً ولا مرضياً، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه، وإلى هذا نزع أبو عبيد، رحمه الله.

ونحوه ما جاء عن الشعبي: ما حدثوك عن أصحاب محمد فشدد عليه يديك وما حدثوك به من رأيهم فبل عليه.

ومثله -أيضاً- قول الأوزاعي: العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ وما لم يجيء عن واحد منهم فليس بعلم.

وقد ذكرنا خبر الشعبي وخبر الأوزاعي بأسانيدهما في باب معرفة ما يقع عليه اسم العلم حقيقة من هذا الكتاب والحمد لله، وقد يحتمل حديث هذا الباب أن يكون أراد أن أحق الناس بالعلم والتفقه أهل الشرف والدين والجاه، فإن العلم إذا كان عندهم لم تأنف النفوس من الجلوس إليهم، وإذا كان عند غيرهم وجد الشيطان إلى احتقارهم السبيل، وأوقع في نفوسهم أثر الرضا بالجهل أنفة من الاختلاف إلى من لا حسب له ولا دين وجعل ذلك من أشراط الساعة وعلاماتها، ومن أسباب

رفع العلم، والله أعلم أي الأمور أراد عمر بقوله، فقد ساد بالعلم قديماً الصغير والكبير، ورفع الله درجات من أحب.. اهـ

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(208-211): (فإن قلت: وما هذه الأهلية التي يكون صاحبها محلاً لوضع العلم فيه وتعليمه إياه؟

قلت: هي شرف المحتد، وكرم النجاد، وظهور الحسب، أو كون في سلف الطالب من له تعلق بالعلم والصلاح ومعالم الدين، أو بمعالي الأمور ورفيع الرتب، وقد أشار إلى هذا النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه في صحيح مسلم (2638) فقال: «النَّاسُ مَعَادِنٌ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَّهُوا» فاعتبر ﷺ الخيار في الجاهلية، وليس ذلك لأمر يتعلق بالدين، فإنه لا دين لأهل الجاهلية، بل المراد بخيار أهل من كان منهم من أهل الشرف وفي البيوت الرفيعة، فإن هذا أمر يجذب بطبع صاحبه إلى معالي الأمور، ويحول بينه وبين الرذائل، ويوجب عليه إذا دخل في أمر أن يكون منه في أعلى محل وأرفع رتبة، فمتعلم العلم منهم يكون في أهله على أتم وصف وأحسن حال غير شامخ بأنفه ولا متباه بما حصله ولا مترفع على الناس بما نال منه.

وأما من كان من سقط المتاع وسفساف أهل المهن كأهل الحياكة، والعصارة والقضابة ونحو ذلك من المهن الدنية والحرف الوضيعة، فإن نفسه لا تفارق الدناءة ولا تجانب السقوط ولا تأبى المهانة ولا تنفر عن الضيم، فإذا اشتغل مشغول منهم بطلب العلم ونال منه بعض النيل وقع في أمور منها العجب والزهو والخيلاء؛ لأنه يرى نفسه بعد أن كان في أوضع مكان وأخس رتبة قاعداً في أعلى محل وأرفع موضع، فإن منزلة العلم وأهله هي المنزلة التي لا تساميتها منزلة وإن علت، ولا

تساويها رتبة وإن ارتفعت، فبينما ذلك الطالب قاعد بين أهل حرفته من أهل الحياكة أو الحجامه أو الجزارة أو نحوهم في أخس بقعة وأعظم مهانة، إذ صار بين العلماء المتعلمين الذين هم في أعلى منازل الدنيا والدين، فبمجرد ذلك يحصل له من العجب والتطاول على الناس والترفع عليهم ما يعظم به الضرر على أهل العلم فضلاً عن غيرهم ممن هو دونهم، ومع ما ينضم إلى ذلك من السخف الذي نشأ عليه وتلقاه من سلفه وسقوط النفس وضعف العقل ونذالة الهمة، ومثل تأمر الصبي لما ينشأ عليه من أخلاق آبائه لا ينكره أحد؛ ولهذا يقول ﷺ فيما صح عنه في البخاري (4775)، ومسلم (2658): «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» فإذا كان الصغير ينطبع بطابع الكفر بسبب أبويه، فما بالك بسائر الأخلاق التي يجدهما عليها.

ومما يقع فيه هذا الطالب الناشئ بين أهل الوضاعة المرتضع من ثدي الرقاعة، أنه بحكم الطبع وألف المنشأ لا يرى في الناس إلا أهل حرفته وبني مهنته، فيعود من حيث بدا، ويرجع من الباب الذي خرج منه، فيكون في ذلك من الإهانة للعلم والإزراء على أهله والوضع بجانبه ما لا يقادر قدره؛ لأن هذا يراه الناس تارة في المدارس قاعداً بين أيدي شيوخ العلم مشاركاً للمتعلمين، وتارة يرونه في دكاكين الحجامين وحوانيت العطارين ومن جرى هذا المجرى من المحترفين.

ومما يقع فيه أنه بحكم الطبع الذي استفاده من المنشأ وتطبع به من أبويه ومن يماثلهما وإن دخل في مداخل العلم وتزيا بزي أهله، فهم أبغض الناس إليه وأحققرهم لديه لا يقيموا له وزناً، ولا يعترف لهم بفضيلة، بل يكون ديدنه وهجيره، ومعنى

كلامه وفحواه هو التهاوم بهم، وتحقير ما عظمه الله من أمرهم، والإغراء بين أمثالهم، والتعرض للمفاضلة بين فضائلهم، وإدخال الشحاء بينهم بكل ممكن.

ومن نكر هذا فعله بالاستقراء والتتبع فإنه سيجد ما وجدناه ويقف على صحة ما حكيناه، ولا يخرج من هؤلاء إلا النادر القليل، ولا يكون ذلك إلا لعرق ينزعه إلى الشرف ويجذبه إلى الخير في سلفه القديم، وإن جهله من لم يعرفه.

وبالجملة فهذا ما تفيدته التجربة وتشير إليه بعض الأدلة الشرعية وإذا صح قوله ﷺ: (واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر) ففيه أعظم عبرة للمعتبرين من الحاملين لعلوم الدين.

وقد عزاه بعض أهل العلم إلى ابن ماجه ولا استحضره حال الرقم فيما هو في حفظ من أحاديث كتاب «سنن ابن ماجه» فليُنظر ثم كشفت عنه فوجدته في «سنن ابن ماجه» (224) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقْلِدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالذَّهَبِ» وفي إسناده حفص بن سليمان البزاز، وفيه مقال.

وأما من كان أهلاً للعلم، وفي مكان من الشرف، فإنه يزداد بالعلم شرفاً إلى شرفه، ويكتسب به من حسن السمات وجميل التواضع ورائق الوقار وبديع الأخلاق، ما يزيد عمله علوًا، وعرفانه تعظيمًا، فيتخلق بأخلاق الأنبياء، ومن يمشي على طريقهم من عامل العلماء وصالح الأمة، ويعرف للعلم حقه ويعظمه بما ينبغي من تعظيمه، فلا يكدره بالمطامع، ولا يشوبه بالخضوع لأهل الدنيا، ولا يجهمه بالتوصل به إلى ما في يد الأغنياء، فيكون عنده مخدومًا لا خادمًا، ومقصودًا لا قاصدًا. اهـ

قلت: وما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى ليس على إطلاقه، فكم ممن أشار إليهم إذا علم الله عز وجل فيهم خيراً وفقهم وأعانهم، وحالهم كحال إخوانهم، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، والرسول ﷺ لما سئل عن أكرم الناس قال ﷺ: «أَتْقَاهُمْ اللَّهُ» أخرجه البخاري (3353)، ومسلم (2378).

ويتلخص من هذا الباب أن الأصاغر هم أهل البدعة ومن قرب منهم ومن أفاكارهم، ومن كان هذا حاله «فَفِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ»، وباليات شعري! كيف سيكون حال الناس في هذا الزمان وقد أصبح الأصاغر هم المتصدرون للفتوى والتدريس في المدارس والكلليات والمعاهد والجامعات، ومن يزرع الشوك لا يحصد العنب، ولا يمكن أن يخرج من درس البدعة سنة، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة - إن شاء الله تعالى -.

88- العصبية الجاهلية:

ما أقبحها من مزية تجعل الحليم حيران، وتبتلد معها العقول، وتذهب بها المروءات، وقد حذر رسول الله ﷺ من العصبية الجاهلية؛ كونها تجر إلى الشر العظيم، وترك الخير الذي هو الكتاب والسنة، ففي مسلم (2584) من حديث جابر رضي الله عنه قال: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ الْقَوْدَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوَهَا فَإِنَّهَا مُتَنَبِّئَةٌ». ووصف الله عز وجل المؤمنين بأنهم إخوة بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٥]، فالتعصب إنما يكون للكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

قال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» ص(372): (فإذا لم يتلق عهدة هذا التلقي أخلد إلى سير القراية، وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده، فإن علت همته أخلد إلى ما عليه سلفه ومن تقدمه، من غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه، فرضي لنفسه أن يكون دينه دين العادة، فإذا شامة الشيطان ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه، وزين له أن هذا هو الحق، وما خالفه باطل، ومثل له الهدى في صورة الضلال، والضلال في صورة الهدى بتلك العصبية والحمية التي أسست على غير علم، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه، له ما لهم، وعليه ما عليهم، فخذل عن الهدى، وولاه الله ما تولى، فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة). اهـ

وبالله لو نظر الناظر بعين البصيرة لرأى ما عنيناه من تعصب أصحاب الحزبي المغمور عبدالرحمن بن مرعي الشيء الكثير، حتى قلت المروءات، وتنكست الفطر، وقلت الاستقامات، وقل الأدب، فاللهم سلم! ورحم الله الشيخ مقبل إذ يقول: (الحزبية مسأخة يا إخواننا).

وإن السني كل السني هو الذي يتجرد للدليل والعلم والأدب النبيل، أما من تعصب لفكره أو شيخه أو عشيرته أو مذهبه أو طريقته أو نحلته المخالفة للكتاب والسنة فهذا غير محكم للكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، بل هذا أقل أحواله وأحسنها أن يكون مميعة مميعة، فما بالك إذا جرت العصبية الجاهلية إلى الرفض والحزبية وسلبته الروية.

89- التساهل في تربية النشء:

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (4775)، ومسلم (2658): «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءٍ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الْآيَةَ.

فهذا يدل على أن للآباء تأثيرًا على أبنائهم من حيث جرهم إلى العقيدة غير الصحيحة، وزد على ذلك أن كثيرًا من الآباء ربما يكون على معتقد صحيح، ولكن لا يهتم بتربية ولده، فيقع في مخالطة أهل البدعة والردى، فيصبح صيدًا لهم.

وهذه الفطرة التي أخبر الله بها هي فطرة الإسلام والدين الحق، فينبغي للمسلمين أن ينموا هذه الفطرة في قلوب أبنائهم، وفي حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه عند ابن ماجه رحمه الله (61) قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا. وفي حديث عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَأَنِّي يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بَيْمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (5376)، ومسلم (2022). فالرسول ﷺ كان مهتمًا غاية الاهتمام بتربية الأبناء لما في ذلك من نفع الإسلام وأهله.

قال الذهبي رحمه الله تعالى كما في «مسائل طلب العلم وأقسامه» ص(202-203): (على الوالدين تعليم الأولاد والأطفال أولًا فأولًا ما يجب اجتنابه ويلزم فعله واعتقاده، فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد، وأن الله رب العالمين، وخالق الأشياء، ورازق الأحياء، وأن محمدًا نبيّه، وأن الإسلام دينه؛ حتّى يألفه الصبيّ،

ويرسخ في طبعه، فإذا ميّز علمه بالوضوء والصلاة وحذّره الزنا والسرقة والكذب والدم والميتة ونحو ذلك، وأنّ ببلوغه يجري عليه القلم. اهـ

قال الشيخ يحيى بن علي الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في رسالة «التبيين لجوب تربية البنين» ص(9): فكذلك المولود قد يحصل له التغير فيه بعد خروجه؛ بسبب جلسه، فإن الصبي يتغير ويتأثر بالأسرة، فإن كانت أسرته طيبة تأثر بها - إن شاء الله تعالى - وإن كانت غير ذلك تأثر بها. وقال - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى -: ص(13): فلا بد من السعي في صلاح الأولاد بكل ما يستطيعه الإنسان من تربية ودعاء وحث وملاطفة ومراقبة وتذكير بالله، حتى يكون ذلك الولد خيرًا لك في الدنيا والآخرة. إن التفريط في الأولاد جرم عظيم خيانة أن يفرط الإنسان في ولده حتى يصير ضائعًا من الضائعين. اهـ

وقديماً قيل:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ فِينَا عَلَى مَا كَانَ عَوْدُهُ أَبُوهُ

فحذر ولدك من مجالسة المميعين ورغبه في مجالسة الصالحين، والبركة من الله عز وجل.

90- تقديم العقل على النقل:

النقل هو ما جاء عن الله عز وجل وما جاء عن رسول الله ﷺ من صحيح سنّته، فالواجب على المسلم أن ينقاد للدليل، والعقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح، فلا يجوز التقدم بين يدي الله ورسوله، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، ولكن يجب علينا الاستسلام والانقياد.

قال ابن أبي العز رحمة الله في «شرح الطحاوية» ص(201): (أَيُّ: لَا يَثْبُتُ إِسْلَامٌ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ، وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا وَلَا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ وَقِيَاسِهِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ شَهَابِ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وَمِنَ الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ. وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ). اهـ

وقال الذهبي رحمه الله تعالى في «سير أعلام النبلاء» (4/375-376): (وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات (العقل) فاعلم أنه أبوجهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حل فيه، فإن جبن منه، فاهرب، وإلا فاصرعه وابرک على صدره وقرأ عليه آية الكرسي واخنقه). اهـ

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - كما في «مختصر الصواعق» (1/293): (المعارضة بين العقل والنقل أصل كل فساد في العالم، وهي ضد دعوة الرسل من كل وجه، فإنهم دعوا إلى تقديم الوحي على الآباء والعقول، وصار خصومهم على ذلك، فأتباع الرسل قدموا الوحي على الرأي والمعقول، وأتباع إبليس ونوابه قدموا العقل على النقل). اهـ

وكم نرى من المميعين المتقمصين بقمص السلفيين يقدمون المعقول عندهم والذوق على المنقول، فيتقاربون مع أهل البدع ويسكتون عن باطلهم ويداهنونهم،

فأين نحن من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

91- العمل بظواهر النصوص دون الرجوع إلى بيان رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم:

ومعلوم أن هذا الذي يظنه المرء ظاهرًا ليس هو ظاهرها، وإنما الظاهر هو ما علم من سياقة الكلام العربي الفصيح، وكان مطابقًا للواقع، موافقًا لمراد الله عز وجل ومراد رسوله ﷺ. أمّا ما يسلكه أهل البدع من أصحاب التحريف والتأويل في التعامل مع الأدلة فمسلك فاسد لا يوافق المنقول ولا يطابق المعقول، فلا بدّ من فهم الكتاب والسنة على فهم الصحابة رضوان الله عز وجلّ عليهم، فالذي كان يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ» أخرجه البخاري (5063) ومسلم (1401) هو الذي قال: «مَا أَرَى فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا» أخرجه البخاري (6068)، والذي قال: «الرَّفْقُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزْعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ» أخرجه مسلم (2594) هو الذي قال: «أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ» أخرجه مسلم (456). فتنبّه إلى هذه الإشارات تغني عن كثرة العبارات! وهذه الآفات حلّت بالأمة - إلا من رحم الله تعالى - حيث تكون همّة أحدهم في بطنه وفرجه ويومه وليلته لا يتعدّاها، وهؤلاء لا للحقّ ينصرون ولا للباطل يقهرون، بل ضررهم على الدين عظيم، وبلاؤهم جسيم، قال ابن تيمية في «كتاب الإيمان» ص(375): (ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الإعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم طريق أهل البدع). اهـ

فالمثثلة زعموا أن ظواهر النصوص تُفيد التمثيل، والمعطلة من الجهمية والمعتزلة زعموا أن ظواهر النصوص تُفيد التمثيل، فلا بدّ من تأويل، فضلوا

وأضلوا، وكفروا من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا. قال الشيخ العثيمين - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «القواعد المثلث» ص (192) معه الشرح: (ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه..). اهـ

92- اتباع الظن:

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (6066) ومسلم (2563) رحمهما الله: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». وقال الله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (13/ 67): (وكل من خالف الرسول ﷺ لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس..). اهـ والمميعة هم من المخالفين لرسول الله ﷺ المحاربين لسننّه والناصرين للبدعة فهذا الوصف منطبقٌ عليهم تماماً، يتبعون الظنون والأهواء ويتركون الأدلة العصماء.

93- اعتماد أهل البدع على الحيل:

التميع مرض يفتك بالدعوة وبيانه، لو طلب الحزبيون من السنّي أن يدخل في الحزبيّة من أوّل يوم ويقع في تلك المخالفات الشرعيّة لأبى عليهم، لكن يتدرّجون معه بالحيلة حتّى يقع في مهاويهم، وإذا وقع في الفخّ تعرّس عليه الخروج منه، وقد نص العلماء على أنّ الحيل من أعظم مداخل أهل البدع على أهل الحقّ.

قال الشاطبي في كتاب «الاعتصام» (1/381): (أن مدخل البدعة ها هنا من باب الاحتيال الذي أجازه بعض الناس). اهـ

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(126): (ومن جملة ما يستعين به على الحق ويأمن معه من الدخول في الباطل وهو لا يشعر: أن يقرر عند نفسه أن هذه الشريعة لما كانت من عند عالم الغيب والشهادة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ويعلم ما تكن الصدور وتخفيه الضمائر ويحول بين المرء وقلبه، كانت المخادعة بالحيل الباطلة والتخلص مما طلبه بالوسائل الفاسدة من أعظم المعاصي له وأقبح التجرؤ عليه، وجميع هذه الحيل التي دونها أهل الرأي هي ضد لما شرعه وعناد له ومراوغة لأحكامه ومجادلة باطلة لما جاء في كتابه وسنة رسوله، ومن تفكر في الأمر كما ينبغي وتدبره كما يجب اقشعر له جلده وقف عنده شعره، فإن هذا الذي وضع للعباد هذه الحيل كأنه يقول لهم هذا الحكم الذي أوجبه الله عليكم أو حرمة قد وجدت لكم عنه مخلصاً ومنه متحولاً بذهني الدقيق وفكري العميق، هو كذا وكذا، فهذا المخذول قد بلغ من التجرؤ على الله تعالى مبلغاً يتقاصر عنه الوصف؛ لأنه ذهب يعانده ويضاد ما تعبدنا به بمجرد رأيه الفائل⁽¹⁾ وتخيله الباطل، مقراً على نفسه بقبيح صنعه، وأنه جاء بما يريح العباد من الحكم الشرعي، فإن كان مع هذا معتقداً أن ذلك التحيل الذي جاء به يحلل الحرام ويحرم الحلال، فهو مع كذبه على الله وافترائه على شريعته قد ضم إلى ذلك ما يستلزم أنه يدعي لنفسه أن يشرع للعباد من عند نفسه غير ما شرعه لهم، وذلك لا يكون إلا الله سبحانه، فإن كان هذا المخذول يدعي لنفسه الإلهوية مع الله سبحانه فحسبك من شر سماعه، وإن كان لا يدعي لنفسه ذلك، فيقال له: ما بالك تصنع هذا الصنع؟ وأي أمر ألك إلى

(1) أي: الفاسد.

وأوقعك فيه؟ فإن قال: رأيت الله عز وجل قد صنع مثل هذا في مثل قصة أيوب، وصنعه رسول الله ﷺ في المريض الذي زنى، فيقال له: ما أنت وهذا، لاكثر الله في أهل العلم من أمثالك، ومن أنت حتى تجعل لنفسك ما جعله الله لنفسه؟! فلو كان هذا الأمر الفظيع سائغاً لأحد من عباد الله لكان لهم أن يشرعوا كما شرع، وينسخوا من أحكام الدين ما شاءوا كما نسخ، ثم أي جامع بين هذه أو بين ما شرعه الله من ذلك، فإنه مجرد خروج من مأثم وتحلل من يمين قد شرع الله تعالى فيها إتيان الذي هو خير كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة، حتى ثبت في البخاري (6623)، ومسلم (1649) أن رسول الله ﷺ حلف على ذلك فقال، «وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»، فأين هذا مما يصنعه أسراء التقليد من الكذب على الله تعالى وعلى شريعته وعلى عباده، أما الكذب على الله فلكونهم زعموا عليه أنه أذن لهم وسوغه لهم وهو كذب بحت وزور محض، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك بل جعلوه من عند أنفسهم جرأة وعناداً ومكرًا وخداعاً فالأمر أشد والقضية أعظم. وأما كذبهم على الشريعة فلكونهم جعلوا ما نصبوه من الحيل الملعونة والذرائع الشيطانية والوسائل الطاغوتية من جملة الشريعة ومن مسائلها ودونوه في كتب العبادات والمعاملات. وأما الكذب على عباده فلكونهم ذهبوا إليهم فخدعوههم وماكروهم بأن ما أوجبه الله من كذا ليس بواجب وما حرمه من كذا ليس بمحرم إذا فعلوا كذا أو قالوا كذا. اهـ

قال العز بن عبد السلام في «الفوائد في اختصار المقاصد» ص(144): (ولا خير فيمن يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب بأن يتأول السنة والإجماع أو كتاب على غير الحق والصواب وذلك بالتأويلات الفاسدة والأجوبة النادرة). اهـ

ولهم طرق كثيرة في التحيل منها نسبة المخالف إلى قلة الفهم، قال شيخ الإسلام في «درء التعارض» (1/295): (فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنت لا تفهم هذا وهذا لا يصلح لك فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل). اهـ

ومنها استعماهم للمجمل من الكلام ليخدعوا به الناس.

قال شيخ الإسلام في «التسعينية» (1/217): (فإذا وَقَعَ الاستفصَالُ والاستفسارُ، انكشفت الأسرارُ. وَتَبَيَّنَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ). اهـ

وقال في «الجواب الصحيح» (1/316-317): (ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء: أحدها: ألفاظ متشابهة مجملة مشككة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلاً على ذلك، والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين). اهـ

ومن حيلهم الترخص في الكذب لنصرة باطلهم ومن حيلهم التعلق بالنصوص المنسوخة والأقوال التي نزع عنها أصحابها.

قال ابن رجب في «الفتح» (1/388): (والمخالف يشغب بذكر الأحاديث التي رجع عنها روايتها ويقول هي صحيحة الأسانيد وربما يقول هي أصح إسناداً من الأحاديث المخالفة لها). اهـ

ومن حيلهم كتمان الحق.

قال وكيع رحمه الله كما في «سنن الدارقطني» (32): (أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم). اهـ

ومن حيلهم أنهم يعززون صنيعهم إلى إجماع لا حقيقة له تلييساً وتمويهاً.

قال شيخ الإسلام في «النبوات» (1/479): (ولأهل الكلام والرأي من دعوى الإجماعات التي ليست صحيحة بل قد يكون فيها نزاع معروف وقد يكون إجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الإجماع ما يطول ذكره). اهـ

ومن حيلهم التشنيع على ردود أهل السنة تارة بأنها تفرق الأمة وتارة بأنها كلام أقران يطوى ولا يروى إلى غير ذلك، ومن حيلهم الشناعة على الحق وأهله وتسمية أهل الحق بغير التسميات الشرعية. قال الصابوني في «اعتقاد السلف» ص(111): (رَأَيْتُ أَهْلَ الْبِدْعِ فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَقَّبُوا بِهَا أَهْلَ السُّنَّةِ، سَلَكُوا مَعَهُمْ مَسَلَكَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُمْ افْتَسَمُوا الْقَوْلَ فِيهِ، فَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ سَاحِرًا، وَبَعْضُهُمْ كَاهِنًا، وَبَعْضُهُمْ شَاعِرًا، وَبَعْضُهُمْ مَجْنُونًا، وَبَعْضُهُمْ مَفْتُونًا، وَبَعْضُهُمْ مُفْتَرِيًا مُحْتَلِفًا كَذَّابًا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تِلْكَ الْمَعَائِبِ بَعِيدًا بَرِيئًا، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا رَسُولًا مُصْطَفَى نَبِيًّا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

كَذَلِكَ الْمُتَّبِعَةُ -خَذَلَهُمُ اللَّهُ- افْتَسَمُوا الْقَوْلَ فِي حَمَلَةِ أَخْبَارِهِ، وَنَقَلَةِ آثَارِهِ، وَرُؤَاةِ أَحَادِيثِهِ، الْمُقْتَدِينَ الْمُهْتَدِينَ بِسُنَّتِهِ، فَسَمَّاهُمْ بَعْضُهُمْ حَشَوِيَّةً، وَبَعْضُهُمْ مُشَبَّهَةً، وَبَعْضُهُمْ نَابِتَةً، وَبَعْضُهُمْ نَاصِبَةً، وَبَعْضُهُمْ جَرِيَّةً.

وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ عَصَامَةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَعَائِبِ، بَرِيَّةٌ، نَقِيَّةٌ، زَكِيَّةٌ، تَقِيَّةٌ، وَلَيْسُوا إِلَّا أَهْلُ السُّنَّةِ الْمُضِيَّةِ، وَالسَّيْرَةِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالسُّبُلِ السَّوِيَّةِ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ الْقَوِيَّةِ). اهـ

والحيل كثيرة جداً، كلما كشفت حيلة من حيلهم جاءوا بغيرها، يبيض الشيطان في آذانهم ويفرخ، ويقرقر لهم الحيلة قرقرة الدجاجة.

94- تقسيم الدين إلى قشور ولباب، أصول وفروع:

إذا حصل هذا التقسيم ضعف باب تعظيم الدين في نفوس أصحابه على أن هذا قشر وهذا فرع لا تأثير له، فتترك السنن، ومن ترك شيئاً من الحق يدخل عليه مثله من الباطل، وهكذا، فيصبح أحدهم يتخبط لعدم انتظام الأصول لديه من الفروع، بل الواجب على المسلم الانقياد والعمل بأمر الله ورسوله ﷺ بحسب دلالة الدليل عليه وأما تقسيم الدين إلى هذا التقسيم، فهو تقسيم مبتدع، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (346-347/23): (فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعٍ وَتَسْمِيَّتِهِ مَسَائِلِ الْأُصُولِ وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ وَتَسْمِيَّتِهِ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ، فَهَذَا الْفَرْقُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ لَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ هُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا أئِمَّةُ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُودٌ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَمْثَلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَعَنْهُمْ تَلَقَّاهُ مَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ فِي كُتُبِهِمْ، وَهُوَ تَفْرِيقٌ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ النَّوَاعِي: مَا حَدَّثَ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يَكْفُرُ الْمُخْطِئُ فِيهَا؟ وَمَا الْفَاصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؟ فَإِنْ قَالَ: مَسَائِلِ الْأُصُولِ هِيَ مَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِ وَمَسَائِلِ الْفُرُوعِ هِيَ مَسَائِلِ الْعَمَلِ. قِيلَ لَهُ: فَتَنَازَعَ النَّاسُ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ هَلْ رَأَى رَبَّهُ أَمْ لَا؟ وَفِي أَنَّ عُمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ أَمْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ؟ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَصْحِيحِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ هِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَا كُفْرَ فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعٍ وَتَسْمِيَّتِهِ مَسَائِلِ الْأُصُولِ وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ وَتَسْمِيَّتِهِ

مَسَائِلُ الْفُرُوعِ فَهَذَا الْفَرْقُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ لَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ هُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَا أئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُودٌ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَمْثَلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَعَنْهُمْ تَلَقَّاهُ مَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ فِي كُتُبِهِمْ وَهُوَ تَفْرِيقٌ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ النَّوَغَيْنِ: مَا حَدَّثَ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يَكْفُرُ الْمُخْطِئُ فِيهَا؟ وَمَا الْفَاصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؟ فَإِنْ قَالَ: مَسَائِلُ الْأُصُولِ هِيَ مَسَائِلُ الْإِعْتِقَادِ وَمَسَائِلُ الْفُرُوعِ هِيَ مَسَائِلُ الْعَمَلِ. قِيلَ لَهُ: فَتَنَازَعَ النَّاسُ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ هَلْ رَأَى رَبَّهُ أَمْ لَا؟ وَفِي أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ أَمْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ؟ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَصْحِيحِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ هِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَا كُفْرَ فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ. اهـ

95- إتباع الأقوال الشاذة:

المعصوم هو الرسول ﷺ، وما من أحدٍ بعده إلا هو يعلم ويجهل، ويخطئ ويصيب، فالواجب على العاقل الذي يريد لنفسه السلامة أن يأخذ بالصواب والحق ويعرف ذلك بموافقة فتوى العالم وفعله للدليل، أمّا أن يأخذها أقوال مجردة فقط كونها نسبت إلى زيد وعمرو فهذا ضلالٌ بحقِّ والعياذ بالله، قال الفريابي في كتابه «صفة المنافقين» ص(43): (قال عمر بن الخطاب ﷺ يهدم الإسلام ثلاثة: زلة عالم، وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلون). اهـ

قال الأوزاعي رحمه الله: (من أخذ بقول أهل الكوفة في النبذ وبقول أهل مكة في المتعة والصرف وبقول أهل المدينة في الغناء أو قال الحشوش والغناء فقد جمع الشر كله). أو كلاماً هذا معناه. اهـ من «الاستقامة» لشيخ الإسلام (1/274).

وقال الذهبي رحمه الله تعالى في «سير أعلام النبلاء» (8/90-94) (قول من يقول: ولكن هذا الإمام الذي هو النجم الهادي قد أنصف، وقال قولاً فصلاً، حيث

يقول: كل أحد يؤخذ من قوله، ويترك، إلا صاحب هذا القبر ﷺ. ولا ريب أن كل من أنس من نفسه فقهاً، وسعة علم، وحسن قصد، فلا يسعه الالتزام بمذهب واحد في كل أقواله؛ لأنه قد تبرهن له مذهب الغير في مسائل، ولاح له الدليل، وقامت عليه الحجة، فلا يقلد فيها إمامة، بل يعمل بما تبرهن، ويقلد الإمام الآخر بالبرهان، لا بالتشهي والغرض. اهـ

96- اعتماد أهل البدع على الجزئيات دون الكليات:

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (203/19): (لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم). اهـ

وقال السعدي رحمه الله في «مجموع الفوائد» ص(234): (وكذلك أهل العلم والإيمان يعلمون أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما فيه خير وصلاح خالص أو راجح فإن اتضح لهم وجه ذلك فهو نور على نور علم بالأصل وبما تفرع عليه. وإن لم يتضح لهم وجهه كفاهم الأصل العام الجامع وعلموا أن فيه من موجبات الأمر والنهي ما خفي عليهم، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:6]. اهـ

97- الإعراض عن الكتاب والسنة علماً وعملاً:

فالمعرض عن الكتاب والسنة جزئياً أو كلياً هو الذي يهمل ما أوجبه الله عليه من الحق، ففي حديث أبي واقد الليثي ؓ عند البخاري رحمه الله (66) قال عليه الصلاة والسلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفْرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ،

وَأَمَّا الْآخِرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخِرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ، فكلما ازداد الإعراض عن الأدلة الشرعية حصل للعبد ضرر بقدر إعراضه، ولربما حصل الإعراض الكلي فيقع في الهلاك المبين وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الإمام ابن القيم في كتابه «الفوائد» ص(440-441): (لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها مكرًا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والظلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداينة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم. فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض - والله - خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس). اهـ.

والتميع هو مخالفة للكتاب والسنة وإعراض عن أدلة الوحي، فلتعلم هذا حتى لا يلتبس عليك الحق بالباطل فتهلك.

وبيانه أن كثيرًا من الناس يتركون منهج السلف، بل ربما الدين الإسلامي؛ بسبب الفقر، وطمعًا في الدنيا؛ لأنَّ الفقر يجرُّ إلى التملُّق والتزلف والتميع للحصول على الدنيا؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ» أخرجه أحمد (39/5) عن أبي بكرة ؓ، وكان الرسول ﷺ يقول كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ» أخرجه البخاري (6376)، ومسلم (589). فالصبر على الفقر أحسن من الولوج في التميع وغيره من البدع، والرزق من الله عزَّ وجلَّ، وفي حديث جابر ؓ عند الحاكم (4/2) قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْتَبِطُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدًا لِيَمُوتَ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ رِزْقٍ هُوَ لَهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ: أَخْذِ الْحَلَالَ وَتَرْكِ الْحَرَامِ».

قال الخطيب في «الكفاية» ص(154): (إنَّما منعوا من ذلك تنزيها للراوي عن سوء الظن به؛ لأنَّ بعض من كان يأخذ الأجر على الرواية عثر على تزیده وادعائه ما لم يسمع؛ لأجل ما كان يُعطى؛ ولهذا المعنى حكى عن شعبة بن الحجاج ما أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد بن إسحاق المقرئ، قال: ثنا عمر بن إبراهيم بن أحمد، قال: أنا أبو سعيد العدوي، قال: ثنا الصباح بن عبدالله، قال: سمعت شعبة يقول: (لا تكتبوا عن الفقراء شيئاً؛ فإنَّهم يكذبون لكم). وقال: أخبرنا أبو سعيد عن الصباح بن عبدالله، قال: سمعت شعبة يقول: (اكتبوا عن زياد بن مخرق؛ فإنه رجل موسر لا يكذب). أخبرنا محمد بن الحسين القطان، قال: أنا دعلج ابن أحمد قال: أنا أحمد بن علي الأبار، قال: حدثني عوام بن إسماعيل، قال: سمعت علي بن عاصم يقول: قال لي شعبة: (عليك بعمارة بن أبي حفصة؛ فإنه غني لا يكذب). قال: فقلت: (كم من غني يكذب). وقال: أخبرنا الأبار، قال: حدثني إسماعيل بن أبي كريمة، قال: سمعت يزيد بن هارون يقول: كان شعبة بن الحجاج يقول لنا: (لا تكتبوا عن فقير)

وكان هو معسرًا، إنما كان في عيال ختنه، أو ابن أخته، وقد ترخص في أخذ الأجر على الرواية مع ما ذكرناه غير واحد من السلف). اهـ

والفقر ليس بمذموم على إطلاقه، وقد قيل: (من طلب الحديث أفلس)، لكن المذموم هو بيع الدعوة السلفية والطرق المرضية والسنن النبوية من أجل حطام الدنيا الفاني، والمتأمل للدعاة الذين جرفتهم جمعية إحياء التراث وفروعها من أمثال جمعية البر والحكمة والإحسان، وكما قيل:

فَكَمْ دَقَّتْ وَرَقَّتْ وَاسْتَرْقَّتْ فُضُولُ الرِّزْقِ أَغْنَاكَ الرَّجَالَ

وفي هذه الأيام وقعت فتنة عبدالرحمن العدني ومن إليه، والحال أنها فتنة مال ودنيا، حتى جرتهم إلى العصبية والبدعة والشتنكر لمنهج السلف، والكلام في أهل الأثر.

وَالْحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُتَّحَنٌ فَلَا تَعْجَلْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

والبدعة تبدأ بصورة ملفتة، ثم تضمحل، كما قيل: ما لم يرد به وجه الله يضمحل، والحق يبدأ بالقلّة ثم يكبر ويزيد، قال هرقل لأبي سفيان - كما في الصحيحين: (هل يزيد أصحابه أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاته القلوب). إذا خالطت بشاته القلوب).

99- كثرة أهل البدع في الإسلام:

وبيان ذلك: أن كثيرًا من الناس يتأثرون بالكثرة مع أن الكثرة غير محمودة مطلقًا، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَأِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ

عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿سبأ: ١٣﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. وإثما المحمود منها ما كان على الكتاب والسنة، ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البخاري (7483)، ومسلم (222) «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَنْشِبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا! فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا! فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا! فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا! فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ نَّوَّرَ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ نَّوَّرَ أَسْوَدَ».

قال الموفق أبو محمد المقدسي في «حكاية المناظرة في القرآن» ص(57-58):
(ومن العجب أن أهل البدع يستدلون على كونهم أهل الحق بكثرتهم وكثرة أموالهم وجاههم وظهورهم، ويستدلون على بطلان السنة بقلة أهلها وغربتهم وضعفهم، فيجعلون ما جعله النبي ﷺ دليل الحق وعلامة السنة دليل الباطل، فإن النبي ﷺ أخبرنا بقلة أهل الحق في آخر الزمان وغربتهم، وظهور أهل البدع وكثرتهم، ولكنهم سلكوا سبيل الأمم في استدلالهم على أنبيائهم وأصحاب أنبيائهم بكثرة أموالهم وأولادهم وضعف أهل الحق). اهـ

قال أبو شامة في «الباعث على إنكار الحوادث» ص(22): (وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق وإتباعه وإن كان المتمسك بالحق قليلاً، والمخالف

كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. اهـ.

قال ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» ص (318-320): (إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر؛ فأن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحاداة، وهذا أصلها، ومنه اشتقاقها، فان المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق، والمحاداة أن يكون في حد وهو في حد، ولا تستسهل هذا، فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثير، وكن في الجانب الذي يكون فيه الله ورسوله، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون من الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرغبة، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل سيئ الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس في شق وجانب آخر، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول ﷺ، يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام على معاداة من عاداه ولومه من لومه، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار والآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا، وأثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشيره من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفوهم تصدوا للحربة، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله، وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فان الرب شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ، ويريه كرامة ذلك، فيشتد به سروره وغبطته، ويتجهج به

قلبه، ويظفر بقوته وفرحه وسروره، ويبقى من كان محارباً له على ذلك بين هائب له مسالم له ومساعد وتارك، ويقوى جنده، ويضعف جند العدو، ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك، فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك أعظم الأعوان لك بعد عون الله، هذا بعد التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما، هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ﷻ ورسوله ﷺ. اهـ

فإياك أن تغتر بالكثرة على الباطل فتميع وتميع وتُميع، فاحذر على نفسك من مصائد الشيطان وزلقاه، فإن الكفار هم القائلون: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

100- الركون إلى المبطلين بدعوى أن نواياهم حسنة:

وهذا الأمر لا تعجب من كثرة الواجدين فيه والواقعين في حباله والداعين إليه؛ وذلك بسبب الجهل وحبّ الباطل والطمع فيما عند المبطلين، والنظر يكون إلى الموافقة للأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وطريقة السلف الرضية، فالركون إلى المبطلين حرام في شرع الله عز وجل، فانظر إلى ما قاله الله عز وجل لنبيه ﷺ محذراً له من الركون إلى المبطلين من الكفار: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿[الإسراء: 74-75]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] ذكر الله عز وجل هذه الآية بعد أمره وحثه على الاستقامة وتجنب الطغيان حيث قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢-١١٣]، فنبه الله عز وجل على خطر الميل مع الظالمين فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾، أي: ولا تميلوا إلى الظالمين بمودة أو مداينة أو رضا بأعمالهم أو استعانة بهم أو اعتماد عليهم، فتصيبكم النار بركونكم إليهم، فالركون إلى الظالمين ظلم، والآية تدل على عاقبة الركون إلى الظالمين وعلى أن الميل إلى الظالمين موقع عادة في الظلم ومزلقة تستدعي إقرارهم على ما يفعلونه والرضا بما هم عليه من الظلم واستحسان طريقتهم وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في أعمالهم الظالمة. اهـ من «التفسير المنير».

فالدفاع عن أهل البدع والركون إليهم مؤداه على أن تصير على شاكلتهم أو أن تكون مناصراً لهم، شعرت أم لم تشعر، فدعك أيها المسلم من الدفاع عن المبطلين بالباطل، والله عز وجل لم يأمرنا بمعاملة الناس بنواياهم، وإنما أمرنا أن نتعامل معهم بما يظهر منهم، فعن عمر رضي الله عنه عند البخاري (2641): (إِنَّ أَنَا سَا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُجَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ). والرسول ﷺ مع ما أطلعه الله عز وجل من الوحي بحال المنافقين كان يعامل بما ظهر منهم، ولا شك ولا ريب أن نوايا هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك حسنة، ومع ذلك هجرهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة؛ لما حصل منهم من التخلف، ونوايا المنافقين سيئة، ولما أظهروا الأعذار لم تحصل لهم هذه المعاملة، فتنبه! وإياك والعواطف التي تجر إلى الهوى والعياذ بالله، فالدين ليس بالعاطفة، ولكنه عبادة تطيق لأمر الله ورسوله ﷺ وبعد عند نهي الله عز وجل ورسوله ﷺ.

101- الفتور:

الفتور عن الأخذ بهدي السلف الصالحين من أعظم أسباب الهلاك والعياذ بالله، بل من أعظم أسباب التميع؛ لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةٌ، وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» أخرجه أحمد (6958)، وأخرجه (5/ 409) عن

رجل من أصحاب النبي ﷺ بلفظ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، ثُمَّ فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَلَّ، وَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى».

والفتور مرض خطير، قال عنه الراغب في مفردات القرآن: (سكن بعد حدة ولين بعد شدة وضعف بعد قوة). اهـ

فالفتور هو الكسل والتباطؤ بعد الجِد والنشاط، والناس في هذا المرض ثلاث أصناف: صنف يفتر ويضيع بالكلية، وصنف يفتر إلى سنة وهذا يرجي له العودة، وصنف يستمر في فتوره لكن دون انقطاع عن الخير بالكلية، فنسأل الله السلامة.

قال ابن القيم رحمه الله: (فتخلل الفترات للسالكين أمر لا بد منه فمن كانت فترته إلى مقاربه وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رجا له أن يعود خيرا مما كان). اهـ

ومن مظاهر الفتور: التكاثر عن الطاعات، ومنها: الشعور بقسوة القلب وخشونته، ومنها: الألف على المعاصي، ومنها: عدم استشعار المسؤولية، ومنها: الاهتمام بالدنيا، ومنها: الجدل، ومنها: انطفاء الغيرة، ومنها: ضياع الأوقات. هذا بعض ما يحصل لمن أصيب بهذا المرض الخطير. الفتن تفتك بالأمة، وهو في غية وسباته وبعده وشقائه، فاللهم سلّم، وكان الشيخ مقبل رحمه الله تعالى يقول: (سابقوا الشر إلى المجتمعات).

فاترك الفتور واهجره، (فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان)، والرسول ﷺ يقول: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرُضٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ» أخرجه مسلم (2664) عن أبي هريرة ؓ.

وعليه أن يصدق مع الله عز وجل وفي فعله ليمنع عنه الفتور، قال ابن القيم في «الفوائد»: (وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره). اهـ

102- الذنوب المعاصي:

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: 14]، وقال الله عز وجل: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: 16].

وبيان ذلك أن المعاصي يجر بعضها إلى بعض، ويقع بسببها كثرة الإعراض، وقسوة القلب، وقلة التوفيق، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيئُهُ مِنَ الزَّنى مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِجَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ» أخرجه البخاري (6612)، ومسلم (2657).

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام: «لَيَنْقُضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، فَكَلِّمْنَا أَنْتَقَضَتْ عُرْوَةُ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ». أخرجه أحمد رحمه الله.

وقد قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: (إن سبب الانتكاسات ذنوب الخلوات)، وقال: (بأن الذنوب والمعاصي تسلبان العلم والإيمان). اهـ

وقال ابن القيم في «الفوائد» ص(389): (يا مغرورًا بالأمانى، لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتل بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة سكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يجسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه، ولا يخاف عقباها، دخلت امرأة النار في هرة، وأنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وأنَّ الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار. العمر بآخره، والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه في ذلك الوجه، لو قدمت لقمة وجدتها ولكن يؤذيك الشره، كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب سوف ولعل وعسى، كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد؛ ساهيًا في غمرته، عَمَّها في سكرته، سابعًا في لجة جهله، مستوحشًا من ربه، مستأنسًا بخلقه، ذكر الناس فأكهته وقوته، وذكر الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره، لا كان من سواك فيه بقية... يجد السبيل بها إليه العاذل.). اهـ

وقال رحمه الله في «الفوائد» ص(462): (قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفري الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء

الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال؛ تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة). اهـ

وقد ذكر في كتابه «الداء والدواء» ص (85-148) الآثار القبيحة للمعاصي (راجعها فيه)، نذكر منها: (وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها: حرمان العلم، فان العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية. وقال الشافعي:

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ أَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي
ومنها: حرمان الرزق، وفي المسند: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ».

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

ومنها: الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فانه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بُعد منهم ومن مجالستهم، وحرمان بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم.

ومنها: ظلمته يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فان الطاعة نور والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لا يشعر، كاعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده.

ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثلاثة ثم رابعة وهلم جرًا، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها.

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر، وتمحق بركته ولا بد، فان البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص.

ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، وتولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

ومنها: (وهو من أخوفها على العبد) أنها لضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية.

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمازج اللذة، حتي يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها.

ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: (هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم). وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾.

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

ومنها: أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نورًا والمعصية نطفئ نوره.

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال: هو الذنب بعد الذنب.

ومنها: أن الذنوب تُدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ، فإنه لعن على معاصي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسِخِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨﴾ [غافر: 7-9] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين

المتبعين لكتابه وسنة رسوله، الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها.

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الارض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

ومن عقوباتها: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فإن الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمةً أشدهم غيرة علي نفسه وخاصته وعموم الناس؛ ولهذا كان النبي أغير الخلق علي الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في البخاري (7416)، ومسلم (1499) عنه أنه قال: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعِدٍ؟! وَاللَّهِ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي». وفي الصحيح أيضاً البخاري (1064)، ومسلم (901) عنه أنه قال في خطبة الكسوف: «مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ أَمَتُهُ». وفي الصحيح أيضاً البخاري (7403)، ومسلم (2760) عنه أنه قال: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهاب كل خير بأجمعه، وفي صحيح مسلم (37) عنه أنه قال: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ». وقال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» أخرجه البخاري (3484).

ومن عقوباتها: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

ومن عقوباتها: أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهنالك الهلاك الذي لا يرجي معه نجاة، قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 18-19].

ومن عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان، وتمنعه من ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده؛ وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعاصي، فضلاً عن موافقتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبه ورفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام.

ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة، أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير، فلا تدعه يخطو الى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب.

ومن عقوبات الذنوب: إنها تزيل النعم، وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب، ولا حلت به نعمة إلا بذنب، وقد أحسن القائل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمَ
وَحُطَّهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمِ

ومن عقوباتها أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية، وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك المخاليل: إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمه المعصية.

ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده.

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشر، فأى فلاح وأى رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غني له عنه طرفه عين، ولا بدل له منه ولا عوض له عنه؟! انتهى مختصراً.

فقد تحرم الاستقامة بسبب المعاصي والسيئات والذنوب والزلات، فلازم التوبة علَّ الله عز وجل أن يثبتك في الدنيا والآخرة، قال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

103- قبول حظوظ النفس:

للنفس شهوات ونزوات وحظوظ وهوى، ونهيها عن الباطل مطلوب، وأمرها بالحق واجب؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في خطبة الحاجة وغير غيرها: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» كما في حديث عبد الله بن مسعود ؓ عند أبي داود (2118). ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي» كما في حديث شكل بن حميد ؓ أخرجه

أحمد (429/3). وكان يقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، زَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» كما في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عند مسلم رحمه الله (2722).

فالنفس لا صلاح لها ولا استقامة إلا بتزكيتها بطاعة الله عز وجل، ولها غوائل وشُرور وآثام وبلايا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، ولها هوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. فكم من الناس الذين يجيدون عن الصراط القويم والطريق المستقيم بسبب هوى نفوسهم ووساوسها وشُرورها، فاللهم سلم.

ومن تغلب على شرور نفسه تغلب على شرور ما سواها ومن سقط في شر نفسه فهو لما سواها أتع، ثم هل يقع المرء في التميع إلا لشر كامن في نفسه، والذي لم يحاربه بتزكيتها بالأخذ بالكتاب والسنة يهلك.

قال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» (351/2): (فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر والحسد والعلو والبغي والشر والأذى والفساد والغش وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة. وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة. فحقيقة المروءة: بغض ذاك الداعيين وإجابة الداعي الثالث، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذاك الداعيين والتوجه لدعوتها أين كانت. فالإنسانية المروءة والفتوة كلها في عصيان الداعيين وإجابة الداعي الثالث، كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق

ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة، فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله التحق بالبهايم). اهـ

وقد أخبر الله عز وجل أن الفلاح في زكاة النفس والخيبة كل الخيبة في عدم ذلك، قال الله عز وجل بعد أن أقسم أحد عشر قسماً بما شاء من مخلوقاته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]، وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» أخرجه مسلم (1051) عن عبدالله بن عمرو ؓ. فدللت هذه الأدلة على أن للنفس شرور، فإن لم تُجاهد مع الاستعانة بالله عز وجل جرت العبد إلى كل شر من الشهوات والشبهات، ومن البدع والخرفات، وغير ذلك. وصاحب الجنة هو من نهى نفسه عن الهوى، قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41].

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «إغاثة اللهفان»: (فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها؛ لجهلها بمضرته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولجموعها تارة). اهـ

فاحذر على نفسك من نفسك، وكم نسمع من شيخنا الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - قوله: (لا نخاف على دعوتنا إلا من أنفسنا).

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(94-95): (وأما كون الرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب، فصدق هذا غير خاف على ذي لب، فإن من أرسل عنان شبابه في البطالات، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال، ولكنها تنقضي عنه اللذة وتفارقه هذه الخلاوة إذا تكامل عقله ورجح فهمه وقوي

فكره، فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرات، التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله ثم الحسرة على ما فوته من العمر في غير طائل ثم على ما أنفق من المال في غير حله ولم يفز من الجميع بشيء ولا ظفر من الكل بطائل. وتزداد حسرته وتتعاظم كربته إذا قاس نفسه بنفس من أشتغل بطلب المعالي من أترابه في مقبل شبابه، فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته وصفاته بصفاته في حشرات متجددة وزفرات متصاعدة، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم وسلفه من المتأهلين لتلك المعالي والمكارم، فإنه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة، وتنقشع عنه عماية الجهالة، بكروب طويلة، وهموم ثقيلة، وقد فات ما فات، وحيل بين العير والنزوات، وحال الجريض دون القريض، وفي الصيف ضيعت اللبن، فانظر أعزك الله أي الرجلين أربح صفقة وأكثر فائدة وأعظم عائدة، فقد بين الصبح لذي عينين، وعند الصباح يحمد القوم السرى). اهـ

104- قبول وساوس الشيطان:

قال الشيخ يحيى الحجوري: (الشيطان قصده أن يستزل الإنسان بغلو أو تفريط). اهـ

والتميع خلاف السنة، ويغضب الرب سبحانه وتعالى؛ ولهذا فهو من الشيطان يؤز إليه ويدعو إليه ويزينه والشيطان رأس الشر والغواية، وقد أقسم قسمًا يحاول إبراره قال الله مخبراً عنه: ﴿ قَالَ فَبِعَرْنِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، فهو حريص على غواية الإنسان وإخراجه من الجادة بجميع الوسائل والطرق، فغاية مطلبه أن يصير الإنسان كافرًا من أصحاب السعير ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 6]، فإن لم يستطع أن يوصله إلى الكفر خذله

عن الحق وعن نصرته ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩]، وهو يتدرج في إغواء الإنسان، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]. وهو متخذ لكل الأساليب الموصلة بالإنسان إلى الغواية، قال الله عز وجل: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخِيَلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [١١٧] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَتَّكِنَنَّ ءَاذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وقال الله عز وجل أمراً بالاستعاذة منه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

قال ابن القيم في «الفوائد» ص(296) مبيناً طرق دخول الشيطان على الإنسان:
(كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذّاكر في حصن الذّكر فمتى غفل فتح باب الحصن فوجه العدو فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء). اهـ

والسبل العاصمة من هذا العدو كثيرة، منها: الاستعاذة، قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ومنها: التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [٢٠١-٢٠٢]، ومنها: الإخلاص لله عز وجل والانقياد له، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢]، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، إلى غير ذلك من الوسائل تجمل في الاعتصام بالكتاب والسنة، والبعد عن المعصي والبدعة، والشيطان يرضى منك بالدون، إن استطاع أن يخرجك من الإسلام فعل، فإن عجز بالمعاصي، فإن عجز جاءك من جهة هوى نفسك، إما إلى غلو أو تميع وجفاء، وهلم جرًا.

105- عدم صلاحية المرء لسبيل السنة:

من أسباب خروج الإنسان عن الاستقامة وولوجهم في الغلو أو التميع: هو عدم القابلية لزرع الخير والعلم فيه وبثه والدعوة إليه، حيث ونفسيته وقلبه وجوارحه مائلة إلى الشر والضير، فاللهم سلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23]. وفي أثر ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد رحمه الله (3600)، قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ عليه السلام خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَأَبْتَعَتْهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ

بَعْدَ قَلْبٍ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وَرَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ»، وفي حديث علي عليه السلام عند الشيخين البخاري (4274)، ومسلم (2494) قال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ». فالله عز وجل يوفق من علم له للخير والصلاح، أما من لم يكن كذلك فإنه يكل إلى نفسه الأثمارة بالسوء.

قال ابن القيم في «الفوائد» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23]، قال: (فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم؛ يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به). اهـ

فبعض الناس غير قابل للهداية لخبث طوية أو سوء سريرة، وفي حديث أبي موسى عليه السلام، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» أخرجه البخاري (79)، ومسلم (2282).

من أسباب التميع وارتكاب الشرور: هو داعي الفجور، أخرج البخاري (6094)، ومسلم (2607) عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ؛ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»، والذي هو آية أهل التلون، وهم المنافقون، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (33)، ومسلم (59): «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، بل إن المميعين في هذا الزمن أصبح الكذب شعارًا لهم ودثارًا، حتى قال الشيخ مقبل رحمه الله تعالى: (أركان الحزبية ثلاثة: الكذب، والتليس، والمكر).

ويقع العبد في التميع بسبب الكذب؛ لعدم تصوّره للمعلومات على ما هي، أو لمكره وتليبسه، وغير ذلك. والكذب يزري بأهله في الحال أو المآل: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» ص(299-300): (إياك والكذب، فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعلوم موجودًا، والموجود معدومًا، والحق باطلاً، والباطل حقًا، والخير شرًا، والشر خيرًا، فيفسد عليه تصوّره وعلمه. ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل. وإذا فسدت عليه قوة تصوّره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي، فسدت عليه تلك

الأفعال، وسرى حكم الكذب إليها، فصار صدورها عنه كصدور الكذب على اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور، كما قال النبي ﷺ: «فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ». وأول ما يسري الكذب من النفس الى اللسان فيفسده، ثم يسري الى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويتراعى داؤه الى الهلكة ان لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب. فكل عمل ظاهر أو باطن فمشتوه الكذب. والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وقال: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، وقال: ﴿إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: 21]، وقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90]. اهـ

فلازم الصدق تنجو أيها المسلم، وإذا مشيت على الكذب فسدت وأفسدت.

107- ضعف الهمة:

ضعف الهمة عن مصاف الصالحين وعن البحث عن مرضاة رب العالمين، سبب لتسلط الشيطان والبعد عن طاعة الرحمن، وأكثر الناس إنما وقعوا في التميع لضعف همهم عن مصاف الأبطال والرضا بمنازل الأنذال، وإنما يصل المرء إلى مصاف الرجال بعلو همته؛ لأنها تشحذ فيه حب الخير والبحث عنه والعمل به وحب العلم والسير على سيرة السلف الصالحين إلى غير ذلك.

فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هِمَّتُهُ فِي الثَّرَى

انظر إلى همة مصعب بن عمير كيف أمسى وما في المدينة بيت إلا ويتلى فيه القرآن. انظر إلى همم الرجال والأبطال الذين فتحوا الفتوح ومصرروا الأمصار. انظر إلى همم الحفاظ والمؤلفين والمصنفين كيف حفظ الله بهم الدين وأعلى مناره ورفع شعاره.

وانظر إلى شرط الوصول إلى أعلى المطالب:

قال ابن القيم في «الفوائد» ص(307): (المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا مانت عالية تعلقت به وحده دون غيره. وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته. وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلّق بالمطلب الأعلى. وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه. فمدار الشأن على همة العبد ونيته هما مطلوبه وطريقه لا يتم إلا بترك ثلاثة أشياء:

(الأول): العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.

(الثاني): هجر العوائق التي تعوقه عن أفراد مطلوبه وطريقه وقطعها.

(الثالث): قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعليق بالمطلوب، والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها. وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه، والله المستعان.). اهـ

ودنو المهمة مسلك دنيء ومركب وطيء وخلق ساقط وعمل مردول لا يليق بأهل الفضل ولا ينبغي من أهل النبل والعقل والناس إنما تفاوت أقدارهم بتفاوت همهم، والله المستعان.

108- عدم الردّ على المخالفين للحق وأهله:

فإذا لم يقع الردّ على المخالفين المبطلين انتشر شرهم واغترّ به من تنفق عليه الزيوف والمتأمل للقرآن والسنة يجد في الردّ على المخالفين الشيء الكثير، وباب الردّ على المخالف من أعظم أبواب الجهاد والدفاع عن حوزة الدين وبيان الحق.

قال ابن القيم في «المدارج» (1/372): (ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض وحذروا فتنهم أشد التحذير وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ

وَهَذَا حَرَامٌ لِّفَتْرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿النحل: 116﴾ الآية. فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه، أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه.

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول أحل الله كذا وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل هذا ولم أحرم هذا. يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذ معبودًا من دون الله يقر به إلى الله ويشفع له عنده ويقضى حاجته بواسطته كما تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس؛ إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والإبتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراد.

ولهذا كان الكذب على رسول الله موجبًا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبدءًا، وهو المنزل اللازم لا يفارقه صاحبه؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه؛ لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس، فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنتى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة أو يظنها سنة فهو يدعو إليها ويحض عليها، فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة وكثرة اطلاعه عليها ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا.

فإن السنة بالذات تحقق البدعة ولا تقوم لها وإذا طلعت شمسها في قلب العبد، قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة؛ إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالإستعانة والإخلاص وصدق اللجأ إلى الله، والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته، «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أخرجه البخاري (1)، ومسلم (1907)، ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان. اهـ

109- الجمعيات:

هذه البدعة العصرية التي هي متلقاة عن اليهود والنصارى ولا تخلو من مخالفات شرعية أو تؤدّي إلى مخالفات شرعية، وهي من أعظم أسباب التميع للدعاة إلى الله عز وجل، قال شيخنا الوادعي رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(289): (وكذلك الجمعيات ما أقيمت إلا لأجل أموال الناس والصد عن السنة وتهيئة أنفسهم؛ لأن يكونوا حزباً فلو عرفوا من أنفسهم أنهم سيكونون حزباً لرأيهم يدخلون في الانتخابات وكل شيء جائز عندهم). اهـ

بل لا أعرف في هذه الأيام شيئاً أدّى إلى تميع الدعاة والدعوات مثل هذا السرطان الخطير، حتّى قال فيها شيخنا يحى حفظه الله تعالى: (الجمعيات سرطان الدعاة)، وفعلاً من دخلته ضعف جانب الولاء والبراء وجانب العمل وبغض البدعة، عنده وركن إلى الدنيا وإلى أهلها، وزهد في العلم والتعليم، وأصبح كالشاة العائر بين الغنمين، لا للحق نصر ولا للباطل كسر، وإنما حاله: نفسي نفسي، يجمع

المال ولا يبالي من حلال أو من حرام، وأصبحت هذه الجمعيات متسلطة على أموال الأراذل والمساكين يشترون بها الفلل وأفخر المراكب، والثلث: السنة.

قال الإمام الوادعي في «قمع المعاند» ص(117) حول الجمعيات: (تخطيط من قبل أعداء الإسلام، يخافون من المسلمين، ويخافون من الدعوة الإسلامية، فأرادوا أن يفرقوا المسلمين إلى جماعات وإلى حزبيات مغلفة، والمسلمون لا يشعرون بهذا). اهـ وقال في «فضائح ونصائح» ص(101): (وقد فرضت على بعض الناس هذه الجمعيات وهذه الحزبيات تنفيذاً لمخططات أمريكا، فأضعفت المسلمين وشتت شملهم وأروثت بينهم العدواة والبغضاء، وأصبحوا شيعاً لأمريكا). اهـ

وقال الشيخ الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في (1/ ذي القعدة/ 1426) كما في رسالة «الجمعيات حركة بلا بركة»: (من مفاسد الجمعيات:

1- أنها ليست من طريقة السلف.

2- مشغلة عن طلب العلم.

3- إهانة النفس بالتسولات.

4- التساهل في المعاملة مع البنوك الربوية.

5- الولاء والبراء من أجلها.

6- التساهل في تصوير ذوات الأرواح.

7- الانتخابات.

8- الخيانة في الدعوة والغش.

9- التخوض في مال الله بغير حق.

10- كثرة التنازلات. والاستحسانات في الدعوة.

11- ذريعة إلى تفريق الأمة وتشتييتها وتحزبها.

12- وهي تعتبر فيروسا للدعوة السلفية. اهـ

110- تعدد الجماعات:

من المعلوم أن البدع قد تنوعت وكثرت كما أخبر النبي ﷺ، وقد حذر العلماء من البدع كلها على ما هو معلوم في كتب السلف، ومع ذلك فإن العصرين قد أسسوا عدة جماعات؛ زاعمين أن هذه الجماعات وجودها كوجود المذاهب، وقد بينا - بحمد الله - في بعض الكتابات ما يتعلق بذلك، ومن هذه الأوجه: أن الله عز وجل أمرنا باتباع الكتاب والسنة، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]، فالله عز وجل ما أمرنا بالمذهبية، وقد كان الإسلام عزيزاً منيعاً قبل ظهور المذاهب، أما المذاهب فقد وقع بسببها بلاء عظيم، وقد سئل الشيخ الفوزان كما في «المنتقى من فتاويه» (2/ 226): (ما رأيكم في أن تعدد هذه الجماعات اختلاف تنوع وليس اختلاف تفرقة؟ فقال: هذا اختلاف ليس محموداً؛ لأنه اختلاف تفرق، والله تعالى نهانا عن التفرق والاختلاف، وأوجب علينا أن نكون أمة واحدة. اهـ

وقد تكلم الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - عن هذه المسألة في «تحفة المجيب» ص(327) وغيرها من كتبه: ... والنبي ﷺ يقول: «يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» أخرجه

الحاكم، ويقول: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ»، ولم يقل: (بالجماعات). واقرأوا كتاب أخينا ربيع بن هادي: «جماعة واحدة لا جماعات وصراط واحد لا عشرات». اهـ

111- عدم النظر في عواقب الأمور:

تكون همّة الإنسان عند قدمه، فلا ينظر إلى الأعلى أو الأمام، فيريد أن يقضي الساعات واللحظات التي هو فيها على أي حال، مع أن بعد النظر سببٌ للظفر، وهذا الصنيع الذي يلازمه هذا المميع يؤدّي إلى هزيمة الدين وفُشُو المبتليين، ويؤدّي إلى مفاسد كثيرة لا يتصوّرُها هذا المميع، فلا تكن مثل النعامة تغطّي رأسها في الأرض فرارًا من الصياد.

وسياتي مزيد بيان لأهمية بعد النظر في الحلول - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -.

112- عدم الاستجابة لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ ابتداءً:

وذلك يحصل إما بالتسويق أو بقول الباطل والرضا به والركون إليه إلى غير ذلك مع أن الله عزّ وجلّ يقول ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالواجب على المسلمين أن تكون لديهم استجابة سريعة لأمر الله عزّ وجلّ وأمر نبيه ﷺ؛ لأن التأخر في الاستجابة سبب لزيغ قلوبهم وانحراف عقائدهم، قال السعدي رحمه الله عند قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ءَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، قال: (أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم. وهذا من

عدل الله سبحانه، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا). اهـ

بل الواجب على المسلمين أن تكون لديهم استجابة سريعة قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾ [النساء: ٦٦].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾ [النساء: ٦٦]، قال: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا» قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. أخرجه مسلم (126).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 284]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ، فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْجِهَادُ، وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟! بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

وَالَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ. أخرجہ مسلم رحمہ اللہ (125).

فإذا ما حصلت الاستجابة ابتداءً قل الشر وحصل الخير.

113- مجاهرة أهل البدع بما هم فيه:

وبيان ذلك أن كثيرًا من الناس يقعون في التميع لمجاهرة أهل الباطل بباطلهم فيقع التأثير بالمبيعين وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاذِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولُ يَا فَلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ» أخرجہ البخاري (6069)، ومسلم (2990). من حديث أبي هريرة ؓ، المجاهرة بالمعاصي والبدع يؤدي إلى ظهورها وانتشارها؛ ولهذا رغب الله عز وجل في الستر، وتوعد الذين يسعون في إشاعة الفاحشة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: 19]،

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «التفسير القيم»: (هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم أشاعتها وإذعتها). اهـ

فلا تغتر أخي المسلم بمجاهرة أهل الباطل بباطلهم، ولتكن معتصماً بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

114- السرية:

السرية غير مذمومة مطلقاً، ففي حديث أنس رضي الله عنه في الصحيح، قالت أمه: لا تنفش سرّ رسول الله ﷺ. وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند مسلم رحمه الله (1437)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةَ الرَّجُلِ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا».

وإنما المذموم منها ما كان للمكر بالحق وأهله ومخالفاً لدين الله عز وجل؛ ولهذا أمر الله عز وجل بهدم مسجد الضرار الذي أسس لهذا الغرض، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقد كان السلف يذمون هذه السرية جداً؛ لخطورها وضررها، فقد أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (568-467/14) عن أسلم العدوي قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يجتمعون في بيت فاطمة، فأتاها فقال: يا بنت رسول الله ﷺ، ما كان أحداً أحب إلينا من أبيك، ولا بعد أبيك أحب إلينا منك، وقد لغني أن هؤلاء النفر يجتمعون عندك، وإيم الله، لئن بلغني ذلك لأحرقن عليهم البيت. فلما جاءوا قالت فاطمة: إن ابن الخطاب قال كذا وكذا، فإنه فاعل ذلك، ففرقوا حين بويع لأبي بكر رضي الله عنه.

وأخرج أحمد في «الزهد»، والدارمي في «سننه»، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» عن عمر بن عبدالعزيز قال: إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة.

فاستفد من هذين الأثرين؛ لأنهما عن عَلمَيْنِ جليلين.

115- التميع بهدم قواعد الجرح التي سار عليها السلف:

من المعلوم أن السلف رضوان الله عليهم قد نقلوا لنا هذا الدين كما أنزله الله عز وجل وبلغه رسول الله ﷺ فحفظوه في صدورهم ودونوه في كتبهم وقعدوا له القواعد، ومن هذه القواعد قواعد القدح فيمن ليس له أهلية لحمل الأخبار ونقلها والسماع منه والقدح في أهل البدع المخالفين، وقد جاء هذا المنهج التميعي محطًا وقاضيًا على تلك القواعد السلفية الأصيلة مستبدلاً لها بقواعد خلفية هزيلة. وإليك بعض ما أحدثوه في هذا الباب؛ أذكر هذا تعليلًا للجاهل وتذكيرًا للغافل وإرشادًا ودلالة على الخير:

1- قول بعضهم نصصح ولا نجرح وفي بعضها نصصح ولا نهدم:

وهذه القاعدة الخلفية تجعل الكثيرين مع علمهم بأخطاء المخالفين للمنهج الحق وللطريق القويم يسكتون عنهم وعن باطلهم مع لج أولئك في الفتنة، فهذا الحلبي يثني على الحويني وعلى عرعور وعلى محمد حسان والمغراوي والمأربي؛ مع علمه بأخطائهم ومخالفاتهم، لكن الرجل لما كان كالشاة العائر بين الغنمين وقد قعد هذه القاعدة المتلقاة عن أهل البدع وسار عليها، فلا غرو أن يحصل منه مثل هذا، وهذا ما هو إلا مثال من أمثلة أصبحوا يدندنون حول هذه القاعدة التي تقضي على جانب الولاء والبراء، وجانب التبديع لأهل البدع والتفسيق لأهل الفسق، وجانب

التميُّز. ثم اعلم يا طالب الحق أن الذي يرفع ويخفض هو الله عز وجل، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن مدحي زين وذمي شين، قال: «ذَكَ اللهُ». فعلى المسلم أن يحذر من الباطل وأهل الباطل الملازمين له والسائرين عليه.

2- لا نجعل خلافتنا في غيرنا سبباً للخلاف بيننا:

وهذه من القواعد الخلفية التي قررها على الحلبي هداه الله ونشرها في كتابه «منهج السلف في ترجيح المصالح وتطويع المفاصل في أصول النقد والجرح والنصائح». وهذه القاعدة يدخل تحتها شر مستطير، هذا يدافع عن التراخي، وآخر عن القرضاوي، وغير ذلك، وأنت لا تختلف معه، مع أن السلف قالوا في ابن الدخشن: ما نرى وده وحديثه إلا مع المنافقين، كما في حديث عتبان عند البخاري (424)، ومسلم (33).

قال العلامة النجمي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (على أي شيء يجب اجتماعنا، أليس على الحق؟ بلى، فإن خالف الحق أحد وجب علينا أولاً أن ننصحه ونبين له، فإن رجع وإلا فإنه يجب علينا أن نعتبره شاذاً، فإن أیده أحد وأعانه على باطله أنكرنا على المؤيد وهجرناه، وبالأخص إذا كانت بدعة واضحة وضارة كبدعة الخوارج، ولا يجوز أن نترك الإنكار على المميع حرصاً على جمع الكلمة. اهـ

وهذا الكلام من أهل التمييع مؤداه إلى تعظيم وتوقير أهل البدع، وقد قال السلف قديماً: (من أيد صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام) كما هو مقرر في كتب السلف.

3- قولهم بتأثير تغير الزمان ومراعاة المصلحة في هجر المبتدعة:

قال الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «شرح الأصول من علم الأصول» ص(462): فإذا قال قائل: هذا الدين الإسلامي دين شامل عام مرن صالح لكل زمان ومكان. نقول: هذا صحيح، لكننا لسنا نقول إنه خاضع لكل زمان ومكان، فالذي يريد أن يحكم العادة على الشرع ليس ذاهباً إلى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وهذا خطر، وقد فهمه من فهمه من الناس، وظنوا أن معنى ذلك أن الدين خاضع لما تقتضيه الأزمنة والأمكنة وعادات الناس. أقول: صالح لكن ليس المعنى أنه خاضع، أنت تعمل الدين وانظر هل ينافي المصالح أولاً، ما ينافي المصالح. اهـ

وهذه دعوة صريحة إلى مخالطة أهل البدع والدنو منهم مع ما هم عليه من الخطل والزلل ومع نهى السلف ونأيهم عن أهل البدع، وقد قال يونس بن عبيد لولده: يا بني، لأن تخرج من بيت - وعدد بعض أهل المعاصي - أحب إليّ من أن تخرج من بيت فلان يعني المبتدع.

ولو تغير الزمان ما تغير الدين، فالدين الذي كان يُعمل به في عهد أبي بكر وعمر وفي عهد ابن المسيب وابن سيرين وفي عهد ابن حنبل والبخاري، هو الدين الذي يجب أن نكون عليه اليوم، فإن الوحي قد انقطع من السماء، وما بقي إلا التسليم والانقياد والقبول، ثم أيضاً إنما قوي الدين لما طبقت فيه القواعد السلفية الموافقة للأدلة الشرعية من الآيات القرآنية والسنة النبوية، وما ضعف الدين إلا لما ضعف هذا الجانب من المسلمين، ثم لو كانت هذه القاعدة معتبرة لقال الإمام أحمد: الزمان ليس كزمان الصحابة، وقد تغير الزمان، وهكذا.

4- ومنها رد خبر الثقة والتشكيك فيه:

وهذه القاعدة قد دعا إليها ونشرها أبو الحسن المصري على أنه لا يقبل الجرح في أحد حتى يقف عليه بنفسه، وقد ردّ العلماء عليه هذه القاعدة الباطلة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وفي قراءة: (فتثبتوا)، فخير الثقة مقبول، وخبر الفاسق الذي لا يعلم صدقه من كذبه يتثبت فيه، وخبر الكاذب مردود غير مقبول. وسار على قاعدة الثبوت على بن حسن بن عبد الحميد، وهكذا دواليك، وهي تطبيق كثير من المميعين السائرين مع التقارب مع منهج الخلف ونبد منهج السلف.

5- إلغاء منهج امتحان الناس:

وهذا منهج قويم دلّ عليه صحيح سنّة رسول الله ﷺ، ففي مسلم (78) من حديث علي رضي الله عنه: «إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ».

وقال ﷺ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ» أخرجاه من حديث البراء رضي الله عنه.

وعن عتبان بن مالك في قصة مالك بن الدخشن: ما نرى وده وحديثه إلا مع المنافقين.

وهذا المنهج سار عليه السلف. قال البرهاري رحمه الله في «شرح السنّة»: (وإذا رأيت الرجل يحبّ أبا هريرة وأنس بن مالك وأسيد بن حضير فاعلم أنّه صاحب سنّة إن شاء الله، وإذا رأيت الرجل يحبّ أيوباً وابن عون ويونس بن عبيد وعبدالله بن إدريس الأودي والشعبي ومالك بن مغول ويزيد بن زريع ومعاذ بن معاذ ووهب بن جرير وحماة ابن زيد وحماة بن سلمة ومالك بن أنس والأوزاعي وزائدة

بن قدامة فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل والحجاج بن المنهال وأحمد بن نصر وذكرهم بخير وقال قولهم فاعلم أنه صاحب سنة. اهـ

وقال البرهاري رحمه الله: (وإذا رأيت الرجل يذكر ابن أبي داود والمريسي أو ثمامة وأبا الهذيل وهشام الفوطي أو واحدا من أتباعهم وأشياهم فاحذره فإنه صاحب بدعة وإن هؤلاء كانوا على الردة واترك هذا الرجل الذي ذكرهم بخير). اهـ

6- ومنها لا تقبل الجرح حتى يجمعوا عليه:

وهذه القاعدة وإن شجرت بالحلبى ودندن حولها وقد قالها عند الشيخ ربيع حفظه الله وأنكرها عليه ثم سطر محتواها في كتابه «منهج السلف الصالح» المشار إليه آنفاً بقوله (ثم موقف عامة الطلبة إذا أجمع أهل العلم على تبديع واحد لا يسعهم أن يخالفوه). ومع ذلك صارت المقولة تطبيقاً لكثير من الدعاة هداهم الله عز وجل، مع أنه من المعلوم أن من علم حجة على من لم يعلم والمجرح عنده زيادة علم، ولو تأملنا كتب السلف لوجدناهم على غير هذه القاعدة، وإنما يقدم الجرح المفسر؛ لأن المجرح عنده زيادة علم. وهذا إذا وجد جرح وتعديل، وأما إذا لم نجد إلا كلام المجرح وكان من أهل الشأن وليس ثمة اختلاف بين العلماء في شأن هذا المجروح، فإنه يقدم الجرح بدون تفسير مع الخلاف أيضاً في من اختلف فيه، فقال بعضهم: يقدم الجرح مطلقاً، وقيل: لا بد أن يفسر، والتفسير أولى لاختلاف أسباب الجرح عند العلماء.

ثم هل يشترط في قبول لجرح والتعديل تعدد الجارحين والمعدلين؟

قال الحافظ ابن الصلاح رحمه الله تعالى: (اختلفوا في أنه هل يثبت الجرح والتعديل بقول واحد، أو لا بد من اثنين، فمنهم من قال: لا يثبت ذلك إلا باثنين كما

في الجرح والتعديل في الشهادات، ومنهم من قال - وهو الصحيح الذي اختاره الحافظ أبو بكر الخطيب وغيره -: إنه يثبت بواحد؛ لأنّ العدد لم يشترط في قبول الخبر، فلم يشترط في جرح راويه وتعديله بخلاف الشهادات. والله أعلم. اهـ من «المقدمة» ص(98).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: (يكفي قول الواحد في التعديل والتجريح على الصحيح). اهـ من «علوم الحديث» (1/290).

وقال النووي رحمه الله: (الصحيح أنّ الجرح والتعدي يثبتان بواحد، وقيل: لا بُدّ من اثنين. وإذا اجتمع فيه جرح وتعديل فالجرح مقدّم). اهـ من «التقريب والتيسير» ص(204) مع «التدريب».

وقال السيوطي شارحاً كلام النووي: (الصحيح أنّ الجرح والتعدي يثبتان بواحد؛ لأنّ العدد لم يشترط في قبول الخبر فلم يشترط في جرح راويه وتعديله، ولأنّ التكية بمنزلة الحكم، وهو أيضاً لا يشترط فيه العدد (وقيل: لا بُدّ من اثنين) كما في الشهادة وقد تقدّم الفرق قال شيخ الإسلام: ولو قيل: يفصل بين ما إذا كانت التزكية مسندة من المزكي إلى اجتهاده أو إلى نقل عن غيره لكان متجهّاً؛ لأنّه عن كان الأوّل فلا يشترط العدد أصلاً؛ لأنّه بمنزلة الحكم، وإن كان الثاني فيجري فيه الخلاف، ويتبيّن أيضاً أنّه لا يشترط فيه العدد؛ لأنّ النقل لا يشترط فيه فكذا ما تفرّع منه). اهـ من «تدريب الراوي» ص(204).

7- ومنها ردّ الجرح المفسر:

مع أن المنهج عند أهل السنة والجماعة تقديم الجرح المفسر على التعديل، قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: (باب القول في الجرح والتعديل إذا اجتمعا أيهما أولى:

اتفق أهل العلم على أن من جرحه الواحد والإثنان وعدله مثل عدد من جرحه فإن الجرح به أولى.

والعلة في ذلك: أن الجرح يخبر عن أمر باطن قد علمه، يصدق المعدل ويقول له قد علمت من حاله الظاهرة ما علمتها وتفردت بعلم لم تعلمه من اختبار أمره وإخبار المعدل عن العدالة الظاهرة لا ينفي صدق الجرح فيما أخبر به فوجب لذلك أن يكون الجرح أولى من التعدي.

أخبرنا محمد بن أحمد بن زرق، قال: أنا عثمان بن أحمد الدقاق، قال: ثنا حنبل بن إسحاق، قال: ثنا خالد بن خدّاش، قال: سمعت حمّاد بن زيد يقول: كان الرجل يقدم علينا من البلاد، ويذكر الرجل، ويحدث عنه، ويحسن الثناء عليه، فإذا سألنا أهل بلاده على غير ما يقول، قال: وكان يقول: بلديّ الرجل أعرف بالرجل.

قلت: لما كان عندهم زيادة علم بخبره على ما علمه الغريب من ظاهر عدالته جعل حمّاد الحكم لما علموه من جرحه دون ما أخبر به الغريب من عدالته. اهـ من «الكفاية» ص (175-176).

قال الحافظ في مقدمة «لسان الميزان» (1/95) بعد سوقه لكلام الخطيب، قلت: بل الصواب التفصيل، فإن كان الجرح والحالة هذه مفسراً قبل، وإلا عمل بالتعديل، وعليه يحمل قول من قدم التعديل كالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره. فأما من جهل حاله ولم يعلم فيه سوى قول إمام من أئمة الحديث أنه ضعيف أو

متروك أو ساقط أو لا يحتج به ونحو ذلك، فإن القول قوله، ولا نطالبه بتفسير ذلك؛ إذ لو فسر ه كان غير قاذح لمنعنا جهالة حال ذلك الرجل من الاحتجاج به، كيف وقد ضعف؟! فوجه قولهم: إن الجرح لا يقبل إلا مفسراً هو من اختلف في توثيقه وتجريحه كما شرحنا، يؤيده قول بن عبد البر: من صحت عدالته وثبتت في العلم إمامته وبانت همته وعنايته بالعلم لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي الجرح في جرحه ببيئة عادلة يصح بها جرحه على طريق الشهادات والعمل بما فيها من المشاهدة لذلك ما يوجب قبوله). اهـ

وقال الحافظ ابن الصلاح رحمه الله تعالى: (إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل، فالجرح مقدم؛ لأنّ المعدّل يخبر عمّا ظهر من حاله والجرح يخبر عن باطنٍ خفيٍّ على المعدّل. فإن كان عدد المعدّلين أكثر فقد قيل التعديل أولى والصحيح والذي عليه جمهور على أنّ الجرح أولى لما ذكرناه، والله أعلم). اهـ من «المقدمة» ص(99).

وقال الزركشي رحمه الله: (قوله: فإن كان عدد المعدّلين أكثر فقد قيل التعديل أولى). اهـ

يعني لأنّ الكثرة تقوّي الظنّ، والعمل بأقوى الظنّين واجب كما في تعارض الحديثين والأمارتين، والصحيح تقديم الجرح كما ذكرناه، يعني لأنّ تقديم الجرح إنّما هو لتضمّنه زيادة خفيت على المعدّل، وذلك موجود مع زيادة عدد المعدّل ونقصه ومساواته، فلو جرّحه واحدٌ وعدّله مائة قدّم قول الواحد لذلك). اهـ من «النكت على مقدمة ابن الصلاح».

وقال السخاوي نحو هذا الكلام: (في هذه الصورة تقديم قول المجرحين على المعدّلين وإن زاد المعدّلين على المجرحين، حتّى لو كان المجرح واحداً، وهم عدد كثير. إنّ القول الفصل في الحجّة والبرهان والحجج والبراهين الواضحة، مع السلفيين مع خصومهم، ولكنّه العناد والمكابرة). اهـ من «فتح المغيث»

قال السخاوي رحمه الله: (الخامس: في تعارض الجرح والتعديل في راوٍ واحد. وقدموا - أي: جمهور العلماء أيضاً - الجرح على التعديل مطلقاً، استوى الطرفان في العدد أم لا. قال ابن الصلاح: إنّّه الصحيح. وكذا صحّحه الأصوليون، كالفخر، والآمدي، بل حكى الخطيب اتّفاق أهل العلم عليه، إذا استوى العددان، وصنّيع ابن الصلاح مُشعرٌ بذلك. وعليه يُحمل قول ابن عساكر: أجمع أهل العلم على تقديم قول من جرح راوياً على قول من عدّله، واقتضت حكاية الاتّفاق في التساوي كون ذلك أولى فيما إذا زاد عدد الجارحين.

قال الخطيب: والعلة في ذلك أنّ الجارح مُخبرٌ عن أمر باطني قد علمه، ويصدّق المعدّل، ويقول له: قد علمتُ من حاله الظاهر ما علمته، وتفرّدتُ بعلملم تعلمه من اختبار أمره يعني: فمعه زيادة علم.

قال: وإخبار المعدّل عن العدالة الظاهرة، لا ينفي صدق قول الجارح فيما أخبر به، فوجب لذلك أن يكون الجرح أولى من التعديل). اهـ

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: (فصل: إذا عدّل جماعة رجلاً وجرحه أقلّ عدداً من المعدّلين فإنّ الذي عليه جمهور العلماء أنّ الحكم للجرح والعمل به أولى، وقالت طائفة بل الحكم للعدالة، وهذا خطأ لأجل ما ذكرناه، من أنّ الجارحين

يصدقون المعدّلين في العلم بالظاهر، ويقولون: عندنا زيادة علم لم تعلموه من باطن أمره.

وقد اعتلت هذه الطائفة بأن كثرة المعدّلين تقوى حالهم، وتوجب العمل بخبرهم، وقلة الجارحين تضعف خبرهم. وهذا بعد مَن توهّمه، لأنّ المعدّلين وإن كثروا ليسوا يخبرون عن عدم ما أخبر به الجارحون، ولو أخبروا بذلك وقالوا: نشهد أنّ هذا لم يقع منه، لخرجوا بذلك بأن يكونوا أهل تعديل أو جرح، لأنّها شهادة باطلة على نفى ما يصحّ، ويجوز وقوعه وإن لم يعلموه فثبت ما ذكرناه). اه من «الكفاية».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أمّا إذا تعارض جرح وتعديل فينبغي أن يكون الجرح حينئذٍ مفسّراً. وهل هو المقدم؟ أو الترجيح بالكثرة أو الأحفظ؟

فيه نزاع مشهور في أصول الفقه وفروعه وعلم الحديث، والصحيح أنّ الجرح مقدّم مطلقاً إذا كان مفسّراً. والله أعلم.). اه من «اخصار علوم الحديث».

8- قولهم: كلام الأقران يطوى ولا يروى:

وهذه العبارة قالها الذهبي رحمه الله حيث قال في «سير أعلام النبلاء» (94-92/10): (كلام الأقران إذا تبرهن لنا بهوى وبعصبية لا يلتفت إليه بل يطوى ولا يروى). اه

وقال رحمه الله في «ميزان الاعتدال» (111/1): (قلت: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى

الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).

فمراده كما هو هو موضح بقوله: (إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية) فمن ظهر من كلامه الإزراء بقريئة لا لأمر ديني ولكن لحظوظ نفس وغير ذلك لا يقبل كما هو معلوم من شروط المجرح والمعدّل أن يكون صاحب تقوى وورع أما من حيث رد جرح الأقران مطلقاً فلم يقل به أحد من السلف وحاشاهم فكم من المبتدعة والضعفاء الذين جرحهم أقرانهم، ولو طبقت هذه القاعدة؛ لضاع الدين وظهرت البدع وتنمر دعائها، حيث وكلام أقرانهم فيهم غير مقبول، بل إنّما يجرح المرء من عرفه وقارنه فتنّبّه.

9- التقليد في منهج الجرح والتعديل:

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(158): (ومن جملة الأسباب المانعة من الإنصاف: التقليد في علم الجرح والتعديل لمن فيه عصبية من المصنفين فيه كما يجده اللبيب كثيراً، فإنه إذا تصدى لذلك بعض المصايين بالتقليد كان العدل عنده من يوافقه في مذهبه الذي يعتقده والمجروح من خالفه كائناً من كان، ومن خفي عليه فليُنظر ما في مصنفات الحفاظ بعد انتشار المذاهب وتقيد الناس بها، وكذلك ما في كتب المؤرخين فإن الموافقة في المذهب حاملة على ترك التعرض لموجبات الجرح، وكنم الأسباب المقتضية لذلك، فإن وقع التعرض لشيء منها نادراً أكثر المصنف من التأويلات والمراوغات والتعسفات الموجبة لدفع كون ذلك الخارج خارجاً وإن كان الكلام على أحوال المخالفات كان الأمر بالعكس من ذلك، فالفضائل مغموطة والردائل منشورة من غير تأويل ولا إحسان ظن. وبالجملّة فالاهتمام في الموافق بذكر

المناقب دون المثالب وفي المخالف بالعكس من ذلك ولا أقول إنهم يتعمدون الكذب ويكتمون الحق، فهم أعلى قدرًا وأشد تورعًا من ذلك، ولكن رسخ في قلوبهم حب مذاهبهم فأحسنوا الظن بأهلها فتسبب عن ذلك ما ذكرنا، ولم يشعروا بأن هذا الصنيع من أشد التعصب وأقبح الظلم، بل ظنوا أن ذلك من نصرة الدين ورفع منار المحقين ووضع أمر المبطلين غفلة منهم وتقليدًا، وقد يقع ذلك بين أهل المذهب الواحد مع اتفاقهم في التقليد لإمام واحد واعتقادهم بمعتقد واحد فإذا تصدى أحدهم لتراجم أهل مذهبه أطال ذيل الكلام عند ذكر شيوخه وتلامذته بكل ما يقدر عليه وكذلك يوسع نطاق المقام عند ترجمته لمن عليه أي يد كانت، فإذا ترجم غير شيوخه وتلامذته وأهل مودته طفف لهم تطفيفًا وأوسعهم ظلمًا وحيفًا، وإذا كان هذا مع الاتفاق في المذهب والمعتقد فما ظنك بما يكون مع الاختلاف في المذهب والاتفاق في التسمي باسم واحد، إما باعتبار الاعتقاد، أو باعتبار أمر آخر، كأهل المذاهب الأربعة، فإنهم اختلفوا في المذاهب مع اتفاقهم على أنهم أهل السنة واشتراك غالبهم في اعتقاد قول الأشعري، فإن دائرة الأهوية حينئذ تتسع ومحبة العصبية تكثر كما تراه كثيرًا في تراجم بعضهم لبعض، خصوصًا فيما بين الحنابلة ومن عداهم من أهل المذاهب الأربعة، وكذلك فيما بين الحنفية ومن عداهم، ومن نظر في ذلك بعين الإنصاف علم بالصواب دع عنك ما يقع مع الاختلاف في المذاهب والمعتقدات فإنه يبلغ الأمر إلى عداوة فوق عداوة أهل الملل المختلفة، فطالب الإنصاف لا يلتفت إلى شيء مما يقع من الجرح والتعديل بالمذاهب والنحل، فيقبلون جميعًا إلا أن يكون ما جاء به المذهب مقويًا لبدعته، أو كان على مذهب لا يرى بالكذب فيه بأسًا كما هو عند غلاة الرافضة، وأما ما عدى الجرح والتعديل بالمذاهب والمعتقدات فإن كان المتكلم في ذلك بريئًا عن المذهب والتعصب كما يروى عن السلف قبل انتشار

المذاهب. فاحرص عليه واعمل به على اعتبار صحة الرواية وصدوره في الواقع وأما باعتبار كونه جارحاً أو غير جارح، فذلك مفوض إلى نظر المجتهد والذي ينبغي التعويل عليه أن القادح إن كان يرجع إلى أمر يتعلق بالرواية كالكذب فيها وضعف الحفظ والمجازفة، فهذا هو القادح المعتبر، وإن كان يرجع إلى شيء آخر فلا اعتداد به وإن كان المتكلم متلبساً بشيء من هذه المذاهب، فهو مقبول في جرح من يجرحه من الموافقين له، وتركية من يزكيه من المخالفين له، وأما ما جاء بما يقتضي تعديل الموافق وجرح المخالف فهذا مما ينبغي التوقف فيه حتى يعرف من طريق غيره أو يشتهر اشتهاراً يقبله سامعه..). اهـ

فالواجب قبول خبر الثقة على ما تقدم بيانه، ولا يكون الجرح للهوى وحظ النفس، بل يكون الجرح ديانة وصيانة للمنهج القويم، ويقوم به أهله، فلا يكون التبديع والتفسيق والتكفير للطلاب والمبتدئين، وإنما يكون للعلماء المميزين أصحاب البر والتقوى والعلم والروع، فكما أن إقامة الحدود حق للحكام ونوابهم من الأمراء والقضاة، فكذلك مسألة التبديع والتفسيق والتكفير حق للعلماء، وطلاب العلم تبع لهم، ينقلون أخبارهم ويشيعونها بين الناس ويأخذون بها؛ لأنها أخبار ثقات لا يجوز ردها. والكلام حول منهج أهل السنة والجماعة في باب الجرح والتعديل وأهميته يطول، لكن من اراد الوقوف على كثير من أدلتها فليرجع إلى كتب الشيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فقد ضمن كتاب «المخرج من الفتنة» وكتاب «الإلحاد الخميني في أرض الحرمين» وكتاب «نشر الصحيفة في أقوال العلم في أبي حنيفة» وكتاب «صعقة الزلزال في نفس أهل الرفض والاعتزال» الكثير من الأدلة، والحمد لله.

والقول بمذهب الموازنات بدعة مقيتة، تدعو إلى تمييع الدين، والرضا عن المبتلين، وكما يقال: (وتغمر سيئات المخالف في حسناته) وهذه القاعدة البدعية يستخدمها أصحاب حوارات الأديان، وتقارب الحضارات، ودعاة التعايش، ودعاة البدع، وكل مبطل لا يجب أن تذكر سيئاته، فيحذر بل يجب أن يذكر بهذا وهذا فيميج جرحه.

وهذه القاعدة من القواعد الهدامة لمنهج أهل السنة القويم في باب جرح أهل البدع وبيان عوارهم، وقد تنكر لها العلماء لخطرهما وضررها؛ لأن المراد بجرح أهل الباطل التحذير من شرورهم، لا الإشادة بأفكارهم، وحين تذكر المبتطل فتقول: عنده كذا وكذا من الخير وكذا وكذا، إلا أن عنده كذا من الباطل، يقول الناس: سهل! الرجل عنده خير، ثم ينطلي الشر، وهكذا.

وأما من احتج بما هو مذكور في كتب التراجع، فلا حجة له فيه؛ لأن هذه تكتب ما للرجل وما عليه. أما كتب الجرح فإنما يذكرون باطله ليحذر. وقد أنكر هذه القاعدة من المتأخرين من أهل الشأن الإمام ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، والألباني، والعثيمين، والشيخ مقبل الوادعي، والشيخ ربيع المدخلي، والشيخ يحيى الحجوري، والشيخ الفوزان، وكل سلفي نصوح، قال الشيخ ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: المعروف في كلام أهل العلم نقد المساوي للتحذير وبيان الأخطاء التي أخطئوا فيها؛ للتحذير منها، أما الطيب فمعروف مقبول، لكن المقصود التحذير من أخطائهم. اهـ

وقد وصف الشيخ الألباني وشيخنا مقبل - رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى - منهج الموازنات بالبدعة.

وراجع للفائدة كتاب الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي «منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف»، وكتاب «الثوابت المنهجية» للشيخ يحيى بن علي الحجوري حفظ الله الجميع.

قال الشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - في «المحجة البيضاء» (306/5) مع «المجموع»: إن القول بمنهج الموازنات في نقد أهل الباطل يؤدي إلى مفسد كبيرة وخطيرة جدًا، أهمها:

1- تجهيل السلف.

2- رميهم بالظلم والجور.

3- تعظيم البدع وأهلها، وتحقير أئمة السلف وما هم عليه من السنة والحق.

أما رميهم بالجهل فإن هذا المنهج لو كان له هذه المنزلة في الإسلام لرأيت السلف الصالح أشد الناس التزامًا وأشد الناس له تطبيقًا في كل أقوالهم في القريب والبعيد...

وأما رميهم بالظلم والجور فإن أقوالهم وكتبهم لتزخر بالجرح الخالص المجرد من الموازنات، فماذا يقال فيهم وفي مؤلفاتهم التي هذا واقعها، والتي تضاد هذا المنهج؟؟!! فلا مناص من واحد من أمرين: إما أن نقول: إن نقدهم وجرحهم المجر من ذكر الحسنات قائم على الحق والعدل والنصح والعلم والورع والخشية لله رب العالمين وحماية دين الله وسنة رسوله ﷺ، وهم أهل عدل وإنصاف، ومنهجهم قائم

على الحق وعلى الكتاب والسنة وقواعد الإسلام وعقائده الصحيحة، وبهذا القول والتقرير يسقط المذهب المبتدع المخترع: (مذهب وجوب الموازنات بين الحسنات والسيئات).

وإما أن يقال: إن نقدهم المجرد من ذكر الحسنات والمقتصر على ذكر الجرح والسيئات قائم على الجور والظلم، ومهجهم قائم الغش والجهل وعدم الورع والخشية لرب العالمين، بعيد عن منهج الكتاب والسنة، بعيد عن شريعة الله العادلة، بعيد عن أصول الإسلام وقواعده الأصلية، فيكونون بهذا أظلم الخلق، وأبعدهم عن العدل. اهـ

قال الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «تحفة المجيب» ص(166): فمسألة الموازنة بين الحسنات والسيئات لا نقبلها مطلقاً ولا نردها مطلقاً، لكن حزبي يدعو إلى الحزبية وينفق الأموال الطائلة من أجل الحزبية فلا نذكر حسناته ولا كرامته.

وقال: القوم يعرفون أنهم مجروحون فهم يريدون أن يسترخوا على أنفسهم، وأقول: المبتدع الضال لا تذكر حسناته ولا كرامته، وهكذا الكافر. أما المحب للخير ولكنه أخطأ في بعض الأشياء فلا بأس أن تذكر بعض حسناته مثل أبان بن أبي عياش إذ قال بعض معاصريه: إنه إذا حدث أتى بأمر عظيم. وله من الفضل والعبادة، فستل بعض معاصريه فقال: اذكر ما فيه من الخير، وحذر عنه أن يقبل حديثه. اهـ

وقال في «فضائح ونصائح» ص(151): الذين نتكلم فيهم يقولون: اذكر الحسان والسيئات؛ من أجل أن يكون رفعة لهم، فلا نذكر الحسنات والسيئات إلا في مثل الشيخ ابن باز، والشيخ الألباني، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ عبدالمحسن

العباد، والشيخ ربيع بن هادي، وغيرهم إذا حصل منهم سيئات نذكرها ونذكر الحسنيات التي لهم، وأمثال هؤلاء المشايخ الأفاضل، أما شخص مبتدع يجادل عن البدعة صباح مساء، فلا نذكر له حسنة ولا كرامة. اهـ

116- عدم الرجوع إلى العلماء الراسخين:

الله عز وجل يقول ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث: «شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»، والعلماء يعرفون الفتنة وهي مقبلة والجهال لا يعرفونها إلا إذا أدبرت فمن لزم غرز العلماء والناصحين مسترشداً مبتغياً للحق وفق بعون الله عز وجل.

قال ابن القيم في «الداء والدواء» ص(19): (وقد جعل النبي الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء، فروى أبوداود في «سننه» من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه، ثم احتلم فسأله أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله أخبر بذلك فقال: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيْمَّمَ وَيَعْصَرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ» أخرجه أبوداود (336) فأخبر أن الجهل داء وأن شفاء السؤال. اهـ

وليس معنى ذلك أن تصل إلى التقليد أو تفعل كما فعل بعضهم لا تقبل الطعن في المبتدع حتى يجمعوا عليه، بل قد يكون الحق مع واحدٍ منهم فالزم الحق بدليله، ولازم العلماء المميزين للحق الداعين إليه المحذرين من خلافه.

117- غربة أهل السنة:

كثير من الناس يتميعون نظراً لغربة أهل السنة والجماعة؛ لأنه مغترٌ بالكثرة ولا صبر له على السير مع هذا الصنف الذي قال الرسول ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ» أخرجه الترمذي (2260) عن أنس رضي الله عنه. ولا غضاضة في غربتهم، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (1394)، ومسلم (208) وفيه: «فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَ الرَّجُلِ وَالنَّبِيُّ مَعَ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَ الرَّهْطِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَ أَحَدٍ». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» أخرجه مسلم (145).

وقد تقدم الكلام على افتتان كثير من الناس بالكثرة، فلا داعي للتكرار.

118- عدم تأثير مخالفة المنهج إذا صحت العقيدة:

وهذه قاعدة تميعية خبيثة نادى بها الحزبيون الجدد من السرورية والقطبية حيث يقولون: نعتقد أن الله في السماء، وأن الله يرى يوم القيامة، وهكذا، ولكنهم مع ذلك حزبيون مميّعون مبتدعون. فالحذر من هذه الأفكار الدخيلة على الدعوة السلفية.

وكان شيخنا الوادعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إذا سئل عن المنهج يقول: منهجنا الكتاب والسنة.

وقال الشيخ ربيع - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «الموسوعة» (1/459): (قضية التفريق بين العقيدة والمنهج جاءت في هذا العصر، الناس لم يكونوا يفرقون بين العقيدة والمنهج، ولكن جاءت الفتن فاضطر بعض أهل السنة إلى التفريق بين العقيدة والمنهج، لكن الشيخ ابن باز لا يفرق بين العقيدة والمنهج، فيقول: كله واحد).

وأنا اضطررت أن أقول: العقيدة أوسع من المنهج؛ لأن العقيدة تدخل في المنهج، منهج أهل السنة والجماعة في الاعتقاد، في الأسماء والصفات، كما جاء في الكتاب والسنة: منهج أهل السنة كذا، ومنهج أهل السنة في الاستدلال كذا، ومنهج أهل السنة في الأخبار كذا. هذا هو منهجهم، كيف يستدلون هذا المنهج، كيف يتلقون الأخبار، هذا المنهج. اهـ

وقال حفظه الله في «المجموع» (490/14): (أنا سمعت الشيخ ابن باز لا يفرق بين العقيدة والمنهج، ويقول: كلها شيء واحد، والشيخ الألباني يفرق، وأنا أفرق، أرى أن المنهج أشمل من العقيدة، فالمنهج يشمل العقيدة ويشمل العبادات، ويشمل كيف تتفقه، ويشمل كيف تنتقد، ويشمل كيف تواجه أهل البدع، فالمنهج شامل، منهج أهل السنة في العقيدة، منهجهم في العبادة، منهجهم في التلقي. اهـ

وقال - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - (491/14): (صحة العقيدة تؤدي إلى صحة المنهج، والخلل في العقيدة يؤدي إلى فساد في المنهج. اهـ

وسئل - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - كما في «المجموع» (494/14): (هل يصح التفريق بين العقيدة والمنهج، كأن يقول: سلفي عقيدة، حركي منهجاً؟ فقال: لا يصح هذا التفريق، وهذا تفريق قبيح وتمزيق للدين، كيف يا أخي تترك المنهج السلفي وتصبح عدواً له وتقول: أنا سلفي؛ لأن هذا المنهج الذي تأخذ به حرب على المنهج السلفي وعلى العقيدة السلفية. اهـ

119- العاطفة:

الواجب على المسلم أن يكون منقاداً للكتاب والسنة ولا يكون عاطفياً فقط؛ لأن العاطفة قد تجر إلى اعتقاد الباطل والسكوت على الباطل، والرضا به؛ ولهذا إذا

تأملت سبيل المؤمنين الأولين تجد أنهم كانوا بعيدين عن العاطفة المجردة، ففي البخاري (6788)، ومسلم (1688) من حديث عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - لما سرقت المرأة المخزومية واستشفعوا بأسامه، غضب النبي ﷺ وقال: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، فالعاطفة شيء والحكم الشرعي شيء آخر، فلا تمل إلى الحزبية من أجل أن صاحبك حزبي، وأن والديك كذلك، هذا لا يصلح شرعاً ولا عقلاً، فتنبه!!!

120- مشابهة المشركين:

من أسباب التمييع لدى المسلمين هو مشابهة المشركين الذين نهانا الله عز وجل عن مشابهتهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: 32]

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا. وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلَاءِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ». أخرجه مسلم (1715) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. فنهى الله عز وجل عن مشابهة المشركين عموماً، وفي الفرقة خصوصاً.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم»: (فنحن نذكر من آيات الكتاب ما يدل على أصل هذه القاعدة في الجملة، ثم نتبع ذلك الأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات بعدها).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٦﴾ وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الجاثية: 16-19].

أخبر سبحانه أنه أنعم على بني إسرائيل، بنعم الدين والدنيا، وأنهم اختلفوا بعد مجيء العلم بغياً من بعضهم على بعض). اهـ

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿[البقرة: 120].

قال ابن كثير رحمه الله (1/168): (فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن طرائق اليهود والنصارى، بعدما علموا من القرآن والسنة، عياداً بالله من ذلك، فإن الخطاب لرسول الله ﷺ وأمته). اهـ

قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ثم جعل محمد ﷺ على شريعة من الأمر، شرعها له، وأمر باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه، ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون لو بذلوا ما لا عظيمًا ليحصل ذلك). اهـ

قلت: نعم والله، فهم ينفقون من أجل ترسيخ الديمقراطية، ونشر الفساد، والانتخابات، وتميع الدين مليارات الدولارات، فرحم الله شيخ الإسلام، كيف فطن لقصدهم، وهكذا هم أهل العلم، ولكن طمس الله قلوب كثير من الناس عن معرفة الحق، فالله المستعان.

وقال رحمه الله ص(18) [ط/ دار الحديث]: (ومن هذا الباب قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ﴾ [الرعد: 36]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37].

وقال رحمه الله ص(22): (فقال سبحانه في وصف المنافقين: ﴿يَاْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: 67]... وصف المؤمنين: ﴿يَاْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71]، وقال بإزاء: ﴿وَيَقِيصُوتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، وقوله في المؤمنين: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: 71].) اهـ

وقال رحمه الله ص(45): (ومما يدل عليه القرآن النهي عن مشافهتهم قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

وقال قتادة وغيره كانت اليهود تقوله: استهزاء فكره الله للمؤمنين أن يقولوا مثل قولهم.

ومن أراد أكثر فعليه بقراءة كتاب شيخ الإسلام «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم».

قال ابن كثير رحمه الله (1/153): عند تفسير هذه الآية، نهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وأفعالهم. اهـ

وقال رحمه الله أيضاً (1/153) بعد سوقه لحديث ابن عمر الذي أخرجه الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْيِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» (ففيه دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أفعالهم وأقوالهم ولباسهم، وأعيادهم وعبادتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا، ولم نقر عليها). اهـ

وقد جاءت أدلة كثيرة تحت على مخالفتهم في عباداتهم، نورد منها على سبيل الذكر لا الحصر حديث عمر بن عبسة رضي الله عنه عند الإمام مسلم (832) قال رسول الله ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ؛ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ» الحديث.

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري (5892)، ومسلم (259) قال: قال رسول الله ﷺ: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللَّحَى».

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (260) قال: قال رسول الله ﷺ: «جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللَّحَى، خَالِفُوا الْمَجُوسَ».

وقال ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ» أخرجه الإمام مسلم (2103) من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال ﷺ كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «فَصَلُّ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةَ السَّحْرِ» أخرجه مسلم (1096).

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند أبي داود (2353)، وهو في صحيح شيخنا مقبل رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ الدِّينُ ظَاهِرًا مَا عَجَلَ النَّاسُ الْفِطْرَ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخِّرُونَ».

وكانت اليهود إذا حاضت النساء لا يأكلوهن ولا يجامعوهن في البيوت، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. فقال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه. أخرجه مسلم (302) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله ص (62) في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم»: فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في جميع أمورهم، حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. اهـ

وأخرج الإمام مسلم (413) من حديث جابر رضي الله عنه قال: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَأَبُوبَكْرٍ يُسَمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ، فَالتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَأَانَا قِيَامًا، فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا، فَصَلَّيْنَا بِصَلَاتِهِ قُعُودًا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «إِنْ كِدْتُمْ أَنْفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ، يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ، فَلَا تَفْعَلُوا».

وقال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أخرجه البخاري (3445).

وقال الله تعالى محذراً النساء من التشبه بالجاهليات: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: 33].

وقال ﷺ في صيام يوم عاشوراء: «لَإِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأُصُومَنَّ التَّاسِعَ»، من حديث ابن عباس عند مسلم (1134)؛ وهذا من أجل مخالفة اليهود.

ورأي ﷺ على عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ثوبين معصفرين فقال: «أَأَمُّكَ أَمَرْتُكَ بِهَذَا؟». قُلْتُ: أَغْسِلُهُمَا؟ قَالَ: «بَلْ أَحْرِقْهُمَا». أخرجه مسلم (2077). وفي لفظ: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسُهَا» إلى غير ذلك من الأدلة.

وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه عند أن قال له: لو اشتريت هذه الحلة فلبستها في العيد أو الوفود؟ قال: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ» أخرجه البخاري (886)، ومسلم (2068). والذين يلبسونها هم الكفار.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرُوجَ حَرِيرٍ فَلَبِسَهُ ثُمَّ صَلَّى فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَتَزَعَهُ نَزْعًا شَدِيدًا كَالْكَارِهِ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِينَ» أخرجه البخاري (5801)، ومسلم (2075).

والأشهر من هذا مخالفتهم في القبلة، قال تعالى: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلُ بْنُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144].

ومما تقدم يظهر لك أن الله قد أمرنا بمخالفتهم في جميع أمور الدين؛ لأنهم على طريقة غير مرضية، وسبيل غير سوي، وصراط معوج، وفي هذا غنية لمن أراد الحق.

وقديماً قيل: (فساد الأبدان من نصف طيب) وهكذا فساد الدين يأتي من قبل هؤلاء الذين لم يتقنوا العلوم والفنون، والذين بضاعتهم مزجاة، فهؤلاء إن لم يكن عندهم من التواضع وحب الخير ما يكون سبباً في ثباتهم، فإنهم يُفسدون أكثر مما يصلحون، ويضرون أكثر مما ينفعون.

122- الجواسيس:

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:12]، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (5143)، ومسلم (2563): «لَا تَجَسَّسُوا»، فالتجسس على المسلمين وتتبع عوراتهم لا يجوز، والجواسيس هم متطلّبو الأخبار، أو ما يسمّون بالمخابرات، فهؤلاء من أسباب التميع عن المنهج السلفي، هذا ما تقوم به مخابرات المسلمين، أما ما تقوم المخابرات الأمريكية وغيرها فهو تميع الدين جملة وتفصيلاً، وشَرَّهم مستطير، وفعلهم خطير، حيث يندرجون ضمن دعوة أهل السنة والجماعة، حتّى إذا ما اشتهروا وعُرفوا انشقوا بأقوالهم المنحرفة وأرائهم المخالفة، وقد تكلمت عن شرّهم في مؤلّف مستقلّ بعنوان: «أحكام الجواسيس».

ومن طرق تمييعهم: بث الأحقاد والسعي بالنميمة والكذب لذلك، ومنها: الطعن في العلماء وإظهارهم بصورة المتشددين، ومنها: أن يقف أحدهم في صف هذا، والآخر مع هذا، حتّى يصلوا إلى بغيتهم، أعاذنا الله من شرورهم.

123- حط العلماء المخذولين من العلماء الربانيين:

وهذه طريقة ليست بالجديدة، بل هي طريقة قديمة سلكها أهل الباطل مع كل مصلح، قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [٥٢] ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذريات:52-53]، وقال الله عز وجل مخبراً عن قوم نوح حيث قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٦٠] ﴿قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:60-61]، وهكذا قوم عاد يقولون لنبيهم هود: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:66]، وهلم جرّاً في طريقة الكافرين في التحذي من ذروة العلماء وهم المرسلون، والخط من العلماء حط من الشريعة؛ لأنهم

حملتها، والناشرون لها، والمدافعون عنها، والذابون عن حياضها، وكثير من المبطلين لا يستطيع الطعن في الدين رأساً فيطعنون في حملته والمدافعين عنه، والله عز وجل قد حكم على من طعن في الصحابة الذين عم حجة الدين بالكفر، فقال: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: 65]-66﴾، هذا إذا كان الداعي للسخرية منهم الدين الذي يحملونه. والطعن في حملة الكتاب والسنة هو علامة أهل البدعة، فمن علامة المبتدعة الوقعة في أهل الأثر على ما هو مقرر في موطنه، وقد تكلمت عن هذه المسألة في كتابي «الخيانة الدعوية»، فقلت: (وستعرف فيما يأتي خطر التكلم فيهم، والإضرار بهم، وتحقيرهم، فضع نفسك حيث شئت مع النجوم في السماء تضيء في الظلماء، أو مع الجعلان في القوائم والقاذورات، أو في أحوال الماء).

قال الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» ص(153): (قال قتيبة بن سعيد: (إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث، مثل يحيى بن سعيد القطان، وعبدالرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وذكر قوما آخرين، فإنه على السنة، ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع).

وقال: الاستدلال على المبتدعة بيبغض الحديث وأهله.

قال لي الأوزاعي: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يبغضون حديث نبيهم؟ قلت: قوم سوء قال: ليس من صاحب بدعة تحدّثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعته بحديث إلا أبغض الحديث.

قال أحمد بن سنان القطان: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث فإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه).

قال أبونصر بن سلام الفقيه: (ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد، ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناده).

وقال أبوإسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي، عند أبي عبدالله أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبدالله ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقام أبو عبدالله، وهو ينفض ثوبه، فقال: (زنديق، زنديق، زنديق) ودخل بيته.

قال أبو عبدالله الفقيه: إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار، وأبا محمد البرهاري، فاعلم أنه صاحب سنة. اه انظر «طبقات الحنابلة» (2/58).

وقال البرهاري في «شرح السنة»: (وإذا رأيت الرجل يحب أبا هريرة، وأنس بن مالك، وأسيد بن حضير، فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله، وإذا رأيت الرجل يحب أيوب، وابن عون، ويونس بن عبيد وعبدالله بن إدريس الأودي، والشعبي، ومالك بن مغول ويزيد بن زريع، ومعاذ بن معاذ، ووهب بن جرير، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، ومالك بن أنس والأوزاعي، وزائدة بن قدامة، فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، والحجاج بن المنهال، وأحمد بن نصر، وذكرهم بخير، وقال قولهم فاعلم أنه صاحب سنة). اه

قال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (8/65): (جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال حسين الكرابيسي: كلام الله غير مخلوق، فقال له الرجل: فما تقول في لفظي بالقرآن؟ فقال له حسين: لفظك بالقرآن مخلوق، فمضى الرجل إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسينا قال له: إن لفظه بالقرآن مخلوق، فأنكر ذلك وقال: هي بدعة، فرجع الرجل إلى حسين

الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد بن حنبل لذلك، وقوله هذا بدعة، فقال له حسين: تلفظك بالقرآن غير مخلوق، فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وأنه قال: تلفظك بالقرآن غير مخلوق، فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضًا، وقال: هذا أيضًا بدعة، فرجع الرجل إلى أبي علي حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد ابن حنبل وقوله: هذا أيضًا بدعة، فقال حسين: أيش نعمل بهذا الصبي؟! إن قلنا مخلوق قال بدعة، وإن قلنا غير مخلوق قال بدعة، فبلغ ذلك أبا عبدالله، فغضب له أصحابه، فتكلموا في حسين، وكان ذلك سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك). اهـ

وقال (64/8): (قال يحيى بن معين - وقيل له: إن حسينًا الكرابيسي يتكلم في أحمد بن حنبل - قال: ما أحوجه أن يضرب).

وقال يحيى بن معين - وقيل له: إن حسينًا الكرابيسي يتكلم في أحمد بن حنبل - فقال: ومن حسين الكرابيسي؟! لعنه الله! إنما يتكلم في الناس أشكاهم، ينطل حسين ويرتفع أحمد، قال جعفر: ينطل يعني ينزل، وهو الدردي الذي في أسفل الدن). اهـ

وقال أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي كما في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي»: (مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان، وترك النظر في موضع بدعهم، والتمسك بمذهب أهل الأثر مثل أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وأبي عبيد القاسم بن سلام، والشافعي. ولزوم الكتاب والسنة، والذب عن الأئمة المتبعة لآثار السلف، واختيار ما اختاره أهل السنة من الأئمة في الأمصار مثل: مالك بن أنس في المدينة، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر، وسفيان الثوري، وحامد بن زياد

بالعراق من الحوادث مما لا يوجد فيه رواية عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين. وترك رأي الملبسين المموهين المزخرفين الممخرقين الكذابين، وترك النظر في كتب الكرابيسي، ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه وشاكر فيه مثل داود الأصبهاني وأشكاله ومتبعيه.. وعلامة أهل البدع الوقعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابذة. وعلامة القدريّة أن يسموا أهل السنة مجبرة. وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية. ويريدون إبطال الآثار عن رسول الله ﷺ. وفقنا الله وكل مؤمن لما يحب ويرضى من القول والعمل، وصلى الله على محمد وآله وسلم). اهـ

وقال أبوزرعة: (وعلامة أهل البدع الوقعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية يريدون إبطال الآثار. وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة القدريّة تسميتهم أهل الأثر مجبرة. وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية. وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة. ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء).

وقال ابن أبي حاتم: (سمعت أبي يقول: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلموا أنه صاحب سنة).

وقال ابن أبي حاتم: (وسمعت أبا جعفر محمد بن هارون المخرمي الغلاس يقول: إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل، فاعلم أنه مبتدع).

وقال أبويعلى الموصلي: (سمعت أحمد بن إبراهيم الدورقي يقول: من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهموه على الإسلام).

وقال أبو الحسن علي بن محمد المطيري: (سمعت أبا الحسن الطرخاباذي الهمداني يقول: أحمد بن حنبل محنة، به يعرف المسلم من الزنديق).

وقال أبو حاتم الرازي: (إذا رأيت البغدادي يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت يبغض يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب).

وقال محمد بن هارون الفلاس: (إذا رأيت الرجل يقع في يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب يضع الحديث، وإنما يبغضه لما يبين من أمر الكذابين). اهـ من «تهذيب الكمال».

وقال: أحمد بن سنان القطان: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه).

وقال أبو نصر أحمد بن سلام الفقيه: (ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد) قال: أبو عبد الله: وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة، ويسميها الحشوية، سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق الفقيه وهو يناظر رجلاً، فقال: الشيخ: حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدثنا، إلى متى حدثنا، فقال له الشيخ: قم يا كافر، ولا يحل لك أن تدخل داري بعد هذا، ثم التفت إلينا، فقال: ما قلت قط لأحد لا تدخل داري إلا لهذا.

قال يحيى بن معين: (إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة، وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام).

وكان أحمد بن حنبل يقول: (إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام، فإنه كان شديداً على المبتدعة).

وقال الأسود بن سالم: (إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام). اهـ من «تهذيب الكمال».

وقال أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (449هـ): (وَعَلَامَاتُ الْبِدْعِ عَلَى أَهْلِهَا ظَاهِرَةٌ بَادِيَةٌ، وَأَظْهَرُ آيَاتِهِمْ وَعَلَامَاتِهِمْ: شِدَّةُ مُعَادَاتِهِمْ لِحِمْلَةِ أَخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاحْتِقَارُهُمْ لَهُمْ، وَتَسْمِيَّتُهُمْ إِيَّاهُمْ حَشَوِيَّةً، وَجَهْلَةً، وَظَاهِرِيَّةً، وَمُشَبَّهَةً؛ اعْتِقَادًا مِنْهُمْ فِي أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا بِمَعْزِلٍ عَنِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ إِلَيْهِمْ، مِنْ نَتَائِجِ عُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَوَسَاوِسِ صُدُورِهِمُ الْمُظْلِمَةِ، وَهَوَاجِسِ قُلُوبِهِمُ الْخَالِيَةِ عَنِ الْخَيْرِ الْعَاطِلَةِ، وَحُجَجِهِمْ -بَلْ شُبَّهِهُمْ- الدَّاحِضَةِ الْبَاطِلَةِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. اهـ

قال الشيخ يحيى بن علي الحجوري -حفظه الله تعالى:-

(من علامة أهل الزيغ: الوقوعة في أهل السنة جملة وتفصيلاً). قاله ليلة 13 ذي القعدة 1428هـ (انتهى النقل مختصراً من كتابي «الخيانة الدعوية»).

قال الشوكاني في «أدب الطلب» ص(51-52): (وبالجملة، فمن كان بهذه المنزلة فهو ممن طبع الله على قلبه وسلبه نور التوفيق، فعمى عن طريق الرشاد، وضل عن سبيل الحق، ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه، ولا يستأهل الاشتغال به، فإنه وإن كان في مسلاخ إنسان، وعلى شكل بني آدم، فهو بالدواب أشبه، وإليها أقرب، ويا ليت لو كان دابة ليسلم من معرفته عباد الله وشريعته، ولكن هذا المخذول مع كونه حماري الفهم، بهيمي الطبع، قد شغل نفسه بالخط على علماء الدين المبرزين المشتغلين بالكتاب والسنة وعلمهما وما يوصل إليهما، وعاداهم أشد العداوة،

وكافحهم بالمكروه مكافحة، ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق؛ بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل. اهـ

124- الجامعات والمدارس الاختلاطية والمبتدعة ومعاهد اللغات:

وهذه دورها في غاية من الخطورة، من حيث إنها تبث سمومها وأفكارها بين الطلاب والطالبات، فينشئون على الميوعة في الدين، والتقارب مع المبطلين، ومن المعلوم أن جامعات ومدارس العالم لا تدرس الكتاب والسنة، وإنما تدرس الأفكار المنحرفة والنظريات المخالفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ ولذلك تجد في هذه المدارس التركيز على المواد الفلسفية والعلوم الدنيوية وتنحية العلوم الشرعية، وغير ذلك من الطعن في الدين والدعوة إلى الأخوة والمساواة من غير تمييز بين صالح وطالح، وبر وفاجر، بل ومن سبلها أنهم ينظرون إلى الأذكى من الرجال والنساء فيرسلونهم إلى بلاد الكفار فيختلطون بالكفار ويأخذون من أخلاقهم ومعاملاتهم، فما يرجعون إلا وقد ضاعوا وماعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكثير من الناس يفرح إذا أرسل ولده منحة إلى الدول الكافرة، مقابل بعض الدولارات يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، فالحذر الحذر على الدين من هؤلاء المميعين ومن طرقهم الملتوية، ومن أراد العلم فليطلبه عند أهله من أهل السنة والجماعة، وإن احتاج المسلمون إلى علم دنيوي فيه مصلحة للمسلمين فليبحث ولي الأمر من لديه دين يمنع من الشهوات، وعلم يمنع من الشبهات، والحمد لله رب العالمين.

125- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

من المعلوم أن الأحاديث الموضوعة وضعتها الزنادقة من أجل الطعن في الدين، ولهذا كثير من الناس يعملون بمثل هذه الأحاديث فيقعون في التمييع؛ لأن

الأحاديث من عند غير الله، وما كان من عند غير الله وجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وإنما يعمل المسلم بما صح عن النبي ﷺ؛ لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وحي يوحى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:4]، ثم كذلك الأحاديث الضعيفة لا يجوز العمل بها، لا فضائل الأعمال، ولا غيرها من المواطن؛ إذ لو كانت من الشرع لحفظها الله عز وجل؛ لأن الله قد قال وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، وكم أحلت هذه الأحاديث من حرام وحرمت من حلال، وتكلف الناس بما لم يشرعه الله عز وجل ولا رسوله ﷺ وبسببها ظهرت كثير من البدع والمخالفات الشرعية.

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(44): (وبالجملة فمن عرف الفنون وأهلها معرفة صحيحة لم يبق عنده شك أن اشتغال أهل الحديث بفنهم لا يساويه اشتغال سائر أهل الفنون بفنونهم ولا يقاربه بل لا يعد بالنسبة إليه كثير شيء، فإن طالب الحديث لا يكاد يبلغ من هذا الفن بعض ما يريده إلا بعد أن يفنى صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته فيه ويطوف الأقطار ويستغرق بالسماع والكتب الليل والنهار، ونحن نجد الرجل يشتغل بفن من تلك الفنون العام والعامين والثلاثة فيكون معدوداً من محققي أهله ومتقنيهم، فما بالكم أيها المقلدة إذا أردتم الرجوع إلى فن السنة لم تصنعوا فيه كما تصنعونه في غيره من الرجوع إلى أهل الفن وعدم الاعتداد بغيرهم؟! وهل هذا منكم إلا التعصب البحت والتعسف الخالص والتحكم الصرف؟! فهلا صنعتكم في هذا الفن الذي هو رأس الفنون وأشرفها كما صنعتكم في غيره فرجعتكم إلى أهله وتركتم ما تجدونه مما يخالف ذلك في مؤلفات المشتغلين بالفقه الذين لا يفرقون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب كما يعرف ذلك من يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان). اهـ

كم من البلاء العظيم الذي تجرّه المؤلفات المبنية على التقليد أو الهوى أو التأويل الفاسد، حيث يتصدر التأليف من لا يحسنه، ويتكلم فيما ليس له به علم، ويهرف بما لا يعرف، وهذا والله من الحرام الذي قرنه الله عز وجل بالشرك، فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ أُولَٰئِكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْتِ نَزْفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَدَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]، وكم نرى من كتب ومطويات ورسائل لا يحسن أصحابها شيئاً، ومن يكتب في هذه الأيام ويُعجب الناس الرعاع والهمج بكتابته كثير لا يحرصون، لكن نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر عمرو خالد الزنديق الضال الذي مؤلفاته تميع الدين، وعائض القرني المتلون، وفتحي يكن المنظر الإخواني، وغيرهم كثير - لا كثرهم الله - ومن المؤلفات التمييزية للمنهج السلفي كتاب «منهج السلف الصالح في الجرح والتعديل» للحلبي، وكتاب «الدفاع عن أهل الاتباع» لأبي الحسن المأربي المصري، وكتاب «الإبانة عن كيفية التعامل مع الخلاف بين أهل السنة والجماعة» للشيخ الإمام، وكتاب «رفقاً أهل السنة بأهل السنة» للعباد، وكتاب «تصنيف الناس بين الظن واليقين» لبكر أبوزيد، وغيرها كثير.

قال الشوكاني رحمه الله في كتابه «أدب الطلب» ص(47-50): (وإما إذا كان الناقل من غير أهل الفن لا يدري أن من نقل عنه لا تمييز له، فهذا جاهل ليس بأهل لأن يتكلم على أحكام الله، فاستحق العقوبة من الله بإقدامه على الشريعة، وهو بهذه المنزلة التي لا يستحق صاحبها أن يتكلم معها على كلام فرد من أفراد أهل العلم، فكيف على كلام الله ورسوله، فبعداً وسحقاً للمتجرئين على الله وعلى شريعته

بالإقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم. وقد كثر هذا الصنع من جماعة يبرزون في معرفة مسائل الفقه التي هي مشوبة بالرأي إن لم يكن هو الغالب عليها، ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم، ثم تكبر أنفسهم عندهم لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم وأخذ العامة بأقوالهم في دينهم، فيظنون أنهم قد عرفوا ما عرفه الناس، وظفروا بما ظفر به علماء الشريعة المتصدرون للتأليف والكلام على مسائل الشريعة، فيجمعون مؤلفات هي مما قمشت، وضمَّ حَبْلُ الحاطب وصُنْعَ من لا يدري لمن لا يفهم، ثم يأخذها عنهم من هو أجهل منهم وأقصر باعاً في العلم، فينشر في العالم وتظهر في الملة الإسلامية فاقرة من الفواقِر وقاصمة من القواصِم، وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب إلى الله بأعظم القرب وتاجر به بأحسن متاجرة، وهو فاسد الظن باطل الاعتقاد مستحق لسخط الله وعقوبته؛ لأنه أقدم في محل الإحجام وتحلى بما ليس له ودخل في غير مدخله ووضع جهله على أشرف الأمور وأعلاها وأولاها بالعلم والإتقان والتمييز وكمال الإدراك. فهذا هو بمنزلة القاضي الذي لا يعلم بالحق فهو في النار سواء حكم بالحق أو بالباطل بل هذا الذي أقدم على تصنيف الكتب وتحرير المجلدات في الشريعة الإسلامية مع قصوره وعدم بلوغه إلى ما لا يبد لمن يتكلم في هذا الشأن منه أحق بالنار من ذلك القاضي الجاهل؛ لأنه لم يصب بجهل القاضي الجاهل مثل ما أصيب بمصنفات هذا المصنف المقصر). اهـ

127- طعن أهل الباطل في علماء السنّة وحملتها والإشادة بعلماء البدعة:

وهذا هو الحاصل من كان من المبطلين سمّوه شيخ الإسلام وإن كان من أجهل الناس، ومن كان سلفياً وصموه بالجهل وإن كان من أفقه الناس، لا إله إلا الله! كيف تتقلب الحقائق، لكن لا غرو فالرسول ﷺ يقول: «قَبْلَ السَّاعَةِ سُنُونَ

خَدَاعَةً، يُكَذِّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ» أخرجه أحمد (320/3) عن أنس رضي الله عنه.

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(55): (ومن هذا الجنس الذي يفعله أهل التعصب فرارهم عن علماء الإنصاف وطعنهم على من اتصل بهم أو أخذ عنهم وتحذيرهم للعامة وللطلبة عن مجالسة من كان كذلك وإخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ويخرجهم عما هم فيه من المذهب الذي هم عليه. ثم يذكرون عند هذا التحذير والإنذار مطاعن يطعنون بها على ذلك العالم لمجرد سماعها يثور غضب كل مسلم ويلتهب طبع من يسمع ذلك كائنًا من كان، فيقولون مثلاً لذلك العامي أو الطالب: هذا العالم الذي تتصل به يبغض علي بن أبي طالب ويبغض أهل البيت أو نحو هذه العبارات الفظيعة، فعند سماع ذلك تقوم قيامة هذا المسكين، وليس بملوم، فإنه جاهل جاء إليه من له ثياب أهل العلم وسمتهم وشكلهم، فقال له إن ذلك العالم يعتقد كذا أو يقول كذا، فصدقه، فالذنب محمول على ذلك القائل، ولا يكون إلا من أهل تلك الطبقة التي هي منشأ الشر ومنبع الفتنة. وقد اشتهر على ألسن الناس في صنعاء وما يتصل بها أن العلماء المجتهدين ومن يأخذ عنهم ويتصل بهم في هذه العصور يقال لهم: سنية، وهذا هو اللقب الذي يتنافس فيه المتنافسون، فإن نسبة الرجل إلى السنة تنادي بأبلغ نداء، وتشهد أكمل شهادة بأنه متلبس بها، ولكنه لما صار في اصطلاح هؤلاء المتعصبة يطلق على من يعادي علياً ويوالي معاوية؛ افتراء منهم على أهل العلم، واجترأ على المسلمين، استصعب ذلك من استصعبه عند إطلاقه عليه في ألسن هؤلاء الذين هم بالدواب أشبه. ولم أجد ملة من الملل ولا فرقة من الفرق الإسلامية أشد بهتاً وأعظم كذباً وأكثر افتراءً من الرافضة؛ فإنهم لا

يبالون بما يقولون من الزور كائنًا من كان، ومن كان مشاركًا لهم في نوع من أنواع الرفض وإن قل كان فيه مشابهة لهم بقدر ما يشاركونهم فيه. اهـ

128- تظاهر دعاة التميع بالعلم والتحقيق:

هذا يقع بسببه ضلال بعيد، وبُعد عن الحق، وفكرٌ غير سديد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب»: (ومن الآفات: ما يقع تارة من الشيوخ وأخرى من تلامذتهم، فإن الشيخ قد يريد التظاهر لمن يأخذ عنه بأنه بمحل من التحقيق، وبمكان من الإتيان، فيحمله ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمه إلى الباطل؛ لئلا يظن من يأخذ عنه أنه يخطئ ويغلط، وهو لو عرف ما عند ذلك الذي يأخذ عنه العلم أن رجوعه عن الخطأ إلى الصواب أعظم في عينه وأجل عنده، وزاده ذلك رغبة فيه ومحبة له، وإذا استمر على الغلط وصمم على الخطأ كان عنده دون منزلة الرجوع إلى الحق بمنازل، وهكذا التلميذ قد يخطر بباله التزين لشيخه والتجمل عنده، بأنه قوي الفهم، سريع الإدراك، صادق التصور، فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ والتشبث بها دفع له من الغلط). اهـ

وكذا كل مبطل يحاول نشر باطله فإنه يتستر بلباس أهل الحق، ولكن الله عز وجل لهم بالمرصاد، وقديًا قيل:

مَنْ تَزَيَّا بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَصَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ

وقبل ذلك قول الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ [محمد: 29].

129- الاغترار بالأسماء:

وهذا يقع كثيرًا لاسيما في هذا الزمن الذي تقلبت فيه الحقائق، وكثر فيه مروجي الباطل، فأهل البدع ينمقون بدعهم بالألقاب التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فيسمّون الرفض حبّ آل البيت، ونفي الصفات توحيدًا، ونفي القدر عدلًا... وهكذا دواليك.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(128-129): (ومن جملة ما ينبغي له استحضاره: أن لا يغتر بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها، فقد يسمى الشيء باسم شرعي وهو ليس من الشرع في شيء، بل هو طاغوت بحت؛ وذلك كما يقع من بعض من نزع عرق إلى ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث الإناث، فإنهم يخرجون أموالهم أو أكثرها أو أحسنها إلى الذكور من أولادهم بصورة الهبة والنذر والوصية أو الوقف، فيأتي من لا يبحث عن الحقائق فينزل ذلك منزلة التصرفات الشرعية؛ اغترارًا منه بأن الشارع سوغ للناس الهبة والنذر والوصية، غير ملتفت إلى أن هذا لم يكن له من ذلك إلا مجرد الاسم الذي أحدثه فاعله، ولا اعتبار بالأسماء بل الاعتبار بالمسميات، فاهبة الشرعية هي التي أرشد إليها النبي ﷺ لما سأله بشير والد النعمان عن تخصيص ولده النعمان بشيء من مال، وطلب منه أن يشهد على ذلك، فقال: «لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ»، ووقع منه الأمر بالتسوية بين الأولاد. وهو حديث صحيح له طرق متعددة). اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في «الصواعق المرسلة» (2/435-441): (الأسباب التي تسهل على النفوس الجاهلة قبول التأويل مع مخالفته للبيان الذي علمه الله الإنسان وفطره على قبوله...)

أن يأتي به صاحبه مموها مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسواً حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه، ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمد به كل من أراد ترويح باطل فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]، فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به؛ لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها. وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك، حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر، التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عدل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلىء بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة. اهـ

130- القواعد الأصولية التي تشبث بها المميلة وتجرحهم إليه:

القواعد الأصولية غيرها من القواعد التي وضع الكثير منها لخدمة الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وإن لم يتقيد مستخدميها بالكتاب والسنة وقع في المخالفات الشرعية؛ لأنها - كما قيل: - هي تحتاج إلى أدلة وليست هي دليل بنفسها؛ ولهذا قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(45) دار الكتب العلمية: (وهكذا أئمة أصول الفقه فإن أكثر من يشتغل من الناس في هذا الزمان بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ولا يميزون شيئاً منه، بل يذكرون في مؤلفاتهم الموضوعات وينون عليها القناطر. وهذه الأسباب تلاعب الناس بهذا الفن الشريف وكذبوا على رسول الله ﷺ أقبح كذب. فصار من له تمييز يقضي من صنيعهم العجب إذا وقف على مؤلفاتهم ومع ذلك فهم لا يشعرون بما هم فيه من الخطأ والخلل والزلل، وهم الموقعون لأنفسهم في هذه الورطة بعدم رجوعهم في هذا الفن بخصوصه إلى أهله المشتغلين به كما يرجعون إلى أهل سائر الفنون عند احتياجهم إلى مسألة من مسأله. ولست أظن سبب تخصيصهم لهذا الفن الشريف الجليل بعدم الرجوع إلى أهله دون غيره إلا ما يجده الشيطان في تزوين مثل ذلك لهم من المحال في الدين وإثبات الأحكام الشرعية بالأكاذيب المختلفة وإغفال كثير من مهمات الدين لعدم علم المتكلمين في الفقه بأدلتها. وأنت لا يخفى عليك بعد هذا أن إنصاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله كائناً ما كان). اهـ

ومن هذه القواعد على سبيل المثال لا الحصر:

1- التوسع في قاعدة المشتقة تجلب التيسير:

من المعلوم لدى الخاص والعام أن الدين يسر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» أخرجه البخاري (39) عن أبي هريرة ؓ، فالدين يسر، نعم، لكن لا كما يزعم دعاة التيسير الذين يدعون إلى ترك الواجبات وتعاطي المخالفات باسم يسرية الدين، فتنبه! ولا تغرك الشعارات، ومن هذا الباب ما ألفه سلمان العودة في شعائر الحج بعنوان «افعل ولا حرج» وفيه ما الله به عليم من الدعوة إلى الحرج، فيسرية الدين هو أن يعمل به على قدر الاستطاعة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، فالحذر من الطرق الملتوية التي تؤدي إلى زحزحة الدين وتمييعه.

2- التوسع في قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح:

حتى وصل الحال بالإخوان المسلمين إلى القول بجواز الانتخابات - زعموا - لإزالة الحاكم الظالم والتقارب مع اليهود والنصارى مع تعاطي كثير من المخالفات بهذه الحجة العليلية بل الميتة، كما هو مبين في مواطنه.

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص (229-231): (فمنها: أن يعلم أن هذه الشريعة المطهرة السمحة مبنية على جلب المصالح ودفع المفسد، ومن تتبع الوقائع الكائنة من الأنبياء والقصص المحكية في كتب الله المنزلة علم ذلك علماً لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة، وقد وقع ذلك من نبينا ﷺ وقوعاً لا ينكره من له أدنى علم بالشريعة المطهرة، فإنه ﷺ لما تبين له نفاق بعض المنافقين واستحقاقه للقتل بحكم الشريعة قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» أخرجه

البخاري (4905)، ومسلم (2584) عن جابر رضي الله عنه. فترك قتله لجلب مصلحة هي أتم نفعاً للإسلام وأكثر عائداً على أهله، ودفع مفسدة هي أعظم من المفسدة الكائنة بترك قتله.

وبيان ذلك أنه إذا تحدث الناس بمثل هذا الحديث وشاع بينهم شيوعاً لا يتبين عنده السبب كان ذلك من أعظم المنفرات لأهل الشرك عن الدخول في الدين؛ لأنه يصد أسماعهم ذلك الحديث فيظنون عنده أن ما يعتقدونه من السلامة من القتل بالدخول في الإسلام غير صحيح، فيهربون منه هرباً شديداً، ويبعدون عنه بعداً عظيماً.

وهكذا وقع منه رضي الله عنه التأثير لجماعة ممن لم تثبت قدمه في الإسلام بغنائم حنين، كأبي سفيان والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فكان يعطي الواحد من هؤلاء وأمثالهم المائة من الإبل وما يقوم مقام ذلك، والمهاجرون والأنصار الذين هم المقاتلة المستحقون للغنيمة ينظرون إلى التأثير ووقع في أنفسهم ما وقع، حتى قال قائلهم: يرحم الله رسول الله يعطي هؤلاء وسيوفنا تقطر من الدماء. فلما علموا بما أراده رضي الله عنه من المصلحة العائدة على الإسلام وأهله بتأليف مثل هؤلاء وتأثيرهم بالغنيمة قبلوه أتم قبول وطابت أنفسهم أكمل طيبة. في البخاري (3147)، ومسلم (1059) عن أنس رضي الله عنه.

وهكذا وقع منه رضي الله عنه العزم على مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة؛ ظناً منه بأن في ذلك جلب مصلحة ودفع مفسدة، فلما تبين له أن الترك أجلب للمصلحة وأدفع للمفسدة صار إليه.

وهكذا وقع منه ﷺ النهي عن تلقيح النخل، فلما تبين له ما في ذلك من المصلحة لأهله أذن لهم به. في مسلم (2362) عن رافع بن خديج ؓ.

وهكذا وقع منه الأذن بالعرايا، كما في البخاري (2188)، ومسلم (1539)؛ لما شكى عليه الفقراء ما يلحقهم من المفسدة بالمنع من شراء الرطب بالتمر مع عظم الخطر فيما هو مظنة بالربا.

وكم يعد العاد من هذه الأمور.

وبالجملة، فكل ما وقع من النسخ والتخصيص والتقيد في هذه الشريعة المطهرة فسببه جلب المصالح أو دفع المفاسد.

فإن كل عالم بعلم أن نسخ الحكم بحكم آخر يخالفه لم يكن إلا لما في الناسخ من جلب مصلحة أو دفع مفسدة زائدة على ما في الأولى من النفع والدفع، وهكذا بالتقيد كما وقع في قوله تعالى: ﴿غَيْرُأُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95]، وقوله عز وجل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187] ونحو ذلك كثير جداً.

وقد كان دينه ﷺ وهجيراًه الإرشاد إلى التيسير دون التعسير، وإلى التبشير دون التنفير، فكان يقول: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» أخرجه البخاري (69)، ومسلم (1734) عن أنس ؓ.

وكان ﷺ يرشد إلى الألفة واجتماع الأمر وينفر عن الفرقة والاختلاف؛ لما في الألفة والاجتماع من الجلب للمصالح والدفع للمفاسد، وفي الفرقة والاختلاف من عكس ذلك. اهـ

3- التوسع في ضابط الإكراه:

وقد تكلمت عليه بتوسع في نصيحتي لأهل ليبيا، ومع ذلك نقول هنا:

توسع الناس في هذا الأمر الذي هو ثابت بالكتاب والسنة، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]، وقد تكلم العلماء رحمهم الله عز وجل فيما يحصل به الإكراه، قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «روضة الطالبين» (8/58-60): (فصل في بيان الإكراه. يشترط فيه كون المكره غالبًا قادرًا على تحقيق ما هدده به، بولاية، أو تغلب، وفرط هجوم، وكون المكره مغلوبًا عاجزًا عن الدفع بفرار أو مقاومة، أو استعانة بغيره، ويشترط أن يغلب على ظنه أنه إن امتنع مما أكرهه عليه، أوقع به المكروه. وقال أبو إسحق المروزي: لا إكراه إلا بأن ينال بالضرب. والصحيح الذي قطع به الجمهور، عدم اشتراط تنجيز الضرب وغيره بل يكفي التوعد. وفيما يكون التخويف به إكراهًا، سبعة أوجه. أحدها: القتل فقط. حكاة الحناطي والامام. والثاني: القتل، أو قطع طرف، أو ضرب يخاف منه الهلاك، قاله أبو إسحاق. والثالث: قاله ابن أبي هريرة وكثيرون: أنه يلحق بما سبق أيضًا الضرب الشديد، والحبس، وأخذ المال، وإتلافه، وبهذا قال أبو علي في «الإفصاح» وزاد عليه فقال: لو توعد بنوع استخفاف، وكان الرجل وجيها يغض ذلك منه، فهو إكراه. قال هؤلاء: فالضرب والحبس والاستخفاف، يختلف باختلاف طبقات الناس وأحوالهم. والتخويف بالقتل والقطع وأخذ المال، لا يختلف. وقال الماسرجسي: يختلف بأخذ المال، فلا يكون تخويف الموسر بأخذ خمسة دراهم منه إكراهًا قال الروياني: هذا هو الاختيار، فهذه الأوجه هي الموجودة للمتقدمين من العراقيين وغيرهم. وأصحها: الثالث، وصححه الشيخ أبو حامد وابن الصباغ وغيرهما. والرابع: أن الإكراه لا يحصل إلا إذا خوفه بما يسلب الاختيار، ويجعله كالهارب من الأسد الذي يتخطى

النار والشوك، ولا يبالي، فعلى هذا الحبس ليس بإكراه. وكذا التخويف بالإيلاء الشديد. قال الإمام: لكن لو فوَّح به، احتمل جعله إكراها. والخامس: لا يشترط سقوط الاختيار، بل إذا أكرهه على فعل يؤثر العاقل الإقدام عليه حذرًا مما تهدده به، حصل الإكراه. فعلى هذا، ينظر فيما طلبه منه وما هدده به، فقد يكون الشيء إكراهًا في مطلوب دون مطلوب، وفي شخص دون شخص. فإن كان الإكراه على الطلاق، حصل بالقطع وبالتخويف بالحبس الطويل، وبالتخويف ذوي المروءة بالصفع في الملا، وتسويد الوجه والطوف به في السوق. وقيل: لا يكون التخويف بالحبس وما بعده إكراها، وطرد هذا الخلاف في التخويف بقتل الولد والوالد، والصحيح في الجميع، أنه إكراه. والأصح أن التخويف بإتلاف المال ليس إكراها على هذا الوجه، وإن كان الإكراه على قتل فالتخويف بالحبس، وقتل الولد، وإتلاف المال ليس إكراها. وإن كان الإكراه على إتلاف مال، فالتخويف بجميع ذلك إكراها. وقيل: لا يكون التخويف بإتلاف المال إكراه في إتلاف المال. الوجه السادس: أن الإكراه إنما يحصل بالتخويف بعقوبة تتعلق ببدن المكره، بحيث لو حققها تعلق به قصاص، فيخرج عنه ما لا يتعلق ببدنه، كأخذ المال وقتل الوالد والولد، والزوجة، والضرب الخفيف، والحبس المؤبد، إلا أن يخوفه بحبس في قعر بئر يغلب منه الموت. واختار القاضي حسين هذا. الوجه السابع: لا يحصل الإكراه إلا بعقوبة شديدة تتعلق ببدنه، فيدخل فيه القتل والقطع، والضرب الشديد، والتجويع والتعطيش، والحبس الطويل، ويخرج ما خرج عن الوجه السادس، ويخرج عنه التخويف بالاستخفاف بإلقاء العمامة والصفع، وما يخل بالجاء. واستبعد الإمام من هذا الوجه، دخول الحبس وخروج قتل الولد، وأما التخويف بالنفي عن البلد، فإن كان فيه تفريق بينه وبين أهله، فكالحبس الدائم، وإلا فوجهان. أصحهما: إكراه، لأن مفارقة الوطن

شديدة، ولهذا جعلت عقوبة للزاني، وجعل البغوي التخويف باللوأط، كالتخويف بإتلاف المال، وتسويد الوجه. وقال: لا يكون ذلك إكراها على القتل والقطع. وفي كونه إكراها في الطلاق والعناق وإتلاف المال، وجهان. قلت: الأصح من هذا الخلاف المنتشر، هو الوجه الخامس، لكن في بعض تفصيله المذكور نظر). اهـ

وقال تقي الدين الحصني في كتاب «القواعد» (306/2) في بيان شروط الإكراه: (اعلم أنه لا بدّ في ذلك كله من أمور:

أحدها: أن يكون المُكْرَه قادراً على تحقيق ما هدد به، إما لولاية أو تغلب أو فرط هجوم.

الثاني: أن يكون المُكْرَه عاجزاً عن الدفع، فإن قدر بمقاومة أو استغاثة أو فرار ونحوه فلم يفعل لم يكن مكرهاً.

الثالث: أن يكون الأمر المتهدد به مما يحرم على المكروه تعاطيه منه، فل قال ولي القصاص للجاني: طلق امرأتك وغلا اقتصصت منك، لم يكن ذلك إكراهاً.

الرابع: أن يكون المتهدد به عاجلاً، ويغلب على ظن المكلف به أن يوقعه ناجزاً إن لم يفعل ما أمره به، فلو قال: أقتلك غداً أو نحو ذلك لم يكن إكراهاً). اهـ

تبين مما سبق بعض ما يتعلق بهذه القاعدة وشروط ذلك، فلا حجة إذن لكثير من الأمور التي يتعاطاها أصحابها بعذر الإكراه.

مراتب الإكراه:

قال ابن عادل في «اللباب» (215/12): (الإكراه له مراتب: أحدها: أن يجب الفعل المكروه عليه؛ كما لو أكره على شرب الخمر، وأكل الخنزير، وأكل الميتة، فإذا

أكره عليه بالسيف فهأنا ، يجب الأكل ؛ وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجب ، ولا سبيل إليه في هذه الصورة إلا بالأكل ، وليس في هذا الأكل ضرر على حيوان ، وإلا إهانة لحق الله ، فوجب أن يجب ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ [البقرة: 195].

المرتبة الثانية: أن يصير ذل كالفعل مباحاً ولا يصير واجباً؛ كما لو أكره على التلفظ بكلمة الكفر ، فهأنا يباح له ذلك ، ولكنه لا يجب.

المرتبة الثالثة: أنه لا يجب ولا يباح ، بل يجرم؛ كما لو أكرهه إنسان على قتل إنسان ، أو على قطع عضو من أعضائه ، فهأنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية ، وهل يسقط القصاص عن المكروه أم لا؟.

قال الشافعي رحمه الله في أحد قوليه: يجب القصاص؛ لأنه قتله عمداً عدواناً ، فوجب عليه القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 178] ، وأيضاً: أجمعنا على أن المكروه إذا قصد قتله فإن له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل ، فلما كان يوهم إقدامه على القتل ، أوجب إهداء دمه ، فلأن يكون عند صدور القتل عنه حقيقة يصير دمه مهذراً أولى. اهـ

4- التوسع في قاعدة الاضطرار:

أباح الله عز وجل للمضطر أكل الميتة، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿المائدة:3﴾، لكن ما هو الاضطراب الذي يجوز فيه ارتكاب المحظور الشرعي؟ فترجع المسألة إلى ما قلناه في باب الإكراه.

5- قولهم: لا إنكار في مسائل الاجتهاد:

وهذا ليس على إطلاقه كما سترى في ما بعد، فإن الاجتهاد منه ما هو سائغ الخلاف فيه كون الخلاف خلاف تنوع، كالاختلاف في أدعية الاستفتاح وغير ذلك، وإما أن يكون في خلاف أفهام، وهذا الحق فيه واحد، فيجب العودة إلى الحق المؤيد بالدليل، وإما أن يكون الخلاف خلاف تضاد، فمن خالف منهج أهل السنة وإن كان مجتهداً فلا يقبل منه ذلك، بل يجب الإنكار عليه وتغيير هذا المنكر الذي وقع فيه.

قال ابن القيم رحمه الله في «إعلام الموقعين» (3/288): (وقولهم إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً شائعاً وجب إنكاره اتفاقاً إن لم يكن كذلك، فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله. وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه لا إنكار في المسائل المختلف فيها والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقص حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء. وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللإجتهاد فيها مساع لم تنكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً). اهـ

وقال الشوكاني رحمه الله في «السييل الجرار» (4/588): (هذه المقالة - أي: لا إنكار في مسائل الخلاف - قد صارت أعظم ذريعة إلى سد باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما بالثابتة التي عرفناك، والمنزلة التي بينها لك، وقد وجب

بإيجاب الله عزّ وجلّ، وبإيجاب رسوله ﷺ، على هذه الأمة الأمر بما هو معروف من معروفات الشرع، والنهي عما هو منكر من منكراته، ومعيار ذلك الكتاب والسنة، فعلى كل مسلم أن يأمر بما وجده فيها أو في أحدهما معروفاً، وينهي عما هو فيها أو في أحدهما منكراً، وإن قال قائل من أهل العلم بما يخالف ذلك فقوله منكر يجب إنكاره عليه أولاً، ثم على العامل به ثانياً، وهذه الشريعة الشريفة التي أمرنا بالأمر بمعروفها والنهي عن منكرها هي هذه الموجودة في الكتاب والسنة). اهـ

6- الأمور بمقاصدها:

وهذه القاعدة مؤداها إلى ارتكاب الحزبين والمميعين المخالفات الشريعة، ثم إذا ما أنكر عليهم: هذا لا يجوز، قالوا: الأمور بمقاصدها. نعم، النية طيبة إذا كانت لحصول خير ونشر الخير، لكن لا بدّ أن تتوافق النية الطيبة الخاصة لله عز وجل مع الطريقة النبوية، ففي حديث عمر رضي الله عنه عند الشيخين: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أخرجه البخاري (1)، ومسلم (1907)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718)، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». إذن فالمقصود وحده لا يكفي حتى يتفق مع طريقة النبي ﷺ وهدية، وهذه الطريقة لو استخدمت مجردة عن المتابعة لقال الجهمي المعطل: قصدي بهذا التعطيل التنزيه، وهكذا المعتزلي، ولقال التبليغي: قصدي نشر الدين، ولقال الإخواني: قصدي إقامة حكم الله، فتنبه!!!

7- دعوتهم إلى نبد قاعدة سدّ الذرائع:

وهو ما نادى به سلمان العودة المبتدع الضال، حيث دعا إلى فتح الذرائع لا سدّها، حيث زعم أنّ قاعدة سدّ الذرائع ليست ثابتة، وهي منع قانوني أكثر من كونه

حكماً شرعياً، بل إنها تتغير بتغير الزمان والمكان، وتعود برابط أساسي بين الدين والواقع. وقال: إن من ينادون بسدّ الذرائع وضعوا سدّاً عالياً بين الناس ودينهم... إلى آخر ما تكلم في برنامج (حجر الزاوية) على قناة (mbc) في يوم الخميس 16 رمضان 1431هـ، وهُم يهدم هذه القاعدة ينادون إلى فتح مقدمات الشرور والآثام ينشر إلى الناس، فتنبه لمثل هذا الخبث اللئيم!!! مع أن سدّ الذرائع مقصد ديني وشرعي، وفي الكتاب والسنة من ذلك الشيء الكثير، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: 30]، لماذا؟ سدّاً لذريعة الزنا، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53] سدّاً لذريعة الفتنة، وهكذا في جميع جوانب الدين تجد أن المنهيات إما أن تحرم بذاتها أو سدّاً للذرائع، فما نُهي عن التشبه بالمشرّكين إلا من باب سدّ ذريعة الموافقة لهم، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (213/23): (فالنهى عن الصلاة فيها من باب سدّ الذرائع لئلا يتشبه بالمشرّكين فيفضي على الشرط). اهـ

ونهيّا عن تشييد القبور لسدّ ذرائع الشرك، ونهيّا عن اختلاط الرجال بالنساء لسدّ ذريعة الزنا والخنأ، وهكذا دواليك، وتحريم الربا سدّ ذريعة أكل أموال الناس بالباطل.

وهنا تنبيه: وهو أن سدّ الذرائع يكون في الأمور التي تفضي إلى المخالفات الشرعية، وأما فتح الذرائع فيكون في ما من شأنه تحصيل الخير فيتجلّى معنى فتح الذرائع بأن الله تعالى يوجب أموراً لا لعينها بل لكونها وسائل وذرائع لأمر أخرى ثبت طلبه لها.

ويتجلى معنى سد الذرائع في أن الله تعالى ينهي عن أمور وينهى عن كل ما يؤدي إليها ويحذر من ذرائعها.

وإيضاحاً لذلك نعرض الحالتين بأمثلة:

الحالة الأولى: شواهد فتح الذرائع:

1- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تُدْعَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:9]. يأمر سبحانه وتعالى بالسعي إلى صلاة الجمعة، وهي وسيلة غير مقصودة لذاتها، إنما كان الأمر بها لأنها ذريعة إلى إقامة الصلاة المفروضة بمثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:43]، وكذلك يأمر بترك البيع عند النداء لصلاة الجمعة والنهي عنه ليس مقصوداً لذات البيع، فقد ثبت جوازه ومشروعيته بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة:275]، بل لتحصيل فريضة السعي إلى الصلاة...

الحالة الثانية: من شواهد سد الذرائع:

الشاهد الأول: أن الله سبحانه حرم الكفر ثم حرم أسبابه ووسائله، ولا يعقل في شريعة قوامها الخير والبر والعدل أن تحرم أمراً ثم تترك وسائله وأبوابه مفتوحة يغري النفوس بارتياحها واقتحامها... وفي سبيل صيانة جماعة المؤمنين حذر الله عز وجل من إمام الكفر الشيطان ومن اتباعه الكافرين، ومن حبالته المعاصي... انتهى من كتاب «سد الذرائع في الشريعة الإسلام» ص(349) وما بعدها. مختصراً. ويراجع الكتاب فهو نفيس في هذا الباب، وقد تكلم شيخنا يحيى الحجوري - حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بكلام نفيس في رده على قول سلمان العودة السالف.

8- الضرر مزال:

وهذه القاعدة صواب (أن الضرر مزال) ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» أخرجه ابن ماجه (2341) عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ، لكن الضرر يزال بغير مخالفة الكتاب والسنة، أما أن تستخدم هذه القاعدة في الخروج على الحكم المسلمين - مثلاً - فلا يجوز ذلك.

9- قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة:

هذا على إطلاقه تععيد فاسد لما فيه من العموم في الغايات والوسائل، فالغاية الفاسدة لا يوصل إليها بالوسيلة ولو كانت شرعية، والغاية الشرعية لا يوصل إليها بالوسيلة الفاسدة، فلا يوصل إلى طاعة الله بمعصيته، نعم، الغاية الشرعية تؤيد الوسيلة الشرعية، وما لا يتم به الواجب إلا به فهو واجب. اهـ من «معجم المناهي اللفظية» ص(403).

10 - الاستحسان:

كم جر الاستحسان المخالف للدليل من ويل للأمة.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في «أدب الطلب» ص(254): (وأما الاستحسان، فاعلم أنهم رسموه بأنه دليل ينقدح في نفس المجتهد ويعسر عليه التعبير عنه.

وأنت لا يخفى عليك - إن بقي لك نصيب من فهم وحظ من إنصاف - أن الله تبارك وتعالى لم يتعبد أحدًا من عباده بدليل يستدل به أحد من علماء الأمة ويمكنه التعبير عنه وإبرازه من القول إلى الفعل إلا إذا كان صحيحًا تقوم به الحجة، فكيف يتعبد لهم بما انقدح في نفس فرد من أفرادهم على وجه لا يمكنه التعبير عنه ولا إبرازه إلى الخارج. فإن هذا الذي انقدح في نفسه لا ندري ما هو ولا كيف هو، فكيف يكون حجة على أحد من الناس وقد عجز صاحبه عن بيانه وعسرت عليه ترجمته. فيا لله العجب من هذا الهذيان! وكيف استجاز قائله أن يحكم عليه، وأنه دليل شرعي، ويفتري على الشرع ما ليس منه، وعلى الله سبحانه ما لم يقله؟!!

وبالجملة، تبيان فساد هذا لا يحتاج إلى إيضاح، وأفهام البشر وإن بلغت في الضعف أي مبلغ وقاربت أفهام الدواب فهي لا تطلب البرهان على بطلان هذا الهذيان، ولو احتاج محتاج إلى الاستدلال على بطلان هذا الباطل لزمه أن يدفع فرية كل مفتر على الله، والله در الإمام الشافعي حيث يقول: من استحسّن فقد شرّع. اهـ

11 - المصالح المرسلة:

قد توسّع الناس في المصالح المرسلة، حتّى ادخلوا في الدين ما ليس منه، بينما الواجب هو عدم مخالفة الدليل.

قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(232): (فإن قلت: ما ذكرته من انبناء الشريعة المطهرة على جلب المصالح ودفع المفسد، ماذا تريد به؟ هل يلاحظ ذلك النفع والدفع مطلقاً أو في حالة من الحالات؟

قلت: لا أريد ما قدمته إلا أن ما لم يرد فيه نص يخصه، ولا اشتمل عليه عموم، ولا تناوله إطلاق، فحق على العالم المرشد للعباد الطالب للحق أن يستحضر ذلك ويرشد إليه ويهتم به ويدعو إليه.

وأما مواقع النصوص وموارد أدلة الكتاب والسنة ومواطن قيام الحجج، فلا جلب نفع ولا دفع ضرر أولى من ذلك وأقرب منه إلى الخير وأولى منه بالبركة، فهو في الحقيقة مصالح مجلوبة ومفاسد مدفوعة، وإن قصرت بعض العقول عن إدراك ذلك والإحاطة بكنهه والوقوف على حقيقته، فمن قصورها أتيت، ومن ضعف إدراكها ذهيت.

ومن تدبر ذلك كل التدبر وتأمله بحق التأمل لم يخفَ عليه، فإن كل جزئي من جزئيات الشريعة التي قام الدليل على طلبها والتعبد بها للكل أو البعض مطلقاً أو مقيداً لا بد أن يشتمل على جلب مصلحة أو مصالح، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وكل جزئي من جزئيات الشريعة الواردة بالنهاي عن أمر أو أمور لا بد أن يكون المنهي عنه مشتملاً على مفسدة أو مفسد تندفع بالنهاي عنها.

ولزيد التتبع وكثرة التدبر في ذلك مدخلة جليلة لاسيما مع استحضار الاستعانة بالله والتوكل عليه والتفويض إليه؟

ومما يستعين به طالب الحق ومريد الإنصاف على ما يريده من ربط المسائل بالدلائل والخروج من آراء الرجال المتلاعبة بأهلها من يمين إلى شمال: أن يتدبر

الدلائل العامة ويتفكر فيما يندرج تحتها من المسائل بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة، فإنه إذا تمرن في ذلك وتدرّب صار مستحضراً لدليل كل ما يسأل عنه من الأحكام الشرعية، كائناً ما كان، وعرف معنى قوله عز وجل: ﴿مَا فَطَرْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، ومن أمعن النظر فيما وقع منه ﷺ من استخراج الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى زاده ذلك بصيرة، كما ثبت عنه أنه لما سئل عن الحُمْر الأهلية فقال: «لم أجد فيها إلا هذه الآية القائلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8] أخرجه البخاري (2371)، مسلم (987) عن أبي هريرة ؓ، فإن في هذا وأمثاله أعظم عبرة للمعتبرين وأجل بصيرة للمتبصرين وأوضح قدرة للمعتدين من العلماء المجتهدين، وثبت أنه ﷺ قال لعمر بن العاص: «صَلَّيْتَ بِصَحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ يَا عَمْرُو؟!» فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]، فقرره النبي ﷺ وضحك ولم يقل شيئاً. أخرجه أبو داود (334).

وهذا باب واسع يطول تعداداه.

وهكذا التفكير في الكليات الصادرة عمن أعطى جوامع الكلم وأفصح من نطق بالضاد، كقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أخرجه البخاري (1)، ومسلم (1907)، فإن هذا اللفظ الموجز والعبارة المختصرة صالحة للاستدلال بها على كل جزء من جزئيات الشرع، فتدخل ما حصلت فيه النية في عداد الأعمال المقبولة، ويخرج ما لم تحصل فيه النية إلى حيز الأعمال المردودة، وتصير بها المباحات قربات وعبادات، أقل أحوالها الاندراج تحت حقائق المندوبات، ويبطل كثير من الصور والحاكية لما هو من العبادات بعقد النية وعدم وجودها لا على الوجه المعتبر، وكقوله ﷺ:

«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» أخرجه مسلم (867)، و«مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا» أخرجه مسلم (102)، و«الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ» أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599)، و«كُلُّ أَمْرٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718). فإن كل فرد من أفراد هذه العبارات وأمثالها صالح لجعله قضية كبرى للشكل الأول، فلا يبقى فرد من الأفراد إلا وأمكن إدراجه تحت هذه الكلية باجتلاب قضية صغرى سهلة الحصول، نقول - مثلاً -: هذا أمر ليس عليه أمر النبي ﷺ، وكل أمر ليس عليه أمره رد، فهذا رد، فلا يبقى فعل ولا قول ولا اعتقاد لم يأت به الشرع إلا وأمكن الاستدلال على رده بهذا الحديث الصحيح.

وهكذا العمل في سائر الكليات والمتحلي بالمعارف العلمية يستغني بمجرد الإشارة والإيقاظ؛ لأن المواد قد حصلت له بما حصله من العلوم وممارسه من المعارف فربما يغفل عن إخراج ما في القوة إلى الفعل، فإذا نبه على ذلك تنبه، وكان العمل سهلاً، والانتفاع بالعلوم يسيراً، أصالة المعنى الحقيقي وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة أو قرابة.

ومن جملة ما ينبغي تصوره ويعينه استحضاره: أن يعلم أن هذه الشريعة المباركة هي ما اشتمل عليه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي والترغيبات والتنفيرات وسائر ما له مدخل في التكليف من غير قصد إلى التعمية والألغاز ولا إرادة لغير ما يفيد الظاهر ويدل عليه التركيب ويفهمه أهل اللسان العربي.

فمن زعم أن حرفاً من حروف الكتاب والسنة لا يراد به المعنى الحقيقي والمدلول الواضح فقد زعم على الله ورسوله زعمًا يخالف اللفظ الذي جاءنا عنهما، فإن كان ذلك لمسوغ شرعي تتوقف عليه الصحة الشرعية أو العقلية التي يتفق

العقلاء عليها، لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنحل على العقل مطابقاً لما قد حبيه إليهم التعصب، فأدناه من عقولهم البعد عن الإنصاف، فلا بأس بذلك، وإلا فدعوى التجوز مردودة مضروب بها في وجه صاحبها.

فاحرص على هذا، فإنه وإن وقع الاتفاق على أصالة المعنى الحقيقي وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة وقرينة كما صرح به في الأصول وغيرها، فالعلم في كتب التفسير والحديث والفقه يخالف هذا لمن تدبره وأعمل فكره ولم يغتر بالظواهر ولا جمد على قبول ما يقال من دون بحث عن موارده ومصادره.

وكثيراً ما يجد المتعصبين يحامون عن مذاهبهم ويؤثرونها على نصوص الكتاب والسنة، فإذا جاءهم نص لا يجدون عنه متحولاً وأعياءهم رده وأعجزهم دفعه ادعوا أنه مجاز وذكروا للتجوز علاقة هي من البعد بمكان، وقرينة ليس لها في ذلك المقام وجود، ولا تدعو إليها حاجة، وأعانهم على هذه الترهات استكثارهم من تعداد أنواع القرائن والعلاقات، حتى جعلوا من جملة ما هو من العلاقات المسوغة للتجوز التضاد.

فانظر هذا التلاعب، وتدبر هذه الأبواب التي فتحوها على أدلة الكتاب والسنة، وقبلها عنهم من لم يمعن النظر ويطيل التدبر، فجعلها علماً، وقبلها على كتاب الله وسنة رسوله، وأصلها دعوة افتراها على أهل اللغة متعصب قد أثر مذهبه على الكتاب والسنة، لم يستطع التصريح بترجيح المذهب على الدليل، فدقق الفكر وأعمق النظر؛ عناداً لله تعالى وبغياً على شريعته وخداً لعباده، فقال: هذا الدليل وإن كان معناها الحقيقي يخالف ما نذهب إليه فهو هنا مجاز، والعلاقة كذا والقرينة كذا، ولا علاقة ولا قرينة، فيأتي بعد عصر هذا المتعصب من لا يبحث عن المقاصد

ولا يتدبر المسالك كما ينبغي، فيجعل تلك العلاقة التي افترها ذلك المتعصب من جملة العلائق المسوغة للتجوز؛ ولهذا صارت العلاقات قريباً من ثلاثين علاقة، ثم لما كان منه جملة أنواع القرائن العرفية والعقلية افترى كل متعصب على العقل والعرف ما شاء وصنع في مواطن الخلاف ما أورد والله المستعان). اهـ

12 - قولهم كل مجتهد مصيب:

وهذا باطل قطعاً، فإن الحق واحد، وإنما الصواب أن يقال: لكل مجتهد نصيب، أي: من الأجر، هذا إن إذا كان من أهل الاجتهاد لا من القائلين على الله بغير علم، فمن قال على الله بغير علم فليس له نصيب وإن وافق الحق؛ لأنه قال ذلك القول عن تحرص وظن، فتنبه للمعنى الذي تضمنه حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» أخرجه البخاري (7352)، ومسلم (1716)، وهذا إذا لم يكن متعمداً للمخالفة الشرعية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (19/20) وسئل: هل كل مجتهد مصيب؟ أو المصيب واحد والباقي مُحْطُونَ؟

فأجاب: قد بسط الكلام في هذه المسألة في غير موضع وذكر نزاع الناس فيها وذكر أن لفظ الخطأ قد يراد به الإثم؛ وقد يراد به عدم العلم. فإن أريد الأول فكل مجتهد اتقى الله ما استطاع فهو مصيب؛ فإنه مطيع لله ليس بإثم ولا مذموم. وإن أريد الثاني فقد يخص بعض المجتهدين بعلم خفي على غيره؛ ويكون ذلك علماً بحقيقة الأمر لو اطلع عليه الآخر لوجب عليه اتباعه؛ لكن سقط عنه وجوب اتباعه لعجزه عنه وله أجر على اجتهاده ولكن الواصل إلى الصواب له أجران كما قال النبي ﷺ في

الْحَدِيثُ الْمُنْفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». اهـ

وقال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (1-22): (من قال: (كل مجتهد مصيب للأجر) بمعنى أنه مطيع لله في أداء ما كلف به، فقوله صحيح إذا استفرغ المجتهد وسعه وبذل جهده..). اهـ

13 - قولهم: رد ما خالف القواعد المعتمدة:

مع أنه هو المخالف ربما، قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(76): (ومن جملة أسباب التعصب التي لا يشعر بها كثير من المشتغلين بالعلوم: ما يذكره كثير من المصنفين من أنه يرد ما خالف القواعد المقررة، فإن من لا عناية له بالبحث يسمع هذه المقالة ويرى ما صنعه كثير من المصنفين من رد الأدلة من الكتاب والسنة إذا خالف تلك القاعدة، فيظن أنها في اللوح المحفوظ، فإذا كشفها وجدها في الغاب كلمة تكلم بها بعض من يعتقد الناس من أهل العلم الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، لا مستند لها إلا محض الرأي وبحث ما يدعى من دلالة العقل، وكثيرا ما تجد في علم الكلام الذي يسمونه أصول الدين قاعدة قد تقررت بينهم واشتهرت وتلقنها الآخر من الأول وخطوها جسرا يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإذا كشفت عنها وجدتها في الأصل كلمة قالها بعض حكماء الكلام زاعما أنه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه، وليس إلا مجرد الدعوى على العقل، وهو عنه بريء، فإنه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده، بل قضى به عقل قد تدنس بالبدع وتكدر بالتعصب وابتلى بالجهل بما جاء به الشرع، وجاء بعده من هو أشد بلاء منه وأسخف عقلا وأقل علما وأبعد عن الشرع، فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية فدفع

بها جميع ما جاء عن الشارع عرف هذا من عرفه وجهله من جهله، ومن لم يعرف هذا فليتهم نفسه). اهـ

14 - تقديم الرأي الفاسد على الدليل:

وهذا داء عظيم، هُدمَ به الدين، ونكست راياته، قال الشوكاني رحمه الله في «أدب الطلب» ص(148): (ولقد تلاعب كثير من أهل الرأي بالكتاب والسنة تلاعباً لا يخفى إلا على من لا يعرف الإنصاف بهذه الذريعة القياسية، وعولوا على ما هو منه أوهن من بيت العنكبوت، وقدموه على آيات قرآنية وأحاديث نبوية. وما هذه بأول فاقرة جاء بها الشيطان، وحسنها لنوع الإنسان، وذاد بها عباد الله عن شرائعه.

ومن أنكر هذا فلينظر المصنفات في الفقه، ويتتبع مسائلها المبنية على مجرد القياس، المبني على غير أساس، مع وجود أدلة نيرة وبراهين مرضية.

ومن هذا الباب دخل أهل الرأي وإليه خرجوا من أبواب الأدلة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتْهُ فِي الثُّرَى

وكل من له فهم لا يغرب عنه أن الله تعالى لم يتعبد عباده بمجرد قول عالم من العلماء، أنه قد أفاده مسلك تخريج المناط أو تنقيح المناط أو الشبه أو الدوران، أو نحو هذا الهذيان، هذا على فرض أنه لم يوجد في الكتاب والسنة ما يخالف هذا المسلك الذي لا يسلكه المتورعون، ولا يمشي عليه المتدينون، فكيف إذا كان الدليل

المخالف له واضح المنار، ظاهر الاشتهار، قريب الديار، لمن سافر إليه من أهل الاعتبار.

والكلام في هذا البحث طويل الذبول، وقد أفردته جماعة من أهل العلم بالتصنيف، وليس المراد هنا إلا مجرد التنبيه لطالب العلم، وإني وإن حذرت عن العمل بهذا القياس فلا أحذره عن العلم به، وتطويل الباع في معرفته، والإحاطة بما جاء به المصنفون من أهل الأصول في مباحثه، فإنه لا يعرف صحة ما قلته إلا من عرفه حق معرفته، وقد يعرف الشيء ليجتنب ويحذر، ويعرف الشر لا للشر. اهـ

15 - تميعهم بحمل المجمل على المفصل في كلام غير المعصوم:

أقول: حمل المجمل على المفصل، والعام على الخاص، والمطلق على المقيد، هذا يكون في كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، وقال عز وجل عن نبيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]، وكلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ لا يناقض بعضه بعضاً، فإذا ما جاء مجمل حمل على المفصل المبين الموضح على ما هو مبين في كتب الأصول، إلا أن أهل البدع والتميع طبقوا هذه القاعدة في حق غير المعصوم، طبقوها في حق من يعتريه الجهل والخطأ والغفلة والنسيان وغير ذلك، فإذا ما وجدوا لهذا الرجل كلاماً باطلاً قالوا: يحمل مجمله على مفصله، وهذا ليس بصواب؛ لما تقدم.

إلا أنه إذا كان العالم سنياً سلفياً عقيدته سوية وطريقته مرضية، ووجد له كلام مجمل ظاهره البطلان، فإن كان حياً نصح في هذا الإجمال وطُلب منه البيان والتراجع عن هذا القول الموهم على أقل تدبير، فإن رجع فالحمد لله، وإن أبى إلا الولوج في

باطله حُذِّر من باطله، فإن كان الخطأ في مسألة من الأصول بُدِّع بعد ذلك على تفصيل عند أهل العلم. وإن كان قد مات هذا العالم يترك المجمل الباطل مع التحذير من هذا الباطل، ويُؤخذ بمفصله الحق، فالباطل مردود ممن صدر، كبر أو صغر، ولا مجال لقبول الباطل من أجل من قال به من الأشخاص، ولشيخنا يحيى بن علي الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - كلام طيب في هذه المسألة يراجع في مظأنه، فقد أشبع المسألة أدلة وبيانا، فجزاه الله خيرا.

الفرق بين قاعدة حمل المجمل على المفصل ومسألة جمع كلام العالم بعضه إلى بعض:

قال العلامة النجمي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في كتاب «الفتاوى الجليلة» (2/199-202): (أما قولك: بل سأنتقل لك أيها الشيخ الكريم من كتابكم «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة» طبعة الرئاسة العامة للإفتاء سنة (1405) إلى آخر ما ذكرتم، ثم نقلت ما قلته في الكلمة الخامسة في الرد على من نسب إلى مالك - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كلاما في زيارة قبر النبي ﷺ ونص الكلام كالآتي: (رابعا: إذا أشكل كلام مالك، فعلى الباحث أن يجمع بعضه إلى بعض وينظر فيه، فإن فسّر بعضه بعضا وتبين مراده منه - لا لأنه شرع بنفسه - ولكن لنعلم موقف قائله من الشرع كما هو معلوم عندنا وعند جميع اله العلم أن قائله من أئمة الدين وممن لهم لسان صدق في الآخرين، وهو بنفسه يقول: كل يؤخذ من قوله ويد إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر رسول الله ﷺ - والمهم الذي يجب علينا أن نجمع كلام مالك من مصادره، فإن اتضح الإشكال، وإلا رددنا ما أشكل منه إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وقد نظرنا في كلام مالك فوجدناه يفسر بعضه بعضا). فأقول: إن هناك

اختلافًا بين المسألتين، حمل المجمل على المفصل لا يجوز إلا في كلام المعصوم عليه السلام، أما إذا أشكل كلام بعض أهل العلم، وكان له كلام في موضعين أو أكثر، فإنه يجب أن يجمع بعضه إلى بعض، فإن تبين الإشكال أخذ به، سواء كان للقائل أو عليه، وسواء صدق بعضه بعضًا أو تناقض، فإن صدق بعضه بعضًا دفعت الشبهة عن القائل، وإن تناقض حكمنا عليه بالتناقض، فهذه مسألة وتلك مسألة، وغالبًا يحصل في الكلام الذي يكون فيه احتمال، فقد يجذبه الخصم المبتدع إليه، ويزعم أن هذا القائل يوافق المبتدع في بدعته كما فعلت الصوفية أصحاب وحدة الوجود في حق أبي إسماعيل الهروي.

أما قولك: (فهذا كلام صريح من فضيلتكم تجمعون كلام العالم بعضه إلى بعض، وتردون ما أشكل من كلامه). أقول: إلى هنا كلامه جيد أن يرد ما أشكل من كلام العالم إلى ما اتضح إذا كان في أحد الكلامين شيء من التعمية، والاحتمال التي تجعل الحكم عليه مشكلاً، وتجعل المتبع للكلام في حيرة، وقد يأخذ بعض أهل البدع شيئاً من كلام العالم المشهور لما فيه من الاحتمال، ولو كان بعيداً ليدخلوه في صفهم، ويجعلوه من حزبهم؛ ادعاءً عليه بالباطل كما زعم في حق مالك في موقف الزائر إلى القبلة أو إلى القبر، وهكذا ما ادعي على أبي إسماعيل الهروي من الكلام الذي اتهم فيه، فخرجه أهل العلم على محمل حسن، والمهم أنك مخطئ في زعمك هذا، وأنا قد قلت محترزاً: فعلى الباحث أن يجمع بعض كلامه إلى بعض، فإن فسّر بعضه بعضاً - لا لأنه شرع بنفسه، ولكن لنعلم موقف قائله من الشرع - ألا ترى هذا الاحتراز يا أبا الحسن؟! وقد كفانا الله أمرك بإجابات أهل السنة وردهم عليك وبالأخص ما كتبه العلامة المجاهد النبيل أبو محمد ربيع بن هادي غفر الله لنا وله ووفقنا وإياه، وإن احتجاجك بكلامنا هذا احتجاج في غير موضعه، وبالله التوفيق.

وأما قولك: (فهذا كلام صريح من فضيلتكم تجمعون فيه كلام العالم بعضه إلى بعض، وتردون ما أكشل من كلامه وهو المجلع عندي إلى ما يفسره من محكم كلامه الآخر)، وأقول: من هو أنا، ومن هو أنت حتى نخالف السلف؟! ويوقل الواحد منّا هذا كذا عندي، إنه لا يسعني ويسعك والثاني والثالث إلا منهج السلف، فإذا قلت هذا كذا عندي ولم يكن لك فيه سلف فأنت ضائع تعيش على ادعاءات فارغة، واطنك أحسست بالمفارقة بين المسألتين، فقلت: (وهو المجلع عندي) وأنا لا أمتنع جمع كلام العالم الذي في احتمال إلى كلامه الآخر لتبين بالكلام الآخر هل القائل يسير فيهما على وتيرة واحدة أم أن كلامه الآخر مناقض للأول، بل إن هذا الجمع المقصود منه أن يتبين هل هو مشى مع الحق والأدلة في الموضوعين فتعرف نزاهته، أو يتبين ميله في أحدهما فيدان بذلك الميل. أما حمل المطلق على المقيّد والمجلع على الميّن والعام على الخاص فهذا لا يكون إلا في كلام المعصوم ﷺ الذي لا يكون إلا حقاً، والله الذي الذي لا إله غيره أنّه ما استقر في عقلي أبداً منذ دخلت المدرسة السلفية وعرفت العلم أن كلام الناس يحمل مجمله على مفصله؛ لأن الفارق عظيم، والبون شاسع، فكلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يتحول ولا يتغير، اللهم إلا بالنسخ في زمن تنزل الوحي، فاتق الله يا أبا الحسن، وجانب التمويه والتعمية على طلاب العلم، فأنت ستسأل عن كل ما تقول وتكتب.

وقد سبق أن قلت أني احتزرت فقلت: لا لأنه شرع بنفسه، ولكن لنعلم موقف قائله من الشرع، وأعني بذلك أنه يحمّد إن وقف مع الشرع ويذم إن حاد عنه، وأنت حينما تحاول تبرير موقف المغراوي وتبرئته مما هو وقاع فيه من تكفير المسلمين بالذنوب والمعصية والكبيرة وإخراجهم من الإسلام، بذلك فضحت نفسك، وتبين أنك مناصر لأهل البدع، وبذلك وقع عليك اللوم والمقت بمداراتك

ومداجاتك عن المبتدعين، فلا أنت أخرجتهم من البدع، ولا أنت نجوت منها، وعند الله الملتقى. اهـ

16 - قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة:

وهذا مثل شيوعي خبيث فيه تجويز عمل كل شر من أجل الوصول إلى الغايات المطلوبة مهما كانت الوسائل مخالفة للشرع والدين، وقد استخدمت هذه القاعدة الحزبية كثيرًا، فأباحوا الانتخابات والديمقراطية والمظاهرات والبنوك الريبويه واختلاط الرجال بالنساء وترحموا على النصارى، كل ذلك للغاية التي يؤمّلونها، هي: الوصول إلى الحكم (زعموا)!!!

قال الشيخ مقبل رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(158) في كلامه على الحزبيين وفعلهم كثيرًا المعاصي: (المهم أن يطبقوا المثل الشيوعي: الغاية تبرر الوسيلة). اهـ

وقال الشيخ ربيع حفظه الله في كتابه «أهل الحديث هم الطائفة المنصورة» في كلامه على الإخوانيين: (ومن الأدلة على ذلك تعاطفهم وتحالفهم مع الملاحدة من بعثيين وعلمانيين وشيوعيين، وموادتهم لليهود والنصارى إذا كان ذلك يحقق لهم شيئًا من أهدافهم السياسية ومصالحهم الدنيوية على المبدأ الميكافلي: الغاية تبرر الوسيلة). اهـ

17 - قولهم بعدم حجية خبر الآحاد:

هذا القول أحدثه المعتزلة قديمًا، وقد رد عليه العلماء قديمًا وحديثًا، ومن رد عليه الإمام البخاري - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في كتابه الصحيح بكتاب خاص، ورد عليه الإمام الشافعي في «الرسالة»، والإمام ابن حزم في «إحكام الأحكام»، والإمام ابن

القيم كما في «مختصر الصواعق»، وغير واحد من المتقدمين والمتأخرين، ومن ألف فيه من المتأخرين مؤلفات مستقلة الشيخ الألباني - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، والشيخ ربيع المدخلي - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى -.

والصواب في هذه المسألة: أن الحديث إذا صح سنده، وعدلت روايته، وسلم من الشذوذ والعلة أنه يفيد العلم، وما يرد على هذا القول المبتدع أن الله عز وجل أرسل رسله آحادًا وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله إلى الملوك والأمراء وهم آحاد، والمؤذنون آحاد، وكم من الأحاديث في الباب، قال الشافعي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في «الرسالة» ص (267) وما بعدها: (وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقهه، وقد كانوا على قبله فرض الله عليهم استقبالها، ولم يكن لهم أن يدعوا فَرَضَ اللهُ في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة، ولم يلقوا رسول الله ﷺ ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة، فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعًا من رسول الله ﷺ، ولا بخبر عامة، وانتقلوا بخبر واحد إذ كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة، ولم يكونوا ليفعلوه - إِنْ شَاءَ اللهُ - بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله إذا كان من أهل الصدق، ولا ليحدثوا أيضًا مثل هذا العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحداثه، ولا يدعون أن يخبروا رسول الله ﷺ بما صنعوا منه، ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله ﷺ في تحويل القبلة وهو فرض مما يجوز لهم لقال لهم - إِنْ شَاءَ اللهُ - رسول الله: قد كنتم على قبله ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة من سماعكم مني أو خبر عامة أو أكثر من خبر واحد عني...

[ثم ساق - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بعض الأدلة على قبول خبر الواحد العدل، ثم قال:]

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر والياً على الحج في سنة تسع، وحضره الحج من أهل بلدان مختلفة وشعوب متفرقة، فأقام لهم مناسكهم، وأخبرهم عن رسول الله بما لهم وما عليهم.

وبعث علي بن أبي طالب في تلك السنة، فقرأ عليهم في مجملهم يوم النحر آيات من سورة براءة، ونبذ إلى قوم على سواء، وجعل لهم مدداً، ونهاهم عن أمور. فكان أبوبكر وعلي معروفين عند أهل مكة بالفضل والدين والصدق، وكان من جهلهم - أو أحدهما - من الحاج وجد من يخبره عن صدقهما وفضلهما. ولم يكن رسول الله ليبعث إلا واحداً الحجة قائمة بخبره على من بعثه إليه إن شاء الله.

وقد فرق النبي عملاً على نواحي عرفنا أسماءهم والمواضع التي فرقهم عليها. فبعث قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وابن نيرة إلى عشائرهم بعلمهم بصدقهم عندهم.

وقدم عليهم وفد البحرين، فعرفوا من معه، فبعث معهم ابن سعيد بن العاص.

وبعث معاذ بن جبل إلى اليمن، وأمره أن يقاتل من أطاعه من عصاه، ويعلمهم ما فرض الله عليهم، ويأخذ منهم ما وجب عليهم؛ لمعرفتهم بمعاذ ومكانه منهم وصدقه.

وكل من ولى فقد أمره بأخذ ما أوجب الله على من ولاه عليه.

ولم يكن لأحد عندنا في أحد ممن قدم عليه من أهل الصدق أن يقول: أنت واحد، وليس لك أن تأخذ منا ما لم نسمع رسول الله يذكر أنه علينا.

ولا أحسبه بعثهم مشهورين في النواحي التي بعثهم إليها بالصدق إلا لما وصفت من أن تقوم بمثلهم الحجة على من بعثه إليه.

وفي شبيه هذا المعنى أمراء سرايا رسول الله ﷺ، فقد بعث بعث مؤتة فولاه زيد بن حارثة وقال: «فَإِنْ أُصِيبَ فَجَعَفَرُ، فَإِنْ أُصِيبَ فَأَبْنُ رَوَاحَةَ».

وبعث ابن أنيس سرية وحده.

وبعث أمراء سراياه، وكلهم حاكم فيما بعثه فيه؛ لأن عليهم أن يدعوا من لم تبلغه الدعوة ويقاثلوا من حل قتاله.

وكذلك كل والي بعثه أو صاحب سرية. ولم يزل يمكنه أن يبعث واليَيْنِ وثلاثة وأربعة وأكثر.

وبعث في دهر واحد اثني عشر رسولاً إلى اثني عشر ملكاً يدعوهم إلى الإسلام، ولم يبعثهم إلا إلى من قد بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة فيها، وألا يكتب فيها دلالات لمن بعثهم إليه على أنها كتبه.

وقد تحرى فيهم ما تحرى في أمرائه من أن يكونوا معروفين، فبعث دحية إلى الناحية التي هو فيها معروف.

ولو أن المبعوث إليه جهل الرسول كان عليه طلب علم أن النبي بعثه ليستبرئ شكه في خبر الرسول، وكان على الرسول الوقوف حتى يستبرئه المبعوث إليه.

ولم تنزل كُتُبُ رسول الله ﷺ تنفذ إلى ولايته بالأمر والنهي، ولم يكن لأحد من ولايته ترك إنفاذ أمره، ولم يكن ليعث رسولاً إلا صادقاً عند من بعثه إليه.

وإذا طلب المبعوث إليه علم صدقه وجده حيث هو.

ولو شك في كتابه بتغيير في الكتاب أو حال تدل على تهمة من غفلة رسول الله ﷺ حمل الكتاب، كان عليه أن يطلب علم ما شك فيه حتى ينفذ ما ثبت عنده من أمر رسول الله ﷺ.

وهكذا كانت كتب خلفائه بعده، وعماهم، وما أجمع المسلمون عليه، من أن يكون الخليفة واحداً، والقاضي واحداً، والأمير واحداً والإمام.

فاستخلفوا أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، ثم عمر أهل الشورى ليختاروا واحداً، فاختر عبد الرحمن عثمان بن عفان.

قال: والولاية من القضاة وغيرهم يقضون، فتنفذ أحكامهم، ويقىمون الحدود، وينفذ من بعدهم أحكامهم، وأحكامهم أخبار عنهم.

ففيها وصفت من سنة رسول الله ﷺ ثم ما أجمع المسلمون عليه منه دلالة على فرق بين الشهادة والخبر والحكم...

وفي كتاب الله تبارك وتعالى دليل على ما وصفت:

قال الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: 1].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود: 25].

وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [النساء: 163].

وقال: ﴿وإلى عادِ أخاهم هودًا﴾ [الأعراف: 65].

وقال: ﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا﴾ [الأعراف: 73].

وقال: ﴿وإلى مدينَ أخاهم شعيبًا﴾ [الأعراف: 85].

وقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِذُ (١٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا (١٩) [الشعراء: 160-163].

فأقام جل ثناؤه حجته على خلقه في أنبيائه في الأعلام التي باينوا بها خلقه سواهم، وكانت الحجة بها ثابتة على من شاهد أمور الأنبياء ودلائلهم التي باينوا بها غيرهم، ومن بعدهم، وكان الواحد في ذلك وأكثر منه، سواء تقوم الحجة بالواحد منهم قيامها بالأكثر.

قال: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) [يس: 13-15].

قال الشافعي: فظاهر الحجج عليهم باثنتين، ثم ثالث، وكذا أقام الحجة على الأمم بواحد، وليس الزيادة في التأكيد مانعة أن تقوم الحجة بالواحد؛ إذ أعطاه الله ما يبين به الخلق غير النبيين). اهـ من كلام كثير.

وراجع للفائدة كتاب الشيخ ربيع «حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام». وكتاب الشيخ الألباني «الحديث حجة بنفسه».

18 - قوله: نحن رجال وهم رجال:

وهذه المقولة يقولها العقلانيون للتزهيد من فضل علم السلف على الخلف، والسلف إن كانوا كما يقول أصحاب العقول الكاسدة والأفكار الباردة: رجال!!! فنعم، لكنهم عايشوا نزول الوحي، وعرفوا الناسخ والمنسوخ، وتلقوا العلم من أفضل الخلق محمد ﷺ، ثم من كان بعدهم تعلم من الصحابة الكرام، وقد تقدم بيان طريقة السلف في العلم والخير، ويدخل في هذا قولهم: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

قال شيخ الإسلام في «الحموية» ص(202): (وَلَا يَجُوزُ أَيُّضًا أَنْ يَكُونَ الْخَالِفُونَ أَعْلَمَ مِنَ السَّالِفِينَ، كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ الْأَغْيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ، بَلْ وَلَا عَرَفَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا مِنْ أَنْ (طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمَ وَطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ) وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ قَدْ يَعْنِي بِهَا مَعْنَى صَحِيحًا. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَدْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ إِنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِالْفَاطِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فَقِهِ لِدَلِيلٍ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: 78]، وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللَّغَاتِ. فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ تِلْكَ الْمَقَالَةَ الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظُّهْرِ وَقَدْ كَذَّبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ. وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ وَسَبَبُ ذَلِكَ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ

الْأَمْرُ صِفَةٌ دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ النُّصُوصُ بِالشُّبُهَاتِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي شَارَكُوا فِيهَا إِخْوَانَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ، فَلَمَّا اعْتَقَدُوا انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنَى بَقُوا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ الْمَعْنَى - وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ السَّلَفِ - وَبَيْنَ صَرْفِ اللَّفْظِ إِلَى مَعَانٍ بِنَوْعٍ تَكْلُفٍ - وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ الْخَلْفِ - فَصَارَ هَذَا الْبَاطِلُ مُرَكَّبًا مِنْ فَسَادِ الْعَقْلِ وَالْكَفْرِ بِالسَّمْعِ؛ فَإِنَّ النَّفْيَ إِنَّمَا اعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى أُمُورٍ عَقْلِيَّةٍ ظَنُّوْهَا بَيِّنَاتٍ وَهِيَ شُبُهَاتٌ وَالسَّمْعُ حَرَّفُوا فِيهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. فَلَمَّا ابْتَنَى أَمْرُهُمْ عَلَى هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ الْكَفْرِيَتَيْنِ الْكَاذِبَتَيْنِ: كَانَتْ النَّتِيجَةُ اسْتِجْهَالَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَاسْتِبْلَاهِهِمْ وَاعْتِقَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا أُمِّيِّينَ بِمَنْزِلَةِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْعَامَّةِ؛ لَمْ يَتَبَحَّرُوا فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَلَمْ يَتَفَقَّطُوا لِدَقَائِقِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَأَنَّ الْخَلْفَ الْفُضَّلَاءَ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ فِي هَذَا كُلِّهِ. ثُمَّ هَذَا الْقَوْلُ إِذَا تَدَبَّرَهُ الْإِنْسَانُ وَجَدَهُ فِي غَايَةِ الْجَهَالَةِ؛ بَلْ فِي غَايَةِ الضَّلَالَةِ. كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخَّرُونَ - لَا سِيَّمَا وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلْفِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ كَثُرَ فِي بَابِ الدِّينِ اضْطِرَابُهُمْ وَغُلْظُ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ حُجَّابُهُمْ، وَأَخْبَرَ الْوَاقِفُ عَلَى نَهَايَةِ إِقْدَامِهِمْ بِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ حَيْثُ يَقُولُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُنْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرَفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرِ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ
وَأَقْرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا قَالُوهُ مُتَمَثِّلِينَ بِهِ أَوْ مُنْشِئِينَ لَهُ فِيمَا صَنَعُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ،
كَقَوْلِ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمْ:

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَنَاهِجَ الْفَلَسَفِيَّةَ؛ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَالِيًّا وَلَا تَزَوِي غَلِيًّا وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ. أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرُّبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي. اهـ وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وَخُضْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ إِنْ لَمْ يَتَذَكَّرْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِفُلَانٍ، وَهَذَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي. اهـ وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: أَكْثَرَ النَّاسِ شَكًّا عِنْدَ الْمَوْتِ أَصْحَابُ الْكَلَامِ. ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُخَالِفُونَ لِلْسَلَفِ إِذَا حَقَّقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ، لَمْ يُوْجَدْ عِنْدَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَخَالِصِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبْرٌ، وَلَمْ يَقْعُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ، كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ الْمُفْضَلُونَ الْمُنْقُوصُونَ الْمَشْبُوقُونَ الْحَيَارَى الْمُتَهَوِّكُونَ أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَمَ فِي بَابِ ذَاتِهِ وَآيَاتِهِ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِ الرُّسُلِ وَأَعْلَامِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى، الَّذِينَ بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا بَرَزُوا بِهِ عَلَى سَائِرِ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ وَأَحَاطُوا مِنْ حَقَائِقِ الْمَعَارِفِ وَبَوَاطِنِ الْحَقَائِقِ بِمَا لَوْ جُمِعَتْ حِكْمَةُ غَيْرِهِمْ إِلَيْهَا لَا سَتَحِيَا مَنْ يَطْلُبُ الْمُقَابَلَةَ ثُمَّ كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ الْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ - لَا سِيَّما الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَأَحْكَامِ أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ - مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاحُ الْمُتَفَلِّسَةِ وَأَتْبَاعُ الْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَوَرَثَةُ الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضُلَّالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ وَأَشْكَالَهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ: أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ. اهـ

وايم الله، لا يقول هم رجال ونحن رجال، ولهم عقول ولنا عقول زعمًا أنه مثلهم إلا من كان في طريقته دخن، وفي عقله سقم، وفي فهمه ركاسة.

قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وكفى بها اصطفاء؛ وهذا لكمال عقولهم، ولوفور شجاعتهم، ولحبتهم للخير، وتفانيهم في ذلك؛ ولذلك كانوا (أمنة للأمة) لما تقدم من حديث أبي موسى عند مسلم (2331)، وكانوا أصفى قلوبًا؛ لما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن الله عز وجل اطلع في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، ثم اطلع في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لدينه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن) أخرجه أحمد وقد تقدم.

قال الشيخ يحيى الحجوري في «الكنز الثمين» (31/5): وقد سئل عن حكم من يساوي بين فهمنا وفهم الصحابة للوحيين؟ قال: (هذا قول باطل، لا يصدر من رشيد، كيف يقول هذا والصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - هم الذين عاينوا الوحي، فكيف يصل هذا أو غيره من المتأخرين كائنًا من كان إلى فهم أحد الصحابة كابن عباس أو كفهم ابن مسعود القائل: ما من آية أنزلت إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ومتى نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني لضربتُ بطن مطيتي إليه، فمن سيكون كالصحابة، فالصحابة سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم واستفروا منه فيما أشكل عليهم، ونحن في زمن أصحابه مغلطون لا يبالون بما يخرج من أفواههم إلا من رحم الله.). اهـ

19 - قولهم: العادة محكمة:

قال الشيخ عبدالله البسام في رده على سمير شاما: (وقد جاء في كلام فضيلة شيخ الجامع الأزهر جملتان يحسن الوقوف عندهما ومناقشتهما: الأولى قوله: (العادة محكمة في كل ما ليس فيه نص شرعي).

فإن أراد بهذا أن العادة أصل من أصول التشريع التي تستمد منها الأحكام فهو غير صحيح؛ لأن الأصول انتهت بانتهاء عهد النبوة، والنبى ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن قاضياً وأقره على أصول التشريع: الكتاب والسنة والاجتهاد - الذي هو قياس الأشياء بالنظائر - لم يرجعه إلى عاداتهم. وعمر بن الخطاب حين كتب إلى أبي موسى كتابه المشهور في القضاء، قال له فيه: (الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك، وليس في كتاب ولا سنة، ثم قياس الأمور عند ذلك). فقد أمره إذا أعوزه الحكم في الكتاب والسنة أن يقيس ما لم يرد فيه النص على ما ورد فيه، ولم يرجعه إلى العادات والتقاليد، فليس العرف والعادة مصدر تشريع وتحكيم، وإلا لاستغنى الناس بعاداتهم عن الشرائع، ولصار مصدر الأحكام ما هم عليه من التقاليد. إن كان هذا مراد فضيلة الشيخ بتلك الجملة فسيحول الناس في أحكامهم على عاداتهم، وسيقولون: إن هذه النصوص كانت لزمن مضى وأحوال تقدمت، ونحن في زمن وحال غيرهما، فلا تصلح تشريعاً لنا، وإنما يجب أن نستمد أحكامنا وأنظمتنا من بيئتنا ومجتمعنا الذي نعيش فيه، ونسي المطالبون أن الذي أنزل هذه الشريعة عالم بما سيحدث وما يتجدد، فأودع في شرعه ما يسد حاجة كل جديد وقديم.

وإن أراد فضيلة الشيخ بكلامه أن العادة المطردة والعرف القائم بين الناس دليل ثبوت الحكم الشرعي، كأكل الضيف والمدعو من الطعام المقدم لهما ولو بلا إذن صريح من صاحب المنزل، وإعطاء القصار أو الخياط ثوبه لغسله أو خياطته بأجرة العادة، فهذا وأمثاله تعتبر فيه العادة مبنية لقدر الحق الشرعي. ومثله الرجوع إلى أهل المعرفة في بيان الغبن في البيع، أو العيب في المبيع اللذين أثبت فيهما الشارع الخيار للمشتري، وكذلك بيان نفقة الزوجة والقريب التي تختلف باختلاف الزمان والمكان، و (الحرز) الذي شرطه الشارع لقطع يد السارق يرجع في بيانه إلى العرف

الذي يحدده حسب الأموال والحكام والبلدان، وكذلك بيان ما يدخل في مسمى الدار عند إطلاق بيعها، وما لا يدخل يرجع فيه إلى العادة الجارية عند الناس، وكذلك بيان ما على المؤجر والمستأجر عند استئجار الدار والدابة، وما على المساقى وصاحب الشجر في المساقاة.

كل هذه المسائل وكثير من أمثالها للعرف فيها فضل البيان والتفسير للنصوص.⁽¹⁾

131- بعض المصطلحات العصرية التمييزية:

فأعداء الإسلام قد يأتون بمسميات لها معانٍ باطلة، وظاهرها السلامة؛ تلييسًا على المسلمين، ونشرًا للباطل المهين، ولما كان الأمر كذلك حذر الله عز وجل من مجاراتهم، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤُلُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]. قال القرطبي في «تفسيره» (2/56-57) ذاكراً مسائل: [الأولى:] ذكر [تعالى] شيئاً آخر من جهالات اليهود والمقصود نهي المسلمين عن مثل ذلك.

وحقيقة (راعنا) في اللغة أرعنا ولنرعك؛ لأن المفاعلة من اثنين، فتكون من رعاك الله، أي: احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك.

ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك، أي: فرغ سمعك لكلامنا.

وفي المخاطبة بهذا جفاء، فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الالفاظ أحسنها ومن المعاني أرقها.

(1) المرجع السابق ص (160-162).

قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا.

على جهة الطلب والرغبة - من المراجعة - أي: التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبًا، أي: اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبه سرًا فالآن نسبه جهراً، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أو لستم تقولونها؟ فنزلت الآية، ونهوا عنها؛ لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه.

الثانية: في هذه الآية دليلان: أحدهما: على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغضب...

الدليل الثاني: التمسك بسد الذرائع وحمايتها، وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حنبل في رواية عنه، وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة.

والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع. أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم، فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ، لأنه ذريعة للسب.

1 - النظام العالمي الجديد:

(النظام العالمي المعاصر) وهو كلمة أعلنها الرئيس الأمريكي (بوش) بعد أزمة الخليج (1411) وليس له لائحة معلنة ذات مواد، إنما حقيقته من خلال القوى العاملة في (المؤسسات الدولية) مثل: (مؤتمر وحدة الأديان) و (مؤتمر المرأة والإسكان) و (مؤتمر التعليم الدولي)، فهو نظام استعماري غربي من وجه جديد،

ضد أمم وحضارات وديانات الجنوب، وفي مقدمتها (الأمة الإسلامية) يهدف إلى سلب الدين والأخلاق وفرض التقاليد والتبعية لهم في خصوصيات حضاراتهم في الدين والأخلاق، ونشر الإلحاد والإباحية.⁽¹⁾

2- زعمهم أن الدين أفيون الشعوب:

الأفيون نوع من المخدرات التي تذهب الأبدان والأديان، وضررها عظيم وخطرها جسيم، وهي تعتبر من أشد أنواع المخدرات فتكًا، فاستخدم اليهود ومن إليهم هذا الاصطلاح للصد عن الدين. هذه مقالة نطق بها (كارل ماركس) اليهودي الذي نبش الشيوعية المزدكية اليهودية بعد ما قبرها الإسلام، فاخترع هذه المقالة يزعم بها أن الدين مخدر ومبلد للشعوب.

وكلامه مردود بالحق الحقيق بالقبول، وهو أن الدين الصحيح الحنيف ملة إبراهيم الذي أمر الله خلقه بإقامته دين يلهب القلوب والمشاعر، محرك لجميع الأحاسيس والقوى، دافع بها إلى الأمام، لا يقبل من أهله الذل والاستكانة والخضوع للظلم، ومجاملة الأعداء والسكوت على الباطل والفساد، أو الجمود على طقوس وأوضاع ما أنزل الله بها من سلطان، بل يوجب عليهم النهوض والاستعداد بكل قوة، وتسخير كل دابة ومادة على وجه الأرض أو في جوفها أو أجوائها كي لا يغلبهم عدوهم في ذلك، وأن يجعلوا جميع مواهبهم وطاقتهم في سبيل الله لإعلاء كلمته ومع المفترى عليه والبراءة ممن جانب دينه وتنكر لحكم شريعته، فهذا الدين الصحيح على العكس مما قاله اليهودي وأتباعه من تلاميذ الإفرنج الذين ربوهم وأبرزوهم لمحاربة هذا الدين الصحيح الذي لا يوقف في وجوه أهله لو حملوه كما

(1) «المستدرك على معجم المناهي اللفظية» ص (81).

أنزل، أما الأديان الأخرى المزعومة من لاهوتية وثنية فيصح أن يقال عنها بكلمة اليهودي؛ لتقيد أهلها بالخرافات وتقييدهم العلم الفني والاختراع عن الانطلاق.⁽¹⁾

3- دعوتهم إلى الحريات العامة:

أولاً، هذا التعبير الجديد يدعو إلى أن يكون المرء حرّاً في جميع الجوانب من غير ضوابط، وهذا لا يتأتى للمسلم، فإن الإنسان عبدٌ لله عز وجل، والعبد ينبغي أن يسير على مراد الله عز وجل ومراد رسوله ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: 92]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: 14].

ويدخل في هذا الاصطلاح عندهم الدعوة إلى الحرية الدينية على ما تقدم، ويدخل في الدعوة إلى الحرية الفكرية التي يستخدمها الشانئون للإسلام والمذهب أهل السنة والجماعة، يهدفون من خلاله إلى نشر البدع والكفریات والمذاهب الباطلة بدعوى حرية الفكر التي لا تقف عند ضوابط الشرع.

يقول الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (إن الإسلام قد أعطى كل إنسان حريته، لكن ما هي الحرية الصحيحة؟ الحرية الصحيحة: التحرر من قيود الشيطان ومن قيود النفس الأمارّة بالسوء؛ ولهذا كل من خالف الشرع فإنه رقيق وليس بحر، وإلى هذا يشير ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في بيّ أرى أن يُكتب بهاء الذهب، وذلك أنه قال:

فَرُّوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ وَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(1) «المستدرک علی معجم المناهی اللفظیة» ص(282-283).

يعني أنهم تحرروا من الرق الذي خلقوا له، وهو الرق لمن؟ الله عز وجل، ولكنهم ابتلوا برق النفس والشيطان، وهذا الذي يقول: أعطوني حريتي، نقول: نحن إذا أعطيناك حريتك وقلت ما شئت من الكفر والفسوق والأخلاق الرديئة فإنك قد ابتليت برق وهو رق النفس والشيطان، وعلى هذا نقول عن قمع الكفر ولو تظاهر الإنسان بالإسلام: إنه من واجبات الإمام.

وعلى هذا يجب على الإمام أن يجعل له نظراء ينظرون في كل ما يكتب في الصحف والمجلات وكل ما ينشر من الإذاعات المسموعة المرئية، وكل ما يُذكر في الكتب والرسائل المؤلفة ويجعل أمناء علماء لا يجعل علمهم بالانتساب أنهم منتسبون إلى كذا، فعلهم الحق في النظر بل يكونوا أمناء وعلماء بالشريعة، ويمنع كل شيء يدعو إلى الفسوق والمجون والكفر.

ومعنى قولنا (يجب) ليس حروفاً تكتب على ورق، بل هي مسئولية عظيمة يُسأل عنها الإمام بين يدي الله عز وجل، فعليه مسئولية قمع الكفر بأنواعه وأشكاله⁽¹⁾. اهـ

4- دعوتهم إلى التنوير:

فالتنوير مصطلح يطلق في الفكر الغربي على مجموعة واسعة من الكتابات ظهرت بدءاً من أواسط القرن الثامن عشر الميلادي وإلى نهايته في أواسط الفلاسفة والمفكرين في فرنسا أساساً، ثم إلى درجة أقل في بريطانيا وألمانيا. وهذه الأفكار ظهرت وسط بيئة مشابهة من ردود الأفعال على الحكومات والطبقات المشيدة (الملكية) في تلك الحقب، وعلى الأفكار الكنسية المصاحبة لها والمعضدة لها، كم

(1) «المستدرك على معجم المناهي اللفظية» ص(359).

ظهرت متأثرة بنضوج الفكر العقلاني (كما أسموه) الراجع بجذوره إلى عصر النهضة الأوروبية والمزدهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كذلك ظهرت تلك الأفكار على أعقاب التغيرات الكبرى التي حدثت في أوروبا (ومهدت لها) في القرن التاسع عشر فيما عرف بعصر العلم، وعصر الثورة الصناعية، وعصر صعود الطبقة البورجوازية، وعصر الثورات الكبرى (الأمريكية والفرنسية)، وعصر الفكر الحر، وعصر المذاهب الفلسفية الرئيسية (الهيكلية والماركسية)، تحدد مضمون الكم المؤسس لحركة التنوير في الأساس بالموقف من الدين وفكره - وهو هنا المسيحية - كما رسم الفكر العقلاني الإنساني السابق على حركة التنوير والمصاحب لها، ولهذا اتُّهم فكر التنوير بعداء شديد ورفض للدين مسوَّغ بالعقلانية التي ترفض الغيبيات، وتجمع بين الدين وبين الخرافة والخزعبلات في وعاء واحد.

وفكر التنوير يرفض أن تكون الكنيسة وسيطاً بين الإله والبشر، كما يرفض عقائدها المعروفة ويرفض كتبها المقدس بعد عرضه على مقياس العقل النقدي المادي التشكيكي النزعة، وعلى معيار علم التاريخ المعادي النزعة، ويستخدم فكر التنوير مفهوم العقل بعض التوجه المادي والتشكيكي على وجه الخصوص؛ ليوجه النقد إلى الدين (المسيحية) والكنيسة، ومؤسسات الحكم، والطبقة في الغرب في ذلك الوقت، كما يستخدم ليدخل مفاهيم جديدة تحل محل العقائد المرفوضة مثل مفهوم (الإنسان) ككيان عام، و (الإنسانية) ككيان مطلق يحدد وحده معايير حياته وقيمها وأهدافها انطلاقاً من إعمال العقل - (بمفهومه كحس عام مطلق موضوعي) - وفي شتى شئون الحياة، وهكذا تتحدد وترسم الملامح والمحددات والمفاهيم الكبرى لكفر التنوير، وهي: إعلاء شأن العقل بمفهومين هي: العقل المادي والتشكيكي من ناحية، والمطلق العام الموضوعي المشترك بين البشر من ناحية أخرى باعتباره وحده - (لا الدين ولا الوحي ولا الكتاب المقدس ولا الكنيسة التي

أسقطها النقد الموضوعي العقلي) - مناط الهداية والتوجيه والسلوك ورسم القيم والأهداف العامة في الحياة لذلك الكائن العام وهو الإنسان أو الإنسانية الذي أصبح وحده - (وليس الإله) - معيار كل شيء وواضع القيم والأهداف، بل هو هدف كل نشاط ومقصده. ومع العقل والإنسان تصبح الدنيا هي المحور الأساس لكل نشاط وعمل، بلب تصبح هي الوجود الوحيد. ولا وجود غيره (الآخرة مثلاً).

هذا اختصار شديد. لمجمل فكر التنوير ركزنا فيه على جانب الموقف من الدين وهو الجانب الرئيسي فيه، كما أنه الجانب الأكبر في دعوى التنوير التي بدأ بعض العلمانيين والتقريبين في العالم الإسلامي في الترويج لها في الفترة الأخيرة. والواقع أننا عندما نسمع في هذه الآونة الحديث المتكرر عن ضرورة وضع كل عقائد الإسلام وشريعته وكتابه وتاريخه على محك ما يسمى بالعقل - (وهو في الحقيقة عقل خاص بأصحاب الدعاوى وحدهم) - نلمح فيه بسرعة الكلام الذي كان يتردد في أوروبا في القرن الثامن عشر عن المسيحية وكنيستها وكتابها بدون تغيير يذكر، وهكذا تطير بجرة قلم كل الفروق العقدية والتاريخية والزمنية والسياقية لنجد أن كلامًا قليل في دنيا أخرى يُجلب ليكرر تقريبًا في عالم مختلف وبدون مراعاة لكل عوامل النسبية والتاريخية والتغير والسياقية والبيئية والخصوصية التي يقول الغربيون وأتباعهم عندنا إنه يجب مراعاتها في مثل هذه الأمور، بل يدعون أنهم يراعونها طيلة الوقت عندما يضربون عرض الحائط بالكثير من الأحكام التشريعية الإسلامية تحت شعارات مراعاة العصر والاجتهاد وما أشبه.

ومن هنا فالتنوير السائر هو في حقيقته ليس تنويرًا على الإطلاق، بل محاكاة وتقليدًا وجمودًا على أفكار غربية سقطت حتى من سياقها التاريخي والثقافي الخاص

إلى حد أننا أصبحنا اليوم نقرأ لقلة من مفكري الغرب تنحي هذا السقوط، وتدعو عبثاً لإعادة إحياء التنوير، وهيئات!!!

وفوق هذا، فالتنوير الذي يروج له بعض الناس الآن ليس تنويراً بالمفهوم الذي قد يتبادر إلى الذهن من نشر للعلم والفكر والتأمل العقلي، بل هو لا يعدو - كما قلنا - إطلاق شعارات عامة غامضة موجهة كلها ضد الدين (الإسلام) في إطار خطة لا تنويرية ولا عقلية ولا علمية، بل سياسية محضة، هي ما اصطلاح على تسميته بسياسة: مكافحة التطرف والإرهاب المزعومين والمنسوبين إلى الحركات الإسلامية وإلى دعاة الإسلام. وإذا كان من صدق في نية الحديث عن التنوير فكان يجب أن يكون كذلك عن الإسلام، وفي إطاره وخدمة لدعوته⁽¹⁾. اهـ

5- دعوتهم إلى التسامح الديني:

هذا القول يرغى به أهل الباطل ويزبدون، ويقومون به ولا يقعدون، والتسامح - بحمد الله - هو من شريعتنا المحفوظة بحفظ الله عز وجل لها، لكن هذا التسامح منوط بامتنال الكتاب والسنة والبعد عن المخالفات، قال الشيخ ابن عثيمين كما في «اللقاء الشهري» (8-7/11): (فالتسامح موجود في الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: 178]، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: 237]، ليس التسامح خاصاً بما ينشر عن دين المسيح عيسى بن مريم، بل التسامح في الإسلام، لكن تسامح الإسلام في حزم، أي أنه يشرع التسامح في الموضع الذي يكون فيه التسامح

(1) المرجع السابق ص (343-345).

خيرًا، وأحيانًا لا يكون التسامح خيرًا، ولهذا قيد الله عز وجل العفو بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40]؛ لأن العفو أحيانًا لا يكون حميدًا، أحيانًا يكون العفو سببًا لتسلط الأشخاص واستمرارهم في شرورهم، وإذا أخذوا بالحزم وعوقبوا بما تقتضيه جرائمهم من العقوبة، كان في هذا خير كثير وكف أذى، ولهذا يجب ألا نحكم العاطفة في العفو عن الجناة في كل حال، بل يجب أن يكون لدينا رأفة ورحمة، وأن يكون لدينا حزم وعزيمة وقوة، ألم تسمعوا قول الله عز وجل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: 2]، فنهى الله تعالى عن الرأفة للزاني والزانية، مع أن الرأفة مطلوبة، ومن أسماء الله الرؤوف، لكن الرأفة لها محل، والحزم والأخذ بالعقوبة له محل آخر. اهـ

6- دعوتهم إلى تطوير الدين:

(هناك مصطلحات تتعلق بالفكر الغربي والديانة المسيحية لا يجب أن يخضع لها الفكر الإسلام، من ذلك: (تطور الدين)، والدين الذي يتطور هو الدين البشري الذي لا يستطيع أن يعايش البيئات والعصور، فهو في حاجة إلى تعديل بالإضافة والحذف، وهذا لا ينطبق على الإسلام، ذلك لأن الإسلام منهج رباني متكامل جامع، له أطره الواسعة القادرة على الحياة والحركة مع مختلف المجتمعات والعصور؛ ولذلك لا يحتاج إلى تطور، وهو قادر على العطاء في كل وقت، وله قيمته الثابتة.⁽¹⁾

بحيث إنه دين يتميز بالشمول والكمال والحفظ، فهو صالح لكل زمان ومكان، والزيادة والنقص فيه من البدع المنكرة والقول على الله بلا علم، وقد تكلمت بتوسع

(1) المرجع السابق ص (332).

عن ميزة هذا الدين العظيم في كتابي «الأدلة الرضية في بيان حكم الديمقراطية»، وكتابي في الرد على أصحاب حوار الأديان.

7- دعوتهم إلى المعاصرة:

المعاصرة مصطلح حديث يراد به: نبذ الدين والتواكب مع أفكار الغربيين المخالفين لدين رب العالمين.

8- قولهم بتجديد الخطاب الديني:

المبطلون إذا أرادوا نشر شيء من الباطل جعلوا لهم طرقاً وسبلاً على ما تقدم، ومن هذه: قولهم بتجديد الخطاب الديني.

قال الشيخ صالح الفوزان - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى - تحت عنوان (ماذا يراد بتجديد الخطاب الديني):

(الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

تدور في هذه الأيام عبارات نسمعها ونقرأها في وسائل الإعلام حول إصلاح الخطاب الديني، ولا ندري ماذا يقصد بها؟!

هل يقصد بها تغيير نصوص الكتاب والسنة التي تأمرنا بجهاد الكفار والمنافقين وبفضحهم ومعاداتهم إذا لم يقبلوا هدى الله الذي جاء به محمد ﷺ، وتأمرنا بالقيام بالدعوة إلى الله والدخول في دينه وترك الكفر والشرك والبدع، وتأمرنا بالتقيد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

هل معنى إصلاح الخطاب الديني أن نترك هذه المهات العظيمة تحت شعار: حرية الرأي، وعدم كره الآخر، والرأي والرأي الآخر، وحرية العقيدة كما يقولون؟ وكما قاله من قبلهم للنبي ﷺ: ﴿أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ [يونس: 15]، وقال تعالى: ﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاَتَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: 73]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: 118]. ولو كانت هذه المقالة تصدر من اليهود والنصارى وحدهم لم نستغربها منهم؛ لأنهم حرفوا كتابهم وبدلوا وغيروا فيه، ولكن الغريب والعجيب أن تصدر هذه المقالة من بعض كتبنا وتنتشر في بعض صحفنا، وقد تعقد لها ندوات ومؤتمرات تأثرًا بمقالة الكفار وتنفيذًا لها.

أما إن كان المراد بإصلاح الخطاب الديني تغيير الغلط الذي يحل من بعض المسلمين في أسلوب الدعوة إلى الله، وفي الاعتداء على الناس والغدر في العهد والأمان مع الكفار الذين يكونون بين المسلمين والكفار فهذا الأسلوب ليس هو الخطاب الديني؛ لأن الله يقول: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، ويقول لموسى وهارون عليهما السلام في مخاطبتهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]، ويقول جل وعلا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، فالذي يخالف هذا التوجيه الإلهي في أسلوبه مع الناس لا يسمى خطابه هذا الخطاب الديني، وإنما هذا خطابه هو، وإنما الخطاب الديني: وضع الأمور في مواضعها، وتسمية الأشياء بأسمائها، والتمييز بين أولياء الله وأعداء الله، وإنزال الناس منازلهم، وتسمية المسلم مسلمًا والمنافق منافقًا والكافر كافرًا والعاصي عاصيًا أو فاسقًا، والتعامل مع كلِّ بما يليق به من غير ظلم ولا عدوان ولا غلو، ويجب تقييم الكفار إلى محارب ومعاهد ومستأمن، وإعطاء كلِّ

حكمه الشرعي من غير محاباة لأحد وتنازل عن شيء من أحكام الدين؛ طاعة للكفار والمنافقين، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿[القلم: 8-9]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيتٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿[الأنفال: 72-73]، أي: إلا يكن المؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، فتوالوا المؤمنون وتعادوا الكافرين، فإنها تحصل الفتنة في الدين، فلا يميز بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، وحينئذ تختلط الأمور وتفسد الأحوال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. صلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. اهـ

9- قولهم باحترام جميع الأديان:

هذا ما يقوله دعاة التقريب بين الأديان، وقد يقول دعاة التقريب بين أهل السنة وأهل البدعة: احترام المذاهب والفرق.

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في تعليقه على أحد الكتاب: (أما قول الكاتب: (وإننا نحترم جميع الأديان السماوية) فهذا حق، ولكن ينبغي أن يعلم القارئ أن الأديان السماوية قد دخلها من التحريف والتغيير ما لا يحصىه إلا الله سبحانه، ما عدا دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه وخليله وخيرته من خلقه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، فقد حماه الله وحفظه من التغيير والتبديل؛

وذلك بحفظه لكتابه العزيز، وسنة رسوله الأمين، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم؛ حيث قال الله عز و جل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، فقد حفظ الله الدين وصانه من مكائد الأعداء بجهازة نقاد أمناء، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وكذب المفتريين، وتأويل الجاهلين، فلا يقدم أحد على تغيير أو تبديل إلا فضحه الله وأبطل كيده. أما الأديان الأخرى فلم يضمن حفظها سبحانه، بل استحفظ عليها بعض عباده، فلم يستطيعوا حفظها، فدخلها من التغيير والتحريف ما الله به عليم. اهـ

10 - قولهم: بعض الأحكام تحتاج إلى إعادة نظر:

قال الشيخ ابن باز كما في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (431/5) عندما سئل سماحته عن هذه العبارات الشنيعة التي يتفوه بها بعض المنافقين على صفحات الصحف وفي القنوات ونحوها؟ فأجاب: (الأحكام التي شرعها الله لعباده وبينها في كتابه الكريم أو على لسان رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، كأحكام الموارث، والصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، ونحو ذلك مما أوضحه الله لعباده، وأجمعت عليه الأمة، ليس لأحد الاعتراض عليها، ولا تغييرها؛ لأنه تشريع محكم للأمة في زمان النبي ﷺ وبعده إلى قيام الساعة، ومن ذلك تفضيل الذكر على الأنثى من الأولاد وأولاد البنين والإخوة للأبوين وللأب؛ لأن الله سبحانه قد أوضحه في كتابه الكريم وأجمع عليه علماء المسلمين، فالواجب العمل بذلك عن اعتقاد وإيمان، ومن زعم أن الأصلح خلافه فهو كافر، وهكذا من أجاز مخالفته يعتبر كافراً؛ لأنه معترض على الله سبحانه وعلى رسوله ﷺ وعلى إجماع الأمة، وعلى ولي الأمر أن يستتبه إن كان مسلماً، فإن تاب وإلا وجب قتله كافراً

مرتداً عن الإسلام؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» رواه البخاري (3017). نسأل الله لنا ولجميع المسلمين العافية من مضلات الفتن ومن مخالفة الشرع المطهر. اهـ.

11 - قولهم: الحرية الدينية:

يقول الدكتور أحمد القاضي: (إننا ابتداءً لا نسلم بهذا التعبير: (الحرية الدينية)، ولا نعهده مصطلحاً شرعياً، بل هو تعبير وافد من بلاد الغرب، له مدلولاته ومقتضياته الخاصة. والقاعدة الشريعة المقابلة: (لا إكراه في الدين)، ولكن هذا المصطلح العصري: (الحرية الدينية) أوهم بعض الناس أن الإسلام يبيح سائر أنواع الممارسات الدينية التي تروق لصاحبها وحرية التنقل بين الأديان كيفما شاء، ولم يقل بذلك أحد من علماء الإسلام، ومن ثم استشكلوا حد الردة، ورأوا فيه مصادمة للحرية الدينية). اهـ⁽¹⁾

وقد تكلمت على هذه المسألة بتوسع في كتابي «الأدلة الرضوية في حكم الديمقراطية»، وكتابي الذي وضعته للرد على أصحاب وحدة الأديان.

12 - قولهم: الأديان السماوية:

وهذا الاصطلاح منهم يريدون به التوصل إلى أن جميع ما يُسمى بالأديان السماوية حق، سواء اليهودية أو النصرانية...

(1) «دعوة التقريب بين الأديان» (712/2).

قال الدكتور أحمد القاضي: (وصف تلك الأديان - سوى الإسلام - بـ (الساوية) باطل؛ لما يحمله من دلالة باطلة من كونها نزلت من السماء، والواقع أنها تحريف لما نزل من السماء). اهـ⁽¹⁾

وقد بين رسول الله ﷺ أن من أدرك الإسلام الحق من اليهود والنصارى ثم لم يؤمن كان من الكافرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» أخرجه مسلم (153).

وقد تكلمت عن هذا بتوسع في كتابي الذي سطرته في الرد على دعاة تقارب الأديان.

13 - دعوتهم إلى التطبيع:

التطبيع يعني باختصار: تحويل السلوك الطارئ الجديد إلى ما يشبه الطبيعي؛ ليصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان، أي: إقامة علاقات تخرج نحو الطبيعي الذي يسود علاقة الناس بحيث تصبح اعتيادية في القبول والتعامل المتبادلين.

ومن خلال مسيرة الصراع مع اليهود نجد أن الكيان اليهودي هو الذي أصر على جعل العلاقات مع العرب تبدو وكأنها طبيعية؛ حيث طرح استراتيجيات كبرى تطالب بالسلام والتعايش مع اليهود الغاصبين لضمان بقائهم في المنطقة.

والتطبيع برز كمصطلح واستراتيجية لتذويب العداء مع اليهود وكيانهم المتغصب لأرض فلسطين، ولإجراء عملية تغيير في النفسية العربية والإسلامية

(1) المرجع السابق ص (31 / 1).

وتعديلها لتتواءم وتتعايش وتتقبل الكيان اليهودي كجزء طبيعي مع حفاظ اليهود الصهاينة على مشروعاتهم العدواني.

وعمل الإعلام اليهودي للوصول بالعقل العربي إلى الاقتناع بأن التعايش مع العدو اليهودي هو المفتاح للأمن والاستقرار والسلام والرخاء، والذي يعني القبول بالكيان اليهودي كدولة مستقلة ذات حدود يسهل الدفاع عنها، والتسليم بالكيان اليهودي كحقيقة قائمة، والاستسلام لإرادة العدو ومخمصاته، ولهذا أصبحت مصطلحات السلام والتعايش مع اليهود مصطلحات تتكرر على مسامعنا ويشدو بها الإعلام صباح مساء، وتُعقد لها المؤتمرات والندوات.

والتطبيع - أي: جعل العلاقات طبيعية - وكأن من لم يرتبط بمعاهدات سلام مع اليهود يكون أمره غير طبيعي، فأسموه السلام العادل والشامل، وهذه كلها مصطلحات يحاولون التأثير بها علينا وعلى أدمغتنا بجعلها أمراً واقعاً، باعتبار ذلك هو الأقرب للعقلانية، وأصبحوا ينعنون كل من هو رافض للعلاقة والتعايش السلمي مع اليهود بالجهل؛ لأنهم لا يقبلون وجهة نظر الطرف الآخر!!⁽¹⁾

14 - قولهم: الدين لله والوطن للجميع:

هذه المقالة انبثقت مما قبلها، وصاغها الحاقدون على الإسلام الذين رموه بالطائفية بهذه الصيغة المزوقة؛ إفكاً وتضليلاً ليعبدوا أحكام الله ويفصلوه عن جميع القضايا والشئون الوطن الذي جعلوه ندّاً لله، وفصلوا بسببه الدين عن الدولة، وحصروه في أضيق نطاق، فأعادوا بذلك الحكم القيصري والكسروي بألوان وأسماء جديدة - والعبرة بالمعاني - من سوء التحكم والأعمال المخالفة للشرع،

(1) «المستدرك على معجم المناهي اللفظية» ص(61).

وعدم العدل إلا بالأسماء والألقاب، فهي خطة شركية قلّ من انتبه لها، ولا يجوز للمسلمين إقرارها أبداً، ولكن غلبت عليهم سلامة الصدر فاغتروا بما يطلعه أولئك من الدجل والتهويل ويخادعون به الله والمؤمنين من دعوى تعظيم الدين والارتفاع به عن مستوى السياسة التي هي غش وكذب ليخدعوا به المسلمين ويخرسوهم، والله لا يرضى من عباده أن يتهاونوا بالحكم ويتنازلوا عن حدوده قيد شعرة، أو تنقص فيهم الرغبة الصادقة في تنفيذه - بدلاً من أن تنعدم - لحب وطن أو عشيرة، بل لحب ولد أو والد أو أخ قريب.

فالدين الذي لله يجب أن يسيطر على الجميع ويكون أحب وأعز من الوطن، وأن لا يتخذ الوطن أو العشيرة نداءً من دون الله، وعمل من أجله ما يخالف حكم الله، وتبذل النفوس والأموال دون كيان العصبية القومية وفي سبيل الوطن، لا في سبيل الله لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، بل لتعزيز المفتري عليه؛ فهذه وثنية جديدة أفضع من كل وثنية سبقتها؛ إذ يعملون تحت هذا الشعار الوثني ما يشاءون ويخططون لحياتهم الوطنية تخطيط من ليس مقيداً بشريعة ربه، وكونها أفضع من وثنية هو لمزيد فتنها وإخراجها للناس بهذا الأسلوب الذي صاغته (أوروبا) هروباً من حكم الكنيسة، والله يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149]، وقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 100].

وقد عملوا منذ زمن طويل على ذلك حتى كسبوا بعض أولاد المسلمين، فنفذوا لهم هذه النحلة من أجلها فيما يزعمون في تقديس الجنس، وعطلوا الإسلام،

وأوقفوا زحفه؛ إرضاءً لهذه الأقلية وإغضاباً لله، بينما هي تزحف بالدعاية النصرانية وبث الإلحاد على حساب المسلمين، وفي عقر بيوتهم، وجعلوا الحكم لغير الله من أجلها، أباحوا من أجلها ما حرم الله بإقرارهم له وإعفاء مرتكبه من العقوبة ليشهدوا لهم مع تلاميذ الإفرنج من أبنائهم أنهم متحررون كُفَّءً للحكم.

فيا له من دين جعلوه يتلاشى أمام مصالح الوطن وأوضاعه التي يعشقونها، فكأنهم قالوا: (الدين لله يطرح ظهرياً ليس له حق في شئوننا الوطنية من سياسة وعلم اقتصاد وغيره) مرحى مرحى لهذا الدين المعطل المطروح على الرف!!!

قلت: ومن نظائر تلك المقولة: (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة - الدين علاقة بين العبد وربّه فقط - الحكم للشعب - الشعب مصدر السلطات - التمسك بالدين رجعية) ونحوها.⁽¹⁾

15 - زعمهم أن الدين سبب الطائفية:

هذه فكرة ركزها الاستعمار في تعليمه الثقافي - الذي هو امتداد للحروب الصليبية - ضمن تخطيط صهيوني أثبتته البروتوكولات الصهيونية المكتشفة، تلقاها بالقبول والتشجيع أصحاب المبادئ القومية، والمذاهب المادية، والنحل الثنوية المطلية بشعارات يستحسنها الذي نسوا حظاً مما ذكروا به، والمرجعون لحاجات في صدورهم، وهي منبثقة من تلك البروتوكولات. والدين الإسلامي الصحيح على العكس مما رموه به؛ فهو صدر الوحدة الصحيحة وتحقيقه سبب العز والتمكين والتضامن والتراحم والبذل والإيثار.

(1) المرجع السابق ص (289).

فلما احتلت العادة والأناثية مكاناً في القلوب لعبت السياسة دورها في بث
التفرقة والشقاق باسم مذهب أو أسرة، وباسم ملة أو نحلة وفلسفة... هذا كله مع
التظلم من الأوضاع، والتنديد بالمسؤولين والاختلاق والأكاذيب وتزوير الوثائق
والمكاتيب لإضرام نار الفتنة والتحزب، حتى جاء دور [الحروب الصليبية العاشمة
البشعة وما أعقبها] من تعسف سياسي ومكر ومؤتمرات لثيمة تصبغ بأسماء مذهبية
على الرغم من حسن معاملة المسلمين مع الغزاة المغلوبين، والخونة المجاورين من
أولئك، وكل هذا امتداد لما قبله من الدسائس السياسية ضد الإسلام ليشغلوا أهلها
في أرضهم، ويوقفوا مده التنويري عنهم، فيبقى كالمريض في بيته، فما يُرى من ظاهر
الطائفية المذهبية هو في الحقيقة مبادئ وأحزاب سياسية مطلية بطلاء المذهبية
المختلفة.

العيب والجريرة هي على السياسة الماكرة الكافرة، لا على الدين الصحيح الذي اختاره الله أساساً للوحدة بجميع معانيها.

ثم إن الصليبيين لما عجزوا عن محاربة الإسلام بالسيف غزوه ثقافياً بذلوا فيه الأموال الطائلة للمبشرين، ولما أخفقوا بعد مجهودهم الكبير وأيقنوا استحالة تنصير المسلمين أبرموا الأمر الجديد كإخراج أبنائهم منه فقط، دون أن يتشرفوا بالدخول في المسيحية - على زعمهم - بل يعيدوهم إلى ضروب من الوثنية تحت تقديس الجنس والوطن واستبدال محبة الله ورسوله بمحبة هذه الطقوس والشعارات، ودعوى العمل للوحدة التي تجمع الفرق تحت اسم القومية، ولا تحل فيهم الأنانية الانتهازية.

وقد عكس الله مقاصدهم وأحاط مجتمعهم بالفوضى وكافة الخلافات والمخازي، ولكنهم يغالطون ويخادعون لتبرير خطتهم الإثمية، وتغطية باطلهم على الأغمار والسطحيين، فيرمون الدين بدائهم هم؛ يرمونه بالطائفية وهم بها أحق وألصق، وقد تمس هذه الفكرة الخاطئة لفيف من النصارى ليخدعوا بها المسلمين على حساب الدين الإسلامي الصحيح الذي بشر به عيسى فكذبوه، وهو الذي اعترف بكرامة عيسى وأظهر براءة أمه، فأبى لؤمهم إلا أن يخاصموه ويمكروا بأهله ويوالوا اليهود وينفذوا مخططاتهم ضده، وهم الذي آذوا عيسى وحاولوا قتله وقالوا فيه وفي أمه بهتاناً عظيماً، وكانت خطتهم على حساب ديننا لا على حساب دينهم المزعوم الذي يبرأ منه عيسى وكل نبي.

وقد تضمن الله الوحدة والعز والتمكين بتحقيق دين محمد ﷺ، وكتب الشقاق العقيم على من تنكب عنه وتولى؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ

أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴿١٣٧﴾ [البقرة: 137]، فحصر الله حالتهم في الشقاق كما هو واقع فعلاً بينهم الآن، على الرغم من زعمهم الوحدة الكاذبة وموالاتهم أعداء الله ورسله؛ تبديلاً منهم لقول الله الذي نهاهم عن موالاتهم وأمرهم بالبراءة منهم كلياً، والله غالب على أمره.^(١)

16 - دعوتهم إلى تطبيق روح الإسلام:

مصطلح (روح الإسلام) يتخذونه قاعدة لهم في ترك نصوص الشريعة، وهدم أحكامها المأخوذة مباشرة من تلك النصوص، حتى وإن كان النص قطعي الثبوت قطعي الدلالة - مع اعترافهم وشهادتهم على أنفسهم بهذا القطع - وتجد هذا في كتابات نور فرحات مكرراً مؤكداً.

كما يتخذون (روح الإسلام) طريقاً إلى وضع أحكام جديدة من عند أنفسهم تعارض ما جاء به الإسلام ويزعمون لأنفسهم أنهم أفهم لغسلام من الدعاة الحرفيين، الذين أهملوا - بحسب قولهم - العمل بروح الإسلام، كما أهملوا - بزعمهم - إعمال العقل!

وهكذا، باسم (روح الإسلام) ينتهون إلى وقف نصوص الشريعة ووضع قانون يخترعونه، وباطل يشترعونه بزعم أنه روح الإسلام، أو أنه يتفق وروح الإسلام.^(٢)

(١) المرجع السابق ص (286-289).

(٢) المرجع السابق ص (36).

17 - دعوتهم إلى وسطية الإسلام:

تقدم كلام أهل العلم في بيان أن هذا الدين وسط، أي: عدل خيار، إلا أن أهل الضلال والبدع والكفر والزندقة يريدون تميع الدين، والأولى التعبير بلفظ (الوسط) الذي جاء به النص، لكن قد درج الناس وكثير من الكتّاب إلى استخدام هذا الاصطلاح، فذكرناه استطرادًا معهم.

(بيد أن مفهوم الوسطية في الإسلام قد تعرض كما تعرض غيره من المفاهيم إلى قدر غير يسير من الخلط والتشويه، إن بحسن نية وإن بسوء نية، فتحت دعوى وسطية إسلامية تميعت كثير من القضايا الإسلامية واختلط فيها الحق بالباطل، وضل عن معرفة الحق الكثيرون.

فنحن نجد بين الإسلاميين مثلًا من ينادي بالديمقراطية نظامًا للحكم، ثم لا ينجل من أن ينسب ذلك إلى الإسلام، بل يعتبر ذلك من وسطية الإسلام، وأنه لا يخالفه في ذلك إلا من شذ عن مجمل الخطاب الإسلامي العام، ونجد بعض أهل العلم المعاصرين يفتي بأن الإسلام لا يحرم النهج الديمقراطي، بل يقول إنه إن وصل الإسلاميون إلى الحكم ثم اختار الشعب غيرهم من انتخابات تالية فعليهم أن يتنازلوا طواعية عن الحكم لمن يحكم الناس بالعلمانية أو الشيوعية أو غيرها من المذاهب الأرضية!!!

ويوم أن أعلن أن تركيا قد سحبت اعتاقها بجامعة الأزهر لم يجد رئيس جامعة الأزهر دفاعًا عن جامعته إلا أن يقول: إنها تمثل الوسطية وتنبذ التطرف، هذا مع أن الحكومة التركية لم يتقدم على قرارها المذكور خوفًا مما يسمونه بالتطرف، وطلبًا

للوسطية والاعتدال، بل القاصي والداني يعلم أنها إنما فعلت ذلك تنفيذًا لمبادئ علمانية معادية لكل ما هو إسلامي.

وليس من غرضي في هذه العجالة أن أستقصي مظاهر الخطأ في فهم قضية الوسطية، وإنما أريد هنا أن أذكر بعدة حقائق أرى أنها لا بد من أن تكون ماثلة في الأذهان عند كل حديث عن قضية الوسطية.

الحقيقة الأولى: أن الوسطية من الناحية اللغوية مصدر صناعي من الوسط، وهو العدل الخيار، قال في «القاموس»: (الوسط محرّكة من كل شيء)، وقال في «النهاية»: (يقال: هو منأوسط قومه، أي: من خيارهم)، ومنه قول الصديق عليه السلام: يوم السقيفة عن قريش: (هم أوسط العرب نسبًا ودارًا).

وعلى هذا المعنى اللغوي ينبغي أن تفسر وسطية الإسلام، وبهذا التفسير جاءت السنة المطهرة، ففي صحيح البخاري (4487) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَحْيِ نُوْحٌ وَأُمَّتُهُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ يَقُولُ: نَعَمْ، أَيُّ رَبِّ، يَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ يَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، يَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143] وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ».

والشاهد من ذلك قوله: (والوسط العدل)، وقد بين الحافظ في «الفتح» أن قوله: (والوسط العدل) من كلام النبي ﷺ وليس مدرجًا كما توهم البعض.

وأيضًا فهذا التفسير هو المتسق مع كون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]: (أي: خيارًا عدولًا، ويدل لأن الوسط الخيار العدول قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]). اهـ

ثم إن تفسير الوسطية بالعدالة والخيرية وهو المتفق مع مرتبة الشهادة التي نالتها هذه الأمة، فالشاهد لا بد أن يكون عدلاً، وفي «فتح الباري»: (وشروط قبول الشهادة العدالة، وقد ثبت لهم هذه الصفة بقوله وسطاً، والوسط العدل).

وهذا التفسير مروي عن جمع غفير من السلف، منهم ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم.

وقد قال الطبري - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً: عدولاً لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممهم بالبلاغ...).

وقال الحافظ ابن كثير: (الوسط ههنا: الخير والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً). ثم استدل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بحديث أبي سعيد السابق.

الحقيقة الثانية: أن هذا الذي ذكرناه من أن الوسطية هي الخيرية لا ينافي ما صدرنا به الكلام من كون الوسط هو الجزء بين طرفين؛ إذ قد ظهر بالاستقراء صحة هذا المعنى أيضاً، لكننا نقول - والله أعلم -: إن هذا المعنى للوسطية هو كالنتيجة لكون الإسلام وسطاً بالمعنى الأول، ذلك أن الله تعالى: قد جعل شريعته الغراء هي الحق في مقابل أهواء البشر وضلالاتهم، كما قال تعالى لرسوله الكريم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18]،

ولما كانت الأهواء متناقضة يميل بعضها إلى الغلو وبعضها إلى التقصير، فإن الحق الذي هو شريعة الله لا بدّ وأن يكون وسطاً بين هذه الأهواء المتضاربة.

والمقصود من ذلك بيان أنه وإن كان الغالب أن يوجد في كل قضية طرفان مذمومان بينهما وسط ممدوح، إلا أن ذلك ليس بحتم لازم، ولا يقدر ذلك في فكرة الوسطية؛ لأن معناها الأصلي وهو الخيرية موجود على كل حال.

ولذلك فإن ما يقرره أهل الفلسفة من أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ليس صحيحاً على إطلاقه، فلئن صح أن تكن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، وأن يكون الكرم وسطاً بين الإسراف والبخل.. إلى آخر ما ذكره، فإن قاعدتهم لا تنطبق على مثل فضيلة الصدق وفضيلة العدل، فالصدق يقابله الكذب، ومثله العدل يقابله الظلم، وليس منهما وسطاً بين رذيلتين.

وربما يجد الناظر وسطاً بين باطلين، ومع ذلك فليس هو بالحق بل هو باطل مثلها.

ألا ترى أن المعتزلة قد توسطوا في باب الإيمان بين الخوارج القائلين بتكفير أهل الكبائر، وبين المرجئة القائلين بأن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان؛ حيث قال المعتزلة: إن مرتكب الكبيرة فاسق خرج من الإيمان لكنه لم يدخل في الكفر، فوسطية المعتزلة في هذه الجزئية ليست مما يمدح؛ لما اقترن بها من الباطل، مثل الحكم على أهل الكبائر بالخلود في النار، فهي تخالف الوسط الذي بمعنى الخيرية، وهو الذي جاءت به نصوص الشرع الحنيف.

الحقيقة الثالثة: أن وسطية الإسلام ليست بمعنى الوسط الحسابي الذي يعرفونه في علم الإحصاء المعاصر بأنه: ناتج قسمة مجموع القيم على عددها، ولا هو

بمعنى الوسيط، وهو القيمة التي تقسم المجتمع إلى قسمين بحيث يكون ما قبلها متساوياً لما بعدها، أي: الإسلام ليس وسطاً بمعنى أنه يحتوي على نسبة متساوية من كل من الطرفين، أو أنه يقف في نقطة تبعد بنفس المسافة عن كل من الطرفين.

فنحن نعلم - مثلاً - أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين المشبهة والمعطلة، ومع ذلك فمسافة ما بين أهل السنة وأهل التعطيل أبعد من مسافة ما بين أهل التشبيه، قال في «شرح الطحاوية»: (وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه، فإن شبهة النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ).

وفي واقعنا المعاصر كان يقال دائماً: إن الإسلام وسط في باب المال والاقتصاد بين الرأسمالية والشيوعية، ومع ذلك فالرأسمالية مع فسادها وضلالتها أقرب منهجاً إلى الإسلام من الشيوعية، ولا يصح أن يقال إن الإسلام يقف في المنتصف تماماً بين الرأسمالية والشيوعية.

الحقيقة الرابعة: أن الوسطية وصف ثبت لهذه الأمة بالجعل الإلهي القدري، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: أن الوسطية ليست منهجاً في استنباط الأحكام، ولا هي حتى طريقة من طرق الترجيح التي قد يلجأ إليها المجتهد عند تعارض الأدلة، أو عند تناقض الأقوال الواردة عن السلف في مسألة ما.

ومعنى ذلك أنه ليس على طالب الحق أن يسعى إلى الرأي الوسط في كل أمر يعرض له، وإنما الواجب عليه أن يسعى لمعرفة حكم الشرع عن طريق الأدلة الشرعية، فإذا وصل إليه كان هذا هو الوسط الذي أراده الله، سمة من سمات هذه الملة.

وبعد، فلعله قد استبان من هذه الحقائق التي ذكرناها بطلان ما يدعيه دعاة العصرية الذين ينهجون نهجاً توفيقياً يحاولون فيه المواءمة بين حقائق الإسلام وبين ما يفد إلينا من ثقافة الغرب وحضارته، ولعله قد استبان أيضاً عدم صحة ما يبيده بعض الإسلاميين من تنازلات وتساهلات في الأحكام الشرعية بدعوى الحفاظ على مبدأ الوسطية.

وعلى ذلك فلا يصح أن يجعل البعض من قضية الوسطية سيفاً مسلطاً على كل من خالفه، فيرميه بأنه قد غلا وخالف الوسطية والاعتدال، وقد يكون الحق أن ذاك المتهم بالغلو هو الأقرب إلى الصواب، وأن هذا الذي يدّعي الوسطية هو المتساهل المفرط.

وإذا كنا قد لا نجد حيلة في إقناع أولئك الذين يريدون أن يخضعوا الدين لمقتضيات العصر، فإن واجب النصيحة يلزمنا أن ننصح المتساهلين من المتسيين للعلم والدعوة بأن يراجعوا مواقفهم، وأن لا يسمحوا لضغط الواقع المرير الذي تعيشه الأمة بأن يؤثر على الرؤية الشرعية التي يجب أن تحتكم إلى مقتضى الدليل الشرعي، فما قضى الدليل بأنه غلو يخالف الوسطية فهو كذلك، وما لا فلا.

وليعلم هؤلاء أن مما يعدونه مخالفة لمبدأ الوسطية ما قد وقع الإجماع على أنه الحق الذي ما بعده إلا الضلال، وأكتفي هنا بذكر مثال واحد يبين صحة ما أقول، وهو يتعلق بالمواقف من أهل الكتاب في ديار المسلمين.

فالشريعة المطهرة قد جاءت بأحكام واضحة في شأن معاملة أهل الكتاب المقيمين في دار الإسلام، منها: وجوب إلزامهم بأحكام الإسلام فيهم، وعلى رأسها دفع الجزية؛ كما قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿[التوبة: 29]

ومنها: أنه يجب على المسلمين بغضهم وعدم موالاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]، وقال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22] الآية.

ولكن هذه الأحكام القطعية صارت عند بعض المنتسبين للعلم والدعوة في بعض بلاد المسلمين غلوًا، وصار القائل بها متطرفًا مخالفًا لوسطية الإسلام تجب البراءة منه إن لم نقل يجب تحريض السلطات عليه!!! فهيها هو شيخ الأزهر (الشيخ طنطاوي) يزور كاتدرائية النصرى في القاهرة ليهنئ (الأبنا شنودة) بها يسمونه عيد الفصح، ويصرح طبقًا لما أوردته جريدة الحياة بتاريخ (24/12/1418هـ) بأن (اللقاء مع شنودة وقيادات الكنيسة يعبر عن الإخاء الصادق، والمحبة الخالصة لوجه الله. ويقول: إننا دائماً نلتقي حيث لا عداوة ولا بغضاء بين أي مسلم وأي مسيحي في مصر والقيادات الإسلامية والمسيحية متحابّة، بل وأصدقاء)!!!

أما المفتي (الشيخ نصر فريد) فقد قال في نفس اللقاء: (إن لقاءنا مع البابا وقيادات الكنيسة هو تجسيد لوحدة هدف المصريين جميعاً، ونموذج عملي للعالم كله على تسامح مصر الديني ونبذها بل وتحريمها التعصب والفرقة والانقسام بسبب العقائد).

وكذلك قد اعتادت إحدى الجماعات الإسلامية بمصر أن ترسل إلى الكنيسة وفدًا في كل عيد من أعياد النصرى لتهنئتهم به، وقد أصدرت تلك الجماعة منذ

سنوات بيّناً تبين فيه موقفها من الأقباط، فكان مما جاء فيه: أن الجامعة ترى: (أن المواطنة أو الجنسية التي تمنحها الدولة لرعاياها حلت محل مفهوم أهل الذمة، وأن هذه المواطنة أساسها المشاركة الكاملة والمساواة التامة في الحقوق والواجبات...).

وهذا الذي يزعمون أنه من وسطية الإسلام واعتداله باطل بيّن البطلان، يرده ما أوردناه من الآيات وغيرها من أدلة بغض الكافرين وإلزامهم بدفع الجزية وعدم مساواتهم بأهل الإسلام، وقد جاء في «فتاوى اللجنة الدائمة» (541/1): (وأما من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر).

بل إن مجرد تهنئة أولئك النصارى بأعيادهم مما وقع الاتفاق على تحريمه كما ذكر الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، كما بين أن فاعله إن سلم من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهتئهم بسجودهم للصليب، فإننا لله وإنا إليه راجعون.⁽¹⁾

(1) المرجع السابق ص (85) وما بعدها.

18 - الديمقراطية:

ومن أسباب تميع الدين والدعوات هو دعوة الديمقراطية، هذه الدعوة الهدامة التي قامت على مبادئ وأسس هي حرب للدين، وإليك ملخصاً لبعض تعاريفها وأفكارها؛ حتى تكون حذراً منها.

معنى كلمة الديمقراطية:

الديمقراطية كلمة يونانية، تتكون من مقطعين:

1- ديمو (DEMOS) ومعناها: الشعب.

2- قرطس (KRATOS) ومعناها السلطة.

والكلمة مجملة، تعني: (سلطة الشعب)، وبتعبير آخر (حكم الشعب نفسه بنفسه).

وقد عرفها الرئيس الأمريكي (لنكولن) بأنها: حكم الشعب بالشعب وللشعب.

والديمقراطية كمذهب فلسفي، هي المذهب الذي يرجع أهل السلطة السياسية إلى الإرادة العامة للأمة.

وهي كنظام حكم ذلك النظام الذي ينشأ وإليه الإرادة العامة، والذي يستوحي روح المذهب الديمقراطي.

وقال أحمد بن عبدالكريم أحد أبواق الدعوة إلى الديمقراطية: يشير مفهوم الديمقراطية إلى نسق سياسي قائم على مبدأ ممارسة الحكم من خلال موافقة المحكومين وتقبلهم له.

ومن هذه الموافقة تستمد الحكومة شرعيتها، وبالتالي تصبح الديمقراطية مذهباً فلسفياً، ونظاماً تطبيقياً للحكم، في الوقت نفسه فهي كنظام فلسفي تعني: أن الأمة هي مصدر السلطة والقوة، وإرادتها منبع السيادة ومصدرها في الدولة، ولا تكون هذه السيادة شرعية إلا إذا انبعثت من إرادة الأمة، واستندت إليها.

وهي كنظام حكم تكفل الحقوق والحريات الفردية، وبالتالي يصبح الشكل الديمقراطي للحكم طريقة حياة، وطريقة للنظر إلى الأشياء والشعور تجاه الإنسانية والمجتمع والسلوك الإنساني. اهـ من «الديمقراطية في اليمن» ص(65).

الحكومة الديمقراطية: هي الحكومة التي تجعل الشعب صاحب السلطة ومصدر السيادة، وهي تعني في النهاية حكم الأغلبية.

قال صاحب «الديمقراطية في اليمن»: والنتيجة التي أخلص إليها: أن الديمقراطية هي كلمة مطاطة لا يمكن حصرها في تعريف واحد. اهـ

نشاطها:

هذه الفكرة بزغت من عصور متقدمة، (أي قبل الميلاد) وقد شهدت مدينتي أثينا وإسبراط اليونانيتين تطبيق هذه الفكرة، وقد عبر عنها أفلاطون بقوله: إن مصدر السيادة هو الإرادة المتحدة للمدينة، أي الشعب، في حين وضع أرسطو أنواع الحكومات فقال: إنها ثلاث ملكية، وأرستقراطية، وجمهورية أي، يتولى الشعب زمام أموره بنفسه.

ثم أندثرت بعد ذلك الديمقراطية، وعاشت أوروبا تحت نظام الإقطاع لقرون طويلة، ثم ظهرت من جديد حيث لعبت الأيدي اليهودية بجد على ظهورها تحت شعار ما يسمى بالماسونية وغيرها من الشعارات.

وكان للمفكر الإنجليزي (جون لوك) دور كبير في الدعوة إلى مبادئ الديمقراطية في القرن السابع عشر ضد السلطان المطلق للملوك، وتأثيره الكبير في المفكرين عامة، خلال القرن الثامن عشر خاصة، (فولتير) و (منتسكير) و (روسو) من المفكرين الفرنسيين أدى ظهور هؤلاء المفكرين إلى قيام الثورة الأمريكية، وإعلان الاستقلال عام 1776م، وتقرير مبدأ الحقوق والحريات للأفراد.

وقامت قبل ذلك الثورة الإنجليزية عام 1649م وعام 1688م، وأعلنت وثيقة الحقوق سنة 1689م التي أرسى النظام البرلماني.

وكان لتعاليم دعاة الديمقراطية خاصة (روسو) وقيام الثورة الإنجليزية وبعدها الأمريكية وبداية المناذاة بها في الثورة الفرنسية، تحت شعار الحرية، الإخاء، المساواة. ثم بلورت ذلك في إطار قانوني ملزم، وكان ذلك في إعلان الحقوق الفرنسي الصادر عام (1789م)، حيث جاء في المادة الثالثة (الأمة مصدر السيادة ومستودعها وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها).

ثم بثّ في الدستور الفرنسي الصادر عام (1791م)، فنص على أن السيادة ملك للأمة، ولا تقبل التجزئة ولا التنازل عنها ولا التملك بالتقادم.

فتلخص من هذا: أن الثورة الفرنسية، ومن قبلها الأمريكية والإنجليزية نقلت المبدأ الديمقراطي الذي نادى به المفكرون إلى مبدأٍ وضعي مطبق بالفعل، ومنصوص عليه في دساتير الحكم المختلفة.

ثم انتشر فكرة الديمقراطية بين الدول العالمية، وجميعهم استقوها من فرنسا. بل قد انخرط في هذه الاستجابة كثير من الدول الإسلامية مثل جمهورية مصر، نص دستورها عام (1923م)، على أن جميع السلطات مصدرها الأمة.

وفي دستور (1956م)، المادة الثانية: السيادة للأمة. وفي الدستور المؤقت لعام (1964) المادة الثانية: أن السيادة للشعب.

وفي دستور (1971م) المادة الثالثة: السيادة للشعب وحده، وهو مصدر السلطات، ويمارس الشعب هذه السيادة ويحميها ويصون الوحدة الوطنية على الوجه المبين في الدستور، ونصت المادة (86) على أن يتولى مجلس الشعب سلطة التشريع والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية. اهـ بتصرف.

ومثل الجمهورية اليمنية أيضاً، فقد نص الدستور في المادة الرابعة منه على أن الشعب ملك السلطات ومصدرها، ويمارسها بشكل مباشر عن طريق الاستفتاء، والانتخابات العامة، كما يزاوئها بطريقة غير مباشرة عن طريق الهيئات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وعن طريق المجالس المحلية المنتخبة. راجع «الإسلاميون وسراب الديمقراطية للرجال والشورى وأثرها في الديمقراطية» لعبد الحميد الأنصاري ص(330).

فتأمل - وفقك الله - هذه التعاريف، وهذه القوانين كيف جعلت الحكم للشعب، والسلطة له، وتناست أن الحكم لله جل وعز، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57، يوسف: 40 و67]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

فنحن عبيد الله، والكون ملك الله يسيره كيف يشاء، فينبغي أن نسير على ما يحبه ويرضاه، ونجتنب ما يبغضه ويأباه.

وتقوم على مبادئ، منها: مبدأ حكم الأغلبية وصورة الحكم الديمقراطي.

يجعل النظام الديمقراطي الحكم للأغلبية، حيث أنها المعبرة عن إرادة الأمة، ومعنى ذلك: أن إرادة الأمة ليست إرادة مجموع الأمة، بل هو إرادة الغالبية، وهذا يوحي إلى أن إرادة الأقلية لا يلتفت إليه، فكيف يمكن التوفيق بين إهمال الأقلية وبين معنى الديمقراطية؟!

نظرية العقد الاجتماعي التي انبثقت عنها الديمقراطية:

مبدأ الديمقراطية انطلق من أساس فلسفي، يدعى بنظرية العقد الاجتماعي التي نادى بها الفلاسفة، وفقهاء القانون الوضعي، وخلاصتها، أن العقد الذي أبرمته الجماعة، هو الذي أنشأ السيادة، وجعلها للأمة، نفسها ثم هذه السيادة إما أن تبقى في يد الشعب، ممثلة في نوابه فقط، ولا يكون للأفراد أي دور يذكر فيما بعد الاقتراع، وإما أن تكون بيد الشعب، ممثلة في نوابه، مع بقاء بعض الأشياء التي يعبر الفرد عن إرادته فيها، كالاستفتاء الشعبي، وانتخاب الرئيس، وغير ذلك. ومن هذه النظرية يتبين أن الحكم للأغلبية لا لجميع أفراد الأمة كما يزعمون ويدندنون.

صور الديمقراطية:

علم لديك تعريف الديمقراطية، وأنها حكم الشعب نفسه بنفسه، أو أنها سلطة الشعب.

بقي أن نعلم أن لها تقسيمات أخرى حتى يتسنى لهم تطبيقها والعمل بها؛ لأنها ليست من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوُجِدُوا فِيهِ آخِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

فلذلك اتخذت أساليب متعددة، وصور شتى، حتى يتسنى لهم العمل بها، وقد كتب صاحب كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» ص (697)، وصاحب كتاب «المسلمون وسراب الديمقراطية» ص (41)، وصاحب رسالة «حقيقة الديمقراطية» ص (17-18)، و «الديمقراطية في اليمن» ص (85) وقسموها إلى ثلاث صور:

*** الصورة الأولى:** وهي الصورة المباشرة، وهي التي يباشر فيها الشعب جميع السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، من غير واسطة ممثلين، فتصدر القرارات المغلقة لشؤون الدولة بإجماع الشعب.

لكن هذه الديمقراطية المباشرة، متعذرة التحقق إلا في أحوال نادرة، بخصوص المؤهلين لممارستها فقط، وفي المجتمعات الصغرى أو في المجتمعات والمؤسسات الخاصة والأحزاب والدوائر المحددة.

قد طَبَّقَتْ هذا النوع من أنواع الديمقراطية جمهوريتا أثينا وإسبراط اليونانيتين قبل الميلاد، لكن وضعوا شروطاً وضوابط حتى يتسنى لهم ذلك، ومنها: أن لا يزيد عدد السكان عن خمسة ألف نسمة، فإذا زاد عن ذلك إما أن ينفوا من البلاد، أو يقدموا في الحروب حتى يقتلوا، إلى غير ذلك مما لم ينزل الله به من سلطان.

وهذه أقدم أنواع صور الديمقراطية، وهي أقل الصور المعمول بها في العهد الحاضر، وهذه الصورة هي النتيجة المنطقية لمبدأ السيادة الشعبية، ومن أشد المتحمسين لها «جاك جاك روسو». وهذه الصور يعمل في بعض ولايات سويسرا.

وهذه الصورة:

- 1- يستحال تطبيقها في الدول الكبيرة الحديثة.
- 2- استحالة تطبيقها لتعقد مشاكل العصر وتعدد وظائف الدولة وتشعب أعمالها.

3- لا توجد أمور سرية مع أن لكل دولة أسرارها التي تحتفظ بها.

راجع «الشورى وأثرها في الديمقراطية» ص(343).

*** الصورة الثانية:** الديمقراطية النيابية، وهي التي ينتخب فيها المؤهلون للانتخابات من الشعب نوابًا عنهم يمارسون عنهم وضع التشريعات، والنظم ويمارسون عنهم انتخابات الحكام، ولهذه الممارسة صور متعددة، منها:

- 1- حكومة الجمعية، وفيها يمارس النظام النيابي السلطة التشريعية والتنفيذية.
- 2- النظام الرئاسي، ويقوم على الفصل التام بين المجلس النيابي وبين الحكومة التنفيذية، وتكون الوزارة مسئولة أمام الرئيس.
- 3- النظام البرلماني، ويقوم على مبدأ الفصل المرن، وعلى التعاون بين السلطة التشريعية والتنفيذية، وتكون الوزارة مسئول أمام البرلمان.

النظام النيابي والمبدأ الديمقراطي:

من المعلوم أن المبدأ الديمقراطي يجعل الشعب هو صاحب السلطة، بينما النظام النيابي يجعل الشعب لا يمارس السلطة إلا عن طريق نوابه، فهل يتفق ذلك مع مبدأ الديمقراطية؟!

أركان النظام النيابي:

- 1- برلمان منتخب من قبل الشعب، له اختصاص حقيقي في الحكم.
- 2- النائب البرلماني يمثل الأمة جميعاً.
- 3- استقلال البرلمان بعد انتخابه.
- 4- الانتخاب الدوري للبرلمان. اهـ «الشورى وأثرها في الديمقراطية» ص(351).

*** الصورة الثالثة:** الديمقراطية الجامعة بين المباشرة والنيابية، وهي التي يباشر فيها المؤهلون من الشعب بعض السلطات كانتخاب الرئيس والموافقة على الدستور، وبعض القوانين، وينتخبون نواباً عنهم يمارسون عنهم وضع التشريعات، والقوانين والنظم وغير ذلك من قضايا الدولة.

ومن مظاهر هذه الصورة:

- 1- الاستفتاء الشعبي.
- 2- الاعتراض الشعبي.
- 3- الاقتراح الشعبي.
- 4- حق الناخبين في إقالة النائب.
- 5- حق الحل الشعبي.
- 6- حق عزل رئيس الجمهورية. اهـ «الشورى وأثرها في الديمقراطية» ص(354). و «الديمقراطية في اليمن» ص(86).

قلت: والكل فيها إعراض عن كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ.

مبادئ الديمقراطية:

- 1- سيادة الأمة، فمن المعلوم أن السيادة المطلقة لله عز وجل، فعند أن قالوا لرسول الله ﷺ: يا سيدنا، قال: «السَّيِّدُ اللهُ». فهو الذي حقه أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وهو السيد الكامل الحمد، ونحن عبده، والكون ملكه ﴿أَلَهُ مَعَهُ اللهُ﴾.
 - 2- الحكومة النيابية. (ومعناها أن الحكومات يشكلها ويوافق عليها المجالس النيابية المنتخبة من قبل الشعب).
 - 3- فصل السلطات. (تشريعية: وهي التي تسن القوانين)، (تنفيذية: وهي التي تعمل على تنفيذ هذه القوانين الوضعية)، (قضائية: وهي التي تفصل بين المتخاصمين بهذه القوانين الوضعية).
 - 4- علو الدستور الوضعي، و معنى هذا أن لا صوت يعلو فوق الدستور، ولو كان كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.
 - وستأتي مناقشة هذا الباب في باب الحرية المطلقة، و التفرق والتمزق المذموم الذي سنبينه في بند مستقل.
 - 5- الحقوق الفردية، أو الحريات العامة.
 - 6- تعدد الأحزاب، والطوائف.
- فانظر - وفقك الله - إلى هذه المبادئ، وكيف تتعارض مع الكتاب والسنة، والدين الإسلامي.

كما أن لكل نظام أو لكل فكر خصائص، ومميزات يسير عليها، فقد جعلت للنظام الديمقراطي خصيصتان يسير عليهما كما ذكره صاحب رسالة «حقيقة الديمقراطية» ص(14):

1- سيادة الشعب أو الأمة.

2- الإقرار بحرية الأفراد وضمائمها. اهـ

وهذه ما هي إلا ادعاءات لا أساس لها، وإن طبقت فإنها تتعارض مع حكم الله، ودين الله، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

وتعرف السيادة عند أصحاب الديمقراطية كما في المرجع السابق: هي تلك السلطة العليا التي تملك حق التشريع التي لا تعرف بجانبها أو فوقها فيما تنظم من علاقات سلطة عليا أخرى، فهي سلطة تسموا فوق الجميع، وتفرض نفسها على الجميع بما تملك من سلطة الأمر والنهي العليا. اهـ

ومن تصور معنا هذه الجملة، السلطة للشعب، ثم عرف أنواع السلطات الثلاث، التي تقدم ذكرها: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، لا يشك بأن النظام الديمقراطي، نظام إلحادي جاهلي، لا يصلح للبلدان الإسلامية، التي تؤمن بالنظام الإسلامي المنزل من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَإِنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 63]، ونظرية السيادة هذه منبعها من عند أعداء الله الكفار في أوروبا عند أن أرهقهم حكامهم الذين يحكمون بدينهم المحرف المبدل، فجعل الملوك السيادة العليا لهم، وجعل الناقمون عليهم السيادة، للشعب.

أما نحن - والحمد لله - في الشريعة الإسلامية فقد جعل الله سبحانه وتعالى ضوابط على الحكام لا يتجاوزونها، وإلا أصبحوا من الظالمين، وضوابط على المحكومين لا يتعدونها، حتى تسير الدولة الإسلامية على طريقة مرضية لله رب العالمين.

واعلم - وفقك الله - أن السيادة المطلقة في ديننا الإسلامي، هي حق الله تعالى، فلا ينازع جل وعز في سلطانه، إذ له الخلق والأمر، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلُوكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]. هذه بعض من كل لنعلم أن المذهب الديمقراطي قائم على تميع الدين والقيم والأخلاق ونسأل الله تعالى السلامة.

فهذه دعوة كفرية جاءت لنقض عرى الإسلام وزحزحته بالكلية، بأفكارها الهدامة وآراءها الكاسدة، ونتائجها الفاسدة، دعت إلى الحزبيات، والآراء الباطلات، كما رأيت هنا، وترى في كتابي «التوضيحات الجلية لبيان حقيقة الديمقراطية».

وبهذا تعلم أنها من أكبر الأنظمة العالمية التي تدعو الناس إلى التميع الديني والأخلاقي، فدين الديمقراطي دين يسع كل الناس وأخلاقهم إلا المسلمين، فتنبه لهذا ولا تكن من الضالين!!! اه ملخصاً من كتابي «التوضيحات الجلية في بيان حقيقة الديمقراطية».

19 - الدعوة الماسونية:

هذه الدعوة تقوض الأديان، وتدعو إلى الإنحلال، فمن باب أولى دعوتها إلى التميع وتشجيعها له، وما الجمعيات إلا ناتج من نتائج الماسونية، فتنبه ولا تكن من

الجاهلين! وانظر ما أحدثه جمال الدين الأفغاني الماسوني وتلميذه محمد عبده المصري في العالم بظهور الدعوة العقلانية بشدة، وظهور الدعوة إلى تقارب الأديان.

فالماسونية كلمة تعني: البنائين الأحرار. على حد اصطلاح أتباعها.

وهي: منظمة يهودية سرية هدامة إرهابية غامضة، محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعة (حرية - إخاء - مساواة - إنسانية)، جل أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهداً بحفظ الأسرار.

ويقومون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيداً لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية، كما يدعون، وتتخذ الموصولية والنفعية أساساً لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينية عالمية. اهـ انظر بتوسع: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة». (1/65).

وقال صاحب كتاب «الماسونية ذلك المحفل الشيطاني الخفي» ص(17):
أهداف الماسونية:

- 1- القضاء على جميع الأديان تحت شعار (الدين لله والوطن للجميع).
- 2- تكوين جمهورية ديمقراطية لا دينية عالمية فوضوية.
- 3- جعل الماسونية سيادة الأحزاب.
- 4- القضاء على الأخلاق.
- 5- نشر الإباحية والانحلال.
- 6- إسقاط الحكومات الشرعية.

7- تسليح الشعوب المتصارعة لإشعال نار الفتنة.

فتلخص لنا من هذا: أن الماسيوية من الدعوات التي تسعى إلى زحزحة الدين،
ومن باب أولى تمييعه، وطميع حملته.

20- الدعوة إلى الإنسانية:

هذا مصطلح عصري نسبة إلى الإنسان مجرداً عن الأديان والمعتقدات.

وقد اتسعت هذه اللفظة بين المسلمين عامتهم وخاصتهم، وهذه الدعوة ضد الدين، فحتى لا يقال: مسلم، يقال: إنساني. وكم من القيم المخالفة للإسلام الحنيف يضيفونها إلى الإنسانية ويتعاطونها، والدعوة إلى الإنسانية فقط دعوة إلى توحيد الأديان، ودعوة إلى توحيد اللغات والعادات والملابس وغير ذلك، فنحن عبيد لله عز وجل، والإنسان - كما هو معروف - منه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والتقي والشقي، إلى غير ذلك، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الْأَضَلُّ وَلَا الْمَهْدِيُّ ۚ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَلَا يَسْتَوِي سَاءُ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الفلم: 35-36]، أين عقولكم يا من تنادون إلى هذه الأفكار الهدامة والأراء المخالفة؟! هل يصلح عقلاً أو شرعاً أن يكون الطائع الموحد لله رب العالمين مثل النصراني الكافر المشرك عابد الصليب، أو اليهودي الكافر المشرك، أو الشيوعي عابد المادة والطبيعة، أو البوذي عابد الصنم، وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند البخاري (6447): لما رأى رسول الله ﷺ المسلم والكافر قال في المسلم: «لَهَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا». هذا حكم الله وحكم رسوله ﷺ، أفندعها لأحكام المتهوكن الخياري من اليهود والنصارى. الإنسان يُعامل معه معاملة شرعية، الله عز وجل يقول: ﴿مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ

شَقِيءٌ ﴿[الأنعام:38]، ثم هذا الإنسان الذي هم يعظمونه هو الإنسان الكافر المشرك العاصي. أما المسلم الموحد الطائع فحقوقه عندهم مهدورة وشخصيته منكروة، فاعرف المقصد هداك الله من مثل هذه الشعارات.

21- الدعوة إلى ما يسمّى بالتعايش:

وفكرة التعايش هذه تدعو إلى تقارب كل فئة مع الأخرى بعيداً عن الأحقاد والخصومات والتحذيرات، وهذه فكرة باطلة تقوم على نزع جانب الولاء والبراء والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتمييز عن أهل الباطل، وهي إحدى شعارات أصحاب الدعوة إلى وحدة الأديان. فالواجب ملازمة الكتاب والسنة، فقد أعطى الله عز وجل كل ذي حق حقه، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿[الأنعام:١٥١-١٥٣]

22- الدعوة إلى العولمة والعالمية:

العالمية مذهب معاصر يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المذهبية المتباينة، وهذا المذهب باطل ينسف دين

الإسلام بجمعه بين الحق والباطل، أي: بين الإسلام وكافة الأديان، وهي فكرة تدعو إلى أن يكون العالم كالأُسرة الواحدة، ولا يتأتى ذلك إلا بالتنازلات عن كثير من شرائع الدين كيف والعالم فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر وغير ذلك، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، والحق والباطل في صراع إلى أن يرث الله عز وجل الأرض وما عليها، ويعز الله عز وجل من شاء من عباده بتوقيفه للإسلام. أما أن نتخذ هذه المذاهب التي تساوي بين الأفراد والجماعات، فلا ولن يكون بإذن الله عز وجل، وقد وصل الحال بدعاة العولمة والعالمية إلى أسوأ الدركات، حيث وهم يجتمعون في مؤتمرات وحدة الأديان وتقارب الحضارات، هذه المؤتمرات التي تأتي على الدين الإسلامي من أسه ورأسه، والتي تدعو إلى الكفر الصراح وإلى الاعتراف بالأديان المحرفة. كما بينت ذلك بحمد الله في مؤلف مستقل.

وفي هذا التعايش إلغاء لجوانب عظيمة من الدين، فنحن ندعوهم إلى الدخول في دين الله عز وجل الحق الذي خلقهم الله عز وجل لتحقيقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

واليهود والنصارى والمنظمات التابعة لهم إذ يدعون إلى التعايش إنما يدعون المسلمين إلى التقارب معهم والتنازل عن كثير من دينهم وعقائدهم، وهذا الاصطلاح من الاصطلاحات التي استخدمها دعاة حوار الأديان لستر مكرهم

وخبثهم، فالتعايش مع اليهود والنصارى وجميع الكفار يكون بالتعامل الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة.

والمعاملة مع أهل الكتاب تكون في بابين:

الباب الأول: في الأحكام المقصودة لحفظ الدين وتميز المبطلين.

الباب الثاني: في الأحكام المقصودة لحفظ الحق وقيام العدل والإحسان.

أولاً: الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين:

1 - كون الدين كله لله بإسلامهم أو أعطائهم الجزية أو قتالهم:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

وقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (1/22-24): (فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً والمعنى حتى يعطوا الخراج عن رقابهم. اهـ فإن لم يعطوا الجزية فهم في حراهم لأهل الإسلام ولا يدخلون في ذمة الله عز وجل وذمة رسوله ﷺ).

2 - عدم موالاتهم أو اتئانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين وتحريم محبتهم:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: 100].

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعِيثَكُمْ إِنََّ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ نَّسُوهُمْ وَإِن تُصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنََّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 118-120].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنََّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

وقال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

قال ابن جرير في «جامع البيان» (4/ 60) في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]: (يعني بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به نبيهم من عند ربهم ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء أو أصدقاء لأنفسنا ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يقول من أهل دينكم وملتكم يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل مشبهه بها ولي بطنه من ثيابه). اهـ

وقال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (1/ 242): (ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة فلا تجتمع معاداة الكافر أبداً). اهـ

وفي الحديث: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ». أخرجه الطبراني (3/ 125)، والبخاري (3/ 429)، وهو في «الصحيح» (4/ 307).

3- تحريم التشبه بهم:

تقدم حديث ابن عمر «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». وتقدم الكلام على هذا الشأن بتوسع.

4- الحذر من كتبهم ومروياتهم:

أخرج البخاري (2685) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَخَذْتُ الْأَخْبَارَ بِاللَّهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَيْسَتْ رُؤْيَا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً أَفَلَا يَنْهَاكُمُ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ).

5- تحريم ابتدائهم بالسلام وتقديمهم في العبور والمروء:

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ» أخرجه مسلم (2167).

6- تحريم تهنتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140].

قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (1/205-206): (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهناً بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله وأشد مقتاً من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه، وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنا عبداً بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه). اهـ

7- تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28].

وأخرج الإمام مسلم (1767) عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدْعَ إِلَّا مُسْلِمًا».

وعن عائشة رضي الله عنها، عند الإمام أحمد: «لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٍ».

وللقرضاوي كلام حول هذا الحديث، زعم فيه أن جزيرة العرب من العام الذي يريد به الخاص، وهي مكة والمدينة، وهذا القول منه مردود لعموم الدليل وبفهم الصحابة رضوان الله عليهم.

قال الحافظ في «الفتح» تحت حديث ابن عباس رقم (3053) «أَخْرَجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»: (قال الأصمعي: جزيرة العرب ما بي ناقصى عدن أبين إلى ريف العراق طولاً، ومن جدة وما ولاها إلى أطراف الشام عرضاً).

وسميت جزيرة العرب لإحاطة البحار بها، يعني بحر الهند وبحر القلزم وبحر فارس وبحر الحبشة، وأضيفت إلى العرب؛ لأنها كانت بأيديهم قبل الإسلام وبها أوطانهم ومنازلهم، لكن الذي يمنع المشركون من سكناه منها الحجاز خاصة وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب، لاتفاق الجميع على أن اليمن لا يمنعونها مع أنها من جملة جزيرة العرب، وهذا مذهب الجمهور. اهـ

ثانياً: الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق وقيام العدل والإحسان:

وهذا الباب في حق أهل الذمة.

1 - عدم الإكراه في الدين:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

قال ابن كثير في «تفسيره»: (أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً). اهـ

2 - الإحسان إليهم والعدل في معاملاتهم وتحريم أذيتهم وحفظ ذمتهم:

قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9].

قال ابن جرير في «جامع البيان» (66/28): (وأولى الأقوال الصواب قول من قال: عنى بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان). اهـ

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (28/617-618): (وَقَدْ عَرَفَ النَّصَارَى كُلُّهُمْ أَنِّي لَمَّا خَاطَبْتُ التَّارَ فِي إِطْلَاقِ الْأَسْرَى وَأَطْلَقَهُمْ غَازَانَ وَقَطْلُوشَاهُ، وَخَاطَبْتُ مَوْلَايَ فِيهِمْ فَسَمَحَ بِإِطْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ لِي: لَكِنَّ مَعَنَا نَصَارَى أَخَذْنَاهُمْ مِنَ الْقُدْسِ فَهَؤُلَاءِ لَا يُطْلَقُونَ، فَقُلْتُ لَهُ: بَلْ جَمِيعٌ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا؛ فَإِنَّا نُنْفِتْهُمْ وَلَا نَدْعُ أَسِيرًا لَا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. وَأَطْلَقْنَا مِنَ النَّصَارَى مَنْ شَاءَ اللَّهُ. فَهَذَا عَمَلُنَا وَإِحْسَانُنَا وَالْجَزَاءُ عَلَى اللَّهِ.). اهـ

3- حسن جوارهم:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

قال ابن جرير (5/80): (الجنب الغريب البعيد مسلماً كان أو مشركاً يهودياً أو نصرانياً.). اهـ

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عند الترمذي، قال مجاهد: أن عبد الله بن عمر ذكيت له شاة فقال: أعطوا جارنا اليهودي.

4- عيادة مريضهم:

يدل على ذلك ما أخرجه البخاري رحمه الله تعالى (5657) عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ

رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

وتكون هذه الزيارة مع دعوته إلى الإسلام، وتأليف قلبه عليه كما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بوب البخاري على الحديث (باب عيادة المشرك).

5- جواز دخولهم مساجد المسلمين للحاجة عدى المسجد الحرام:

قال ابن القيم في «الزاد» (3/ 638) في سياقه لقصة أهل نجران: (ففيها جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين). اهـ
وفي حديث ثامة في حبسه في المسجد دلالة على ذلك ستره في باب كيفية الحوار.

6- الصدقة على فقراء أهل الذمة:

قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (1/ 300): (لا ريب أن الصدقة جائزة على مساكين أهل الذمة. اهـ)

7- الحقوق المعيشية في السكن والتنقل والتكسب:

قال ابن حزم في «مراتب الإجماع» ص (122): (واتفقوا أن لأهل الذمة المشي في أرض المسلمين والدخول حيث أحبوا من البلاد، حاشا الحرم بمكة فإنهم اختلفوا أيدخلونه أم لا؟ واتفقوا على أن لهم سكن أي بلد شاءوا من بلاد الإسلام على الشروط التي قدمناها حاشا جزيرة العرب). اهـ

ويدل على جواز تكسبهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عامل أهل خيبر على شطر ما يخرج من ثمر أو زرع. متفق عليه، عن ابن عمر رضي الله عنه.

8- حُلُّ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَنِكَاحِ الْعَفِيفَاتِ مِنْ نِسَائِهِمْ:

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: 5].

9- تَشْمِيتُ عَاتِسِهِمْ:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان اليهود تتعاطس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فكان يقول: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْكُفْرِ». أخرج أبو داود (5033).

فمن هذين البابين:

يستفيد المسلم كيفية المعاملة مع أهل الكتاب وخصوصاً الذميين منهم، فإن بعض الناس ينظر إلى الباب الأول وربما ظلمهم وأخذ مالهم وفعل بهم الأفاعيل، والبعض الآخر ينظر إلى أدلة الباب الثاني ويقع منه التميع والتميع والتفريط، وهذا هو الحاصل في هذا الزمان في غربة الدين. اهـ ملخصاً من كتابي في الرد على أصحاب وحدة الأديان.

فصل في الحركات الداعية إلى تمييع الدين بدعوى التقارب بين الأديان

بعد أن يسر الله عز وجل سرد ما فتح علينا به من الأسباب المؤدية إلى مرض التميع الخطير، نذكر هنا أشهر الدعوات الداعية إلى تمييع دين رب العالمين، والانحراف بالصراط المستقيم والطريق القويم، فمنها:

1 - وحدة الأديان:

قال في «الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان والأحزاب المعاصرة» ص(1175): (وحدة الأديان دعوة ماسونية، تستغل النصارى في القضاء على الإسلام وإخضاع شعوبه، وتتخذ هذه الدعوة أسماء جذابة مثل الدعوة للعالمية أو التوافق بين الإسلام والنصرانية أو الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمي وأحياناً تحت مسمى حوار الأديان، وتقوم فلسفة هذه الدعوة على زعم أن هنالك قواعد مشتركة بين الإسلام والنصرانية: كالإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، وتكريم أم المسيح عليه السلام.

وأن الخلاف بين الإسلام والنصرانية خلاف شكلي لا جوهري.

بدأت هذه الدعوة من جانب النصارى منذ أوائل هذا القرن الميلادي، وتبنتها الصهيونية العالمية من خلال عقد العديد من المؤتمرات بدعوى التقريب بين الإسلام والنصرانية). اهـ

وهذا الذي يسعون إليه لن يكون؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 93].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨-١١٩].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» (٥٧٧-٥٧٨/٢) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمنوا كلهم جميعًا، وهو دليل واضح على أن كفرهم واقع بمشيئة الله الكونية القدرية وبين ذلك أيضًا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غير ذلك.

2- إخوان الصفا:

قال في «الموسوعة الميسرة» (٩٦٠/٢): (هي جماعة سرية باطنية، مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية بالعقيدة الإسلامية في خليط متضارب، وكان أول ظهورها في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع، وقد ألفوا ما يقارب خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة عمليًا وعلميًا، وأفردوا لها فهرسًا، وسموها: «رسائل إخوان الصفا» التي تعتبر برنامج العمل السري الذي يستهدف القضاء على الإسلام ودولته لتأسيس دولتهم التي تضم العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية. وفيه أيضًا الدعوة إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب للدين على أنه لا حاجة للخاصة للشرائع). اهـ

3- العالمية:

قال في «الموسوعة الميسرة» (2/1101): (مذهب يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المذهبية المتباينة ويزعم أصحاب الدعوة والقائمون عليها أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب واحد تزول معه خلافاتهم الدينية والعنصرية؛ لإحلال السلام في العالم محل الخلاف). اهـ

قال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية»: (وهذا المذهب باطل، ينسف دين الإسلام بجمعه بين الحق والباطل، أي: بين الإسلام وبين كافة الأديان، وحقيقته: هجمة شرسة على الإسلام). اهـ

يقول الكاتب/د/ محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» ص(171): (العالمية في الاصطلاح الحديث: مذهب يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة، التي تكمن وراء المظاهر المتعددة، في الخلافات المتباينة، ويزعم أصحاب الدعوة، والقائمون عليها: أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب واحد، تزول معه خلافاتهم الدينية، والعنصرية لإحلال السلام في العالم محل الخلاف). اهـ⁽¹⁾.

قال أحمد بن عبد الرحمن القاضي في «التقريب بين الأديان» (1/334): (وهي بهذا التعريف أوسع مدلولاً، وأشمل أثراً من تقريب الأديان، أو وحدة الأديان، بل تصبح وحدة الأديان إحدى مفردات العالمية). اهـ

(1) بواسطة «التقريب بين الأديان» (1/334).

4- المونية (حركة صن مون التوحيدية):

قال صاحب «الموسوعة الميسرة» ص(669) باختصار: (المونية هي: حركة مشبوهة، تدعو إلى توحيد الأديان وصهرها في بوتقة واحدة؛ بهدف إلغاء الفوارق الدينية بين الناس؛ لينصهروا جميعاً في بوتقة (صن مون) الكوري الذي ظهر بنبوة جديدة في هذا العصر الحديث). اهـ

5- التغريب:

وقال في «الموسوعة الميسرة» ص(708): (التغريب: هو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمي إلى صبغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية).

6- أصحاب وحدة الوجود:

وقال ص(793): (مذهب فلسفي لا ديني يقول بأن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبرونه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، صورة هذا العالم المخلوق، أما مجموع المظاهر المادية فهي تعلن عن وجود الله دون أن يكون لها وجود قائم بذاته. إن فكرة وحدة الوجود قديمة جداً، فقد كانت قائمة بشكل جزئي عند اليونانيين القدماء، وهي كذلك في الهندوسية الهندية. وانتقلت الفكرة إلى بعض الغلاة من متصوفة المسلمين من أبرزهم: محي الدين ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين والتلمساني. ثم انتشرت في الغرب الأوروبي على يد برونو النصراني وسبينوزا اليهودي).

يقول الإمام ابن تيمية بعد أن ذكر كثيراً من أقوال أصحاب مذهب وحدة الوجود: (يقولون: إن الوجود واحد، كما يقول ابن عربي - صاحب الفتوحات - وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وأمثالهم - عليهم من الله ما يستحقونه - فإنهم لا يجعلون للخالق سبحانه وجوداً مabayناً لوجود المخلوق. وهو جامع كل شر في العالم، ومبدأ ضلالهم من حيث لم يثبتوا للخالق وجوداً مabayناً لوجود المخلوق وهم يأخذون من كلام الفلاسفة شيئاً، ومن القول الفاسد من كلام المتصوفة والمتكلمين شيئاً ومن كلام القرامطة والباطنية شيئاً فيطوفون على أبواب المذاهب ويفوزون بأحسن المطالب، ويثنون على ما يذكر من كلام التصوف المخلوط بالفلسفة). «جامع الرسائل» (1/167).

7- البانتشاسيلا:

قال في «الموسوعة الميسرة» ص(470): البانتشاسيلا (أو المبادئ الخمسة المتلاحمة): هي خمسة مبادئ رئيسة أعلنت غداة الاستقلال سنة 1945م، ووضعت في دستور اندونيسيا المسلمة، ليسير على هديها الشعب الاندونيسي المسلم، بديلاً عن العقيدة الإسلامية.

في سنة 1945م عقدت لجنة الإعداد للاستقلال في اندونيسيا، لوضع أسس للدولة المقبلة.

وتعامل الحكومة انطلاقاً من البانتشاسيلا الأديان معاملة متساوية لذلك أتاحت للهيئات التبشيرية كامل الحرية في نشر الديانة النصرانية بين المسلمين، وكذلك تقدم الحكومة برامج متساوية على شاشة التلفزيون لنشر تعاليم كل الأديان!!

ونظرًا لأعمال البانتشاسيلا فإن عدد الكنائس والمعابد البوذية والهندوكية أصبحت مقارنة لعدد مساجد المسلمين.

أدخلت الحكومة مبادئ البانتشاسيلا كمادة أساسية في مجال التربية والتعليم في جميع المراحل التعليمية، وأعدت دورات تدريبية لجميع موظفي الحكومة والقطاع الخاص لدراسة مبادئها. زعمًا بأن البانتشاسيلا ليست ضد الإسلام والمسلمين وإنما تعني حرية الأديان للتعايش السلمي.

8- البابية والبهائية:

قال في «الموسوعة الميسرة» ص(412) مختصرًا: حركة نبعت من المذهب الشيعي السيخي سنة 1260هـ/1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي؛ بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية.

الأفكار والمعتقدات:

- يعتقد البهائيون أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء.
- يقولون بالحلل والائحاد والتناسخ وخلود الكائنات وأن الثواب والعقاب إنما يكونان للأرواح فقط على وجه يشبه الخيال.
- يقدسون العدد 19 ويجعلون عدد الشهور 19 شهرًا وعدد الأيام 19 يومًا، وقد تابعهم في هذا الهراء المدعو محمد رشاد خليفة حين ادّعى قدسية خاصة للرقم 19،

وحاول إثبات أن القرآن الكريم قائم في نظمه من حيث عدد الكلمات والحروف على 19 ولكن كلامه ساقط بكل المقاييس.

- يقولون بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبراهما وزاردشت وأمثالهم من حكماء الهند والصين والفرس الأول.

- يوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح.

- يؤولون القرآن تأويلات باطنية ليتوافق مع مذهبهم.

- ينكرون معجزات الأنبياء وحقيقة الملائكة والجن كما ينكرون الجنة والنار.

- يحرمون الحجاب على المرأة ويحللون المتعة وشيوعية النساء والأموال.

- يقولون إن دين الباب ناسخ لشريعة محمد ﷺ.

- يؤولون القيامة بظهور البهاء، أما قبلتهم فهي إلى البهجة بعكا بفلسطين بدلاً من المسجد الحرام.

- والصلاة تؤدي في تسع ركعات ثلاث مرات والوضوء بماء الورد وإن لم يوجد فالبسملة بسم الله الأطهر الأطهر خمس مرات.

- لا توجد صلاة الجماعة إلا في الصلاة على الميت وهي ست تكبيرات، يقول كل تكبيرة (الله أبهى).

- الصيام عندهم في الشهر التاسع عشر شهر العلا فيجب فيه الامتناع عن تناول الطعام من الشروق إلى الغروب مدة تسعة عشر يوماً (شهر بهائي)، ويكون آخرها عيد النيروز (21 آذار) وذلك من سن (11 إلى 42) فقط، ويعفى البهائيون من الصيام.

- تحريم الجهاد وحمل السلاح وإشهاره ضد الأعداء خدمة للمصالح الاستعمارية.

- ينكرون أن محمدًا، خاتم النبيين مدعين استمرار الوحي وقد وضعوا كتبًا معارضة للقرآن الكريم مليئة بالأخطاء اللغوية والركاكة في الأسلوب.

وهذا غاية الكفر والضلال والعياذ بالله؛ لأنه تكذيب للقرآن.

وقال عواجي في كتابه (فرق معاصرة تنتمي للإسلام) (1/434): وفيما يلي نذكر أهم مبادئهم وتعاليمهم التي ينادون بها:

1- وحدة جميع الأديان والالتقاء على دين واحد لتزول الخلافات بين الناس ومن المعروف بداهة أن هذا الدين سيكون الدين البهائي.

2- وحدة الأوطان.

3- وحدة اللغة.

4- السلام العام والتعايش الهادئ بين كل الشعوب وذلك إذا طبقوا السياسة البهائية.

5- المساواة بين الرجل والمرأة.

9- العلمانية (ECULARISM):

قال صاحب الموسوعة الميسرة (689): وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين. وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم SCIENCE وقد ظهرت في أوروبا منذ القرن

السابع عشر وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر وانتقلت بشكل أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس ولحقها العراق في نهاية القرن التاسع عشر. أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين، وقد اختيرت كلمة علمانية لأنها أقل إثارة من كلمة لا دينية.

ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع وإبقائه حبيساً في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما.

تتفق العلمانية مع الديانة النصرانية في فصل الدين عن الدولة حيث لقيصر سلطة الدولة والله سلطة الكنيسة. وهذا واضح فيما يُنسب إلى السيد المسيح من قوله: (إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله). أما الإسلام فلا يعرف هذه الثنائية والمسلم كله لله وحياته كلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

الأفكار والمعتقدات:

- بعض العلمانيين ينكرون وجود الله أصلاً.
- وبعضهم يؤمنون بوجود الله لكنهم يعتقدون بعدم وجود أية علاقة بين الله وبين حياة الإنسان.
- الحياة تقوم على أساس العلم المطلق وتحت سلطان العقل والتجريب.
- إقامة حاجز سميك بين عالمي الروح والمادة، والقيم الروحية لديهم قيم سلبية.

- فصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي.
- تطبيق مبدأ النفعية Pragmatism على كل شيء في الحياة.
- اعتماد مبدأ الميكانيكية في فلسفة الحكم والسياسة والأخلاق.
- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية وتهديم كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية.
- أما معتقدات العلمانية في العالم الإسلامي والعربي التي انتشرت بفضل الاستعمار والتبشير فهي:
- الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة.
- الزعم بأن الإسلام استنفذ أغراضه وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية.
- الزعم بأن الفقه الإسلامي مأخوذ عن القانون الروماني.
- الزعم بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو إلى التخلف.
- الدعوة إلى تحرير المرأة وفق الأسلوب الغربي.
- تشويه الحضارة الإسلامية وتضخيم حجم الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي والزعم بأنها حركات إصلاح.
- إحياء الحضارات القديمة.
- اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية عن الغرب ومحاكاته فيها.
- تربية الأجيال تربية لا دينية. اهـ

وهي بهذه الأفكار والمعتقدات لم تتمكن من زحزحة الإسلام عن الحياة العامة، تذهب إلى الدعوة للحوارات والتقارب مع الأديان الأخرى حتى يتسنى لها زعزعة هذا الدين.

10- الماسونية:

قال في «الموسوعة الميسرة» ص(513): لغة: معناها البناءون الأحرار، وهي في الاصطلاح: منظمة يهودية سرية هدامة، إرهابية غامضة، محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعه: (حرية، إخاء، مساواة، إنسانية). جلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهدًا بحفظ الأسرار، وبقيّمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيدًا لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية، كما يدعون وتتخذ الوصولية والنفعية أساسًا لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينية عالمية.

وقد تقدم الكلام على مبادئها وأفكارها.

11- الروتاري:

قال في «الموسوعة الميسرة» ص(535): الروتاري: جمعية ماسونية يهودية تضم رجال الأعمال والمهن الحرة تتظاهر بالعمل الإنساني من أجل تحسين العلاقات بين البشر، وتشجيع المستويات الأخلاقية السامية في الحياة المهنية، وتعزيز النية الصادقة والسلام في العالم. وكلمة روتاري كلمة إنجليزية معناها دوران أو مناوبة. وقد جاء هذا الاسم لأن الاجتماعات كانت تعقد في منازل أو مكاتب الأعضاء بالتناوب، ولا زالت تدور الرئاسة بين الأعضاء بالتناوب. وقد اختارت النوادي شارة مميزة لها هي

(العجلة المسننة) على شكل ترس ذات أربعة وعشرين سنًا باللونين الذهبي والأزرق وداخل محيط العجلة المسننة تتحدد ست نقاط ذهبية، كل نقطتين متقابلتين تشكلان قطرًا داخل دائرة الترس بما يساوي ثلاثة أقطار متقاطعة في المركز وبتوصيل نقطة البدء لكل قطر من الأقطار الثلاثة بنهاية القطرين الآخرين تشكل النجمة السداسية تحتضنها كلمتي (روتاري) و (عالمي) باللغة الإنجليزية.

أما اللونان الذهبي والأزرق فهما من ألوان اليهود المقدسة التي يزينون بها أسقف أديرتهم وهياكلهم ومحافلهم الماسونية وهما اليوم لونا علم (دول السوق الأوروبية المشتركة).

12 - الباطنية والرافضة:

وأعظم وأشد الفرق المارقة التي تدعو وتسعى في تميع دين رب العالمين وصراطه المستقيم: هي فرقة الباطنية الزنادقة، والرافضة الزنادقة، وقد بينت بعض ماعليه الباطنية - بحمد الله عز وجل - في مؤلف مستقل، وأما الرافضة فذكرت نبذة عما هم عليه في مقدمة كتابي «عذاب القبر ونعيمه».

واعلم - يا وفقك الله - أن الله لم يتلِ الإسلام بمثل هاتين الطائفتين اللتين كانت موافقهما وما زالت ضد الإسلام وأهله، والناظر في حال هاتين الفرقتين يظهر ذلك له جليًا، حتى ربما استدل الكفار الأصليين من يهود ونصارى على الطعن في ديننا بأقوال هؤلاء الزنادقة.

ولقد أحسن ابن حزم إذ يقول: (تستدلون علينا بأقوال الرافضة، ما هم بمسلمين). ويكفي لمعرفة مكرهم بهذا الدين: الطعن في حملته وفي مبلغه من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - بما لم يسبقوا عليه، ويكفي في معرفة تميعهم

للدين: ما يقومون به من تحريف لكتاب الله عز وجل، ورد لأحاديث رسول الله ﷺ، وكذلك واقتراء على أهل الحق من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فنسأل الله عز وجل أن يُدَمِّرَ على الرافضة والباطنية وغيرهم من المنافقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

13 - دعوة الإخوان المسلمين دعوة تميعية:

بيان ذلك أن مؤسس الإخوان المسلمين وواضع أساسه هو حسن البنا، حيث رسم لهم ما يسرون عليه، ومن هذا الباب هذه القادة التي يطبقها الخاص والعام منهم، حيث قال: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

هذه القاعدة نتج عنها ومنها الدعوة إلى التقارب بين السنة والمسلمين وبين اليهود والنصارى، ونتج عنها الخمول في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه القاعدة الصحيح أن البنا تلقاها من شيخه محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتفسير المنار المتأثر بالمدرسة العقلية، حتى إنه أنكر حديث أن النبي ﷺ سحر، وأنكر خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، وقد رد عليه الشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بكتاب «حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عنه السلفية» ثم إن محمد رشيد رضا قد تلقى أفكاره من محمد عبه المصري العقلاني، والآخر هذا تلقاها من جمال الدين الأفغاني الماسوني الرافضي، فمن كان هؤلاء شيوخه فما الذي يُرجى أن يخرج منه.

وَمَنْ جَعَلَ الْغُرَابَ لَهُ دَلِيلًا يَمُرُّ بِهِ عَلَى جَيْفِ الْكِلَابِ

وقد ردّ هذه القاعدة أهل العلم المميزين والعلماء الفاهمين الناصحين.

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في تعقيبه على الصابوني تعليقاً على مقولة حسن البنا: (نجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

(والجواب: أن يقال: نعم، يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه: من نصر الحق، والدعوة إليه، والتحذير مما نهى الله عنه ورسوله. أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه، بل هو محل تفصيل؛ فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب عدم الإنكار فيها من بعضنا على بعض، أما ما خالف النص من الكتاب والسنة فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، وقوله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71] الآية. وقوله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. وقول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، وقوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» أخرجهما مسلم في صحيحه. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.). اهـ

وسئل الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - عن هذه العبارة التي تستعملها بعض الجماعات الإسلامية كشعار لها في (جميع) أمور الخلاف بين أهل القبلة، فقال: (رأينا في هذه الكلمة أن فيها إجمالاً، أما: نجتمع فيما اتفقنا فيه، فهذا حق، وأما: يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، فهذا فيه تفصيل: فما كان الاجتهاد فيه

سائغاً فإنه يعذر بعضنا بعضاً فيه، ولكن لا يجوز أن تختلف القلوب من أجل هذا الخلاف، وأما إن كان الاجتهاد غير سائغ، فإننا لا نعذر من خالف فيه، ويجب عليه أن يخضع للحق. فأول العبارة صحيح، وأما آخرها فيحتاج إلى تفصيل). اهـ

قلت: وللشيخ حمد العثمان رسالة قيمة بعنوان: «دراسة نقدية لقاعدة المعذرة والتعاون» أجاد فيها بيان مفسد وأضرار إعمال هذه القاعدة بإطلاق.

هذا الباب مأخوذ باختصار من كتابي «الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان» فمن أرادته بتوسع فليرجع إلى المصدر ص(232-294).

74 - الديمقراطية:

تقدم معنا تعريف الديمقراطية، وبيان بعض أفكارها، وكذلك بيان أن الديمقراطية تعتبر من أعظم المذاهب الداعية إلى تمييز الدين والأخلاق والقيم والمبادئ، وأن الديمقراطية تدعو إلى المساواة بين الرجال والنساء، والأبرار والفجار، والمؤمنون والكفار؛ ولهذا قامت بها دول ووقعت لخدمتها حروب من أجل ترسيخها؛ زعزعة للمسلمين عن دينهم، وإضعافاً لجانب الولاء والبراء، وإضعافاً للأخلاق والقيم الإسلامية، يعظمون أخذانهم وخلانهم وكل شر، ويحاربون أهل الاستقامة وكل خير، وإن رضوا وقبلوا بعض ما يقوم به المسلمون فهو من باب ذر الرماد على العيون لا غير، وإلا فليعم القاصي والداني والقريب والبعيد أن الديمقراطية ما أسست لخدمة المسلمين ودينهم، وإنما أسست لخدمة اليهود والنصارى والماسون على ما تقدم بيانه.

15 - دعوة جماعة التبليغ دعوة تميعية:

ويظهر ذلك في عدم دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل والاهتمام بصفاء المنهج والعقيدة، بل إن هذا يعتبر أصلاً من أصولهم، فمن قواعدهم التي يحفظونها بلسان الحال والمقال: (لا تتدخل في الخلافات ولا السياسيات ولا أمراض الأمة).

وفي هذه القاعدة هدم للدعوة إلى التوحيد.

وهدم للدعوة إلى السنة.

وهدم لحرب المنكرات.

وهدم لبيان الحق من الباطل.

دعوة إلى تميع الدين؛ ولهذا حذر العلماء من هذه الدعوة التجميعية التميعية كبارهم وصغارهم، فقد حذر من هذه الدعوة الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والإمام ابن باز، والإمام العثيمين، والإمام الوادعي، والإمام الألباني - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى جَمِيعًا - وحذر منها الشيخ النجمي، والشيخ ربيع، والشيخ الفوزان، والشيخ الحجوري، والشيخ العباد وغيرهم الكثير.

ونقول لجماعة التبليغ ما قاله ابن عباس للخوارج: (جتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد) أخرجه النسائي في «الخصائص» ص(195)، ونحن نقول: (ليس فيكم من العلماء أحد؛ فهذا يدل على ضلال هذه الفرقة التي إنما جل همها تجميع الناس ولو على الشرط بالله عز وجل كما هو معلوم).

فصل في الدعوات المنشقة من الدعوة السلفية دعوات تميعية

ومن هذه الدعوات على سبيل المثال لا الحصر: دعوة أصحاب الجمعيات بأشكالهم وأنواعهم، حيث تحزبوا وتمالئوا على نصرة الباطل وأهله، وتميع دينهم من حيث دعوتهم إلى التجميع بعيداً عن الاستقامة، و قد تقدم الكلام على بعض شرورهم.

ومن هذه الدعوات:

* دعوة أبي الحسن التميعية؛ ومما يدل على أن دعوته تميعية: المناداة بقواعد هدامة كقيلة بزحرة كل من تقمص بها عن السلفية.

الأولى: حمل المجمل على المفصل في كلام غير الله عز وجل، ورسوله ﷺ. وقد تقدم الكلام على فساد هذه القاعدة.

الثانية: قوله: (نصح ولا نهدم) وهذه القاعدة من توابع منهج الموازانات.

الثالثة: قوله (منهج أهل السنة والجماعة منهج واسع أفيح يسع الأمة ويسع أهل السنة) ومؤداه إلى إدخال الحزبيين والتبليغيين والجهاديين ضمن دعوة أهل السنة المصونة عن الأخطاء، والمحفوظة بحفظ الله عز وجل، والظاهرة بنصره.

الرابعة: انتصاره لمذهب المبتدعة في باب خبر الآحاد، وأنه يفيد الظن، وقد تقدم الكلام على خبر الآحاد بما يغني، فلا داعي للإعادة.

الخامسة: عدم قبول خبر الثقة المؤدي إلى زعزعة الثقة في العلماء.

السادسة: طعنه في العلماء الذين هم حراس الدين، ووصمه لهم بالحدادية، ووصفه قبل ذلك للصحابة بالعثائية... إلى غير ذلك. وقد رأينا منه ومن أصحابه

الشيء الكثير الذي يدل على أنهم قد ضاعوا وماعوا في المجتمعات، وأصبحوا يميلون إلى الانتخابات، وأدخلوا الدشوش إلى بيوتهم، ومساجدهم، وسلكوا سبيل أصحاب الجمعيات سواء؛ لأن دعوتهم قامت على الجمعية من أول يوم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* وكذا من الدعوات التمييعية دعوة عبدالرحمن بن مرعي العدني، التي قامت على العصبية، والهوى، والولاء والبراء الضيقين، والحرب على أهل السنة في اليمن، وتفريق السلفيين، والطعن في العلماء الربانيين... إلى غير ذلك مما بينته في كتابي: «الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق الدعوة السلفية» وكذا في كتابي «عون الباري في شرح سيرة حزبية انبي مرعي» إلى غير ذلك مما سيظهر للناس جلياً على العيان.

سَتُبْدِي لَكَ الْآيَاتُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَنْبَاءِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

* ومن الدعوات التمييعية في هذا الباب والسياق: دعوة علي حسن التمييعية التجمييعية، حتى أنشأ موقعاً على الشبكة اسمه: (كل السلفيين) إيذاناً بدخول الحزبيين في هذا الباب، وألف كتاب «منهج السلف الصالح في ترجيح المصالح وتطويع المفاصد والقبائح في أصول النقد والجرح والنصائح» والذي قرر فيه جميع قواعد أبي الحسن مع استدراك ما فات الأول، ومن قواعده التمييعية:

- (لا نجعل خلافتنا في غيرنا سبباً للخلاف بيننا).

وقد تقدم الكلام على هذه القواعد وغيرها مما قرره في كتابه، وقد لفح الشيخ محمد بن عبدالله الإمام - هداة الله عز وجل - وألف كتاب «الإبانة» وأدخل في هذا الكتاب بعضاً من تلك القواعد، نرجو من الله عز وجل أن يعينه على الرجوع عنها.

وكذلك كتاب الشيخ العباد - وفقنا الله وإياه لطاعته - الموسوم بـ«رفقاً أهل السنة بأهل السنة» من هذا الباب؛ ولهذا حذر منه العلماء، كالشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي، والشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي، والشيخ العلامة يحيى بن علي الحجوري.

والشيخ العباد عندنا كبير، لكن الحق أكبر وجليل، والحق أجل، وقد رد العلماء على من هو أكثر منه علماً وجلالة، فكلُّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا رسول الله ﷺ.

خاتمة الفصل

هذا، وأسباب التمييع عن المنهج السلفي الذي هو دين الله الحق الذي شرعه الله عز وجل لمحمد ﷺ، وبلغه رسول الله ﷺ وبينه، كثيرةٌ نجملها في مخالفة دين الله سبحانه وتعالى، فالواجب على المسلم التمسك بدين الله رب العالمين، والثبات على ذلك، حتى نلقى الله عز وجل.

وبعد ذكر هذه الأسباب التي تجعل كثيراً ممن ينتمي إلى المنهج السلفي ممييعين، بل ربما زحزحت المسلم عن دينه، نتطرق إلى نتائج الواقعة في هذه البلية العظيمة، والمذمة الجسيمة، التي إنما يتصف بها أصحاب النفوس المريضة، والتصورات المريية، والأفهام القاصرة، والأفكار العائرة، لعل بذكرها يُشفى من ألقى السمع وهو شهيد، وأخذ بالدليل وترك التقليد، والله المستعان، وعليه التكلان.

قال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» (1/165): (كل من أعرض عن شيء من الحق وجحدته وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحدته ولا بدّ، حتى في الأعمال من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجهه الخلق، فرغب

عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله، ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي، بالتعب في خدمه الخلق ولا بد.

وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي، ابتلي بكناسة الآراء وزبالة الأذهان ووسخ الأفكار). اهـ

هذا والوصية للأمة الإسلامية أجمع بالبعد عن أسباب الشر؛ لأن نتائجها سيئة جداً، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وليعرف أن كل سبب للوقوع في التميع ضده سبب للخلاص من هذا الشر العظيم والبلاء الجسيم، الذي فتك باستقامة كثير من العباد، ونكس كثيراً من الفطر. نسأل الله عز وجل السلامة، ونسأله أن ييسر لنا طرق الاستقامة، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

نتائج التمييع

كما أن الأمراض الحسية لها غوائل ونتائج وتأثيرات على الأبدان، فكذا الأمراض المعنوية التي تقدم ذكر كثير منها لها تأثيرات مضرّة بالبدن والدين والدنيا والآخرة، ومن نتائج مرض التمييع في الدعوة السلفية ما يأتي.

1 - التمييع سبب التنكر لمنهج الجرح والتعديل:

مع أن منهج الجرح لأهل الباطل والتعديل لأهل الحق من أعظم ميادين الجهاد التي ينصر بها الحق وأهله، ويذل بها الباطل وأهله. وقد بين الله عز وجل حال المبطلين بالاسم والوصف، أما بالاسم قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]

وأما بالوصف: سورة المنافقون، وسورة التوبة، وسورة المائدة، وسورة النساء، وكثير من سور القرآن مليئة بذلك.

وكذلك أثنى الله عز وجل أهل العدالة بالاسم والوصف.

وجرح رسول الله ﷺ بالاسم والوصف، وعدل بالاسم والوصف.

وقد تكلمنا عن هذا الأمر بتوسع في كتابنا الوسائل الجليلة لنصرة الدعوة السلفية.

وسياقي مزيد بيان في وسائل السلامة من مرض التميع وغيره من أمراض الدعوات.

2- التميع سبب لهدم قواعد الجرح والتعديل:

التي سار عليها سلفنا الصالحين. مثل الجرح المفسر مقدم على التعديل المبهم، كما تقدم بيانه.

3- التميع سبب المداهنة:

والمميع يقع في المداهنة وقد تقدم الكلام عليها.

4- وسبب من أسباب مجالسة أهل البدع:

مع أن الواجب هجرهم والبعد عنهم والتحذير منهم، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 67]. وسياقي مزيد بيان لذلك.

وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالِدِّجَالِ فَلْيُنْأَ عَنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَيَتَّبِعُهُ؛ مِمَّا يَنْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ» رواه أحمد (4/ 431)، وأبوداود (4319).

ومجالسة أهل البدع سبب لكثير من شرور، منها:

1- الرضا بما هم عليه من الباطل

2- المداهنة لهم

3- سماع الشبه

4- التأثير بهم لأن من جالس جانس.

5- تكثير سوادهم، ومن كثر سواد قوم فهو منهم، قاله ابن مسعود.

6- تغرير المجتمعات بأهل البدع.

7- الموالاة لهم.

8- مخالفة السنة التي تحث على هجرهم.

وغير ذلك مما هو متفرق في طيات كثير من مؤلفاتي - والحمد لله - على سبيل المثال: «الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية»، و«الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق الدعوة السلفية»، و«النصيحة والبيان لما عليه حزب الإخوان في أكناف دور القرآن»، و«الأدلة الرضوية في بيان حقيقة الديمقراطية» وغيرها، والله الحمد والمنة.

5- وسبب للركون إلى المبطلين:

مع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

6- وسبب للإعراض عن طريق أهل الحق المنصفين:

وبيان ذلك أن المميع لا يرضى بما عليه المستقيمين من الحق المبين والصراط المستقيم، فلا ترى وجهه وحديثه إلا مع من كان على شاكلته.

7- وسبب للبعد عن هدي سيد المرسلين:

محمد الأمين ﷺ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

8- وسبب لإهمال جانب الولاء والبراء:

مع أنه من مهمات الدين، قال الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22] الآية، وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

9- وسبب للبعد عن منهج السلف الصالح:

فهم كانوا على نهج ونأي عن سبيل المبطلين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى في لزوم طريقتهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

10- ضرر التميع على الأمة أعظم من ضرر الغلو:

لميل النفوس إلى التساهل في باب الدين، كما تقدم.

11- التميع من سبل الشيطان للمكر بالسنة والإسلام:

ودأبه الإفساد لأهل الأديان على ما ترى من المنكرات التي يقع فيها المميعة
ويتقمصون بها.

12 - التميع فيه مشابهة للمنافقين:

حيث يميل إلى أهل الحق تارة، وإلى أهل الباطل تارة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً» أخرجه مسلم (2784).

والمؤمن مطالب بالتميز والوضوح.

13 - التميع حجة عشرة في طريق الدعوة إلى الله عز وجل:

وذلك أن الله أمر بالدعوة إليه، فقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ إِذَا حَسَنَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

14 - وسبب لزعة الناس عن دينهم:

والميل إلى الباطل، ويدعو إلى السكوت عن الحق، وإلى غير ذلك مما يتعارض مع قول الله عز وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

15 - المميع يؤتى من قبله الإسلام:

وما دخل الخلل في الدين إلا بسبب المميعين سواء كانوا من المدسوسين أو كانوا من الجاهلين، فتجد أن الفتاوى النابية والأفكار المخالفة تصدر من قبل المميعين فتارة يفتون بجواز زواج المسلمة من النصراني مع أن الله عز وجل قال ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠]، وهكذا دواليك.

16 - المميع قاطع طريق على أهل الحق:

وهو من نواب إبليس في الأرض.

17 - المميع من شر أهل البدع:

فهو مثل المفوضة في باب الأسماء والصفات.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (19/160-162): (إذا صنفوا في أصول الدين أحزاباً: حزب: يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن النظر يوجب العلم، وأنه واجب، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للذين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل. والحزب الثاني: عرفوا أن هذا الكلام مبتدع، وهو مستلزم مخالفة الكتاب والسنة، وعنه ينشأ القول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يري في الآخرة وليس فوق العرش، ونحو ذلك من بدع الجهمية، فصنفوا كتباً قدموا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة من القرآن والحديث وكلام السلف، وذكروا أشياء صحيحة لكنهم قد يخلطون الآثار صحيحةا بضعيفها، وقد يستدلون بما لا يدل على المطلوب).

وأيضًا، فهم إنما يستدلون بالقرآن من جهة أخباره لا من جهة دلالاته، فلا يذكرون ما فيه من الأدلة على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد، وأنه قد بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك؛ ولهذا سموا كتبهم أصول السنة والشرعية، ونحو ذلك، وجعلوا الإيمان بالرسول قد استقر، فلا يحتاج أن يبين الأدلة الدالة عليه، فذمهم أولئك ونسبوههم إلى الجهل؛ إذ لم يذكروا الأصول الدالة على صدق الرسول، وهؤلاء ينسبون أولئك إلى البدعة، بل إلى الكفر؛ لكونهم أصلوا أصولاً تخالف ما قاله الرسول.

والطائفتان يلحقهما الملام؛ لكونهما عرضتا عن الأصول التي بينها الله بكتابه. اهـ.

18 - التميع سبب لضعف الإيمان:

وبيانه أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والتميع معصية تتضمن معاصي كثيرة؛ فلهذا يضعف إيمان المميع بقدر ما عنده من التميع.

19 - التميع يؤدي إلى زيادة البدع وظهورها:

مع أن الواجب حرب البدع وإخمادها.

20 - بسبب التميع ينتج إتهام السلف وطريقتهم بالغلو والتشديد:

لأن المميع يريد أن يكون الدعاة مثله، فمن حذر من الباطل نبز بالألقاب السيئة، وقد علمت خطر الطعن في أهل السنة.

21- ينتج بسبب المميعين عدم التصفية والتربية:

تصفية الدين مما ليس منه، وتربية المسلمين على الدين الصافي، الدين الحق الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، كان عليه أبوبكر وعمر والصحابة والتابعون لهم بإحسان، فإن الدين قد دخلت فيه الدواخل من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والعقائد المخالفة لطريقة السلف، فوجب تصفيته من هذه الشوائب، ووجب تربية المسلمين على الاستقامة والانقياد، وكما يقل: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

22- ينتج عن التميع التخذيل لأهل الحق مع أن تحذيلهم من كبائر الذنوب:

قال بكر أبو زيد من كتابه «الردود» ص(16): (ولأمر خير يريد الله في هذه الطائفة الذآبة عن دين الله وشرعه ينالهم أنواع من الأذايا والبلايا؛ زيادة من مضاعفة الأجر وخلود الذكر، ومن أسوئها نفثات المخذلين المقصرين من أهل السنة، فترى المثخن بجراح التقصير الكاتم الحق البخيل ببذل العلم إذا قام إخوانه بنصرة السنة يضيف إلى تقصيره مرض التخذيل ومن وراء هذا؛ ليوجد لنفسه عند المناشدة والمطالبة العذر في التولي يوم الزحف على مقتدره). اهـ

قال بكر أبو زيد من كتابه «الردود» ص(71): (والتخذيل لا يسري في الأمة إلا وتعمل على إسقاط نفسها بنفسها، وتوجد من تقصيرها وتحذيل الناصحين فيها معاول لهدمها). اهـ

وقال في ص(75): (والحاصل أن التخذيل يواجه المجاهدين بألستهم وأقلامهم وسنانهم). اهـ

23- بسبب منهج التميع يترك الرد على المخالف:

مع أن الرد على المخالف للدين القويم والصراط المستقيم واجب محتتم، وعمل صاحبه معظم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (9/233): (والمقصود أن هذه الأمة - والله الحمد - لم يزل فيها من يتفطن لما في كلام أهل الباطل من الباطل ويرده. وهم لما هداهم الله به يتوافقون في قبول الحق ورد الباطل رأياً ورواية من غير تشاعر ولا تواطؤ). اهـ

وقال الإمام أحمد رحمه الله في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية» (1/6): (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقول الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمشابهة من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين). اهـ

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (11/434): (ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى، وهذا الدين لا ينسخ أبداً، لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة، خلفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين،

وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون). اهـ

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (4/13): (فالرأى على أهل البدع مجاهد حتى كان (يحيى بن يحيى) يقول: الذبّ عن السنّة أفضل من الجهاد). اهـ

24- من نتائج التميع: المشابهة لمذهب المرجئة:

فالمرجئة سموا بهذا الاسم لأمرين، ذكرهما أهل العلم في كتبهم. ونذكر لك ما قاله الشهرستاني في «الملل والنحل» (1/138): (الإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٦]، أي: أمهله وأخره. والثاني: إعطاء الرجاء.

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح؛ لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد.

وأما بالمعنى الثاني فظاهر؛ فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيثار معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وقيل: الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار). اهـ

وكان السلف ينكرون على هذه الفرقة. فقد جاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله أنه لم يكن على أحد من أصحاب الأهواء أشد منه على أصحاب الإرجاء. من كتاب «اللطيف» لابن شاهين رقم (7).

وفي «طبقات الكبرى» لابن سعد (6/273): (عن ابن عون قال: جلست إلى إبراهيم النخعي فقال فيهم قولاً غيره أحسن منه). اهـ

فأصحاب التميع لا ينظرون إلى ما عند الرجل من الزلل والخطل ولا ما عنده من البر والتقوى، وإنما همهم التجميع وعدم الاختلاف.

25- ومن نتائج التميع: ضعف الدعوة السلفية:

لأنهم يطعنون فيها من الداخل والعدو الداخلي تأثيره أقوى من العدو الخارجي.

26- المميعون مسلوبو الثقة من أنفسهم وثقة الناس فيهم لعدم ثباتهم.

27- المميع يكثر سواد أهل البدع:

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (من كثر سواد قوم فهو منهم، ومن رضي عمل قوم كان شريكاً من عمل به). وعن ابن عباس رضي الله عنه أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] الآية. أخرجه البخاري (4320).

28- التميع سبب لبس الحق بالباطل:

والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٤٢].

29- التميع ظلم:

من حيث ظلم المميع لنفسه ولغيره من حملة المنهج السلفي والتغريب بغيرهم، فيقع في أنواع من الظلم، والله المستعان. عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَكَيْمِلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» أخرجه البخارى (4409)، ومسلم (2583).

30- التميع كتم للحق:

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (7 / 172): (ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل؛ ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلاً. وهكذا أهل البدع، لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة. وقد قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره، ف وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتُشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي: عن الذكر الذي أنزله الرحمن، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، قال العلماء: من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير

سبيلهم، فاستدلوا بذلك على أنّ اتباع سبيلهم واجب، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه). اهـ

31- التميع سبب لإضعاف العقيدة الصحيحة لدى كثير من الناس:

لأن المميع ساكت عن الحق فلا ينشره، وساکت عن الباطل فلا يردّه، فيقع الضرر من كتم العلم وعدم إنكار المنكر.

32- المميع يريد التركيب بين الحق والباطل:

والمركب ممزوج من عدة أفكار، وحالهم كما قيل:
أَشْعَرِي حَنْبَلِي وَكَذَا رَافِضِي هَذِهِ إِحْدَى الْعِبَرِ
وهذا لن يكون، ومصيرهم إلى الخطل والزلل.

33- محق بركة العلم:

فالمميع تحقق بركة علمه؛ لأنّه لم يعمل به، وإنّما خيرية العلم بالعمل به.
وهناك نتائج أخرى مذكورة في الفصل الآتي، وكل هذا على سبيل الذكر والإيجاز، لا الحصر والإطناب.

فصل في نتائج الاستجابة لدعاة تمييز الدين

السير على مبدأ المميزين في جانب ديننا القويم فساد عريض، وشره مستطير، يؤدي إلى ما يأتي بيانه في هذه الوريقات على اختصار:

فانظر أخي المسلم - وفقك الله تعالى - إلى نتائج السير على منهج التمييز في هذا الباب، وما يؤدي إليه من الأفكار البائرة، وهي:

أولاً: إلغاء حق الله سبحانه وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿[الذاريات: 56-58].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: 36].

والطاغوت هو: كل ما تجاوز حده من متبوع أو معبود أو مطاع، ورءوس الطواغيت خمسة: الشيطان، ومن لم يحكم بما انزل الله، ومن عبد من دون الله وهو راض، ومن دعى إلى عبادة نفسه، ومن ادعى علم الغيب.

والله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، والذي يهتأ أن يعرف أن القول بتقارب النصرانية واليهودية مع الإسلام على حد زعم أصحاب وحدة الأديان الصغرى ما يسمى بالإبراهيمية فيه الرضا بكون المسيح يُعبد من دون الله، أو يُشرك مع الله، مع أن الله قال في كتابه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ

الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: 72]. ويعترف أو يرضى بكون أن الله ثالث ثلاثة، والله يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَكُمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَفَرْتُمْ عَنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ [المائدة: 73-76]، ويرضى بكون المسيح ابن الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨١﴾ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَخَصَّكُمُ وَعْدُهُمْ عَذَابًا ۚ ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 88-95]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: 34-36]. فهل يرضى مسلم عنده مزرعة من فهم ومحبة للدين بمثل هذه الأقوال البائرة والأفكار الحائرة؟ لا والله، ولا يرضى بهذا إلا من مسخت فطرته وتغيرت حاله، فاللهم سلم!!!

وكذلك القول بالوحدة أو الاتحاد أو التقارب أو الحوار بمعنى التنازل، كل هذا يؤدي إلى الرضا بما هم عليه من الكفر والعناد والزندقة وضياح الدين والعياذ

بالله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135].

مفهوم الآية أن اليهود والنصارى أهل شرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]. وصفهم الله بالنقائص والمعائب ثم تأتي أنت تتقارب معهم يا الله العجب! هل يعقل هذا ممن لديه مزعة من دين وعقل؟ لا والله!

وأما أصحاب القول بالوحدة الإنسانية، فقولهم أظهر ضلالاً، وأعظم بطلائاً، وحكايته تغني عن رده؛ لأن هذا التقارب يعني أن دعوة الرسل من زمن نوح عليه السلام وإلى آخر الأنبياء محمد ﷺ قامت على ظلم الإنسانية.

ثانياً: الطعن في الله عز وجل وحكمته وعدله وعلمه والطعن في رسوله ﷺ:

من المعلوم أن الله أرسل محمداً ﷺ، وشرع له الجهاد، وأباح له دماء اليهود والنصارى وأعراضهم وأموالهم، وجميع من خالفه في هذه الملة وهذه الشريعة، قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

وقال رسول الله ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي»، وفي بعض الأحاديث: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ»، ومعلوم: أن رسول الله ﷺ قد قاتل اليهود وسبى منهم وقتل وشرّد ونكّل؛ إذلاً لهم ولدينهم الباطل المخالف، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ

يُؤْتِيهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَسِيقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: 2-7].

وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 25-27].

وأخرج البخاري (4028) ومسلم (1766): عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجَلَىٰ بَنِي النَّضِيرِ، وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةَ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لِحَقِّوَا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجَلَىٰ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنَقَاعَ وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ.

وقد أرسل رسول الله ﷺ من يقتل كعب بن الأشرف كما في البخاري (4037)، ومسلم (1801)، ويقتل أبا رافع تاجر الحجاز، أخرج قصة قتله

البخاري (4039)، وغيرها من القصص التي تؤكد قتال النبي ﷺ لليهود بسبب حراهم ونقضهم للعهود والمواثيق، وقد تقدم حديث أبي هريرة عند البخاري (4028)، ومسلم (1767)، وفيه: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

ولما رجع النبي ﷺ من غزوة الخندق جاءه جبريل عليه السلام وقد وضع سلاحه واغتسل، فقال للنبي ﷺ: قد وضعت سلاحك؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: «فَالَيْ أَيْنَ؟» قال: ههنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم، وكان الحكم العظيم فيهم من سعد بن معاذ ؓ كما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ؓ يَقُولُ: نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سَعْدٍ، فَأَتَى عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ لِلْأَنْصَارِ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ». فَقَالَ: «هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ». فَقَالَ: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ وَتَسْبِي ذُرَارِيَهُمْ. قَالَ: «فَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ». وَرَبَّمَا قَالَ: «بِحُكْمِ الْمَلِكِ». أخرجه البخاري (4121)، ومسلم (1768).

وغزى رسول الله ﷺ خيبر، قال أنس كما عند البخاري (4200)، ومسلم (1365): صلى رسول الله ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بَغْلَسٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ فِي السَّكَكِ، فَقَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَى الذَّرِّيَّةَ، وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةٌ، فَصَارَتْ إِلَى دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ عَتَقَهَا صَدَاقَهَا.

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه المتفق عليه البخاري (4416)، ومسلم (2404)، دلالة صريحة على كفرهم لمن كان في شك من أمره، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،

وَحُجِّبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَعَدَّوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ». فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَبَصَّقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وكذلك بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة على رأس جيش إلى الشام لمقاتلة النصارى في تلك الجهة، أخرج هذه القصة أحمد (5/ 299) حتى يدخلوا في الإسلام. وذلك لما ظهر مكروهم وبغيهم وحراهم للدين الحق.

وبعث عمرو بن العاص في معركة ذات السلاسل، أخرج البخاري (4358)، ومسلم (2384)، ثم بعد موته ﷺ توالى وتتابع البعث والفتوحات حتى فتحت الشام ومصر، وغيرها من بلدان الله عز وجل، ولم يرضى المسلمون من اليهود والنصارى بغير ما في حديث بريدة رضي الله عنه إِمَّا الْإِسْلَامَ وَالْجَزِيَّةَ أَوْ الْحَرْبَ.

فانظر هداك الله! كيف يفرق هؤلاء بين المسلمين واليهود والنصارى، على أن اليهود والنصارى يعاملون معاملة المشركين؛ لأنهم كذلك أصلاً، وما نُظِرَ إلى مواطن الاشتراك والائتلاف أبداً، فعُلم أن من ينادي إلى هذه الأفكار قد أتهم الله في حكمته وعدله، حيث شرع لنا قتال هؤلاء الناس على حد تعبير المتقاربين، وهم ليسوا بكفار، وإن لم يلتزموا ذلك فليقروا بكفرهم، ويريجوا المسلمين من شرهم.

ثالثاً: هذا القول منهم يؤدي إلى الطعن في كتاب الله المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن:

لما في هذا الكتاب من الدعوة إلى مبايبتهم ومخالفتهم ومقاتلتهم وعدائهم وعدم محبتهم ومودتهم ومولاتهم، فوصفهم بأقبح الأوصاف بالحسد والبغي والبهت، وأنهم مغضوب عليهم وضالون وملعونون.

فمعناه إما أن يكون القرآن وصفهم بغير ما يستحقون كما هو لازم كلام هؤلاء وهذا باطل، وإما أن يكون الدعاة إلى هذه الأفكار في عقولهم لوث، وما أحوجهم إلى مثل دِرَّةِ عمر رضي الله عنه حتى يراجعوا دينهم، وعلى قولهم يجب أهدار القرآن والعمل به والدعوة إليه.

رابعاً: في هذه الدعوة طعن في رسالة محمد ﷺ من أسها إلى رأسها:

حيث وهو الذي جاء بالقرآن وحذر من مولاتهم ومن التشبه بهم حتى قال ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» أخرجه أحمد (50/2)، وموافقه ﷺ معهم معلومة، وما مر معك في كيفية حوارهم كاف في الباب، ولكن طُمِسَتِ البصائر وتنكست الفطر، والله المستعان

وهذا القول يؤدي إلى إبطال رسالته وعموم دعوته ﷺ، وغير ذلك من لوازم أقوال هؤلاء المبطلين وأفعالهم.

خامساً: في هذه الدعوة إلغاء أحكام أهل الذمة:

وقد تقدم الإشارة إلى بعضها ولازم هذه الدعوة إلى أن أهل الذمة لا يدفعون جزية ولا يمنعون من إظهار شعائرهم ودينهم المغير المبدل، وإذا حصل منهم ما ينقض العهد لا يُنقض عهدهم لأنهم ليسوا بكافرين، أو قل على حق فيما هم فيه وزد على ذلك جواز بناء الكنائس والدير وإظهار الشعائر وهذا خلاف إجماع المسلمين.

سادساً: في هذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام المواريث في الكتاب والسنة:

أخرج البخاري (6764)، ومسلم (1614) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»، وهؤلاء ليس عندهم تفريق بين أهل الأديان.

قال ابن القيم في (أحكام أهل الذمة 2/ 452): (وأما توريث الكافر من المسلم فلم يختلف فيه أحد من الفقهاء أنه لا يرثه). اهـ

سابعاً: القول بهذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام نكاح المسلمين:

الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكَافِرِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: 10]. ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221]، ولا يكون الكافر ولياً للمسلمة، ولا محرماً لها بأي حال، وهؤلاء عندهم كلنا على دين سماوي - زعموا - وهم على دين الإلحاد والزندقة والعناد والكفر والجحود.

ثامناً: هذا القول يؤدي بل قد أدى في بعض البلدان إلى الدعوة إلى إلغاء أحكام الردة بين المسلمين:

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة: 54].

وقال ﷺ كما في البخاري (3017) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ». وفي البخاري (6923)، ومسلم (1733) عن أبي موسى رضي الله عنه لما قدم عليه معاذ رضي الله عنه ووجد رجلاً مربوطاً، فقال ما شأنه؟ قال: هذا يهودي أسلم ثم راجع دينه دين السوء، فقال معاذ رضي الله عنه لا أنزل حتى يُقتل قضاء الله ورسوله.

قال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (208 - 209): (قوله في اليهودي الذي أسلم ثم ارتدَّ فقال: (لا أجلس حتى يُقتل فأمر به فقتل) فيه: وجوب قتل المرتد، وقد أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا في استتابته، هل هي واجبة أم مستحبة؟ وفي قدرها وفي قبول توبته، وفي أن المرأة كالرجل في ذلك أم لا؟ فقال مالك والشافعي وأحمد والجمهور من السلف والخلف: يُستتاب، ونقل ابن القصار المالكي إجماع الصحابة عليه، وقال طاوس والحسن والماجشون المالكي وأبو يوسف وأهل الظاهر: لا يُستتاب، ولو تاب نفعتُه توبته عند الله تعالى، ولا يسقط قتله لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» وقال عطاء: إن كان ولد مسلماً لم يُستتب، وإن كان ولد كافراً فأسلم ثم ارتدَّ يُستتاب. وقال ابن عمر والزهري وإبراهيم ثقتل المرتد واستتابتهم.

واختلفوا في أن الاستتابة واجبة أم مستحبة؟ والأصح عند الشافعي وأصحابه أنها واجبة، وأنها في الحال، وله قول إنها ثلاثة أيام، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق، وعن عليٍّ أيضاً أنه يُستتاب شهراً، قال الجمهور: والمرأة كالرجل في أنها

تُقْتَلُ إِذَا لَمْ تَتَّبْ، وَلَا يُجُوزُ اسْتِرْقَاقُهَا، هَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَالْجَمَاهِيرِ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَطَائِفَةٌ: تُسَجَّنُ الْمَرْأَةُ وَلَا تُقْتَلُ، وَعَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ أَنَّهَا تُسَرَّقُ. اهـ

والراجح قتل المرتد ذكراً كان أم أنثاً، حرّاً كان أم عبداً، للحديث السابق، وقد تكلمت عن المسألة بحمد الله في كتابي «تحذير أولي النهى والمدارك لما في سفك الدم المحرم من المهالك».

ومن المعلوم أن طاعة أهل الكتاب سبب للردة والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: 100].

فلترجع لأحكام المرتدين في كتب الفقه، لكن ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الردة قد تحصل من الشخص بعدة أوجه، منها:

* عمل السحر، فإن الساحر كافر ولو ادعى أنه مسلم، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: 102].

* الرضا بما عليه اليهود والنصارى من الدين المحرف، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120].

ويقول: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145].

* اعتقاد أنهم على شيء، والله عز وجل قد كفرهم في عدة مواطن من القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المائدة: 68].

* التحاكم إلى غير شرع الله عز وجل رغبة عن شرعه وحكمه سبحانه، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]. وقال: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرُؤًا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60]. وقد تقدم معنا تعريف الطاغوت.

* زعم أن هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان، والله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمُ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 13-15].

* الدعوة إلى وحدة الأديان.

وفي «فتاوى اللجنة الدائمة» (2/8) السؤال الثاني والثالث من الفتوى رقم (7150).

س2: يقال: إن الردة قد تكون فعلية أو قولية، فالرجاء أن تبينوا لي باختصار واضح أنواع الردة الفعلية والقولية والاعتقادية؟

ج2: الردة هي الكفر بعد الإسلام، وتكون: بالقول، والفعل، والاعتقاد، والشك، فمن أشرك بالله، أو جحد ربوبيته أو وحدانيته أو صفة من صفاته أو بعض كتبه أو رسله، أو سب الله أو رسوله، أو جحد شيئاً من المحرمات المجمع على تحريمها أو استحله، أو جحد وجوب ركن من أركان الإسلام الخمسة، أو شك في وجوب ذلك أو في صدق محمد ﷺ أو غيره من الأنبياء، أو شك في البعث، أو سجد لصنم أو كوكب ونحوه - فقد كفر وارتد عن دين الإسلام، وبهذا تعلم من الأمثلة السابقة الردة القولية والعملية والاعتقادية وصورة الردة في الشك. وعليك بقراءة أبواب حكم الردة من كتب الفقه الإسلامي فقد اعتنوا به رحمهم الله. اهـ

وقالوا في (2/30): السؤال الثالث من الفتوى رقم (9438):

س3: لقد صرح القرآن الكريم بتكفير أهل الكتاب إلا الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ (القرآن)، أما الذين قالوا من اليهود: إن عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والعياذ بالله. وصرح القرآن الكريم بتكفيرهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:73]، ولكن مع هذه الحجة

القطعية وجدنا بعض العلماء يقولون: إن أهل الكتاب ليسوا كفارا، وإنما كانوا أهل الكتاب فقط. أفيدونا عن هذه المسائل.

ج3: من قال ذلك فهو كافر؛ لتكذيبه بما جاء في القرآن والسنة من التصريح بكفرهم، قال الله تعالى: ﴿يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ٧٠﴾ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ [آل عمران: 70-74].

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ [المائدة: 72-74].

وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30]. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1]. وقال: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا

يَدِينُوكَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿التوبة: 29﴾... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تاسعاً: القول بهذه الدعوة يضعف جانب الولاء والبراء:

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْنِعَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿المتحنة: 1﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿المائدة: 57﴾.

قال ابن كثير في «تفسيره»: (وهذا تنفير من موالاته أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها ﴿هُزُؤًا﴾ يستهزئون بها ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد كما قال القائل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَاقْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾، (من) ههنا لبيان الجنس،

كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿الحج: 30﴾

وقرأ بعضهم: ﴿وَالْكَفَّارِ﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

تقديره: ولا الكفار أولياء، أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء. اهـ.

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 51-52].

قال ابن كثير رحمه الله: ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]. وقال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

ويقول سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139]. ويقول تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمُ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمُ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: 80-81].

وإنما موالاة المسلم تكون لأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

قال ابن كثير رحمه الله: لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في البخاري (6026)، ومسلم (2585) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وشبك بين أصابعه.

وفي البخاري (6011)، ومسلم (2586) أيضًا، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104] وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه

الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله تعالى ورسوله والمؤمنون. اهـ

وفي «فتاوى اللجنة الدائمة» (64/2)، السؤال الثامن من الفتوى رقم (4246):

س8: ما معنى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: 13]، وما معنى الولاية معهم؟ وهل تكون الولاية أن تذهب إليهم وتحدثهم وتكلمهم وتضحك معهم؟

ج8: نهى الله تعالى المؤمنين أن يوالوا اليهود وغيرهم من الكفار ولقاء ود ومحبة وإخاء ونصرة، وأن يتخذوهم بطانة ولو كانوا غير محاربين للمسلمين؛ قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22] وقال:.. وما في معناها من نصوص الكتاب والسنة، ولم ينه الله تعالى المؤمنين عن

مقابلة معروف غير الحربيين بالمعروف أو تبادل لمنافع المباحة معهم من بيع وشراء وقبول الهدايا والهبات، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[المتحنة: 8-9].

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم. اهـ

وأوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله عز وجل، فإذا ضيع هذا الجانب ضاعت الكثير من شعائر الدين ومآثره، واختلط الحابل بالنابل، والغث بالسمين، والكفر بالإسلام، فيا رب سلم.

عاشراً: القول بهذه الدعوة يُضعف جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم شعائر الدين وقوائمه العظيمة، وبه تظهر الشعائر وتقل المنكرات من الكبائر والصغائر، واستحقت هذه الأمة الخيرية لتطبيقه والعمل به، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110].

ولعن الله اليهود والنصارى، ولعنوا على لسان داود وعيسى عليهما السلام بسبب تركه هذه الشعيرة، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78].

وسياأتي مزيد بسط لأدلة هذه الشعيرة في (الحلول) بإذن الله عز وجل.

الحادي عشر: ويلزم من هذا القول إلغاء شعيرة دعوة الكفار إلى الله:

مع أنها من الشعائر العظيمة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمِ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ يَمَنُ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]، ورسول الله ﷺ، كما تقدم كان يدعو اليهود والنصارى والمجوس ومشركي العرب إلى الإسلام، إما إذا حكمنا أن هؤلاء على شيء فلا دعوة، والله المستعان.

الثاني عشر: ويلزم من هذا القول تعطيل منهج الجرح لأهل الباطل والتعديل لأهل الحق:

جرح أهل الباطل جهاد في سبيل الله، بل من أعظمه قال رسول الله ﷺ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسِّتِكُمْ». أخرجه أبوداود (2504)، عن أنس رضي الله عنه. وإذا كان منهج اليهود المحرّف المبدّل منهج القبول على حد زعمهم، والنصارى كذلك، فمن باب أولى السكوت عن أهل البدع من المسلمين لأنهم أقرب من هؤلاء.

الثالث عشر: فيه الطعن في الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله:

فيه الطعن في عدالة الصحابة رضي الله عنهم من حيث أنهم ما تقاربوا مع اليهود والنصارى، بل قاتلوهم، وأجلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تبقى من يهود خيبر، ولم يكن لهم نكير في ذلك، وأيضا استباحوا أموالهم وسبوا نسائهم

وأخذوهم رقيق، وهذا على حد تعبير هؤلاء المقارين لا يجوز وكانوا يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون كما تقدم بيان ذلك.

الرابع عشر: فيه تكريم العصاة والملاحدين وإقصاء المستقيمين:

وهذا يظهر جلياً؛ لأن المستقيم المتمسك بالكتاب والسنة يعرف فساد هذه الدعوة وهم أنها يقربون من يرضى بشرهم ويتقبل أقوالهم وأفعالهم.

الخامس عشر: فيه الطعن في رسل الله سبحانه وتعالى:

حيث وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام يدعون إلى عبادة الله الحق: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: 36] وهؤلاء يقربون هؤلاء المشركين من عباد عزيز والمسيح عليه السلام وغيرهم، وأيضاً اليهود قتلوا كثيراً من الأنبياء عليهم السلام وكذبوهم، قال تعالى ﴿فَفَرِّقَا كَذَبَتُمْ وَفَرِّقَا نَقُتْلُوكَ﴾ [البقرة: 87] ومع ذلك يرضى عنهم: ﴿إِنَّمَا لِاحْدَى الْكُتُبِ﴾ [المدثر: 35].

السادس عشر: فيه الرضا بالطعن في الله عز وجل:

اليهود يزعمون أن يد الله مغلولة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]. ويزعمون أن الله فقير قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَتَكْنُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل

عمران:181]. ويزعمون أن الله لما خلق السموات والأرض أرتاح في اليوم السابع، مع أن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:38]. والنصارى يزعمون لله الصحابة والولد، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والله يقول: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون:91]. ويقول: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:92].

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾.

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه (4482) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسَبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا». وبعد هذا فإذا نحن تقاربنا مع هؤلاء الكفرة وتوحدنا فقد رضىنا بالطن في ربنا عز وجل، ونحن مسلمون لله منقادون لشرعه طائعين له سبحانه وتعالى، منزهين له عن كل نقص وعيب، مثنين عليه بالكمال والإحسان والخير.

فَشَتَّانَ مَا يَبْنَى الْيَزِيدِيُّ فِي النَّدَى يَزِيدَ سُلَيْمٍ وَالْمُثَنَّى بَنِي عَامِرٍ

السابع عشر: فيه الرضا بالطعن في جبريل والملائكة عليهم السلام:

اليهود عدوهم اللدود جبريل عليه السلام وقد تقدم حوارهم مع النبي ﷺ، وبيان ذلك عنهم، وإذا تم التقارب مع أبناء القردة والخنزير لابد من الرضى بما هو كفر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ [البقرة: 97-98].

الثامن عشر: فيه الرضا بالكتب المحرفة تفصيلاً:

حيث ومن لوازم التقارب مع هؤلاء القوم الرضا بما هم فيه من الاعتقادات والمعاملات المأخوذة من الكتب المحرفة لأنها عند هؤلاء المتقاربين على شيء، والله سبحانه يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْقَةً شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48].

التاسع عشر: فيه تعطيل أحكام جنائز الكافرين وإلحاقهم بالمسلمين:

لأنه على حد تعبيرهم يجوز الصلاة عليهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وغسلهم، وتكفينهم، مع أن هذا كرامة للمسلم، دون غيره إذ أن غير المسلم يُلقى كاللقاء الكلاب، كما فعل رسول الله ﷺ بالمشركين في غزوة بدر، ويغيبون من أجل أن لا يتأذى المسلمون بتنتهم، وقد قال رسوله الله ﷺ لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين مات أبو طالب: «أَذْهَبَ فَوَارِهِ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا». بل قد بهم الحد إلى السعي لجعل القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المحفوظ بحفظ الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، المهيمن على غيره من الكتب في دقة واحدة مع التوراة المحرفة والمبدلة والمغيرة والإنجيل المحرف المبدل،

قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

فَأَيْنَ إِلَى أَيْنَ النَّجَاهُ بَبَغْلَتِي أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَحْبَسِ أَحْبَسِ

العشرون: فيه جواز الدعاء للكافرين:

لأنهم إخوان للمسلمين، على حد تعبير أصحاب الحوارات التقاربية.

الحادي والعشرون: فيه الرضا بالشركيات والبدع والخرافات:

لما تقدم من بيان شركهم وبعدهم عن الحق.

الثاني والعشرون: فيه أيضًا: جواز بدائهم بالسلام وعدم التضييق عليهم في الطريق:

وهذا خلاف ما عليه ديننا الإسلامي، وقد مر معنا هذا.

الثالث والعشرون: فيه إهدار الكتب والعلم والتعليم:

لأن هذا الباب سبب للفتقه في دين الله عز وجل، ومعرفة الحق من الباطل، وعلى حد تعبيرهم إذا كان ما عليه اليهود والنصارى حق، فمن باب أولى ما عليه جُهاال المسلمين. وأهل بدعهم ولا حاجة للعلم والفتقه

الرابع والعشرون: فيه تعطيل أحكام الكافرين في الآخرة:

حيث إذا حُكِمَ لليهود والنصارى بالإيمان يحكم لهم بالجنة، وربُّنا يقول: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ [البينة: 1-2].

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عند البخاري (7439)، ومسلم (183) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ أَنَسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ، هَلْ تُصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهْرِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا لَا. قَالَ: «وَهَلْ تُصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا لَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تُصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا كَمَا تُصَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذَنٌ مُؤَدَّنٌ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبْرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَازَا تَبْعُونَ فَقَالُوا عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ أَلَا تَرُدُّونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهُمَا سَرَابٌ، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيَقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْعُونَ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَذْنَى صُورَةٍ مِنَ النَّارِ رَأَوْهُ فِيهَا، فَيَقَالُ مَاذَا تَنْتَظِرُونَ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا فَارْقَنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا». وفيه: أنهم يحشرون إلى النار، ويتساقطون فيها.

وأخرج الإمام مسلم (153) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

الخامس والعشرون: فيه احترام الرأي والرأي والآخرون:

إذا كنت اليهود على حق، والنصرانية على حق، والإسلام على حق، فلكل من هؤلاء احترام أفكار بعضهم بعضاً، وهذا فيه من الفساد ما الله به عليم.

السادس والعشرون: فيه تقديم الكتاب والسنة للمفاوضات، ومعارضته بالكتب المحرفة والآراء الهدامة والعقول الكاسدة:

وهذا هو الواقع، وغالباً يتركون حكم الكتاب والسنة، ويأخذون بما تلقىه عليهم عقولهم، وإن ناقض المعقول والمنقول.

السابع والعشرون: فيه إلغاء عزة المؤمنين وإعزاز من أذلم الله من اليهود والنصارى الكافرين:

يقول ربنا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]. وهؤلاء جعلوا المسلمين كالكافرين في هذا الباب وغيره، والله المستعان، ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: 35-36].

الثامن والعشرون: المساواة بين المساجد والكنائس في الأحكام:

المساجد هي أحب البقاع إلى الله، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والكنائس والبيع فيها ما الله به عليم من الشرك والإلحاد والبغي والعناد والفساد والإفساد، ومع ذلك يساؤون بينها والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100].

التاسع والعشرون: الرضا بالصلاة الباطلة المخالفة لصلاة المسلمين:

معنى هذا أن اليهودي والنصراني يصلي بصلاته المعروفة عنده مع أنها تخالف صلاة المسلمين جملة وتفصيلاً، مع أنك تجد أن صلاة المسلم تبطل إما بنقض الوضوء، أو مس الذكر بدون حائل، أو عدم قراءة الفاتحة، أو عدم إتمام الركوع والسجود فيها، ودواليك، وهؤلاء على حد تعبير أهل الوحدة صلاتهم حقه.

الثلاثون: فيه الرضا بحج الكفار إلى المشاهد والأماكن المبتدعة الشركية:

ومساواة ذلك بحج المسلمين إلى البلد الأمين.

الحادي والثلاثون: فيه المساواة بين طهارة المسلمين ونجاسة الكافرين.

الثاني والثلاثون: فيه جواز عتق رقبة من اليهود والنصارى في الكفارات:

مع أنه لا تجزى في الكفارات إلا رقبة مؤمنة على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَحْرُورَ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92].

الثالث والثلاثون: فيه القول بالمساواة مع المسلمين:

والله عز وجل يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم: 35-36]. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100]. ويقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20]. ويقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 19-22].

الرابع والثلاثون: فيه جواز دفع الزكاة إلى الكافرين:

مع أن مصارفها ثمانية معروفة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]، ورسول الله ﷺ، يقول: «فَاعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ». متفق عليه، عن معاذ رضي الله عنه.

الخامس والثلاثون: فيه جواز الإمارة فيهم:

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141]. ورسول الله ﷺ يقول: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» أخرجه البخاري (7055)، ومسلم (1709) من حديث عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه.

السادس والثلاثون: فيه عدم الخروج على الحاكم الكافر:

وبيانه أن الخروج على الحاكم إنما يكون لكفره، وهؤلاء ما عندهم هذا الأمر.

السابع والثلاثون: فيه جواز الأمر بالنصرة لهم:

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: 72-73].

والآية ظاهرة الدلالة أن النصرة إنما تكون للمؤمنين.

الثامن والثلاثون: فيه تولى من حاد الله ورسوله ﷺ:

وربنا يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝٥٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[المائدة: 55-57]﴾. ويقول سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: 1].

ويقول أيضًا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسُ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: 13]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

التاسع والثلاثون: فيه إثبات الإيمان لهم:

والله يقول: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في «تفسير» (هذه الآية: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبدالله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا

كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴿١٠٠﴾. وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (١٠٠). اهـ

والحنفية هي: ملة الإسلام التي كان عليها إبراهيم عليه السلام والأنبياء عليهم السلام، وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم والمؤمنين باتباعها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95]. والحنيف هو المسلم، سمي بذلك لميله وعدوله عن الشرك وأمور الجاهلية إلى توحيد الله تعالى وأخلاق أهل الحنيفية السمحة.

فقد روى الإمام أحمد (236/1) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إليك؟ قال: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

ونحن نثبت أن منهم مؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114]. وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]. لكن منهم هؤلاء؟! هؤلاء أمثال عبد الله بن سلام وغيره ممن دخل في الإسلام.

الرابعون: فيه القود بينهم وبين المسلمين:

والرسول ﷺ يقول: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ» كما عند البخاري (3047)، ومسلم (1370): عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ،

مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمَّا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَالُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.

الحادي والأربعون: فيه التكافؤ بين دماء المسلمين ودمائهم:

أخرج الحاكم في «المستدرک على الصحيحين» (141/2) عن قيس بن عباد قال: دخلت أنا والأشتر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمل فقلت: هل عهد إليك رسول الله ﷺ عهدا دون العامة؟ فقال: لا إلا هذا وأخرج من قراب سيفه فإذا فيها: «الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، إِلَّا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال أيضًا: وله شاهد عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه: فقد علق الذهبي في «التلخيص»: على شرط البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُجِيرُ عَلَى أُمَّتِي أَذْنَاهُمْ».

وأما حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه فمعروف في قتله محمد بن أبي بكر لما دخل عليه قال له: محمد بن أبي بكر؟ قال: نعم، قال: بأمان جئت؟ قال: لا، قال فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ» الحديث.

الثاني والأربعون: فيه جعل ديتهم كدية المسلم:

وفي الحديث: «دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ» أخرجه ابن ماجه (2644) عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -.

الثالث والأربعون: فيه أمضاء أمانهم وعهدهم:

وفي الحديث: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ». وفي حديث قيس بن عباد السابقي في حق المؤمنين: «وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ».

الرابع والأربعون: فيه إبرار أقسامهم:

وهذا إنما هو في حق المسلمين، على ما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعٍ، وَهَمَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَرَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْوِيتِ الْعَاطِسِ. وَهَمَانَا عَنْ آيَةِ الْفِضَّةِ، وَخَاتَمِ الذَّهَبِ، وَالْحَرِيرِ، وَالذِّيْبَاجِ، وَالْقَسِيِّ، وَالْإِسْتَبْرَقِ. أخرجه البخاري (1239)، ومسلم (5388).

الخامس والأربعون: عيادة مريضهم:

غاية ما فيه الجواز أو الاستحباب إن كان للدعوة، وعلى القول بإيمانهم تجب عيادتهم واتباع جنائزهم وجوباً كفاً.

السادس والأربعون: في إلغاء فوراق اللباس وجواز التشبه بهم:

وقد تقدم الكلام في وجوب مخالفتهم.

السابع والأربعون: فيه قبول شهادتهم وتعديلهم:

والله يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: 2].

الثامن الأربعون: فيه جواز دخولهم المسجد الحرام:

وربنا يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28].

التاسع والأربعون: فيه جواز استيطانهم في جزيرة العرب:

بَوَّبَ الإمام البخاري في صحيحه: (باب إخراج اليهود من جزيرة العرب). وذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ فَقَالَ: «اَتُونِي بِكِتَفٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا». فَتَنَازَعُوا وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيِّ تَنَازُعٍ، فَقَالُوا: مَا لَهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ. فَقَالَ: «ذَرُونِي، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ»، فَأَمَرَهُمْ بِثَلَاثٍ: قَالَ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ»، وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (3053)، وَمُسْلِمٌ (1637).

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مَا بَيْنَ أَقْصَى عَدَنَ أُبَيْنَ إِلَى رِيفِ الْعِرَاقِ طُولًا وَمِنْ جَدَّةَ وَمَا وَالَاهَا إِلَى أَطْرَافِ الشَّامِ عَرْضًا، وَسُمِّيَتْ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ لِإِحَاطَةِ الْبَحَارِ بِهَا، يَعْنِي بَحْرَ الْهِنْدِ وَبَحْرَ الْقُلْزُمِ وَبَحْرَ فَارِسَ وَبَحْرَ الْحَبَشَةِ، وَأُضِيفَتْ إِلَى الْعَرَبِ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِأَيْدِيهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبِهَا أَوْطَانُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ. وَقَالَ الْحَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَهِيَ أَرْضُ الْعَرَبِ وَمَعْدِنُهَا.

الخمسون: فيع الرضا بجميع معاملاتهم:

لأنه قد تم الاعتراف بهم أنهم على شيء، وربنا يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المائدة: 68].

الحادي والخمسون: فيه قبول أخبارهم ورواياتهم:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه (4485) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ» وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46]. هذا إذا نقلوا من كتبهم المحرفة، فكيف بغيرها.

الثاني والخمسون: فيه لا يقتل جريحهم في الحرب ولا يجوز سبيهم ولا أخذ غنائمهم:

لأن هذه الأحكام إنما هي في حق المؤمنين، والواقع خلاف ذلك.

الثالث والخمسون: إلغاء باب الغزو والجهاد:

لأن الجهاد إنما يكون ضد الكافرين، وهؤلاء شهد لهم محبوبهم بالإيمان، والحق أنهم كفرون، والله أمر بقتلهم، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193]. فهم في حراب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ذليلون.

الرابع والخمسون: فيه أن التقارب مع الأديان رغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام:

والله يقول: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]. فمن رام القرب من اليهودية والنصرانية، فضلاً عن سائر الملل الوثنية، فقد رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام

التي هي الحنيفة المسلمة، وقد أمر الله عباده المؤمنين بلزومها فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]. أي فالزموها، وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95]. قال قتادة كما في «جامع البيان» (1/ 588): رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله وتركوا ملة إبراهيم. اهـ

ومع ذلك حاولوا انتحاله، فقال الله مكذباً لهم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. أفاده القاضي في «دعوة التقريب» (4/ 1427).

الخامس والخمسون: فيه الرضا بالصلاة إلى غير القبلة:

قال الله تعالى عن المشركين واليهود ومن وافقهم من المنافقين: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٤٢ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٤٣ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٤٤ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 142-145].

السادس والخمسون: فيه الرغبة عن الصراط المستقيم:

وربنا يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ: عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَحَاةٌ» أخرجه أحمد (4/182)، والحاكم في «المستدرک».

فإذا كان الاعوجاج حاصل بين أبناء الأمة الواحدة، حتى قال الرسول ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فِإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ»⁽¹⁾. وفي رواية: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، وكما دل عليه حديث النواس رضي الله عنه، فما بالك بمن يزعم التوافق بين أهل الدين الحق وهم المسلمون، وبين اليهود والنصارى الكافرين.

السابع والخمسون: فيه لبس الحق بالباطل:

والحق هو الإسلام، والله عز وجل قد وبخ الله أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71]. وروى بن جرير (3/311) عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة (يا أهل الكتاب لما

(1) أخرجه ابن ماجه (3992) عن عوف بن مالك ؓ.

تلبسون الحق بالباطل) يقول لما تلبسون اليهودية بالنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله لا يقبل غيره الإسلام، وأخرج عن ابن جريج (لما تلبسون الحق بالباطل) الإسلام باليهودية والنصرانية.

الثامن والخمسون: فيه ابتغاء لدين غير الإسلام:

وهو دين مغلط من الحق وهو الإسلام، والباطل وهو تأليه المسيح عليه السلام وعزير، والإيمان بالإنجيل والتوراة المحرفتين، وجمع الحق مع الباطل من التناقضات، وربنا يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

وقال تعالى في سياق كلامه على اليهود والنصارى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137].

التاسع والخمسون: تميع دين الإسلام ومفهوم الإيـمان:

حيث زعموا أن الإيـمان يشمل خصلاً ثلاثاً: الإيـمان بالله، والإيـمان باليوم الآخر والعمل الصالح. مع أن هذا وحده لا يكفي حتى يتم الإيـمان بجميع أركان الإيـمان، وهي: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُؤْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

وبيانها في حديث جبريل عليه السلام، فأخبرني عن الإيمان. قال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ»، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ودليل الإيمان بنبوة ورسالة محمد ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40].

ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه، وغيره في الباب «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِّنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ» أخرجه مسلم (403).

الستون: فيه طمس الخصائص المميزة للدين الإسلامي:

وذلك في جميع العقائد والأحكام كما تقدم.

الحادي والستون: تقدم أنها طعن في النبي ﷺ، وزد على ذلك أنها طعن في رسالته ﷺ:

والله يقول: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]. ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

الثاني والستون: فيه الاعتقاد أن القرآن غير مهيمن على الكتب السابقة:

وربُّنا يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

الثالث والستون: المناداة بإخضاع النص القرآني للنقد:

المناداة بإخضاع النص القرآني لمعاول النقد التاريخي، ورفع الحصانة الربانية عنه. اه قولهم هذا من الكفر البواح، حيث أن الله قد قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. اه من «دعوة التقريب» (4/ 1439).

الرابع والستون: فيه أن هذا القرآن غير صالح لهذا الزمن:

كما ينادون بذلك وبهذه الحوارات هم يريدون طمس هويته، وربُّنا يقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٧ قل بفضلِ اللَّهِ وبرحمته، فإذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴿[يونس: 57-58]. ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْدٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 41-42]. ويقول: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَبَىٰ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ ﴿فصلت: 44﴾. ويقول: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: 49]. ويقول: ﴿فَاِلٰهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَاَعْلَمُوْا اَنَّمَا اُنْزِلَ
بِعِلْمِ اللّٰهِ وَاَنْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَهَلْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾ [هود: 14]. وغيرها من الأدلة التي
تبين لجميع الناس أن القرآن العظيم هو الصالح النافع لكل زمان ومكان، وكذلك
سنة محمد ﷺ الصحيحة.

الخامس والستون: التحاكم إلى الطاغوت:

حيث ومن المعلوم أن الله قد حكم على التوراة والإنجيل بالتحريف والتغير
والتبديل، وما سَلِمَ منها فهو منسوخ، وهؤلاء يزعمون أنهم مؤمنون بهذا الكتاب،
وهم يحكمون غيره، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ
وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَالِى الرُّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا
وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 60-62].

السادس والستون: فيه خرم لإجماع المسلمين:

على أن كل دين سوى دين الإسلام فهو باطل، ومن اعتقد صحة دين غير
الإسلام فقد كفر. وبأن من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ فهو كافر. ومن اعتقد أن
القرآن غير كلام الله وغير صالح لكل زمان ومكان فهو كافر. ومن اعتقد أن التوراة
والإنجيل غير محرفة ومبدلة فهو كافر.

السابع والستون: فيه تصحيح دين اليهود والنصارى:

تحت مسمى الاعتراف الآخر. أفاده القاضي (4/1449).

الثامن والستون: فيه المداهنة في دين الله عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9]. بعد نهيهم عن طاعتهم فقال (ولا تطع المكذبين) قال ابن جرير معنى ذلك: (ودَّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى ألهتهم فيلبنون لك في عبادتك إلهك). اهـ

التاسع والستون: فيه المحبة لليهود والنصارى قاتلهم الله:

مع أن من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وفي حديث أنس رضي الله عنه، عند البخاري (16)، ومسلم (43)، عن النبي ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ» وذكر منها: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ».

السبعون: فيه الفتنة عن بعض ما أنزل الله:

وربنا يقول: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49-50]. أفاده القاضي.

الحادي والسبعون: فيه إمضاء للقاعدة الباطلة: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه):

كيف يكون هذا والله يقول: ﴿قُلْ يَتَّأْهِلَ آلُكُمْ لَكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المائدة: 68]. ويقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾

وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿البقرة: 120﴾. ويقول: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿البقرة: 135﴾. وغيرها من الأدلة التي تبين أن اليهود والنصارى لن يرضوا بالإسلام دينًا، وإنما يتبعون أهواءهم وكفرهم وزندقتهم، فكيف نتعاون بيننا ويعذر بعضنا بعض. والله المستعان.

الثاني والسبعون: فيه رفع الأحكام الشرعية من القرآن والسنة بكفر اليهود والنصارى:

أفاده القاضي.

وهذا لا يكون مادام أن كفرهم جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى عليه وسلم، إلا من دخل منهم في الإسلام وأمن، ونحن واجب علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

الثالث والسبعون: فيه عدم التفريق بين حكم الله عز وجل وحكم غيره:

وربنا يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿المائدة: 50﴾. ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ ﴿المائدة: 48-49﴾. ويقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ

هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿[المائدة: 44]﴾. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60].

الرابع والسبعون: فيه التفرق من اجل الكفار:

ولما حصل ذلك من المسلمين بالنسبة للمنافقين أنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88].

الخامس والسبعون: فيه الدفاع عن الخائنين من يهود ونصارى ومارقين، والمجادلة من أجلهم:

والله يقول: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]. ويقول: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107].

السادس والسبعون: فيه إلغاء لمنهج الهجر للمخالف في المعتقد:

لأنه إذا تم التواصل بين اليهود والنصارى وعدم هجرهم من قبل المسلمين، فمن باب أولى عدم هجر المبتدعة.

السابع والسبعون: فيه الإلغاء لأحكام الشهادة في قتال المسلمين مع الكفار:

ووجه ذلك أن المسلمين على حق واليهود والنصارى على حق وكلهم يشملهم الإسلام العام على حد تعبير القوم ويكون القاتل والمقتول في النار كما في حديث أبي بكر المتفق عليه.

الثامن والسبعون: فيه الحكم بالنار للقتيلين من المسلمين واليهود والنصارى:

على حد زعمهم أنهم مسلمون، ورسول الله ﷺ يقول: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» أخرجه البخاري (6875)، ومسلم (1888)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

هذا حكم الله عز وجل ورسوله ﷺ في المسلمين، ومن عداهم فهم أهل النار.

التاسع والسبعون: فيه هدم لأسس الدين ودعائه العظام:

حتى لا يبقى له كيان، ويحدث له انصهار مع غيره من الأديان المحرفة وتكون النتيجة إلحاقه بهم، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: 32-33﴾. ويقول أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿الصف: 8-9﴾. فأخبر سبحانه عباده المؤمنين بما يفعلون مع أعدائه هؤلاء، فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

الثمانون: فيه الاعتراف بأعياد الكفار:

كعيد الميلاد، والكرسمس، وعيد الحب، وغيرها من الأعياد المبنية على معتقدات فاسدة وآراء كاسدة، ورسولنا ﷺ قد بين لنا بوحى من الله أعياد المسلمين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟» قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي

الجاهليَّة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ» رواه أبوداود (1134) بهذا اللفظ، وقال الحاكم في المستدرک: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. فهذان عيدا المسلمين.

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» تحريم التقليد والاعتراف بأعياد الكفار من ثمانية وجوه وهي:

1- أن الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك، التي قال الله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: 67]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] كالقبلة والصلاة والصيام، فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد، موافقة في الكفر. والموافقة في بعض فروعه: موافقة في بعض شعب الكفر، بل الأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر، وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه. وأما مبدؤها فأقل أحواله: أن تكون معصية، وإلى هذا الاختصاص أشار النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَإِنَّ هَذَا عِيدُنَا» أخرجه البخاري (949)، ومسلم (892)، وهذا أقبح من مشاركتهم في لبس الزنار، ونحوه من علاماتهم؛ لأن تلك علامة وضعية ليست من الدين، وإنما الغرض منها مجرد التمييز بين المسلم والكافر، وأما العيد وتوابعه، فإنه من الدين الملعون هو وأهله، فالموافقة فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

2- أن ما يفعلونه في أعيادهم معصية لله؛ لأنه إما محدث مبتدع، وإما منسوخ، وأحسن أحواله - ولا حسن فيه - أن يكون بمنزلة صلاة المسلم إلى بيت المقدس.

3- إنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس، وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس، بل عيداً، حتى يضاهى بعيد الله، بل قد يزيد عليه، حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر.

4- أن الأعياد والمواسم في الجملة، لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم، كانتفاعهم بالصلاة والزكاة والحج، ولهذا جاءت بها كل شريعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: 34]، وقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: 67].

ثم إن الله شرع على لسان خاتم النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق على أتم الوجوه، وهو الكمال المذكور في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3]؛ ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية، فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان، وهو عيد النحر، ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله ﷺ بعامة المسلمين، وقد نفى الله تعالى الكفر وأهله.

5- أن مشابهمهم في بعض أعيادهم يوجب سرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل، خصوصاً إذا كانوا مقهورين تحت ذل الجزية والصغار، فأروا المسلمين قد صاروا فرعا لهم في خصائص دينهم، فإن ذلك يوجب قوة قلوبهم وانسراح صدورهم، وربما أطمعهم ذلك في انتهاز الفرص، واستدلال الضعفاء، وهذا أيضاً أمر محسوس، لا يستريب فيه عاقل، فكيف يجتمع ما يقتضي إكرامهم بلا موجب مع شرع الصغار في حقهم؟

6- أن مما يفعلونه في عيدهم: ما هو كفر، وما هو حرام وما هو مباح لو تجرد عن مفسدة المشابهة.

7- ما قررته في وجه أصل المشابهة: وذلك أن الله تعالى جبل بني آدم - بل سائر المخلوقات - على التفاعل بين الشيئين المتشابهين؛ ولأجل هذا الأصل وقع التأثير والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكلة، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشره اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام، والمشاركة في الهدى الظاهر توجب أيضًا مناسبة واتتلافًا، وإن بعد المكان والزمان، فهذا أيضًا أمر محسوس، فمشابهتم في أعيادهم - ولو بالقليل - هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، وما كان مظنة لفساد خفي غير منضبط؛ علق الحكم به، وأدير التحريم عليه، فنقول: مشابهتم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة. بل في نفس الاعتقادات، وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله، ولو تفتن له، وكل ما كان سببًا إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه، كما دلت عليه الأصول المقررة.

8- إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة، وموالاتة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاتة لهم؛ فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن اقتضاءها إلى نوع من الموالاتة أكثر وأشد، والمحبة والموالاتة لهم تنافي الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ
 فَيُضِيعُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا
 بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ [المائدة: 51-53]، وقال
 تعالى فيما يذم بها أهل الكتاب: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ
 دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا
 يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا
 مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
 مَا اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ وَلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ [المائدة: 78-81].

فبين سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه مستلزم لعدم
 ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم،
 وقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ
 فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: 22].

فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا؛ فمن واد الكفار فليس بمؤمن،
 والمشابهة الظاهرة مظنة الموادة، فتكون محرمة، كما تقدم تقرير مثل ذلك.

واعلم أن وجوه الفساد في مشابعتهم كثيرة، فلنقتصر على ما نبهنا عليه.

الحادي والثمانون: الرضا بجميع البدع:

والرد لمثل حديث: «مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718)، وفي لفظ لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وعدم المبالة بمثل حديث: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ» أخرجه أبوداود (4607)، والترمذي (2976).

الثاني والثمانون: فيه جواز الصلاة على أي صورة كانت:

لأنها بزعمهم كلها صحيحة.

الثالث والثمانون: فيه جواز الصيام على أي صورة كانت.

الرابع والثمانون: فيه عدم التفريق بين قراءة القرآن وبين قراءة التوراة والإنجيل المحرفين.

الخامس والثمانون: فيه عدم التفريق بين ما هو من طعام المسلمين، وما هو من طعام المشركين.

السادس والثمانون: فيه جواز الحلف بمربوبات القوم.

السابع والثمانون: فيه إجراء وقبول وصاية اليهودي والنصراني على المسلم:

مع أنها لا تجوز شرعاً.

الثامن والثمانون: إلغاء أحكام الهجرة من بلاد اليهود والنصارى إلى بلاد الإسلام.

التاسع والثمانون: جواز التجنس بجنسيات اليهود والنصارى.

قال العلامة الفوزان كما في «شرح الدلائل» ص(206) في جوابه على هذا السؤال هل التجنس بجنسية الدولة الكافرة تعتبر من مولاة الكفار. فقال: نعم، هذا من سريان أحكامهم عليه وإنه نوع من الدخول تحت حكمهم وطاعتهم.

التسعون: جواز التحاكم إلى محاكمهم.

وهذا من المحرمات شرعاً؛ لأنه من التحاكم إلى غير شرع الله.

الحادي والتسعون: جواز الركون إليهم:

مع أن الله يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: 113].

الثاني والتسعون: فيه جواز التعاون مع اليهود والنصارى في إحياء أعيادهم:

مع أن شيخ الإسلام وغيره ينقلون عدم الجواز.

الثالث والتسعون: فيه جواز الصلاة على أي وجه كان من الأوجه الثلاثة:

لأنه على حد زعمهم: (كل من عند الله)، وهذا معلوم بطلانه بالضرورة.

الرابع والتسعون: فيه إغلاق باب النصيحة لله عز وجل ورسوله ﷺ ولأئمة

المسلمين وعامتهم.

الخامس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الألوهية:

حيث ومن أمرهم أصول النصارى القول بالوهية عيسى، تعالى الله عن قولهم.

السادس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الأسماء والصفات:

حيث وهم يسمون الله بالأب والابن وروح القدس، وغير ذلك.

السابع والتسعون: فيه خفض الجناح لهم:

مع أن هذا لا يكون إلا للمؤمنين: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88].

الثامن والتسعون: فيه لا فرق بين حفظ القرآن العظيم الناسخ والمهيمن على غيره المحفوظ من التبديل والتحريف وبين حفظ التوراة والإنجيل المحرفين المبدلين. التاسع والتسعون: يلزم منه دخولهم في الشفاعة في أهل الكبائر والشفاعة في دخولهم الجنة: وهذا مما يعلم خلافه لعقيدة المسلمين.

المائة: فيه جواز التفضيل بين لغتهم وبين العربية:

وجواز التحدث بلغتهم بغير حاجة، مع أن شيخ الإسلام وغيره يعد ذلك من النفاق. الواحد بعد المائة: العهد التي بين المسلمين واليهود والنصارى إذا كانوا كلهم أصحاب حق سيكون تحصيل حاصل:

لأنه في هذه الحالة يجب الكف عنهم في كل حال، والله المستعان، وعليه التكلان.

الثاني بعد المائة: القول به يقتضي دخول اليهود والنصارى في أمة محمد ﷺ.

وقد قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (4/13-14): ط. عالم الفوائد، قال أبوطالب: سألته عن اليهود والنصارى من أمة محمد ﷺ؟ قال: لا، النبي ﷺ يقول: «أُمَّتِي أُمَّتِي»، لا يقع على اليهود والنصارى.

الثالث بعد المائة: وفيه محاولة تعطيل قدر الله الكوني:

في كون الناس لا يزالون مختلفين.

الرابع بعد المائة: هذه الدعوة تقرب بين ما فرق الله عز وجل، وتجميع ما فرقه:

والواجب على المسلمين في هذا الباب أن يفرقوا بين المتفرقات، ويجمعوا بين المتأثلات.

قال شيخ الإسلام بن تيمية: في «التدمرية» ص(219): (ولو أمعنوا النظر لسوا بين المتماثلات، وفرقوا بين المختلفات، كما تقتضيه المعقولات، ولكانوا من أهل العلم الذين يرون أن ما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، ولكنهم من أهل المجهولات المشتبهة بالمعقولات، يفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات.

إلى غير ذلك، وملخص ما تقدم أن القول بوحدة الأديان أو اتحادها أو تقاربها أو غير ذلك من الاصطلاحات المؤدية إلى هذه المعاني الباطلة، هو أن هذه الدعوات تقويض للدين الحق الذي رضي الله عز وجل وأحبه وأتمه وحفظه، وأحياء للدين الجاهلي والوثنية والشرك والإلحاد والكفر والعناد، والحمد لله رب العالمين، على إنعامه وله الشكر على إحسانه، ونعوذ به من الإلحاد والشرك والمهانة. اه ملخصاً من كتابي «الزجر والبيان لدعاة التقارب والحوار بين الأديان».

الفصل الرابع

وسائل السلامة من هذا المرض الخطير وغيره من الأمراض الدعوية

جاء في حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه عند أبي داود (3855)، والترمذي (2038) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً».

والحديث وإن كان على الدواء الجسماني، فلا بأس بالاستدلال به على دواء القلوب من أمراض الشبه والشكوك والبدع وغير ذلك. والدواء إن وقع على المرض نفع بإذن الله، إلا إذا كان المحل غير قابل لذلك الدواء، أو كان المتداوي مفرطاً في التداوي وكيفيته، وليست لديه جدية في طريقة تناول الأدوية، فهنا قد يزداد المرض، وقد يتلف المريض، نسأل الله السلامة والعافية.

قال ابن القيم رحمه الله في «الداء والدواء» ص(5-11): (فقد ثبت في صحيح البخاري (5678) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»، وفي صحيح مسلم (2204) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وفي مسند الإمام أحمد (274/4) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»، وفي لفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا» قالوا: يا رسول الله: ما هو؟ قال صلى الله عليه وسلم: «الْهَرَمُ» قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وهذا يعم أدواء

القلب والروح والبدن وأدويتها، وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء، فروى أبوداود في سننه من حديث جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منّا حَجْرٌ فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم، قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال ﷺ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيْمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خَرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ» أخرجه أبوداود (336)، فأخبر أنّ الجهل داء، وأنّ شفاءه السؤال، وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنّه شفاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الاسراء: 82]، و(من) ههنا لبيان الجنس، لا للتبعض، فإن القرآن كلّ شفاء، كما قال في الآية الأخرى، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قطّ أعمّ ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نفر من أصحاب النبي في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: أيها الرهط، إنّ سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء، لا ينفعه، فهل عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله، إني لأرقى، ولكن - والله - استضيفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين،

فكأنما نشط من عقل، فانطلق يمشي وما به قَلْبَة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر بِمَ يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ» ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا» أخرجه البخاري (2276)، ومسلم (2201).

فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي أَلَمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً.

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له: وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعى قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويز بقبول تام، وكان للراقي نفسٌ فَعَالَةٌ وَهَمَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ في إزالة الداء، وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره؛ إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاء لا يحبه الله؛ لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا،

فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها، كما في صحيح الحاكم^(١) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ».

فهذا دواؤنا نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها، كما في صحيح مسلم (1015) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]» ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك...

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن (...). اهـ

قال الوداعي رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(280): (فنحن في زمن الفتن وكلما انقضت فتنة جاءت فتنة هي أعظم منها: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ويقول ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، والنبي ﷺ

(١) (1/ 493) وفي سننه صالح المري، قال الذهبي: متروك.

يقول: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ؛ فَتَنَّا كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». أخرجه مسلم رحمه الله (118).

وهناك علاج لهذه الفتن: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية إما بالتمسك بهذا الدين: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وإما بالعزلة، جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ» أخرجه البخاري (19). وفي البخاري (2786)، ومسلم (1888) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ» قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ﷺ: «مُؤْمِنٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ».

ونحن في زمن الفتن لا ينجينا منها إلى ربنا عز وجل، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يعتبر عصمة من الفتن، كما قال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». اهـ.

ومن علاجات التميع والغلو وغيرها من أمراض الدعوة عمومًا، قال شيخنا مقبل رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(288): (وقيادة الدعوة إنما تكون بأيدي العلماء). اهـ.

ومنها التمسك بدعوة أهل السنة والجماعة، قال شيخنا الوداعي رحمه الله في «تحفة المجيب» ص(288): (ودعوة أهل السنة تعتبر رحمة، يصدق عليها قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وإن كان النبي ﷺ قد مات فإن سنته باقية، وهي تعتبر رحمة، بخلاف الحزبيين فإنهم يتربصون بنا الدوائر). اهـ

وقبل أن ندخل في أهم علاجات أمراض القلوب والدعوات، نذكر كلاماً للإمام الشوكاني يبين فيه كيفية طرح المسائل حتى يقع القبول لا النفرة، قال - رحمه الله تعالى - في «أدب الطلب» ص(104-107): (وها أنا أرشدك على ما تستعين به على القيام بحجة الله، والبيان لما أنزله، وإرشاد الناس إليه، على وجه لا تتعاضمه، وتقدر فيه ما كنت تقدره، من تلك الأمور التي جبت عند تصورها، وفرقت بمجرد تخيلها، وهو أنك لا تأتي الناس بغتة، وتصك وجههم مفاجأة ومجاهرة، وتنعي عليهم ما هم فيه نعيًا صراحًا، وتطلب منهم مفارقة ما ألفوه طلبًا مضيقًا، وتقتضيه اقتضاءً حثيثًا).

بل اسلك معهم مسالك المتبصرين في جذب القلوب إلى ما يطلبه الله من عباده، ورغبهم في ثواب المنقادين إلى الشرع، المؤثرين للدليل على الرأي، وللحق على الباطل.

فإن كانوا عامة فهم أسرع الناس انقيادًا لك، وأقربهم امتثالًا لما تطلبه منهم، ولست تحتاج معهم إلى كثير مؤنة، بل اكتفِ معهم بترغيبهم في التعلم لأحكام الله، ثم علمهم ما علمك الله منها على الوجه الذي جاءت به الرواية، وصح في الدليل، فهم يقبلون ذلك منك قبولًا فطريًا، يأخذونه أخذًا خليقًا؛ لأن فطرتهم لم تتغير بالتقليد، ولا تكدرت بالممارسة لعلم الرأي، ما لم يتسلط عليه شيطان من شياطين

الإنس، قد مارس علم الرأي، واعتقد أنه الحق، وأن غيره الباطل، وأنه لا سبيل للعامة إلى الشريعة إلا بتقليد من هو مقلد له، واتباع من يتبعه، فإنه إذا تسلط على العامة مثل هذا وسوس لهم كما يوسوس الشيطان، وبالغ في ذلك؛ لأنه يعتقد ذلك من الدين، ويقطع بأنه في فعله داع من دعاة الحق، وهادٍ من هداة الشرع، وأن غيره على ضلالة. وهذا وأمثاله هم أشد الناس على من يريد إرشادهم إلى الحق، ودفعهم عن البدع؛ لأن طبائعهم قد تكدرت، وفطرتهم قد تغيرت، وبلغت في الكثافة والغلظة والعجرفة إلى حد عظيم، لا تؤثر فيه الرقى، ولا تبلغ إليه المواعظ، فلم تبق عندهم سلامة طبائع العامة حتى ينقادوا إلى الحق بسرعة، ولا قد بلغوا إلى ما بلغ إليه الخاصة من رياضة أفهامهم وتلطيف طبائعهم بممارسة العلوم التي تتعقل بها الحجج الشرعية ويعرف بها الصواب ويتميز بها الحق، حتى صاروا إذا أرادوا النظر في مسألة من المسائل أمكنهم الوقوف على الحق والعثور على الصواب.

وبالجملة، فالخاصة إذا بقي فيهم شيء من العصبية كان إرجاعهم إلى الإنصاف متيسر غير متعسر، بإيراد الدليل الذي تقوم به الحجة لديهم، فإنهم إذا سمعوا الدليل عرفوا الحق، وإذا حاولوا وكابروا فليس ذلك عن صميم اعتقاد، ولا عن خلوص نية.

فرياضة الخاصة: بإيراد الأدلة عليهم، وإقامة حجج الله وإيضاح براهينه. وذلك يكفي، فإنهم لما قد عرفوه من علوم الاجتهاد ومارسوه من الدقائق لا يخفى عليهم الصواب، ولا يلتبس عليهم الراجح بالمرجوح، والصحيح بالسقيم، والقوي بالضعيف، والخالص بالمغشوش.

ورياضة العامة: بإرشادهم إلى التعلم، ثم بذل النفس لتعليمهم ما هو الحق في اعتقاد ذلك المعلم، بعد أن صار داعيًا من دعاة الحق، ومرشدًا من مرشدي المسلمين، ثم ترغيبهم بما وعد الله به، وإخبارهم بما يستحقه من فعل كفعلهم من الجزاء والأجر، ثم يجعل لهم من القدوة بأفعاله مثل ما يجعله لهم من القدوة بأقواله أو زيادة، فإن النفوس إلى الاقتداء بالفعال أسرع منها إلى الاقتداء بالقوال.

والعقبة الكنود، والطريق المستوعرة، والخطب الجليل، والعبء الثقيل: إرشاد طبقة متوسطة بين طبقة العامة والخاصة، وهم قوم قلدوا الرجال، وتلقوا علم الرأي ومارسوه، حتى ظنوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقة العامة، وتميزوا عنهم، وهم لم يتميزوا في الحقيقة عنهم، ولا فارقوهم إلا بكون جهل العامة بسيطًا، وجهل هؤلاء جهلًا مركبًا، وأشد هؤلاء تغييرًا لفطرته وتكديرًا خلقتهم أكثرهم ممارسة لعلم الرأي، وأثبتهم تمسكًا بالتقليد، وأعظمهم حرصًا عليه، فإن الدواء قد ينجع في أحد هؤلاء في أوائل أمره، وأما بعد طول العكوف على ذلك والشغف به والتحفظ له، فما أبعد التأثير! وما أصعب القبول! لأن طبائعهم ما زالت تزداد كثافة بازدياد تحصيل ذلك، وتستفيد غلظة وفضاظة باستفادة ذلك، وبمقدار ولوعهم بما هم فيه وشغفهم به، تكون عدواتهم للحق، ولعلم الأدلة، وللقائمين بالحجة. اهـ.

وهذه العلاجات التي أذكرها هي بحمد الله مأخوذة من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة رضوان الله عز وجل عليهم أجمعين، وقد تكلمت على الكثير منها بتوسع في كتابي «الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية»، لكن أذكرها هنا باختصار.

7 - نصره الله عز وجل بامتنثال شرعه وأمره واجتناب نهيه وزجره:

وأول هذه العلاجات وأعظمها وأجلها على الإطلاق: هو نصر الله عز وجل بامتنثال شرعه وأمره.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿[غافر: 51-52].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَنَابُونَ ﴿[الصافات: 171-173].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكْ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: 132].

في آيات كثيرات طيبات مباركات، من تدبرها علم أن الله عز وجل وعد بتمكين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

وقد أنجز الله وعده وصدق عبده، فله الحمد والمنة، فمن أراد النصر والتمكين، والعز المبين، والشفاء من كل خلق مهين، ومعتقد مشين، فما عليه إلا حفظ الله تعالى في أمره ونهيه، ومراقبته جل وعز في السر والعلن، وأحق الناس بهذه المزية هم حملة السنة النبوية والطريقة المرضية، ودعاة السلفية.

قال ابن رجب رحمه الله في «نور الاقتباس» ص(38-40): (من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه، وفي دنياه وآخرته، وقد أخبر الله في كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلى غيره، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257].

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36].

فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، ومن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها، فليراع حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه مما يكره فلا يأت شيئاً مما يكرهه الله.

كان بعض السلف يدور على المجالس ويقول: من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله.

وقال العمري الزاهد لمن طلب منه الوصية: كما تحب أن يكون الله لك فهكذا كن لله عز وجل. اهـ.

وأخرج الإمام الترمذي (2516) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال أبو عبد الرحمن الوادعي رحمه الله في كتاب «الجامع الصحيح في القدر» (رقم 44): قيس بن الحجاج لم أجد فيه توثيقاً معتبراً إلا قول أبي حاتم صالح كما في «الجرح والتعديل» لابنه، وهذا لا يرفع الحديث إلى الحسن، لكنه قد جاء من طرق عن ابن عباس كما في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب رحمه الله. اهـ

الحديث في «جامع العلوم والحكم» ترتيبه التاسع عشر.

قال ابن رجب رحمه الله في شرح الحديث: وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشني، وكدت أطيئ، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث وقلة العلم.

فقوله: «احْفَظِ اللَّهَ» يعني: احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه، إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه وقال: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ۖ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۖ﴾ [ق: 32-33]. اهـ

وأعظم ما يحفظ به الإنسان في هذه الدنيا هو حفظ دينه وثباته على المنهج السلفي، حتى يلقي الله عز وجل وهو راضٍ عنه، أما إذا خُذِلَ عن هذا المنهج القوم فقد وقع في العطب بقدر ما لحقه من الخذلان.

2- الإخلاص لله عز وجل:

الإخلاص لله عز وجل في القول والفعل والاعتقاد من أعظم أسباب السلامة من التميع، فالمخلص ما سمي مخلصاً إلا لأنه خلص نفسه من أسر الشهوات والشبهات.

هذه المزية العظيمة والعبادة الجليلة القويمة التي من حققتها كان من الأتقياء السعداء الأصفياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29]، وقال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14].

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (99)، حين سئل: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ».

ومن أعظم ثمرات الإخلاص في الدنيا قبل الآخرة أن صاحبه ينجو من مكر ابليس اللعين، ومن جنوده أجمعين، قال الله تعالى مخبراً عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: 36-40].

ومعلوم أن جميع البدع - ومنها التميع - تزيين شيطاني وخلق إجرامي، فمن أراد أن ينجو من أَرَّ الشيطان فليكن لله عز وجل، وبالله عز وجل، وفي الله سبحانه وتعالى.

والمخلص ناج من العذاب الأليم وموعد بجنة النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَكَهَهُمْ مَّكْرُمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٤٣﴾ [الصافات: 38-43].

والإخلاص من أعظم الأسباب للحيلولة بين العبد والمعصية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 24].

ومن حديث زيد بن ثابت عند أحمد (5/183): أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِمْ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ، وَلِزُومُ الْجَمَاعَةِ».

الحديث في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي رحمه الله.

ولالإخلاص آثار عظيمة، فكم من عالم رفعه الله بالإخلاص، وكم من دعوة انتصرت بسبب إخلاص دعائها.

ولما ذكر عند الإمام ابن باز انتشار دعوة الشيخ الإمام أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحم الله الجميع، فقال ابن باز رحمه الله: هذه ثمرة الإخلاص.

قال مكحول رحمه الله كما في «مدارج السالكين» (2/96): ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه ولسانه.

قال ابن كثير في «تفسير»: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

وهذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. اهـ

قال الربيع بن خثيم كما في ترجمته في «السير» (4/ 2542): (كل ما لا يراد به وجه الله يضمنحل).

وأقول: كل ما أريد به الله عز وجل ظهر ولو بعد حين.

وقال ابن القيم في «الفوائد» ص(1267): العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه.

ومن طلب العلم لله عز وجل وفقه الله عز وجل ورفع قدره ويسر له الدعوة إليه، ومن لا لم يُمكن وربما سلب عنه العلم كما نلاحظ كثرة المتميعين والساقطين، نسأل الله السلامة.

قال حماد بن سلمة كما في «السير» (7/ 448): من طلب الحديث لغير الله مكر به.

فعلى المسلمين عموماً والدعاة إلى الله عز وجل خصوصاً أن يصدقوا مع الله بالإخلاص والمراقبة، فإذا فعل ذلك أقبل الله بقلوب العباد عليه وعلى دعوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]. وسلم من تبعات المعاصي والسيئات.

واعلم أن جميع الأعمال عائدة إلى نية العبد في قبولها وجعل البركة فيها، دل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه عند البخاري (1)، ومسلم (1907): ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ

بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

3- المتابعة لطريقة النبي ﷺ:

المتابعة للنبي ﷺ في كل ما جَلَّ ودق، وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، من أعظم وسائل نصره الدعوة، والسلامة من البدع والتميعات؛ ولهذا أمر الله عز وجل بالاتباع ورغب فيه وحث عليه، قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

ومن الفتن العظيمة أنهيار الدعوات والرجوع إلى القهقري.

وقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا الَّذِينَ يَنْتَقُونَ وَيُوَثُّونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي

يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[الأعراف: 156-157].

ومن أعظم الفلاح هو الاستقامة على الدين والسلامة من الحزبيات والبدع والشركيات، فكن كما أراد الله عز وجل تمكن في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد كما قال السيوطي في «الأمر بالاتباع» ص(53): الطرق كلها مسدودة إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ، والمتبعين سنته وطريقته، فإن طرق الخير مفتوحة عليه كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ومن أعظم الأدلة على أن الدعوة تسلم من التميع وتستمر في الظهور بمتابعة النبي ﷺ: هو ما أخرجه البخاري (7311)، ومسلم (1921) من حديث المغيرة ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَّاهُمْ وَمَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

فانظر إلى هذا الوعد النبوي الذي هو وعد رباني لقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]، كيف جعل من وسائل الاستمرار والظهور والسلامة لهذه الدعوة الحققة هو سلوك سبيله ﷺ، وهديه وطريقته، هذا السبيل التام الكامل الشامل الذي قال الله تعالى عنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. ولقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ولقول النبي ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ» أخرجه ابن ماجه (5) من حديث أبي الدرداء ؓ.

فمن لزم البياض وهي طريقة النبي ﷺ نجي من الهلاك، ومن خالفها كان حليفه العطب.

والمتابعة هي قطب رحى الدين، وحبله المتين، وحصنه الحصين، وعروته الوثقى التي لا تنفصم، والطريق اللاحب الوحيد الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، والنور المضيء الذي تحيا به القلوب والنفوس، وتستقيم به الحياة كلها، والضرورة اللازمة لاستمرار الحياة، وهو سبب الرسالة التي هي ضرورة في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً. اهـ من «مجموع الفتاوى» (99/19).

ومن أعظم ما يدل على أن الاتباع سبب للأستمرار في الخير، والسلامة من خلاف ذلك: ما أخرجه الإمام مسلم (1759) من حديث عائشة قالت: وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيحَةً مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَيْرٍ، وَفَدَلِكِ، وَصَدَقْتِهِ بِالْمَدِينَةِ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ، وَقَالَ: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكَتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ.

ونقل الإمام الذهبي في «السير» (98/8) عن الإمام مالك بن أنس قوله: سن رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سنناً، الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال بطاعة

الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدي بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا. اهـ

فعلم من هذا أن السلف رضوان الله عليهم كانوا يعتبرون الاتباع في أقوالهم وأحوالهم حتى قال بعضهم: وجدنا الأمر كله في الاتباع.

وكان السلف رضوان الله عليهم يرون الاتباع كالجهاد في سبيل الله، قال أبو عبيد القاسم بن سلام كما في «السير» (10/499): المتبع السنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب بالسيف في سبيل الله.

4- العلم النافع:

اعلم أن أهم أسباب ثبات العبد هو العلم الذي به تسمو النفوس، وتزهو الأخلاق، وتعلو الهمم، وهذا العلم هو الذي أنزله الله عز وجل، وجاء به رسوله ﷺ كما قال ابن القيم:

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ بِالتَّمْوِيهِ
مَا الْعِلْمُ نَضْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِهِ
كَأَلَّا وَلَا جَحْدُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا حَذَرًا مِنَ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ

«الفوائد» ص (238).

ولفضل العلم رغب الله فيه وحث عليه بقوله لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه. اهـ

وقال مبيناً رفعة حامله العامل به: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، ولحديث عمر عند مسلم (817): «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ».

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (224/1) ط ابن عفان: وإنه سبحانه أخبر عن رفع درجات أهل العلم والإيمان خاصة، وذكر الآية، قال: وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع: أحدها: هذا.

الثاني قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٢٠ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٢١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2-4].

الثالث: قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: 75].

والرابع قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٩٥ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: 95-96].

فهذه أربع مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين. اهـ

ومن آتاه الله العلم فقد آتاه خيرًا كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمه إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح. اهـ «مفتاح دار السعادة» (1/ 227).

وقال ﷺ كما في حديث معاوية: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» متفق عليه.

وهم أهل الفضل، قال ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» أخرجه البخاري (5027) عن عثمان رضي الله عنه، وفي لفظ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وحملته هم ورثة الأنبياء، قال ﷺ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» أخرجه أبوداود (3641)، وهو حسن بشواهده.

وهم الهداة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم الموصل إلى رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

وهم أهل الإيمان التام، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

ولا يتحقق هذا إلا لمن كان له علم وألقى السمع وهو شهيد.

قال ابن القيم في «الفوائد» ص (242): ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسًا

من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصح الناس علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله في أمته. اهـ

5- العمل بالعلم:

ومن أعظم الوسائل للثبات في الدعوة السلفية ونصرتها والسلامة من مرض التميع والتميع: هي العمل بالعلم؛ إذ السلفية هي مجموع العلم والعمل، العلم النافع علم الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، والعمل الصالح الذي اجتمع فيه إخلاص العبادة لله عز وجل والمتابعة لرسوله ﷺ؛ إذ قد ذم الله عز وجل في كتابه من لا يعمل بعلمه، وضرب له أسوأ الأمثال، حيث شبهه بالكلب والحمار.

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 175-176].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5].

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي عَلَى أَنَاسٍ تُقْرَضُ مَشَافِرُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ». أخرجه أبويعلى (118/7) وما كان الله عز وجل ليعذب من يدل على الخير إلا لتقصيره، ومخالفة القول بالعمل.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في «اقتضاء العلم العمل» ص(158): ثم أنا موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وأجهد النفس في العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً.

وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما دمت مقصراً في العمل، ولكن أجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما. اهـ

فإن العالم والداعي إلى الله عز وجل إذا عمل بعلمه كان عمله ذلك دعوة في حد ذاته، ومحبياً الداعي إلى الناس، وكان العمل بالعلم من أسباب بعد العبد عن كل مخالفة شرعية، وسنة نبوية، فيسلم من التميع والتميع. بينما إذا كان الداعي من المقصرين في هذا الجانب فسيكون حال المدعو لو كان خيراً لسبقونا إليه، وكم من جاهل أتبع بسبب عبادته في جهله.

قال ابن القيم رحمه الله في «طريق الهجرتين» ص(183): (السائر إلى الله والدار الآخرة لا يتم سيره ولا يصل مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وطريق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع للماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر). اهـ

وقال شيخ الإسلام في «الرد على الشاذلي» ص(208): (فلا بدّ من علم ولا بدّ من عمل، وأن يكون كلاهما موافقاً لما جاء به الرسول، فيجب العلم والعمل والاعتصام بالكتاب والسنة؛ ولهذا قال من قال من السلف: الدين قول وعمل وموافقة السنة). اهـ

6- الصبر على الدعوة والتمسك بالحق:

صبر في تحصيل العلم، وصبر على العمل بالعلم، وصبر على الدعوة إلى العلم، وصبر على الأذية في التبليغ.

فهذه أربعة أقسام يحتاج إليها الداعي إلى الله عز وجل من أجل نصر دعوته واستمراريتها، وسلامته من أمراض العصر: من تميع، وغلو، وإفراط، وتفريط، هذه الأمراض التي جعلت الأمة تخلد إلى الأرض، وجعلت المستقيم يضرب الطول في العرض؛ عجباً مما حدث ويحدث، والله المتسعان، فالله أسأل أن يوفق.

وإليك ذكر الأدلة العامة على فضيلة هذه الشعيرة العظيمة، وما يتحصل عليه الصابرون المصابرون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، فبالاستعانة بالصبر والطاعة يتحصل العبد على مقصوده ومراده.

والصبر سبب لإبطال كيد الكائدين ومكر الماكرين.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120]، فكم من دعاة نشر الله خيرهم ومكر بأعدائهم بسبب طاعتهم وصبرهم وخيرهم وبرهم، والصبر من أسباب الفلاح ومن الفلاح نصر دعوة المرء وعلمه وخيره وبره.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ومن العاقبة الحسنة النصر والتمكين.

والصابرون لا يضيع الله عز وجل عملهم ولا يترهم، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 115].

والصابر مبشر بخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

ومن كان الله عز وجل معه كان من المنصورين الموفقين الثابتين.

وقال تعالى مبيناً توريث المؤمنين الدنيا والآخرة بسبب صبرهم وبرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

والصبر سبب للحصول على المقصود ونيل المحمود قال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: 83]، وفعلاً أتى الله عز وجل بهم جميعاً يوسف وبنيامين.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: 35].

فمن أراد كل خير والبعد عن كل شرٍ وضير فعليه بلزوم الصبر.

وكما قيل: (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين)، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» ص(118): (إنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنة، وأخبر أنه إنما أتى لهم ذلك بالصبر فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: 137]. اهـ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى الصبر أكثر من غيره، قال تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وقال ابن القيم رحمه الله في المصدر السابق: (إنه سبحانه أخبر عن خصال الخير وأنه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه في سورة القصص في قصة قارون وأن الذين أتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثلما أوتي، ﴿وَيَلْكَمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80]، وفي سورة حم السجدة: حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة، كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوحَظٌ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: 35]. اهـ

ومن السنة قول النبي ﷺ كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (224): «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ».

وقال ﷺ في فضله: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (1469)، ومسلم (1053).

7- رفق الدعاة إلى الله عز وجل في دعوتهم:

الرفق واللين من أعظم الأسباب المعينة على نجاح الدعوات ونصرها وقبولها؛ لأنه سبيل الأنبياء والصالحين في خطاباتهم مع قومهم وصبرهم عليهم، وقد قال الله عز وجل لنبيه المصطفى وخليله المجتبي ورسوله المقتفى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَوْ كُنْتَ قَطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

فكثير من الناس ينحرفون عن الحق وأهله بسبب غلظة وشدة دعاء الحق، والرسول ﷺ كان يتألف الناس على الإسلام تألفاً، يحبه لهم تحبباً، فإذا ما أحبوا الدين انقادوا لأمر رب العالمين ولأمر رسوله الكريم ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: قال الحسن: هذا خلق محمد ﷺ، بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].
واعلم أن الرفق هو اللطف ولين الجانب، وهو ضد العنف، واللين ضد الخشونة.

والداعي إلى الله عز وجل يحتاج إلى الرفق واللين في قوله، وفعله، وعدم التشديد على الناس، والشدة عليهم بغير حق ولغير ما حاجة دينية، قال ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ». أخرجه الترمذي (2013)، وقال: حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم (1828) من حديث عائشة رضي الله عنها قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».

وكم من الدعاة إلى الله عز وجل حرموا الرفق في دعوتهم فما نجحوا وما أفلحوا، وهذا يدل عليه حديث النبي ﷺ: «وَمَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ» أخرجه مسلم (2592) من حديث جرير رضي الله عنه.

وإذا أراد الله عز وجل بعبد من عباده خيراً أدخل عليه الرفق في أقواله وأفعاله، قال ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، ارْقُقِي، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَهَّمَهُ عَلَى بَابِ الرَّفْقِ» أخرجه أحمد (104/6) من حديث عائشة رضي الله عنها وهو في «الصحيح» رقم (523).

فمن هذه الأحاديث يتبين لنا وجوب العمل بهذه الوسيلة لما فيها من جلب الخير للمسلمين جميعاً، وهي طريقة النبي الأعظم ﷺ.

وحياة رسول الله ﷺ ودعوته كانت قائمة على الرفق واللين، إلا إذا انتهكت المحارم، فإنه يغضب الله عز وجل، كما سيأتي في بابه إن شاء الله تعالى.

ومن بركات الرفق، أنه:

1- محبوب إلى الله عز وجل كما تقدم.

2- أنه خلق ممدوح.

3- أنه يثمر محبة الناس ويجلبها.

4- دليل على فقه الرجل وحكمته.

ومع ذلك لا يصل بالداعي إلى الله عز وجل الترفق حتى يصاب بالتميع، بل كل بحسبه فرسول الله ﷺ كان إذا انتهكت محارم الله عز وجل غضب الله سبحانه وتعالى، فكان يقيم الحدود بما فيها حد الرجم، وربما أغلظ القول على مخالف الحق كما

في حديث ابن عباس عند مسلم (2090): «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَيَضَعُهَا فِي يَدِهِ» إلى ذلك من الأدلة التي يعرفها من تتبع السيرة النبوية.

قال ابن الوزير في «العواصم» (1/134): (ومن أعظم ما أنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44]، إذ كان هذا بالرفق بفرعون الذي نص الله تعالى على أنه طغى، وعلى أنه أراه آياته كلها، فكذب وأبى، ومن ثم كان اسمه اللطيف الأسنى، ومن أخص أسمائه الحسنى، هذا ما لم يشتد غضبه، نعوذ بوجهه الكريم من غضبه، ومن مقارفة موجهه وسببه، ففي مثل تلك الحال يقول ذو الجلال: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:123]، وفي الحال الأخرى - وهي الغالبة -: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية:14]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:63]، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة:237]، ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [الرعد:22]، ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:34]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص:55]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:83].

ولا دليل على نسخ ذلك وأمثاله مما وردت به السنة النبوية، ووصفت به الأخلاق المصطفوية، إلا توهم التعارض ممن خفي عليه حسن اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين، كما نصره الإمام المهدي في «عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن» وذلك من مقتضى البلاغة عند علماء البيان، حيث يختلف الحالان، ويفترق المقامان.

ومن ثمَّ مدح الله تعالى المؤمنين بالعزة والذلة في آية واحدة، وقرن الوعد بالوعيد، وأنزل الكتاب والحديد، وكان رسول الله ﷺ نبي الرحمة والملحمة، وقال

الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَنُّوْا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة: 9].

ولا شك أن صفة اللطف والرفق والرحمة هي الغالبة القوية في الكتب السماوية، والأحوال النبوية، ومن ثمَّ تمدح الله تعالى بأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، وبأن رحمة الله سبحانه وسعت كل شيء، وليس في وعده لأهل الصلاح بكتابتها - التي هي بمعنى إيجابها - لهم ما ينفي سعتها لغيرهم، بل هي لهم واجبة، ولغيرهم واسعة، وليس بين أول الآية وآخرها معارضة، ولم يرد مثل ذلك في الغضب ولا قريب منه، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ كِتَابًا وَوَضَعَهُ عِنْدَهُ، فِيهِ: إِنَّهَا عَلَيَّ رَحْمَتِي غَضَبِي، وَسَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» [البخاري (7404)، ومسلم (6969) من حديث أبي هريرة]. وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُنْقَرِفِينَ﴾ [البخاري (702)، ومسلم (1044) من حديث أبي مسعود الأنصاري]. والأحاديث والآثار في ذلك لا تحصى، ويأتي لذلك تمام في ذكر الداعي إلى الترغيب والترهيب في الكلام على سهولة الاجتهاد وتعسره، وهو يسير، وفي آخر الكلام في القدر، وفي تقدير الشرور، وبيان الحكمة والرحمة فيها، وهو كثير مستوفى.

والقصد تنبيه ذوي الأفهام الذين يغنيهم القليل عن الكثير والتطويل، فزن الأشياء بميزان الاعتدال، وجادلهم بالتي هي أحسن كما علَّم ذو الجلال. اهـ

8- الحرص على تفهيم الناس لدينهم:

من أسباب حرب التميع تفهيم الناس ومخاطبتهم بما يعرفون، ومراعاة أحوالهم، فنحن في زمن جهل وغربة للدين، حتى وصل الحال بكثير من المسلمين وفي كثير من البلدان بجهل أمور كانت تُعد من المعلوم من الدين، وحصل للناس هذا الجهل والارتباك بسبب علماء السوء الذين تسلطوا على الفتوى والمنابر والتعليم فكنتموا العلم تارة وحرفوه تارات، ودلّسوا وكذبوا، إلى غير ذلك.

ولما كان شأن هذه الوسيلة عظيم فإن الله ما ابتعث رسولاً إلا بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (هذا من لطف الله تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفقهوا عنهم ما يريدون، وما ارسلوا به إليهم). اهـ

وكان رسول الله ﷺ كما في حديث عائشة عند البخاري (3568) لم يكن يسرد الحديث كسر دكم.

والسرد هو الإتيان بالكلام على الولا والاستعجال منه، ومعنى الحديث كما قال الحافظ في «الفتح» (6/ 578): (لم يكن ﷺ يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض؛ لئلا يلتبس على المستمع). اهـ

وكان حريصاً على إفهام المخاطبين؛ يدل على ذلك ما أخرجه البخاري (94) عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا سلم سلم ثلاثاً، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً. وهذا حرص منه ﷺ على تفهيم الناس بخطابه.

وربما استخدم رسول الله ﷺ بعض الوسائل من أجل تفهيم ما يتكلم به؛ يدل على ذلك ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود (6417) قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا».

وربما استخدم ﷺ أسلوب الأمثال للتفهم والتوضيح؛ يدل على ذلك حديث أبي موسى عند الشيخين البخاري (79)، ومسلم (2282): «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَفِیَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

الشاهد مما تقدم أن الدعوة تنصر وتشهر وتذكر وتسلم من أمراض كثيرة إذا كان الداعي إلى الله ممن يتواضع في خطابه على مستويات الناس، وكذلك بألستهم التي يفهمونها إلى غير ذلك.

قال الحافظ في «الفتح» تحت أثر علي رقم (127): (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله). المراد بقوله بما يعرفون، أي: يفهمون. اهـ

ونسأل السداد وإليه المرجع والمآب فله الحمد على كل حال.

9- الحرص على تنمية الأخوة الدينية:

كما أن التخاذيل وكذا مجالسة أهل الباطل سبب من أسباب التميع، فكذلك الأخوة الدينية والإتيان بلوازمها من النصيحة والنصرة والتوجيه والتواصي بالحق والصبر، من أسباب السلامة من أمراض دعوية خطيرة.

والمؤازرة والمناصرة ونبد التخاذيل من أهم الأسباب التي تنصر بها الدعوات، ويحارب بها الأمراض التي تفتتها ولذلك سألها الأنبياء من قبل نبينا ﷺ وحرصوا عليها غاية الحرص.

قال تعالى عن موسى: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿طه: 29-31﴾.

قال ابن عادل في «اللباب» (13/229): أعلم أنه طلب الوزير إما أنه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر، فطلب المعين، أو لأنه رأى التعاون على الدين والتظاهر عليه مع خالص الود وزوال التهمة قربة عظيمة في الدعاء إلى الله. اهـ وقال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنَتَنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَتْبَعَكُمَا الْفَالِسُونَ﴾ [القصص: 35].

وعيسى عليه السلام لما رأى بوادى الكفر والخذلان من قومه سأل عن النصراء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52].

وقال تعالى أمراً هذه الأمة أن تكون من أنصاره عز وجل، وأن ينصروا الدين كما نصره أصحاب عيسى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ [الصف: 14].

قال ابن كثير رحمه الله: (قال سفيان الثوري وغيره: أي من أنصاري مع الله. وقال مجاهد: من يتبعني إلى الله، وقول مجاهد أقرب. والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يُؤْوِينِي وَيَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟» أخرجه أحمد (3/ 390) من حديث جابر، حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فأسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم. وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فأمنوا به وأزروه ونصروه، وأتبعوا النور الذي أنزل معه). اهـ

قال صاحب «اللباب» (5/ 263): (قوله: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: أنصار أنبيائه؛ لأن نصره الله في الحقيقة محال. ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ هذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى أنه يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أن أمنّا به، فإن الإيمان بالله يوجب نصره دين الله والذب عن أوليائه ومحاربة أعدائه). اهـ

وتمنى لوط عليه السلام أن يكون له من ينصره من قومه فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80].

مع أنه كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله عز وجل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند الشيخين وفيه يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد.

وكم يلاقي الدعاة إلى الله عز وجل من الأذى والهوان بسبب تحاذل من حولهم من العلماء وغيرهم، بينما لو نصرُوا الحق نُصروا، ولكن الله يفعل ما يريد.

ألا فليتنق الله الدعاة والمشايخ والعلماء من خذلان بعضهم لبعض، بل عليهم تجاه بعضهم المناصرة لحديث: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» الحديث. في البخاري عن أنس (2443)، وفي مسلم (2584) عن جابر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -

قال بكر أبو زيد في كتاب «الردود» ص(72): (والتخذيل لا يسري في أمة إلا وتعمل على اسقاط نفسها، وتوجد من تقصيرها وتخذيل الناصحين فيها معاول لهدمها، وإذا نظرت في تاريخ داء التخذيل الطويل منذ فجر الرسالة رأيت من سمات المسلمين ظاهرًا لا باطنًا -المنافقين-... والمخذل آثم شرعًا مرتين، بالتقصير والتخذيل. اهـ

فعلى هذا أناشد العلماء وطلاب العلم وجميع الناصحين من الأمة بالبعد عن التخذيل، وعليهم أن يقوموا بالنصرة كما أمرهم الله تعالى.

والنصرة تكون بأمور، منها: تأييده في الحق الذي قاله، وتكون بنصحه وتوجيهه، وتكون بصدده عن الباطل الذي هو فيه، وتكون بالإشادة به وبعلمه، وتكون بمجالسته وزيارته، إلى غير ذلك.

10 - التدرج في الدعوة إلى الدين:

الوسيلة العاشرة لحرب التميع: التدرج في الدعوة من الأهم فالأهم.

فإذا كان المدعو من الكافرين أو من يقاربهم من المعرضين عن شرع رب العالمين فيحبب إليه الإيمان بالإسلام، ويرغب في الجنة ويخوف من النار، وهكذا دوليك.

أخرج الإمامان البخاري (1496)، ومسلم (19) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما أرسل معاذ إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ»، وفي رواية: «أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». وفي رواية: «إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

قال الخطابي في «معالم السنن» (2/199): (فإذا أقاموها أي الشهادتين توجهت عليهم بعد ذلك الشرائع والعبادات؛ لأنه قد أوجبها مرتبة، وقدم فيها الشهادة ثم تلاها بالصلاة والزكاة). اهـ

ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري (4993) عن يونس بن مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِي فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيَحْكُ! وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَيْنِي مُصْحَفَكَ، قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةُ مِنَ الْمَفْصَلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 46] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ.

قال الحافظ في شرح الحديث: (إشارة على الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللkāfir والعاص بالنار، فلما أطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام). اهـ

ويدل على كلام عائشة رضي الله عنها قول الله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقَهُ لِقَرَّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

أي: نزل متدرجاً في الأحكام.

قال الزرقاني في «مناهل العرفان» (50/1) ط: أحياء التراث: (وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثل أبعـد نظراً وأهدى سبيلاً وأنجح تشريعاً وانجح سياسة من تلـكـم الأمم المتمدنة المتحضرة). اهـ

ومن الأدلة على البدء بالأهم قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

قال الألوسي في «روح المعاني» (105/1): (ظاهر الآية أنه سئل عن المنفق فأجاب ببيان المعروف صريحاً لأنه أهم، فإن اعتداد النفقة باعتباره). اهـ

وقال القاسمي في «تفسيره» (531/3): (بنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها). اهـ

وفي حديث معاذ أيضاً بيان لطيف: وهو أنه ينبغي للداعي إلى الله عز وجل إن أراد نصرة دعوته وقبول خيره أن يتعرف على أحوال المدعوين قبل دعوتهم.

ولو نظرنا بعين التأمل المستبصر في قصص الأنبياء عليهم السلام لراينا أنهم يقدمون الأهم فالأهم.

وهذا من أهم الوسائل لقبول الدعوة، وحرب أمراضها والحيلولة دون وقوع الناس في خلافها وفي حديث عائشة عند الشيخين البخاري (1585)، ومسلم (1333): قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ لَا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْكُعْبَةَ وَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتِ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ وَجَعَلَتْ لَهَا خَلْفًا».

فإن وصلت إلى مجتمع قبوري فابدأ بدعوتهم إلى التوحيد وترغيبهم فيه، فإنهم إن أحبوا الإسلام والتوحيد تركوا كل ما يخالفه.

وكم كنا نسمع من شيخنا الوادعي رحمه الله تعالى وهو يقول: حبيبوا العلم والسنة إلى الناس، فإنهم إذا أحبوا قبلوا منكم الحق الذي تحملون.

11 - التخول بالموعظة بين الحين والآخر تذكيراً للغافل وتعليقاً للجاهل:

لأن الناس لو تركوا من غير تذكير لحصل لهم الضرر، وفي مسلم (2750) عَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وتكون بحث الناس على التمسك بالخير والاستمرار عليه لأن القلوب تغفل والمرء ينسى ويجهل فالتخول بالموعظة سنة نبوية ففي البخاري (68)، ومسلم (2821) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا.

وبوب عليه البخاري باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم لكي لا ينفروا.

قال الحافظ في شرح الحديث: (وفيه رفق النبي ﷺ بأصحابه، وحسن التوصل إلى تعليمهم وتفهمهم ليأخذوا عنه بنشاط لا عن ضجر ولا ملل، ويقتدي به في ذلك، فإن التعليم بالتدريج أخف مثونة وادعى إلى الثبات من أخذه بالكبر والمغالبة..). اهـ

وكما قيل: من أراد الشيء جملة فقد همله.

فعلى الداعي إلى الله أن يكون وسطاً بين ما يؤدي إلى الملل وبين الإعراض.

يتخول القرى والمناطق بالدعوة خشية تسلط الغفلة عليهم، فإنها الداء الثقيل الذي يفسد الدنيا والدين.

وعدم السكينة في جميع شئون الحياة يؤدي إلى الانقطاع، وكما قيل: فإن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع.

ويدخل في هذا الباب تقصير الخطبة، فقد كانت خطبة النبي قصداً كما في حديث جابر بن سمرة عند مسلم، وكثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً كما قال الزهري.

وقد قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ؛ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِضَاعِ».

وغالبًا ما ينقطع هذا الداعي قبل غيره.

فنسأل الله السداد وأن يوصلنا المراد.

12 - بناء المساجد والمراكز العلمية:

أهل الباطل يبنون المتنديات والملاعب الكبيرة وأماكن الشر لنشر الفساد والتميع وكل شر، فالواجب على أهل الاستطاعة من أهل الإسلام أن يجهزوا للمسلمين أماكن لعبادتهم ولطلب العلم فيها، قال الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: 36].

فمن وسائل نصرته الدعوة السلفية وحرب الطرق الخلفية البدعية: تجهيز أماكن نشر الدعوة والخير، ومنها: بناء المساجد ودور العلم، ولما كان شأنها عظيم بالنسبة لنشر الدين والخير، فإن النبي ﷺ حين وضع رحله في المدينة النبوية بدأ ببناء المسجد، يدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه عند الإمام مسلم (524): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَتَزَلَّ فِي عُلُوِّ الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ هُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى مَلَإٍ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ بِسُيُوفِهِمْ قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُوبَكْرٍ رَدْفُهُ وَمَلَإُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حَتَّى أَلْقَى بِفَنَاءٍ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِالْمَسْجِدِ قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإٍ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا؟» قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ، كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَخَرَبٌ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، وَبِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، وَبِالْخَرَبِ

فَسُوِّتُ، قَالَ: فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً وَجَعَلُوا عِصَادَتَيْهِ حِجَارَةً قَالَ: فَكَانُوا يَرْتَجِزُونَ
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَأَنْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

وعندما دخل أهل البحرين في الإسلام بنوا مسجد جوثا في البحرين.

وكذلك أصحابه ما فتحوا بلداً من البلدان إلا وبنوا به مسجداً، لما في المسجد
من النفع العظيم لنشر الدعوة والخير.

وكان ﷺ إذا قدم من سفر أو حرب بدأ بالمسجد.

13 - بذل النصيحة للمسلمين:

كتم النصيح سبب للشُرور والآثام، ونشر الخير بيثها.

فبث النصيحة وبذلها واجب متحتّم، به يقوم الدين، وبه تصلح البلاد ويصلح
العباد، وبه تنشر الدعوة، وبه يثبت الدعاة ويتزجرون عن المخالفات ولذلك بعث
الأنبياء بالنصيحة، فقد قال الله عز وجل عن نوح: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، وقال في شأن هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68].

وقال عن صالح: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: 79].

وقال عن شعيب: ﴿وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَغْنُبُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

وجمع الرسل إنما أرسلوا وبعثوا بالنصيحة وبذلها والدعوة إلى الشرع.

وقد أخبر الله عز وجل أن الناس في خسارة، إلا من لزم النصح وصبر عليه، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾.

وأخرج الإمام مسلم برقم (55): عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيُّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

وقال جرير رضي الله عنه: بايعنا رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، أخرجه البخاري (1401)، ومسلم (56).

واتفقا على حديث أبي هريرة البخاري (1240)، ومسلم (2162) واللفظ له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» في شرح الحديث السابع: (وقد وردت في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عموماً وفي بعضها النصح لولاة الأمور، وفي بعضها نصح ولادة الأمور لرعايهم.. وذكر بعض ما تقدم من الأحاديث.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الدين النصيحة، فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل وسمي ذلك كله ديناً.

فإن النصح يقتضي القيام بأداء الواجبات على أكمل وجوهاها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة

الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا.

قال: وقال الخطابي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، واصل النصيح في اللغة الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله سبحانه صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته.

والنصيحة لكتابه الإيمان به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم). اهـ.

فالنصيحة سبب لاستمرار الخير وظهوره، وكنم النصيحة سبب لضياع الحق وخموده، فالزم النصيحة بضوابطها من الرفق واللين ووضع الأمور في مواضعها، وملازمة الكتاب والسنة تفلح وتعلوا وتمكن وتنصر.

14 - إنكار المنكرات:

التميع منكر من المنكرات، كما أن البدعة كذلك، وإذا كان هذا هو الحال فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ميزات هذا الدين القويم، دين رب العالمين، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

بهذه الشعيرة يُنشر الخير ويقل الشر، بهذه الشعيرة يحصل التميز عن أهل الباطل.

ولعظم شأن هذه الشعيرة الجليلة قال ابن القيم في «المدارج» (3/123): (إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها؛ فلهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين، ودار شقاوة للمنكر عليهم). اهـ

وقال تعالى مرغبا فيه وحاثا عليه: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

فمن أعظم وسائل الفلاح في الدنيا للداعين بنشر خيرهم ودعوتهم هو صدعهم بالمعروف ودعوتهم إليه، ونهيهم عن المنكر وتحذير الناس منه.

كما أنه سبب للفلاح الآخروي السرمدي، فهل من مدكر.

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114].

فقرن الله عز وجل بين الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما بينهما من التلازم، وليعلم أنه لا كمال لإيمان العبد إلا بتحقيق هذه الشعيرة العظيمة.

أخرج ابن ماجه في «سننه» (4017) من حديث أبي سعيد: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ، فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ عَبْدًا حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ».

الحديث في: «الصحيح المسند».

وأخرج الترمذي (2191) من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ».

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة درجات، يجمعها حديث أبي سعيد عند مسلم (49) قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (51) بعد الثالثة: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ».

درجات إنكار المنكر:

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (3/76): (وإنكار المنكر أربع درجات:

1- أن يزول ويخلفه ضده.

2- أن يقل وإن لم يزل بجملته.

3- أن يخلفه ما هو مثله.

4- أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله، كرمي النشاب، وسباق الخيل، ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهُو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك.

وكما إذا كان الرجل مشغلاً بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقله إلى كتب البدع والضلال والسحر، فدعه وكتبه الأولى. وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام بن تيمية - قدس الله روحه ونور ضريحه - يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم). اهـ

15 - الدعوة بالتي هي أحسن:

الدعوة إلى الله عز وجل من أفضل القربات إلى ربنا عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

قال ابن كثير: (أي دعى عباد الله إليه وهو في نفسه مهتدي بما يقول، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدي). اهـ

فالداعي إلى الله قوله من أحسن الأقوال وأزكاها، وأفضلها وأحلاها، كيف لا وهو يدعو العباد إلى عبادة رب العباد، كيف لا وهو يدعو إلى السنة ويحذر من البدعة، كيف لا وهو يدعو إلى الهدى ويحذر من الردى، كيف لا وهو يدعو إلى النور ويحذر من الظلمات، فهنيئاً لمن سلك هذا السبيل: ﴿فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ

خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» أخرجه البخاري (3009)، ومسلم (2406) عن سهل بن سعد رضي الله عنه، «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» أخرجه مسلم (1893) عن أبي مسعود رضي الله عنه، «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ» أخرجه مسلم (1017) عن جرير رضي الله عنه.

وكفى بها شرفاً أن طريقة الأنبياء والمرسلين من أجلها جاهدوا، ومن أجلها هاجروا، ومن أجلها عادوا، ومن أجلها عودوا، ومن أجلها حُبوا وأحبوا، ومن أجلها بغضوا وأبغضوا.

والدعوة الناجحة المنصورة هي التي تتوفر فيها هذه الشروط:

1- أن تكون بإخلاص وعلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

فدل على أهمية الإخلاص، قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، ويدل على العلم قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

2- أن يكون الداعي عاملاً للآية السابقة، ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

3- أن تكون الدعوة إلى الله عز وجل لا إلى فكرة ولا حزب ولا مذهب ولا إمام، لقوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125].

4- أن تكون بالحكمة، لقوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

والحكمة هي: إصابة الحق بالعلم والعقل. أفاده الراغب.

قال الله عز وجل عنها: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:

269].

وليست الحكمة هي الدين والرفق والحلم فقط كما يظن كثير من الناس، بل الحكمة هي وضع الشيء موضعه، وهي طريقة النبي ﷺ في الدعوة.

فبعض الناس يظن أن الحكمة هي الرفق واللين فقط، مع الموافق والمخالف، والقريب والبعيد، والبر والفاجر، والمعرض والمقبل، وهذا ليس بصحيح، فقد يؤدي إلى التميع، وبعضهم يلازم دائماً الغلو والجزاف فيُتعب ويتعب، فارحم نفسك وغيرك أيها المسلم بملازمة طريقة النبي ﷺ.

قال ابن القيم رحمه الله كما في «بدائع التفسير» (64/3): (جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا ياباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة.

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن، هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية. لا ما يزعم أسير منطق اليونان: أن الحكمة قياس البرهان، وهي دعوى الخواص. والموعظة الحسنة قياس الخطابة، وهي دعوى العوام. والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل.). اهـ «مفتاح دار السعادة» ص(167).

وقال في «الصواعق المرسلة» (4/1276): (ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه،

محبًا له مؤثرًا له على غيره، إذا عرفه فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا إلى جدل.

وإما أن يكون معرضًا مشتغلًا بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون معاندًا معارضًا فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدل إلى الجلال، وإن امكن فلمناظرة المبطل فائدتان:

الأولى: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكشف شره وعداوته ويتبين للناس أن هذا معه باطل.

وهذه الوجوه لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظراته للطوائف، فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه، فحججه مع أنها من أعلى مرات بالحجج، فهي أقرب شيء تناولًا، وأوضح دلالة وأقوى برهانًا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك. اهـ

16 - التحذير من أهل الباطل بجميع أنواعهم:

جرح أهل البدع والتحذير منهم من أعظم الوسائل لنشر الحق والخير، وحرب الشر والضير.

ولما كان الأمر هكذا فإن الله عز وجل قد بين في غير ما سورة من سور القرآن حال المبطلين للحذر منهم والتنفير عنهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175-176].

وقال سبحانه وتعالى في قصة موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 18].

وقال الله تعالى مخبراً عن قول يوسف لأخوته: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77].

وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَلٍ ۝٥﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاكِ مَهِينٍ ۝١٠ هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيمٍ ۝١١ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ ۝١٢ عُمِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [الفلم: 10-13].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِیَا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰی مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

إلى غير ذلك من الأدلة القرآنية الربانية المحذرة من طريقة المبطلين وسبيل المجرمين، حتى قال ربنا عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55].

والناظر في كثير من سور القرآن كالمائدة والتوبة والنساء والمنافقون وغيرها من السور: يجد أن الله عز وجل قد جرح الكافرين والمنافقين جرحاً مفسراً لا يخفى شأنهم على المستبصرين، ولا يغتر بهم بعد ذلك إلا كل غوي مبين.

وأما من السنة المطهرة:

فقد أخرج البخاري (3610)، ومسلم (1064) واللفظ للبخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَنَّهُ ذُو الْخَوِصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ! فَقَالَ: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ!» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «دَعُهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْفَرُونَ أَحْدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيَّةِ - وَهُوَ قِدْحُهُ - فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُدْذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثُ وَالْدَّمُ!!! آيَتُهُمْ: رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عِصْدَتَيْهِ مِثْلُ نَذْيِ الْمَرَأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَذَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتَمَسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعْتُهُ.

ففي هذا الحديث جرح شديد لقوم من المسلمين يخرجون في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن البدعة استهوتهم، فاستحقوا هذا التحذير المبين، وهذا من غاية النصح والتبيين حتى لا ينخدع بهم عوام المسلمين.

وفي حديث علي عند البخاري (3611)، ومسلم (1066)، عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَنْزِعُوا أَيْدِيَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقال في الخوارج: كلاب النار، كما في حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قال الإمام أحمد (5/253): حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا غَالِبٍ يَقُولُ: لَمَّا أَتَى بُرْءُوسِ الْأَزَارِقَةِ فَنُصِبَتْ عَلَى دَرَجٍ دِمَشْقَ، جَاءَ أَبُو أَمَامَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ: كِلَابُ النَّارِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - هَؤُلَاءِ شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ، وَخَيْرُ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَا شَأْنُكَ دَمَعْتَ عَيْنَاكَ؟ قَالَ: رَحِمَهُ هُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: قُلْنَا: أَبْرَأُيْكَ قُلْتَ: هَؤُلَاءِ كِلَابُ النَّارِ، أَوْ شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَجَرِيءٌ! بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا ثِنْتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ، قَالَ: فَعَدَّ مَرَارًا.

وجاء من حديث عدي بن حاتم عند الإمام مسلم (870): أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ. قُلْ: وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وأخرج (2195) من حديث جابر رضي الله عنه أَنَّ عَبْدًا لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْكُو حَاطِبًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْدُخُلْنَ حَاطِبُ النَّارِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَّةَ».

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز جرح المخطئ؛ حتى يُحذر مما عنده من الخطأ، ويحذر الناس من المتابعة له على باطله.

ومن أراد التزود من ذلك فليراجع كتاب «المخرج من الفتنة» للشيخ مقبل رحمه الله، وكتاب «صعقة الزلزال في نفس أهل الرفض والاعتزال»، و«نشر الصحيفة في الصحيح من أقوال أهل العلم في أبي حنيفة»، فإنه قد جمع خيرًا رحمه الله، ورفع درجته في المهديين، وهو من مجددي هذه السنة العظيمة، كما بينت ذلك في كتاب: «البيان الحسن في ترجمة الإمام الوادعي وما أحياه من السنن» والله الحمد والمنة، ولشيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى كلام نفيس حول الجرح والتعديل في مقدمة كتابه: «الطبقات لما حصل بعد موت شيخنا الوادعي رحمه الله تعالى في الدعوة السلفية باليمن من الحالات».

وقال الترمذي في كتاب «العلل» من جامعه: (وقد غاب بعض من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال، وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين قد تكلموا في الرجال، منهم: الحسن البصري، وطاوس، تكلما في معبد الجهني. وتكلم سعيد بن جبير في طلق بن حبيب. وتكلم إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، في الحارث الأعور. وهكذا روي عن أيوب السختياني، وعبدالله بن عون، وسليمان التيمي، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وعبدالله بن المبارك، ويحيى بن سعيد القطان، ووكيع بن الجراح، وعبدالرحمن بن

مهدي، وغيرهم من أهل العلم، أنهم تكلموا في الرجال وضعفوا؛ وإنما حملهم على ذلك عندنا - والله أعلم - النصيحة للمسلمين، لا ظن بهم أنهم أرادوا الطعن على الناس أو الغيبة، إنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء؛ لكي يعرفوا؛ لأن بعضهم من الذين ضعفوا كان صاحب بدعة). اهـ

قال ابن الأثير في «جامع الأصول» (1/130-131): (قد عاب من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال؛ لأنهم لم يقفوا على الغرض من ذلك، ولا أدركوا المقصد فيه، وإنما حمل أهل الحديث على الكلام في الرجال وتعديل من عدلوا وتجريح من جرحوا: الاحتياط في أمور الدين، وحراسة قانونه، وتمييز مواقع الغلط والخطأ في هذا الأصل العظيم، الذي عليه مبنى الإسلام، وأساس الشريعة، ولا يظن بهم أنهم أرادوا الطعن في الناس، والغيبة، والوقية فيهم، ولكنهم بينوا ضعف من ضعفوه؛ لكي يعرف فيجتنب الرواية عنه، والأخذ بحديثه؛ تورعاً، وحسبة، وتثبتاً في أمر الدين. فإن الشهادة في الدين أحق وأولى أن يتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال؛ فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام في ذلك وتبيين أحوال الناس، وهو من الأمور المتعينة العائدة بالنفع العظيم في أصول الدين). اهـ

وقال الحافظ في «اللسان» (1/3-4): (ثم إن من بعد الصحابة تلقوا ذلك منهم وبذلوا أنفسهم في حفظه وتبليغه، وكذلك من بعدهم، إلا أنه دخل فيمن بعد الصحابة في كل عصر قوم ممن ليست لهم أهلية ذلك إما لبدعة، أو كذب، أو سوء حفظ وتبليغه، فأخطئوا فيما تحملوا، ونقلوا ومنهم من تعمد ذلك، فدخلت الآفة فيه من هذا الوجه.

فأقام الله طائفة كثيرة من هذه الأمة للذب عن سنة نبيه ﷺ، فتكلموا في الرواية على قصد النصيحة، ولم يعد ذلك من الغيبة المذمومة، بل كان ذلك واجباً عليهم وجوب كفاية. اهـ

وقال الحافظ الذهبي في «الميزان» (373/3): (قال عاصم الأحول: جلست إلى قتادة فذكر عمرو بن عبيد، فوقع فيه، فقلت: العلماء يقع بعضهم في بعض؟! فقال: يا أحول! ألا تدري أن الرجل إذا ابتدع ينبغي أن يذكر حتى يُحذر). اهـ

وذكر ابن المبارك رجلاً كما في «شرح العلل» لابن رجب ص(77) فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، تغتاب؟! فقال: اسكت، إذا لم نبين كيف يعرف الحق من الباطل، وقال ابن عليه في الجرح: إن هذه أمانة ليست بغيبة.

وذكر الخطيب في «الكفاية» ص(46) عن محمد بن بندار السبكي قال: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، إنه ليشتد علي أن أقول فلان كذاب، فلان ضعيف، فقال لي: إذا سكّ أنت، وسكّ أنا، فمتى يَعْرِفُ الجاهلُ الصحيح من السقيم؟! ورحم الله محمد بن سيرين إذ يقول كما في مقدمة مسلم: (إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَأَنْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ).

فيجب على الداعية السلفي أن يبين حال المبطلين حتى يعرف أهل الباطل فيبتعد عنهم، ويفر منهم، وكان هذا الإمام هو أول من فتش في علم الإسناد كما في «شرح علل بن رجب» (52/1).

وقال الذهبي: (أول من ذكر وجرح عند انقراض عصر الصحابة الشعبي، وابن سيرين، ونحوهما، وحفظ عنهم توثيق أناس وتضعيف آخرين، فلما كان عند انقراض عامة التابعين في حدود الخمسين ومائة، تكلم طائفة من الجهابذة في التوثيق

والتضعيف، كالأعمش، وشعبة بن الحجاج، ومالك بن أنس). اهـ من «علم الرجال نشأته وتطوره» ص(27).

وابن عباس رضي الله عنه قبل هؤلاء، حين بدأت تظهر قرون البدع، ومن ينتحل العلم وليس من أهله، جرح من هذا حاله، وحذر من مجالسته وسماع حديثه.

فقد قال كما في «مقدمة مسلم»: (إِنَّا كُنَّا نَحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُكَذِّبُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذُّلُولَ تَرَكْنَا الْحَدِيثَ عَنْهُ).

وفي رواية: (لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ).

وسار على سير الصحابة أئمة التابعين، فقد قال الحسن عن معبد الجهني: (إياكم ومعبد؛ فإنه ضال مضل).

وكذب الشعبي جابراً الجعفي.

وغير ذلك من أراد أن يقف على قطف من كلام أهل العلم فليرجع إلى مقدمة «الكامل» لابن عدي، ومقدمة «المجروحين» لابن حبان، ومقدمة «لسان الميزان»، وكتاب «الميزان»، وغيرها من الكتب.

17 - الثناء على أهل السنة دلالة عليهم:

علمنا أن التمييع يحصل بسبب التلمذ على أهل البدع، ولما كانت المجتمعات في جهل، فلا بد من دلالتهم على أهل الصلاح والإصلاح، والదال على الخير له مثل أجر فاعله.

وكما أن الجرح لأهل البدع من الواجبات التي أوجبها الله عز وجل على العلماء؛ من أجل صد البدعة وأهلها، فإن تعديل أهل الحق أمر مطلوب ومرغب

فيه؛ وذلك لأن تعديلهم يكسبهم ثقة المسلمين، فيأخذون بنصائحهم ويقتدون بهم، ويحرصون على مجالستهم وأخذ الخير منهم.

ولما كان الشأن كما ذكر، فقد عدل الله عز وجل النبي ﷺ وبين فضائله؛ حتى يتبع ويؤخذ عنه ومنه الحق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].
وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ﴾ [الحاقة: 40-42].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 184].

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

وقال في تعديل منهج النبي ﷺ ومنهج اتباعه المستقيمين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَتَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: 29].

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: 8-10].

وقال تعالى في تعديل المنهج الذي يسرون عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَٰكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هٰذَا بِإِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٣٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: 156-158].

وقال في بيان جزاء هؤلاء المعدلين الاتقياء الأصفياء: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿[الأحزاب: 35].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ
الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾ التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّائِحُونَ
الزَّكَّاءُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[التوبة: 111-112].

وقال النبي ﷺ معدلاً لأصحابه كما في «الصحيحين» البخاري (2651)،
ومسلم (2535) من حديث عمران، وجاء عن ابن مسعود عند البخاري
(2652)، ومسلم (2533)، وجاء عن عائشة عند مسلم (2536)، وعن أبي هريرة
عند مسلم (2534) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - : «إِنَّ خَيْرَكُمْ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ
الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ».

وقال ﷺ: «مَا زِلْتُمْ ههنا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا:
نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى

السَّمَاءُ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (2531)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَّفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (3613)، وَمُسْلِمٌ (2541)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ كَمَا فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (3600): (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وَرَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ).

ويدخل في هذا الباب كل أدلة الفضائل ونصوص التعديل، وقد بسطت الكلام في «الوسائل الجليلة» من هذا الباب.

18 - مجالسة الصالحين والبعد عن مجالسة المبتدعين والمميعين:

ومما تنصر به الدعوة السلفية على الدعوات الخلفية ويسلم به المسلم من معرفة جلساء السوء وشرورهم: هو مجالسة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة، قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

قال قتاده: (نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، وإن نسي فلا يقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين). أخرج ابن بطة في «الإبانة» (431/2).

وأخرج أيضًا عن ابن عون قال: (كان محمد بن سيرين يرى أن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، ويرى أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾).

وقال ﷺ كما في حديث أبي موسى ؓ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» أخرجه البخاري (201)، ومسلم (2628).

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: 140].

قال ابن جرير (330/5): (وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم).

وأخرج الآجري في «الشرعية» ص(61)، وابن بطة في «الإبانة» (438/2) عن ابن عباس: (لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلب).

وقال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا أمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم). أخرجه الدارمي (120/1) وغيره.

وأخرج أيضًا عن أيوب قال: (رآني سعيد جلست إلى طلق فقال: ألم أرك جلست إلى طلق بن حبيب، لا تجالسنه فإنه مرجئ).

فمن هذا تبين أن مجالسة أهل السنة مرغّب فيها ومحبوّة عند الله عز وجل، قال تعالى كما في الحديث القدسي: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ». أخرجه أحمد ومالك عن معاذ رضي الله عنه.

وبما أنها محبوّة عند الله عز وجل، فهي من أجلّ العبادات الموصلة إلى مرضات ربنا عز وجل.

ثم إنها سبب لنشر الخير وبثه، وسيأتي مزيد بيان في الوسيلة التالية إن شاء الله.

ولنقف مع بعض من تأثر بمجالسة أهل البدع والريب.

ذكر الذهبي في «السير» (214/4) في قصة عمران بن حطان مع زوجته الخارجية قال: حدث سلمة بن علقمة عن ابن سيرين قال: تزوج عمران بن حطان خارجية وقال: سأردها قال، فصرفته إلى مذهبها حتى بلغ من شعره أن قال في وصف بن ملجم:

يَا صَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا	إِلَّا لِيُبلغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ حِينَئِذَا فَاحَسِبُهُ	أَوْفَى الْبَرِّيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا
أَكْرِمَ بِقَوْمٍ بَطُونُ الطَّيْرِ قَبْرُهُمْ	لَمْ يَخْلُطُوا دِينَهُمْ بَغْيًا وَعُدْوَانًا

وجعفر بن سليمان الضبعي مع عبد الرزاق الصنعاني.

فقد قال الذهبي في «السير» (9/570): (ما أفسد عبد الرزاق سوى جعفر بن سليمان يعني أنه جالسه فأدخل عليه التشيع).

بينما لو نظرت إلى مجالس أهل السنة لرأيت أن من جالسهم انتفع وترك باطله، إلا من أراد الله إزاغته.

دل على ذلك ما أخرجه مسلم (191): عَنْ يَزِيدَ الْفَقِيرِ قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيِي مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عَصَابَةِ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيَّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللَّهِ يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: 192]، و﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: 20] فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟! قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَعْنِي: الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ - قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُحْمُودِ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضَعَ الصِّرَاطِ، وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَلِكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرِجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاوَاتِ، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهْرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرِجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَّاطِيسُ، فَرجعنا قلنا: وَيَحْكُمُ! أَتَرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرجعنا، فَلَا وَاللَّهِ، مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ. أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ.

وأخرج النسائي في «الخصائص» ص(195)، وعبدالرزاق في «المصنف» (157/10) من طريق عكرمة قال: حدثنا أبو زميل الحنفي، قال: حدثنا عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: لما اعتزلت الحروراء فكانوا في دار على حديثهم، فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين، أبرد عن الصلاة؛ لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إني أخوفهم عليك، قلت: كلا إن شاء الله تعالى، قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، قال: فدخلت على قوم لم أر قوماً قط أشد اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلمة من آثار السجود، قال: فدخلت فقالوا: مرحبا بك يا بن عباس! ما جاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: والله لنحدثنه، قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله ﷺ معه، قالوا: ننقم عليه ثلاثاً، قال: قلت: وما هن؟ قالوا: أولهن: أنه حَكَّم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57، يوسف: 40 و67]. قال: قلت: وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يسب ولم يغنم؛ لئن كانوا كفاراً لقد حَلَّت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قال: قلت: وماذا؟ قالوا: محافضة من أمير المؤمنين؛ فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: رأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون، أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أما قولكم: حَكَّم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ إلى قوله ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: 95] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35] أنشدكم الله، أحكم الرجال في حقن

دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم، قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة؟ أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] فأنتم مترددون بين ضلالتين، فاختراروا أيتها شئتم، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشاً يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً، فقال: «اكتب: هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» فقالوا: والله، لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: «وَاللَّهِ، إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفاً، وبقي منهم أربعة آلاف، فقتلوا.

19 - قهر أهل البدع والتقرب إلى الله بمجانبتهم ومهاجرتهم:

تقدم في الوسيلة السابقة بيان وجوب البعد عن مجالسة أهل البدع؛ وما ذلك إلا لأنها تؤدي إلى انقطاع الداعي إلى الله عز وجل عن دعوته بسبب تأثره بالمجالس، وباب الهجر هو من باب النهي عن مجالسة أهل البدع والريب.

ومن باب التحذير من شرهم ومكرهم، وإيم الله، ما انتشرت البدعة في هذا الزمن هذا الانتشار، وحصل التميع العظيم للدعاة والمصلحين إلا بسبب مجالسة أهل البدع ومخالطتهم وعدم هجرهم، والواجب الفرار منهم والبعد عنهم، وفي

الحديث: «فَرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»، فإذا كان الفرار من المجذوم لضرره على الأبدان، فمن باب أولى الفرار من المبتدعة والمميعين؛ لأن ضررهم على الأديان. وهذه الوسيلة من أنجح الوسائل في التحذير من المبطلين، ومن أعظم الأسباب لنصر الدعوة السلفية.

وأذكر أن الشيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى لما رجع من السعودية إلى صنعاء في رحلته العلاجية، كان مما تكلم به في مجلسه الحث على التميز والبعد عن أهل البدع، فلما كان بعد صلاة الفجر ذلك اليوم قام بكلمة مختصرة قال فيها: عليكم بالتميز، ما نصر الله دعوتنا إلا بالتميز، أي: بجانب أهل البدع وهجرهم والتبرؤ منهم.

وهجر المسلم محرم بالسنة والإجماع، وإنما استثنى منه المهجر لأهل البدع والريب والمعاصي بضوابطها، لما في ذلك من المصلحة الدينية والدنيوية.

قال ابن القيم في «الزاد» (3/578): (وفيه دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه).

وأما هجر أهل البدع والأهواء فإنها دائمة على مر الزمان حتى يتوبوا من بدعتهم ويثوبوا من غيهم، ويراجعوا دينهم وسنة نبيهم التي عاشوا عنها ناكبين، ولسييلها هاجرين ولعهدا ناكثين). اهـ

قال الخطابي رحمه الله في «معالم السنن» (5/7) في شرح حديث كعب: (فيه من العلم أن تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث إنما هو فيما يكون سبباً من قبل عتب وموجدة، أو لتقصير يقع في حقوق العشرة ونحوها دون ما كان ذلك في حق

الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على مر الزمان، ما لم تظهر منه التوبة والرجوع عن الحق.

وكان رسول الله ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه إلى غزوة تبوك فأمر بهجرانهم، وأمرهم بالعودة في بيوتهم نحو خمسين ليلة، إلى أن أنزل سبحانه توبته وتوبة أصحابه، فعرف رسول الله ﷺ براءتهم من النفاق). اهـ

وقال النووي رحمه الله في شرح الحديث (100/17): (فيه استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم تحقيراً لهم وزجراً). اهـ

وقال في «روضة الطالبين» (367-368/7): (إن الهجر بعذر بأن كان المهجور مذموم الحال لبدعة أو فسق أو نحوهما، أو كان فيه صلاح لدين الهاجر والمهجور فلا تحريم، وعلى هذا يحمل ما ثبت من هجر النبي ﷺ كعب بن مالك وصاحبيه، ونهيه ﷺ الصحابة عن كلامهم، وكذلك ما جاء في هجران السلف بعضهم بعضاً). اهـ

وقد نقل إجماع العلماء غير واحد من العلماء في وجوب هجران أهل البدع ومناذتهم من أراد أن يقف عليها فليراجع كتاب: «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء»، وكتاب: «هجر المبتدع» لبكر أبو زيد، وغيرها من الكتب.

واليك بعض المواقف الدالة على منابذة السلف لأهل البدع والأهواء:

أخرج الدارمي في «مقدمة سننه»، واللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة» (1136): عَنْ نَافِعِ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ صَبِيغًا الْعِرَاقِيَّ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ

الْقُرْآنِ فِي أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى قَدِمَ مِصْرَ، فَبَعَثَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ فَقَرَأَهُ فَقَالَ: أَيْنَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: فِي الرَّحْلِ، قَالَ عُمَرُ: أَبْصُرْ أَيْكُونُ ذَهَبَ فَتُصِيبَكَ مِنْهُ الْعُقُوبَةُ الْمُوجِعَةُ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: تَسْأَلُ مُحَدَّثَةً؟ وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى رِطَائِبَ مِنْ جَرِيدٍ، فَضَرَبَهُ بِهَا حَتَّى تَرَكَ ظَهْرَهُ دَبْرَةً، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، ثُمَّ عَادَ لَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، فَدَعَا بِهِ لِيَعُودَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ صَبِيغٌ: إِنْ كُنْتُ تُرِيدُ قَتْلِي فَاقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ أَنْ تُدَاوِينِي فَقَدْ - وَاللَّهِ - بَرَأْتُ، فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنْ لَا يُجَالِسَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ، فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ: أَنْ قَدْ حَسَنْتَ تَوْبَتَهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ: أَنْ أَذِّنَ لِلنَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِ.

وأسانيدها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضًا.

وقد استوعبها الحافظ في «الإصابة» (2/198-199)، وصحح بعض أسانيدها، وصححها ابن كثير، وشيخنا الحجوري في تحقيقه لمقدمة «سنن الدارمي» وغيرهم كثير.

وأخرج البخاري (5479)، ومسلم (1954) عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يخذف، فقال له: لا تخذف، فإن رسول الله ﷺ كان يكره - أو قال: ينهى - عن الخذف؛ فإنه لا يصطاد به الصيد، ولا ينكأ به العدو، ولكنه يكسر السن، ويفقأ العين. ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره أو ينهى عن الخذف، ثم أراك تخذف، لا أكلمك كلمة كذا وكذا.

قال النووي في شرح الحديث (13/106): (فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرهم دائماً والنهي عن الهجران فوق ثلاث

أيام إنما هو في حق من هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائم). اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (28/24-205): (الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها، كما هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقاً، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات، كتارك الصلاة، والزكاة، والتظاهر بالمظالم والفواحش، والداعى إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة: إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم، ولا يناكحون. فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا؛ ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية؛ لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة، بخلاف الكاتم فإنه ليس شراً من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم). اهـ

وانظر إلى حال السلف في هذا الباب، فهذا عبدالله بن عمر رضي الله عنه كما عند اللالكائي (1135) من طريق نافع قال: بينما نحن عند عبدالله بن عمر جاءه إنسان فقال: إن فلان يقرأ عليك السلام - لرجل من أهل الشام - فقال ابن عمر: إنه قد بلغني أنه أحدث حدثاً، فإن كان كذلك فلا تقرأن عليه مني سلام. وسنده حسن.

وأخرج رقم (1141) من طريق عمرو بن دينار قال: بينا طاوس يطوف بالبيت لقيه معبد الجهني فقال له طاوس: أنت معبد؟ قال: نعم، فالتفت إليهم طاوس فقال: هذا معبد فأهينوه.

وأخرج (1147) من طريق ابن أبي عاصم قال: قال ابن أبي رَوَاد: قد جاءكم ثور فاتقوه، لا ينطحكم بقرنيه - يعني ثور بن يزيد - قال الشيخ: وكان قدرياً.

وأخرج (1148) من طريق محمود بن غيلان: سمعت مؤمل بن إسماعيل يقول في غير مجلس يقبل علينا: أُخْرِجْ على كل مبتدع جهمي أو رافضي أو قدري أو مرجئ سمع مني، والله لو عرفتكم ما حدثتكم.

وأخرج (1149) قول الفضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد. آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة. اهـ

وما ذلك إلا لأن اليهودي والنصراني معروف شره ولن يُعْتَرَّ به، بينما صاحب البدعة قد يجرك إلى بدعته وأنت لا تشعر.

وأخرج عبدالله بن أحمد في «السنة» (196): أن الناس وثبوا على بشر المريسي عند سفیان بن عيينة حتى ضربه، وقالوا: جهمي، فقال له سفیان: يا دويبة يا دويبة، ألم تسمع الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54] فأخبر الله عز وجل: أن الخلق غير الأمر.

وأخرج عبدالله بن أحمد في «السنة» (66) بسند صحيح عن هارون الرشيد أنه قال: بلغني أن بشرًا المريشي يزعم أن القرآن مخلوق، لله علي إن أظفري الله به إلا قتلته قتلة ما قتلها أحدًا قط.

وأخرج رحمه الله بسنده (434/2): عن محمد بن كعب القرظي: أن الفضل الرقاشي قعد إليه فذاكره شيئًا من القدر، فقال له محمد بن كعب القرظي: تَشْهَدُ، فلما بلغ: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له) رفع محمد عصا معه فضرب بها رأسه، وقال: قم، فلما قام فذهب قال: لا يرجع هذا عن رأيه أبدًا. وأخرج الآجري في «الشرعة»: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر، فبعث إليه فحجبه.

وأخرج الفريابي في «القدر» (206) عن ابن عون قال: كنا جلوسًا في مسجد بني عدي، فدخل معبد الجهني المسجد، فقال أبو السوار: ما يدخل هذا مسجدنا، لا تدعوه يجلس إلينا.

قال الوادعي في «الجامع الصحيح في القدر»: أثر صحيح.

وأخرج عبدالله بن أحمد في «السنة»: عن أبي الزبير أنه كان يطوف مع طاوس بالبيت، فمر بمعبد الجهني، فقال قائل لطاوس: هذا معبد الجهني الذي يقول في القدر، فعدل إليه طاوس حتى وقف عليه فقال: أنت المفتري على الله عز وجل، القائل ما لا تعلم؟ قال معبد: يكذب علي، قال أبو الزبير: فعدلت مع طاوس حتى دخلنا على ابن عباس، فقال له طاوس، يا أبا عباس، الذين يقولون في القدر، فقال ابن عباس: أروني بعضهم، قال: قلنا: صانعٌ ماذا؟ قال: إذن، أجعل يدي في رأسه ثم أدق عنقه.

قال الوادعي: هذا الأثر سنده حسن.

20- وجود أهل العلم والاستفادة منهم:

وجود أهل العلم السلفيين، والدعاة الناصحين المخلصين أمانة للأمة من الضلال؛ لما تقدم من حديث أبي موسى: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِّأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»، وما وجدوا في مجتمع والتف حولهم الناس إلا حصل اليخر وقل الشر والضير، وأهل العلم هم أعرف الناس بمراد الله عز وجل ومراد رسوله ﷺ ومعرفة الأحكام الشرعية، وإنما يقع الناس في البدعة والتميع بسبب التضييع لهذا الباب، فضل العلماء عظيم.

وكفى في فضلهم أن الله أشهدهم على وحدانيته، يقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]،

وصفهم بالخشية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]، وأخبر برفعهم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

وأمر بالرجوع إليهم: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، الأنبياء: 7]، وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59] قال في تفسيرها المفسرون: هم الفقهاء والعلماء.

وبين أنهم لا يستون مع غيرهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] وبين أنهم الفاهمون العاقلون لمراد الله ومراد رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

وهم الأدلاء على الخير المحذرين من الشر: ﴿وَقَالَ الَّذِيكُ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: 80] وهم ورثة الأنبياء كما عند أبي الدرداء عند أحمد (5/196) وغيره: يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رِضَاءً لِمَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخِيَتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»، وهم المبلغون لدين الله عز وجل، كما في حديث ابن عباس عند أحمد (1/321) وغيره: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ بِمَنْ سَمِعَ مِنْكُمْ».

وهم أهل الخير بنص حديث معاوية رضي الله عنه عند الشيخين، البخاري (71)، ومسلم (1037): «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وهداية الناس بوجودهم، وضلالهم سببه غيابههم وقبضهم، كما في حديث ابن عمرو رضي الله عنهما عند البخاري (7307)، ومسلم (2673): عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». وأخرج أحمد (6/26) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ الْعِلْمِ أَنْ يُرْفَعَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ: أَيْرَفَعُ الْعِلْمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ وَقَدْ عَلَّمَنَاهُ أَبْنَاءُنَا وَنِسَاءُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كُنْتُ لَأُظَنُّكَ مِنْ

أَفْقَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ؟» ثُمَّ ذَكَرَ ضَلَالَةَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَعِنْدَهُمَا مَا عِنْدَهُمَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. الحديث بطوله، وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي.

وانظر إلى ثناء العلماء على هذا الصنف وبيان حاجة الأمة إليهم.

قال محمد بن الحسين: (فما ظنكم - رحمكم الله - بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه مصباح وإلا تحيروا، فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس لا بد لهم من السلوك فيه، فسلكوا، فبينما هم كذلك، إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض، وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه، إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحير الناس، ودرس العلم بموتهم، وظهر الجهل، فإنا لله وإنا إليه راجعون مصيبة ما أعظمها على المسلمين؟). اهـ من «أخلاق العلماء» ص(96).

وقال عبدالله بن مسعود: هل تدرون كيف ينقص الإسلام؟ قالوا: كيف قال؟ كما يُنقص الدابة سمنها وكما يُنقص الثوب عن طول اللبس، وكما يُنقص الدرهم عن طول الخبث، وقد يكون في القبيلة عالمان فيموت أحدهما فيذهب نصف علمهم ويموت الآخر فيذهب علمهم كله.

أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» رقم (21).

قال الشيخ يحيى الحجوري في تحقيقه: وسائر رجال الإسناد أئمة ثقات مشاهير.

وفي «أخلاق العلماء» للأجري رقم (22) أبيات منسوبة إلى علي رضي الله عنه، فيها وصف حسن على العلماء، فقال:

كَلامُ الْحَكِيمِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ كَوْبَلِ السَّمَاءِ غِيَاثُ الْأُمَمِ
فَنُطْقُ الْحَكِيمِ جَلَاءُ الظُّلَامِ وَصَمْتُ الْحَكِيمِ دُعَاءُ الْحُكَمِ
حَيَاةُ الْحَكِيمِ جَلَاءُ الْقُلُوبِ كَضَوْءِ النَّهَارِ يُجَلِّي الظُّلَمِ

وقال ابن القيم في «الفروسية» ص(70-71): (لما كان الجلال بالسيف والسنان، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين، والقرينيين المتصاحبين، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه.

فالإصابة في الرمي والنضال كالإصابة في الحجة والمقال، والطعن والتبطل نظير إقامة الحجة وإبطال حجة الخصم والخروج نظير الإيراد والاحتراز منه، وجواب القرن عند دخوله عليك كجواب الخصم عما يورده عليك.

فالفروسية فروستان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان، ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ أكمل الخلق في الفروستين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان.

وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، وما عداهما فإن لم يكن ردءاً وعاوناً لهما فهو كلٌّ على نوع الإنسان.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشايق والمحاريين، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد.

ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء والرفعة، وعلو المنزلتين في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما). اهـ

وانظر كيف اعتبر الهلال بن العلاء الرقي رحمه الله أن وجود العلماء من أعظم منن الله عز وجل على عباده، قال كما في «السير» (499/10): (من الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم: بالشافعي تفقه بحديث رسول الله ﷺ، وبأحمد ثبت في المحنة؛ لولا ذلك كفر الناس، وب يحيى بن معين نفى الكذب عن الحديث، وبأبي عبيد فسر الغريب من الحديث. ولولا ذلك لا قتحم الناس في الخطأ). اهـ

وفضائلهم كثيرة مشهورة، وعند أهل الفضل مذكورة، وفي الكتب مزبورة، فما بقي إلا العمل والعون من الله عز وجل.

21- الأخذ ببسرية الدين وعدم التشدد والغلو:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:

[143].

والوسط هم العدل الخيار كما هو عند البخاري في صحيحه، (باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجَاءُ بَنُو نُوْحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟». ومنه قول زهير:

وَهُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي الْعَظَائِمُ

فمن وسائل نصرة الدعوة، والبعد عن التميع والبدعة، هو البعد عن الغلو والجفاء، بل يلزم المؤمن غرز السنة، ولتكن طريقته على طريقة الصحابة والتابعين، فإن الغلو سبب للهلاك، والجفاء من أسبابه أيضًا وكله مذموم.

قال ابن القيم في «المدارج» (2/496): (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تفريط وإما إلى أفراط وغلو، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضاللتين والوسط بين طرفين، كما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوز الحد.

والغلو نوعان: نوع يخرج عن كونه مطيعاً، وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار). اهـ

ورحم الله عمر بن عبدالعزيز بن مروان الخليفة الراشد صاحب العقل الثاقب والرأي الصائب، فقد أوصى بلزوم سبيل أهل السنة بعيداً عن الغلو والجفاء، ففي «سنن في أبي داود» (4612) قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقَدْرِ، فَكَتَبَ: أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتَّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُّوا مُؤْنَتَهُ، فَعَلَيْكَ بِالزُّرُومِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ، ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَتَدَعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا، فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ وَالْخُمُقِ وَالتَّعَمُّقِ، فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِنَفْسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبَبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى، وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى، فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ، فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي، وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ، وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مُحْسَرٍ، وَقَدْ قَصَرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفُوا، وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَعَلَوْا، وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ.

كَتَبَتْ تَسْأَلُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ، فَعَلَى الْحَيِّرِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - وَقَعَتْ، مَا أَعْلَمَ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ مِنْ مُحَدَّثَةٍ وَلَا ابْتِدَاعُوا مِنْ بَدْعَةٍ هِيَ أَيْبُنُ أَثَرًا وَلَا أَثَبَتْ أَمْرًا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ، لَقَدْ كَانَ ذِكْرُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهْلَاءِ يَتَكَلَّمُونَ بِهِ فِي كَلَامِهِمْ وَفِي شِعْرِهِمْ، يُعَزُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ بَعْدُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَقَدْ ذَكَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ وَلَا حَدِيثَيْنِ، وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ؛ يَقِينًا وَتَسْلِيًا لِرَبِّهِمْ، وَتَضَعِيفًا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ، وَلَمْ يُخَصِّصْ كِتَابُهُ، وَلَمْ يَمُضِ فِيهِ قَدْرُهُ، وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَفِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مِنْهُ افْتِسَاوُهُ، وَمِنْهُ تَعَلُّمُوهُ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ: لَمْ أَنْزَلِ اللَّهُ آيَةً كَذَا؟ لَمْ قَالَ كَذَا؟ لَقَدْ قَرَأُوا مِنْهُ مَا قَرَأْتُمْ، وَعَلِمُوا مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا جَهِلْتُمْ، وَقَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ، وَكَتَبَتْ الشَّقَاوَةُ وَمَا يُقَدَّرُ يَكُنْ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، ثُمَّ رَغِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَرَهَبُوا. اهـ

وللضرر الحاصل من الغلو فإن رسول الله ﷺ قد أخبر عن ضلال الغلاة، كما في مسلم (2670) عن ابن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثًا.

وما ضل أهل الكتاب إلا بسببه مع تحذير الله عز وجل لهم، فلم يمتثلوا فلعنوا.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 171].

وقال مبيّنًا أن الغلو هو سبيل الضلال: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

وأخرج أحمد (215/1)، والنسائي (2863): عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةُ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «هَاتِ الْقُطْبِيَّ» فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ هُنَّ حَصَى الْحَذَفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

والغالي متوعد بعدم شفاعته النبي ﷺ كما في «السنة» لابن أبي عاصم (23/1) وغيرها عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلَمَ عَشْرًا، وَغَالٍ فِي الدِّينِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ».

الحديث ذكره العلامة الألباني في «الصحيحة» (471).

وكان النبي ﷺ من أشد الناس تحذيرًا من الغلو، سواء الغلو العقدي أو الغلو العملي، فكلاهما يؤدي إلى الانقطاع.

ومن نظر بعين البصيرة إلى سبب ضلال الأمم السالفة ومن ضل من هذه الأمة، يجد أنه لا يخرج عن هذين السببين الغلو والجفاء.

فاليهود أتوا من جانب الجفاء، حتى أنهم قتلوا الأنبياء وتمردوا على شرع الله الحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبِكْيَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

والنصارى ضلوا من قبل الغلو، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 17].

وما ضل الخوارج وخرجوا على المسلمين يستبيحون دماءهم ويستحلون أموالهم إلا من جانب الغلو.

جاء في البخاري (3611)، ومسلم (1066) قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَنْ أَخْرَجْ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَنَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمُرُّونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيَّانَهُمْ حَنَاجِرُهُمْ، فَأَيُّنَا لَقِيَتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنْ قَتَلْتَهُمْ أَجْرٌ لَنْ قَتَلْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وما ضل الرافضة إلا بغلوهم في آل البيت النبوي، حتى زعم غلاتهم أن علياً رضي الله عنه إله، وزعموا أن النبي ﷺ أوصى إليه، وزعموا له بالرجعة، وزعموا أنه يعلم السر وأخفى، وزعموا أن الخلافة فيه وفي ذريته، إلى غير ذلك.

ورحم الله علي إذا يقول: يهلك في رجلان: محب مفرط يقرظني بما ليس في، ومبغض يحمله شنأني على أن يبهتني. أخرجه أحمد (1/160).

وكذا الصوفية غلوا في جانب العبادة، فضلوا وعبدوا الله بما لم يشرع عز وجل، ظنوا أنهم يحسنون صنعا.

مع أنه بنس الصنيع صنيعهم، فالإحسان كل الإحسان في ملازمة الكتاب والسنة، حتى قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه، وقد تقدم، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

والغلو لا يؤدي إلى خير أبداً كما تقدم في الحديث.

قال الدارمي (210) أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَنبَأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشِينَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آتِئًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنَّ عِشْتَ فَسْتَرَاهُ - قَالَ - رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حَلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصَى فَيَقُولُ: كَبُرُوا مِائَةً، فَيَكْبُرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلَّلُوا مِائَةً، فَيَهْلَلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبَّحُوا مِائَةً فَيَسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا أَنْتَظَرُ رَأْيَكَ أَوْ أَنْتَظَرُ أَمْرِكَ. قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ثُمَّ مَضَى وَمَضِينَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَأَيْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيَحْكُمُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ، هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ وَأَنِيتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحِي بَابِ ضَلَالَةٍ. قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ

مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا أَذْرَى لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ. ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أَوْلِيكَ الْخَلْقِ يُطَاعُونَ يَوْمَ النَّهْرِ وَإِنْ مَعَ الْخَوَارِجِ.

وهكذا ما وقع مشركي الصوفية والحلولية فيما وقعوا فيه إلا بالغلو في الدين.

وقد تقدم الكلام عن الغلو، فلا داعي للتكرار.

22- الحرص على الأخوة الإيمانية:

ومن أعظم أسباب نصرة الدعوة السلفية، والسلامة من البدعة الخلفية: هو الحرص على الأخوة الدينية وترك التعصب، لما في الأخوة من النفع العظيم في الدنيا والدين، حيث يقع التناصح والتأزر والزاور والتناصر والتظافر، وتقل مداخل الشياطين، ويقوى الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وواجب الأخ على أخيه أن ينصره ولا يخذله، وأن يعينه ولا يتركه، وأن يحفظه ولا يسلمه، كما في الحديث: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه البخاري (2442)، ومسلم (2580).

ولما كانت الأخوة الدينية من أهم الأسباب في نصرة الحق وأهله، فكان الأخاء بين المهاجرين والأنصار من أول الأولويات من حين وضع رسول الله ﷺ رحله في المدينة النبوية.

فعند أبي داود (2524): عَنْ عُبَيْدِ بْنِ خَالِدٍ السُّلَمِيِّ قَالَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا، وَمَاتَ الْآخَرُ بَعْدَهُ بِجُمُعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، فَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قُلْتُمْ؟» فَقُلْنَا: دَعَوْنَا لَهُ، وَقُلْنَا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَأَلْحِقْهُ بِصَاحِبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَيْنَ صَلَاتُهُ بَعْدَ صَلَاتِهِ؟ وَصَوْمُهُ بَعْدَ صَوْمِهِ؟» شَكَ شُعْبَةُ فِي صَوْمِهِ «وَعَمَلُهُ بَعْدَ عَمَلِهِ؟ إِنَّ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وفي مسلم (2528) من حديث أنس: أن النبي ﷺ أخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة.

وعند البخاري (3937)، ومسلم (1427): عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَأَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ذُلْنِي عَلَى الشُّوقِ، فَرِيحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، فَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهَيْمُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: «فَمَا سَقَتْ فِيهَا؟» فَقَالَ: وَزَنَ نَوَاقٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُولَئِكَ وَلَوْ بِشَاةٍ».

ولعظم شأنها حرم الله عز وجل أمورًا كثيرة جدًا لسد ذريعة الفرقة والبعد عن الأخوة:

منها: الغيبة وسوء الظن والتجسس والتحسس، لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

ومنها: الهجر، فقد تواترت الأحاديث في النهي عن الهجر، منها حديث أنس عند البخاري (6077)، ومسلم (2560)، وجاء عن غيره: «لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ لَيَالٍ».

وقد ذكرت المسألة بتوسع في كتابي «الوسائل الجلية».

ومن أعظم مفسدات الأخوة العصبية، فالحذر كل الحذر من هذا المرض العضال، فإنه يفسد الأمم والشعوب، ويفرق الخلان، ويوقع الشر بين الأخوان، فمن أراد بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة، وليتبرأ إلى الله عز وجل من كل ما يسبب الوحشة بين المسلمين.

23- الغيرة على منهج السلف الصالح:

الغيرة على الدين ومنهج السلف تجعل العبد يتفانى في حرب البدع والتميعات.

واعلم أن الحق إنما ينصره الشجاع في دين الله، الغيور على محارم الله، ولذلك كان رسول الله ﷺ أشد غيرةً من غيره كما عند البخاري (7416)، ومسلم (1499)، وفيه: عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٍ؟! وَاللَّهِ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي؛ مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدُّ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُدْحَةُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ».

وهي من أعظم منازل العبادة.

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزله الغيرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:33]، وفي البخاري (5221)، عن عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، قال رسول الله ﷺ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أُمَّتَهُ تَزْنِي، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

وقد تقدم الكلام على أهمية الغيرة.

فعلى الدعاة إلى الله عز وجل إن لم يكن لدى أحدهم غيرة جبلية على حدود الله عز وجل ودينه أن ينمي هذه الغيرة بالنظر في كتب السلف وتراجهم، كيف كان يقوم أحدهم لتغيير المنكر بضوابطه الشرعية، ومع ذلك لا ينظروا ولا يتقهقروا إلى الوراء.

24 - مداراة الدعاة للناس تالفا لهم على الحق:

الناس ينفرون من الفظ الغليظ، ويحبون الهين اللين السهل؛ ولهذا قال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159]، وأهل البدع يتزيفون للناس بزي الرفق واللين والمداراة؛ لسلب استقامتهم وعقديتهم، وهم فيما يصنعونه معهم كاذبون، إن لم يكن بلسان المقال فهو بلسان الحال. فأهل السنة أحق بملازمة الأخلاق الحميدة والصفات السديدة من أجل نصرة تدين الله عز وجل وتثبيت الناس عليه.

قال الخطابي كما في «الآداب الشرعية»:

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَةِ
مَنْ يَدْرِ دَارِي وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيًّا لِلنَّدَامَاتِ

وقال الله عز وجل أمراً نبيه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْثِدِينَ﴾ [النحل: 125] ومن الحكمة المداراة.

وأخرج البخاري (3308)، ومسلم (2591): عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اؤْذُنُوا لَهُ فَلَبَسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بَشَسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ»، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَّعَهُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

وأخرج في صحيحه (6131)، ومسلم (1058) عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْقِيَّةً وَلَمْ يُعْطِ مَخْرَمَةَ شَيْئًا، فَقَالَ مَخْرَمَةُ: يَا بُنَيَّ، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ، قَالَ: ادْخُلْ فَادْعُهُ لِي، قَالَ: فَدَعَوْتُهُ لَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْهَا، فَقَالَ: «خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: رَضِيَ مَخْرَمَةُ.

فالمداراة للناس قد تكون بالابتسامة وإلانة الجانب كما في حديث عائشة، وإن كان المدارى فيه شر، ولكن كما قيل: حنانيك بعض الشر أهون من بعض، وكلما استطاع المراء أن يقلل أعدائه الظاهرين فليصنع ذلك فإنه من الدين كما سترى إن شاء الله، وقد تكون المداراة بالمال كما في قصة المسور.

وقد تكون المداراة بالقول، كما في حديث عائشة المتقدم حيث قالت: وألان له الحديث.

وقد تكون مداراته بقبول شفاعته، وإجابة دعوته، وغير ذلك.

قال الحافظ رحمه الله (545 / 10) (قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: الْمُدَارَاةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ خَفْضُ الْجَنَاحِ لِلنَّاسِ وَلِينُ الْكَلِمَةِ وَتَرْكُ الْإِعْلَازِ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ. وَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُدَارَاةَ هِيَ الْمَدَاهِنَةُ فَغَلَطَ؛ لِأَنَّ الْمُدَارَاةَ مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَالْمَدَاهِنَةُ مُحَرَّمَةٌ، وَالْفَرْقُ أَنَّ الْمَدَاهِنَةَ مِنَ الدَّهَانِ وَهُوَ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى الشَّيْءِ وَيُسْتَرُّ بَاطِنُهُ، وَفَسَّرَهَا الْعُلَمَاءُ بِأَنَّهُ مُعَاشَرَةُ الْفَاسِقِ وَإِظْهَارُ الرِّضَا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ عَلَيْهِ، وَالْمُدَارَاةُ هِيَ الرَّفْقُ بِالْجَاهِلِ فِي التَّعْلِيمِ وَبِالْفَاسِقِ فِي النَّهْيِ عَنْ فِعْلِهِ، وَتَرْكُ الْإِعْلَازِ عَلَيْهِ حَيْثُ لَا يَظْهَرُ مَا هُوَ فِيهِ، وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِ بِلُطْفِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا احْتِيجَ إِلَى تَأْلُفِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.). اهـ

وفي معلقه زهير:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ

قال ابن القيم في «الروح» ص(208): (المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق.). اهـ

25- الثبات على الحق:

من أسباب السلامة من أمراض البدع والشبهات، والمعاصي والسيئات، وجميع المخالفات: هو الثبات على الحق المبين، الذي تركنا عليه نبينا الكريم ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِنُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102].

وقال: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ [هود: 120].

وقال تعالى مبيناً حال الكفار مع رسول الله ﷺ ومحاولتهم زعزعته عن العقيدة الحقة، عقيدة التوحيد: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۖ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الاسراء: 73-75].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

فالثبات شعيرة مرغوب فيها أيما ترغيب، فكما ترى أنزل الله الكتاب مفرقاً منجماً من أجل تثبيت المؤمنين على دينهم الحق.

وكذلك القصص التي ذكرها في القرآن من أحوال الأنبياء مع قومهم المراد منه تثبيت أهل الحق على دينهم وصبرهم على الأذى فيه، سواءً في تعلمه والعمل به أو في تبليغه.

ويبين الله عز وجل مكر الماكرين من الكافرين وغيرهم في زحزحة المؤمن والسلفي عن عقيدته الحققة بشتى الوسائل، وإن سار الداعي في صفهم واقتفى سيرهم، فبشراه بالملت والخزي.

ثم بين الله عز وجل أن الثبات منه وحده، فله الحمد والمنة على تسديده وإلهامه وتوفيقه.

واعلم أيها الداعي إلى الله عز وجل على بصيرة ونور أنه ما دعى إلى الله عز وجل أحد إلا وكثر خذاله، وكذا المترصدين له، والمتربصين به فإن سلم منهم وثبت على الدين الحق وصل:

لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبْتُ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

ومن صدقهم في باطلهم واستسلم لشروهم انقطع، ولكن المثبت من ثبته الله عز وجل.

وسائل الثبات:

ونذكر هنا - من باب الفائدة - أهم وسائل الثبات على المنهج الحق.

اعلم وفقك الله عز وجل أن وسائل الثبات هي ضد وسائل الزيغ، فمن حيث الإجمال في اللفظ: كل وسيلة من وسائل الزيغ تعمل بضدها من الوسائل تجده من وسائل الثبات.

وعلى وجه التفصيل: من أهم هذه الوسائل العلم بالمنهج الحق الذي أنت عليه، فإن ذلك يورثك تمسكاً وقوة وثباتاً بما أنت عليه.

ولما كان الأنبياء هم أعلم الناس بالله عز وجل وبدينه وشرعه لا تجد منهم منحرفاً، ثبتهم الله عز وجل بسبب ما عندهم من الخير والحق الذي شرعه لهم.

ثم من بعدهم الصحابة الكرام، أحرص الناس على الخير، وأبعدهم من وسائل الشر والضير، وذلك بسبب علمهم بدين الله الحق.

قال الشاطبي رحمه الله في «الاعتصام» (2/235): (أصل حدوث الفرق إنما هو الجهل بمواقع السنة، وهو الذي نبه عليه الحديث بقوله: «اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُحَالًا»). اهـ

ومن وسائل الثبات: الاستسلام والانقياد لأمر الله وشرعه، قال تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

قال الطحاوي: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام). ومن وسائل الثبات: العمل بالعلم، وقد تقدم الكلام عليه، وكل ما سأذكره إن شاء الله في هذا المؤلف هي من أسباب الثبات، فلا داعي للتكرار والحشو.

26 - صدق أهل السنة بالحق:

صدق أهل السنة بالحق الذي يحملونه، والإنكار للباطل الذي عند أهل البدع: من أسباب السلامة من مرض التميع وغيره؛ لأن سكوت العلماء ضرر وشر على ما تقدم بيانه، حيث يبيض ويفرخ المبتطلون ولا نكير، وحالهم كما قيل:

خَلَا لَكَ الْجَوُّ فَيِضِي وَاصْفُرِّي وَنَقَّرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي

قال الشيخ يحيى الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى -: (ما وجدنا أبرك على الدعوة من العلم، والعمل بالعلم، والصدع بالحق).

كلمة عظيمة تدعمها الأدلة القرآنية والشواهد الإيمانية والسير السلفية، نطق بها أحد أعلام الإسلام ودعاة الأنام، إلا وهو الشيخ الهمام يحيى بن علي الحجوري أبو عبد الرحمن في بعض دروسه الحسان، فقيدتها منه وكان العزم في ذلك الوقت على شرحها في كتاب مستقل؛ لأنها عبارة مستقاة من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فحق لها أن تسطر وتشهر، وفي المحافل تذكر، وقد تقدم الكلام على فقرتين منها وهو العلم والعمل بالعلم، وبقي علينا أن نتكلم في هذا الموضع عن الصدع بالحق وأثره في نصر الدعوة.

قال الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94].

وما أمر الله عز وجل نبيه بهذه الوسيلة وحثه عليها إلا لأنها من أعظم الوسائل لنشر الحق والخير.

قال الذهبي رحمه الله في «السير» (234/11) في ترجمة أحمد: (الصدع بالحق عظيم يحتاج إلى قوة وإخلاص، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام، والقوي بلا إخلاص يخذل، فمن قام بهما كاملاً فهو صديق، ومن ضعف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، ليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله). اهـ

ومن أمثال هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67].

ولما أنزلت على رسول الله ﷺ آية الحجر أظهر الدعوة ولم يبال بمن خالف وعارض، وما شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة إلا من باب

الصدع بالحق والجهر به، فإذا على صوت الحق نُكس صوت الباطل، وإذا أرتفع الحق خمد الباطل، والحق والشر في صراع إلى يوم القيامة، فاسلك هذا السبيل تفلح، وإياك والمداهنات وكتمان الحق.

والكلام عن هذه الوسيلة داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة، وقد تُكلم عليها بما يكفي ويشفي إن شاء الله.

27- البعد عن مواطن الريب:

لما كانت الريبة حاصلة في مجالسة أهل البدع والتميعات، فالواجب اجتناب أماكن الريب؛ لأنها تؤدي إلى أساءة الظنون، ومن ثم يقع الشخص في الشرور.

وباب دفع الريب مطلوب شرعاً؛ لأن الريبة إذا حصلت في المرء اسيئت به الظنون، وزهد الناس فيه، وخصوصاً إذا كان من متحلي العلوم والدعاة إلى الحي القيوم؛ لأن الناس يظنون في الداعي الرجل الذي لا يخطأ، والنقي الذي لا يلوث.

ومما يدل على وجوب دفع الريبة: ما أخرجه البخاري (2035)، ومسلم (2174) من حديث صفية زوج النبي ﷺ: «أَتَتْهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيٍّ»، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدَفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».

قال القرطبي في «المفهم» (5/505): (فكأنه قال هذه صفة لا غيرها؛ حسماً
لذريعة التهم، ورداً لتسويل الشيطان ووسوسته، كما قد نص عليه، وإذا كان النبي ﷺ
يتقي مواقع التهم، مع قيام الأدلة القاطعة على عصمته، كان غيره بذلك أولى). اهـ
وقال الحافظ في شرح الحديث: (وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن
والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار).

قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم، فلا يجوز لهم
أن يفعلوا فعلاً يوجب الظن بهم، وإن كان لهم فيه خلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال
الانتفاع بعلمهم). اهـ

والم تأمل لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عندهما البخاري (425)، ومسلم
(33) واللفظ للبخاري: عَنْ عَتَبَانَ بْنِ مَالِكٍ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ - أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَنْكَرْتُ
بَصْرِي، وَأَنَا أَصْلِي لِقَوْمِي، فَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، لَمْ
أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ، وَوَدِدْتُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي
بَيْتِي؛ فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ عَتَبَانُ:
فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُوبَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَذِنَتْ لَهُ،
فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» قَالَ: فَأَشْرَفْتُ
لَهُ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ
سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ، قَالَ: فَأَبَى فِي الْبَيْتِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ
الدَّارِ ذُوو عَدَدٍ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْنِ أَوْ ابْنُ
الدُّخَيْنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا

تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ».

فهذا مالك بن الدخشن لما كان مجالسًا ومجاورًا وملازمًا للمنافقين اتهم بتهمتهم، وظن الصحابة به ظن السوء، فكذلك من جالس أهل البدع يوشك أن يلحق بهم، ومن جالس أهل المعاصي كذلك.

فعلى طالب العلم أن يدع جميع الريب حتى لا تشوه سمعته، ويكون من المنكوبين والعياذ بالله.

وإذا حصلت الريبة ولو من بعيد جدًّا، جعل المتربصون ينمونها حتى تقع الفتنة والعياذ بالله، والتشويه لأهل الحق والخير.

والمسألة مذكورة بتوسع في كتابي «الوسائل الجلية».

28- التواضع للحق وأهله:

من وسائل نشر الدعوة وانتصارها، والسلامة من البدعة والتميع: التواضع من قبل حملتها للحق وأهله، ولمن يُشرع التواضع له؛ فإن ذلك مع ما في التواضع من الخير العظيم والنفع الجسيم، سبب المحبة والألفة، وسبب لقبول ما يفعله الداعي أو يقول.

ولذلك كان رسول الله ﷺ الذي أمرنا الله باقتفاء أثره بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] الغاية في التواضع لله رب العالمين، فحين خيّر أن يكون ملكًا كريماً أو نبياً كريماً، قال جبريل: يا محمد تواضع لربك، ومع

تواضعه الله رب العالمين الذي هو خالقه ومالكه، فإنه كان في غاية التواضع مع أصحابه ومع الناس، حتى استولى على ألبابهم.

والتواضع ثلاث درجات كما قال ابن القيم في «المدارج» (2/348-351):

(الأولى: التواضع للدين.

وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً، والتواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له والإذعان.

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبداً ومن المسلمين أخاً، وأن لا ترد على عدوك حقاً، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

ومعنى أن ترد لعدوك حقاً: أي لا تصبح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك.

الدرجة الثالثة: أن تتواضع للحق، ومعنى ذلك أن تعبد الحق سبحانه بما أمر به، على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة.

وقال عروة بن الورد كما في «علو الهمة» (5/420): التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع.

وقال مصعب بن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف.

وهذه الميزة الحسنة والوسيلة العظيمة لنصرة الدعوة دل عليها القرآن، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: 159].

فالتواضع واللين سبب لاجتماع الناس حولك، والاستفادة من منقولك وقولك.

وقال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة: 54].

وقال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الحجر: 88].

وقال في وصف عباده عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ [الفرقان: 63].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ [لقمان: 18].

وقال ﷺ كما في حديث عياض بن حمار عند مسلم (2865)، في ذكر ما أمر الله عز وجل أن يعلم به أمته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا».

وفيه: «وَأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (2588): «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

قال القرطبي في «المفهم» (6/575): (التواضع الانكسار والتذلل، ونقيضه التكبر والترف، والتواضع يقتضي متواضعاً له، فإن كان المتواضع له هو الله تعالى، أو من أمر الله بالتواضع له، كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضع الواجب المحمود الذي يرفع الله تعالى به صاحبه في الدنيا والآخرة). اهـ

فالتواضع خلق جميل يحمل المتصف به على رحمة الضعفاء والمساكين والنصر بهم، كما في حديث أبي الدرداء عند الترمذي (1702): «ابْغُؤْنِي ضُعَفَاءَكُمْ؛ فَإِنَّمَا تُرَزَقُونَ وَتُنَصَّرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ».

وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه أنه محمود ومندوب إليه، ومرغب فيه إذا قصد به وجه الله، ومن كان كذلك رفع الله تعالى قدره في القلوب، وطيب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة.

وأما التواضع لأهل الدنيا ولأهل الظلم فذلك هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها، بل يترتب عليه ذل الآخرة وكل صفة خاسرة.

29 - شكر الله عز وجل على نعمه:

في فصيح كلام العرب:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً	عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وَقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ	وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُورُورُهَا	وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مَنَّةٌ	تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّْ وَالْبَحْرُ

هكذا قال محمود الوراق كما في «الشكر» لابن أبي الدنيا (82)، (فالشكر منة من الله عز وجل يجب أن يشكر عليها مع ما له من الميزات الجليلة والعطايا الجزيلة)،

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 145].

فالشكر سبب لزيادة الخير والسنة والهدى والثبات.

ولعظم شأن الشكر كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تتفطر قدماه، فقليل له في ذلك فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» كما في «الصحيحين» من حديث عائشة والمغيرة رضي الله عنهما في (1130)، وسلم (2819).

وقال معلماً معاذ بن جبل: «يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا أُحِبُّكَ، قَالَ: «أَوْصِيكَ - يَا مُعَاذُ - لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»، قَالَ: وَأَوْصِيَ بِذَلِكَ مُعَاذُ الصَّنَابِجِيَّ، وَأَوْصِيَ الصَّنَابِجِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَوْصِيَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ.

أخرجه أبو داود (1522)، وأحمد (45/5).

وبيّن رسول الله ﷺ عظم الشكر في قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» الحديث عند مسلم (2999).

وأخرج أحمد (227/1) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ

عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ لِي الْهُدَى إِلَيْكَ، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذِكْرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، إِلَيْكَ مُحِبًّا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

قال ابن القيم في «عدة الصابرين» (118-121): (وَقَرَنَ سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: 147] أي: إن وفيتم ما خلقتكم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم). اهـ

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمرتبة عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3].

وقال نبيه سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

شكر الله عز وجل، وشكر لعباده المؤمنين.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4].

هذه صفة النبي الكريم ﷺ، الذي أمرنا بالأخذ عنه والسير على سيره، والأخذ بأقواله وأفعاله في باب الدعوة وغيرها، فمن سلك سبيله واقتفى أثره وصل، ومن خالف طريقه انقطع وغفل وتميع وانسفل، ملازمة أخلاقه ﷺ أيضاً دعوة إلى الله بالفعل، والدعوة بالفعل أبلغ من الدعوة بالقول، حيث والنفوس جبلت على محبة من أحسن إليها.

ولهذا قال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» كما في حديث أبي هريرة ؓ عند الترمذي (1162)، وعائشة - رضي الله عنها - عند أحمد (47/6).

والعمل بالقرآن والسنة هما الخلق العظيم الذي بعث به النبي الكريم، قالت عائشة حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ كما في مسلم (746): «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

وقال ﷺ كما في حديث عائشة: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أخرجه أحمد (381/2).

وقال ﷺ كما عند الترمذي (2004) حين سئل عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

فحسن الخلق فيه نفع للداعي والمدعو، حيث يسلم الداعي والمدعو من التميع ومسبباته، سواء بحسن خلقه مع الله عز وجل، أو حسن خلقه مع الناس. وقد توسعت في الكلام على هذه المسألة في كتابي «الوسائل الجليلة».

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

هكذا قرأها حمزة والكسائي، وقرأها الجمهور: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَنُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرًا﴾ [الحجرات:6].

ومن المعلوم أن أخبار الفساق فيها التميع والضرر والابتداع وغير ذلك، والفساق ينقسمون إلى صنفين: فسق شبهة، وفسق شهوة، والضرر الكثير في الدعوة يحصل من أصحاب فسق الشبهة، حيث يلبسون الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والسنة بالدعة، والتميع بالثبات. ف«المؤمن كيس فطن».

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: (يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق؛ لاحتياط له؛ لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال؛ لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون؛ لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال). اهـ

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِئْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِتْنَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:94].

والداعي إلى الله عز وجل يحتاج إلى هذا الجانب حاجة ماسة، حتى لا يقع منه التسرع في الأحكام وغير ذلك، فيقع الضرر عليه وعلى دعوته، فربما انقطع، وربما تشوه إلى غير ذلك من معوقات الدعوة.

وربما ظلم غيره بالأحكام القائمة على خبر الفساق.

مع ما يقوم به المثبطون من الوشائات، فهم سيفرحون بهذا الأمر أكثر من غيره.
 إِنَّ يَسْمَعُوا زَلَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
 أمر الله عز وجل عند ذلك بالتثبت حتى لا يقع الضرر.

أخرج أحمد (279/4)، وأخرج البخاري (4591)، ومسلم (3025) عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَقَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ
 غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَقَامُوا فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا
 غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِثُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبَّتُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

وأهل السنة يتهمون من أعدائها بعدم التثبت، مع أنهم من أشد الناس تثبتاً
 بحمد الله سبحانه وتعالى، ولكن ذكرت هذا الباب من باب التناصح، وحتى لا
 تؤخذ الدعوة من قبل العجلة، فإن العجل زلل كما قيل، وقد قال ﷺ: «التَّائِي مِنَ
 اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» أخرجه أبو يعلى (1054/3) وهو في «الصحيحه»
 (404/4).

وكما قيل:

يَا صَاحِبِي تَلَوَّ مَا لَا تَعْجَلَا إِنَّ النَّجَاحَ رَهِينُ أَنْ لَا تَعْجَلَا

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وقال عن نبيه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152]. مع العدو والصديق، والقريب والبعيد.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135].

وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8].

فمن أراد أن ينشر الله عز وجل خيره ويرفع ذكره فليلزم العدل في الرضى والغضب، مع القريب والبعيد، مع العدو والصديق، فإن فعل ذلك ساد وقاد.

بالعدل قامت الممالك، وبالظلم دمرت الأمم، فقد ذكر أهل السير كما في «صحيح السيرة» (1/429-430) للألباني رحمه الله عن الزهري قال: حدثت عروة بن الزبير بحديث أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أم سلمة بقصة النجاشي وقوله لعمر بن العاص: فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، وما أطاع

الناس في فاطم النّاس فيه، فقال عروة: أتدري ما معناه؟ قلت: لا، قال: إن عائشة حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه اثني عشر ولداً فتوارثوا ملكه من بعده، فبقيت الحبشة بعده دهرًا، فعدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملكوا أخاه، فمكثوا على ذلك، ونشأ النجاشي مع عمه، وكان لبيبا حازماً من الرجال، فغلب على أمر عمه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها: والله إنا لتتخوف أن يملكه، ولئن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه، فمشوا إلى عمه فقالوا له: إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإننا قد خفنا على أنفسنا منه، قال: ويلكم! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم، بل أخرجوه من بلادكم، فخرجوا به فباعوه من رجل تاجر بست مائة درهم، ثم قذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا المساء من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحب الخريف، فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته، ففزعت الحبشة إلى ولده، فإذا هم حمقى ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره الذي بعتموه غدوة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه، قال: فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فأخذوه من التاجر، ثم جاءوا به، فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير الملك، وملكوه، فجاءهم التاجر فقال: إما أن تعطوني مالي وإما أن أكلمه في ذلك، فقالوا: لا نعطيك شيئاً، قال: إذن والله لأكلمنه، قالوا: فدونك، فجاءه فجلس بين يديه فقال: أيها الملك، ابتعت غلاماً من قوم بالسوق بست مائة درهم، فأسلموه إلي وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني

فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي، فقال لهم النجاشي: لتعطنه دراهمه أو ليسلمن غلامه في يديه فليذهبن به حيث يشاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وكان ذلك أول ما خبر من صلابته في دينه، وعدله في حكمه.

فعلم من هذا أن العدل يستمر به الخير، والظلم معجل العقوبة، فكثير من الدعاة ينحرفون عن الهدى بسبب الظلم لغيرهم، والمسألة خطيرة جداً، فينبغي أن نعد لكل سؤال جواباً، وأن تكون أحكامنا على الأشخاص موافقة لحكم الله عز وجل وحكم رسوله ﷺ.

فمن هنا تلخص لنا أن العدل مطلوب شرعاً وعقلاً؛ لاستمرارية الخير، وأن الظلم مذموم شرعاً وعقلاً بجميع أنواعه وأفراده، فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يلازم العدل في نفسه ومع غيره إن رام الوصول، وإلا حرم المأمول، وحصل له الأفول، وماع وميع، وضاع وضيع، والجزاء من جنس العمل.

33- التصدي لكل ما يلوث دعاة الحق:

ما أن تظهر للداعي إلى الله عز وجل دعوة إلا وبدأت حرب الإشاعات عليه من القريب قبل البعيد، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، علمت بأدلة الكتاب والسنة كما هي معلومة في الواقع الملموس.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ [الذاريات: 52].

قال الله عز وجل مخبراً عن قوم نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ [الأعراف: 59-60].

يعتبرونه ضالاً؛ وأشاعوا هذا بين العام والخاص؛ تحذيراً من دعوته وحرماً لعقيدته، فكان ﷺ نافعاً لهذه الشائعة التي يراد بها الصد عن الحق: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦١﴾ أَبْلَغَكُمْ رَسُولِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ [الأعراف: 61-62].

وعاد يتهمون هوداً عليه السلام بأنه سفيه، حيث قالوا: ﴿وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْتَفُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ [الأعراف: 65-66].

ففندها بقوله: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغَكُمْ رَسُولِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ [الأعراف: 67-68].

فانظر وفقك الله عز وجل إلى طريقة هؤلاء الرسل في رد الإشاعة برفق ولين، وبيان أن ما ذكر عنهم هو محض الباطل، والحق هو أنهم يدعون إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، فكانت عاقبة الذين كفروا خسرًا.

وأما رسولنا ﷺ فقد ناله القسط الأكبر من حرب الشائعات، فهذا هو من أول يوم وهو في مكة يزعمون أنه مجنون.

أخرج الإمام مسلم (868): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنْوَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا

مُحَمَّدٌ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّهِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوْهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٌ.

فهذه شائعة جعلت من وصل مكة وهو لا يعرف النبي ﷺ يظنه مجنون، فلا يقبل منه حقاً ولا يصدق له خبراً، ولا يبذل له نصراً؛ لأن المجنون يتكلم بما لا يدري، ويهرف بما لا يعرف، لكن رسول الله ﷺ سرعان ما رد تلك الشائعة ببث شيء من الحق، فهدى الله ضلالتهم وحصل الخير له ولقومه والحمد لله.

ومع ذلك الإشاعة الباطلة يجب أن تجلى حتى لا يقع اللبس والظن الفاسد في الداعي إلى الله عز وجل؛ ولهذا حين قالوا: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6]، قال الله عز وجل: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2].

وزعموا أن هذا القرآن الذي يمليه عليهم ويدعوهم إليه تلقاه من بعض النصارى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: 16].

[103]، فرد الله عز وجل عليهم هذه الشائعة بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103].

فهذه طرق عدة استخدموها لتشويه الدين، ومع ذلك: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

لكن يجب على المؤمن الداعي إلى الله عز وجل أن يرد الإشاعة ويبين عوارها وكذبها وزيفها حتى لا يتأثر بها متأثر، ويستغلها كل كذاب أشر.

ولما سكن الوحي في فترته زعموا وأشاعوا أن الله عز وجل قلاه: أي: ترك محمداً ﷺ كما في البخاري (4950)، مع تصويرهم أن الذي يأتي النبي ﷺ هو شيطان لا ملك كريم. عَنْ جُنْدُبَ بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِيبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ.

وكم الإشاعات التي استخدمها كذلك اليهود والمنافقون بعد قدوم النبي ﷺ المدينة؛ طعنًا في الدعوة، وهدمًا لرجالها، ولكن الله لهم بالمرصاد، فمن هذه إشاعة الأفك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد تقدم الحديث وقام رسول الله ﷺ محذرًا من هذه الشائعة، وقد تقدم الحديث مرارًا فلا داعي للتكرار.

ومع ذلك أنزل الله عز وجل قرآنًا يتلى لصده هذه الشائعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ

الْإِنَّمِ وَالَّذِي قَوْلُ كِبَرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿النور: 11-21﴾.

ولما أشيع بين المسلمين يوم أحد أن النبي ﷺ قتل - وكان القائم بهذه الشائعة إبليس عليه لعنة الله - حصل بالمسلمين ما الله به عليم من الهم والحزن، حتى جاء الفرج بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153].

والإشاعة مستمرة على الحق في كل زمان ومكان، ولكن الله عز وجل يطلها.

فبعد ظهور البدع اتهمت المعتزلة ومن يأخذ بأقوال الجهمية والأشاعرة أهل السنة بأنهم حشوية مثله.

قال الصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» ص(299): (وعلامات أهل البدع على أهلها ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ).

واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية وجاهلة وظاهرية ومشبهة). اهـ
وقال أبوحاتم الحنظلي كما في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» ص(304):
(علامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون بذلك إبطال الآثار.
وعلمة القدريّة تسميتهم أهل السنة مجبرة، وعلامة الجهميّة تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة تسمية أهل السنة نابته وناصبه). اهـ
وهذه الألقاب التي يسمون بها أهل السنة ثم يشيعونها هي للتحذير مما هم عليه، ولكن الحق منصور والباطل مقهور، والحق أبلج والباطل لجلج.
وفي زمننا هذا يشيعون ويلمزون أن أهل السنة السلفيين يحرمون حلب البقرة من قبل المرأة، وشراء الجزر والموز والخيار، ويحرمون الأكل بالملاعق وأنهم سبّاه شتامة جهلاء بفقّه الواقع، أو عملاء جواسيس، أو علماء حيض ونفاس، وهكذا دواليك.

فيجب حرب هذه الشائعات وإبراز الحقائق للناس بالحجة والبرهان، حتى يظهر الحق ويستبان، ولا تكون للناس حجة في عدم قبوله ورده، فإن المبطلين إن أشاعوا عنك الغلو نفر الناس نمك، وإن أشاوا عنك الأفعال والأقوال المميعة ربما اتخذها الناس ديناً، لا سيما من الداعي إلى الله عز وجل.

34- الرجوع إلى الحق:

الله عز وجل يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

والكل يخطئ ويصيب، ويعلم ويجهل، والمعصوم من عصمه الله عز وجل، والاستمرار على الباطل هو المذموم، ومن تاب تاب الله عليه، وأكثر من يقع في التميع هو من استمر على خطئه وباطله، أما من تاب وأناب زاد إيمانه، وسلمت استقامته.

ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُم عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ﴾ [الحشر: 7].

ويقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

ويقول: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 78-79].

مما تقدم يتبين أن الله عز وجل أمرنا بطاعته ونهانا عن معصيته، وأمرنا بالإتيان وحذرنا من المخالفة والابتداع، إلا أن الإنسان قد يخالف الحق والصواب لسبب أو لآخر، إما لجهل أو تأويل أو ذهول وغير ذلك من الأمور التي تعتري البشر وتوقعهم في الشر، فشرع عز وجل التوبة والإنابة والرجوع عن الدليل، وأمر به؛ لأن الحق واحد، ولذلك قال ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» أخرجه مسلم عن عمرو بن العاص.

ورسول الله ﷺ كان إمام المتقين في هذا الباب وفي غيره، فقد جاء من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه في «الصحيحين» وغيرهما، البخاري (401)، ومسلم (72): قال: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا سَلَّمَ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا، فَثَنَى رِجْلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّهُ لَوْ حَدَّثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ لَنَبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ فَلْيَتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَسْلَمْ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ».

فلما ذكر رجع ﷺ.

وأخرج مسلم (573) (574) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ، إِمَّا الظُّهْرَ وَإِمَّا الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى جِذْعًا فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ فَاسْتَنَدَ إِلَيْهَا مُغْضِبًا، وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَهَابَا أَنْ يَتَكَلَّمَا، وَخَرَجَ سَرْعَانِ النَّاسُ: فَصُرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتُ؟ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ: «مَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟» قَالُوا: صَدَقَ، لَمْ تُصَلِّ إِلَّا رَكْعَتَيْنِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَفَعَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَرَفَعَ.

فما إن ذكر حتى رجع للحق ﷺ، وإنما الاستمرار على الباطل وترك الحق من سيئات المبطلين الباطلين، ويكفي في ذمهم ما قاله الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ﴾ (٢٥) وَإِذَا

قِيلَ لَهُ أَتَقِي اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهَا جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿البقرة:

[206-204].

وأخرج مسلم (2363) من حديث أنس، وجاء بنحوه من حديث طلحة بن عبيدالله ورافع بن خديج. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقَّحُونَ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَحْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ: كَذًا وَكَذًا، قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

وجاء من حديث قتيلة رضي الله عنها عند أحمد (371/6) وغيره، أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ.

والشاهد من هذا كله وما سيأتي أن الرجوع إلى الحق منقبة لا مذمة، ورفع لا منقصة، وهدى لا ضلال، وسنة لا بدعة، وحق لا باطل، ولا يقوم بهذا الأمر إلا الأفاضل الأبطال الذين همهم الحق أين وجد وكيف وجد.

والذي ينظر في حال رجال زماننا في هذه الأيام يرى العجب العجيب، ومخالفة الصواب ومع ذلك يسقط الداعي تلو الداعي، والخطيب تلو الخطيب، وتموت دعوته ويحمد ذكره، ويوصف بالبدعة ويلحق بأهلها لا لشيء إلا لأن نفسه الإمارة مع شيطانه المريد نفخا في روعيه عدم الرجوع إلى الحق ظناً أن هذه نقیصة ولا والله.

ولنذكر بعض ما جرى للسلف من المسائل التي خالفوا فيها الدليل، ثم رجعوا إلى سواء السبيل، بدون غضاضة ولا تهويل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى المشهور: لا يمنعك فضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع فيه إلى الحق، فإن الحق قديم، والرجوع إلى الحق أولى من التماذي في الباطل، أخرج البيهقي في «الكبرى» (119/10) وسنده صحيح.

وقال الأجري في «أخلاق العلماء»: (إن أفتى بمسألة فعلم أنه أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها، وإن قال قولاً فرده عليه غيره ممن هو أعلم منه أو مثله أو دونه رجع عن قوله وحمده على ذلك وجزاه خيرًا). اهـ

وأخرج ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1142/2) عن أبي العتاهية قوله:

إِذَا اتَّصَحَّ الصَّوَابُ فَلَا تَدْعُهُ فَإِنَّكَ كُلَّمَا دُفِتَ الصَّوَابَا
وَجَدْتَ لَهُ عَلَى اللَّهَوَاتِ بَرْدًا كَبَرِدِ الْمَاءِ حِينَ صَفَا وَطَابَا
وَلَيْسَ بِحَاكِمٍ مَنْ لَمْ يُبَالِ أَأَخْطَأُ فِي الْحُكُومَةِ أَمْ أَصَابَا

ورحم الله الشافعي إذ يقول: (نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع عنه غدًا)، أي قد يتبين لنا الحق في خلاف هذا القول، والحق هو المأمور به فيتعين الرجوع.

ولما مات رسول الله ﷺ أنكر عمر موته كما في البخاري (1241)، فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسُّنْح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيَّمم النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله، ثم بكى، فقال: يَا أَبَا أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى. فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لِلنَّاسِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى ﴿الشَّكْرِينَ﴾ [آل عمران: 144]. وَاللَّهُ، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٍ إِلَّا يَتْلُوهَا.

ولما أراد أبو بكر قتال أهل الردة كان قول عمر غير قول أبي بكر، ثم رجع رحمه الله لما عرف أن الحق في جانب أبي بكر، يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (1399)، ومسلم (20)، قَالَ: لَمَّا تُؤْفِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»، فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ، لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من أكابر علماء الصحابة رضي الله عنهم المحدث، لا يسوؤه الرجوع إلى الحق، ولم يقل أنا عمر الذي قال عني رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَبَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَبَجًّا غَيْرَ فَبَجِّكَ».

وأما أهل زماننا وإلى الله المشتكى فيكون قد زكّي من قبل عالم من علماء السنة أبان استقامته، ثم تظهر منه الشطحات والزلاقات والهفوات والزلات في جانبه

العقدي، فإذا ما نوصح ودعي إلى الحق والهدى إذ به يتنمر ويظهر تلك التزكيات وأنا وأنا وهلم جر، ألا إن الرجوع عزيز.

ولا غرو أن يرجع المؤمن إلى الحق، وإن كان الذي أظهر له الحق صغيراً أم كبيراً، تلميذاً أم شيخاً.

فقد تتلمذ ابن عباس على زيد بن ثابت، وراجع زيداً فرجع، أخرج مسلم (1328) عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ إِذْ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: تُفْتَى أَنْ تَصْدُرَ الْحَائِضُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهَا بِالْبَيْتِ.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِمَّا لَا، فَسَلْ فَلَانَةَ الْأَنْصَارِيَّةَ: هَلْ أَمَرَهَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: فَرَجَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ صَدَقْتَ.

فهذا طريق السلف الصالحين، بينما لو نظرت في أهل زماننا لوجدت الكثير منهم يقع في التميع بسبب خطأ ارتكبه في فتوى أو مصنف، ثم يحمله الكبر وعدم التواضع على الولوج في هذه المخالفة، فإذا اقترن تحذير من مخالفته من أهل السنة؛ إذا به يتنكر لمنهج السلف، وكما قيل: (المعصية تجر إلى أختها).

35- البعد عن الفتن:

عند أبي داود (4263) عن المقداد ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتَنُ» قالها ثلاثاً.

الفتنة تحصل إما بشبهة والآخر تحصل بشهوة، والأولى أشد، وهي من أعظم الصوارف عن الخير وعن الحق والهدى والسنة والدين.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (2/160-162): (فصل: والفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحدهما).

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى، فهناك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال شيء القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾، وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات، التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يثبت به الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات، وأوقاتها، وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة، ومستحقيها، ووجوب الوضوء، والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة، في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على

أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض ما سواه ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفى على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد، وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة.

فصل: وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات، وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق: هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَحُضُّنْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: 69] فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدعين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكتم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح، فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال. فالأول: فساد من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتها فتنة لكل مفتون.

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة. ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر؛ ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]، فدل على أنه (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين).

وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45] فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك، قال ابن عباس: أولى القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله. وقال الكلبي: أولى القوة في العبادة، والبصر فيها. وقال مجاهد: الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق. وقال سعيد بن جبير: الأيدي: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم.

وقال: جاء في حديث مرسل إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويجب العقل الكامل عند حلول الشهوات، فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان. اهـ

والفتنة في الدين أشد على المرء من إزهاق روحه وإراقة دمه، قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191]، وقال رسول الله ﷺ: «اِثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ:

المَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقْلٌ لِلْحِسَابِ»، أخرجه أحمد (427-428/5) وهو في «الصحيحة» (47/2) من حديث محمود بن لبيد.

ولعظم فتنة الدنيا أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة منها، حيث قال: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ». الحديث في «الصحيحين» البخاري (1377)، ومسلم (588) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء عن ابن عباس عند مسلم (590)، واتفق عليه عن عائشة من فعله ﷺ البخاري (832)، ومسلم (589).

وقد قام رسول الله ﷺ محذراً لأصحابه من الفتن جميعها، سواء فتنة الدنيا، أو المال، أو الشهوات، أو الشبهات.

فقد قال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (118): «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ؛ فِتْنَتَا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

وأخرج (2887) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، أَلَا تُمْ تَكُونُ فِتْنَةً، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لَيَنْجُ إِنْ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ

هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفَتَنَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ؟ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

وفتن هذه الأمة كثيرة جداً، ولا خلاص منها إلا بسلوك سبيل المؤمنين في البعد عنها، والحذر منها، والحرب لها، ومن هذه الفتنة: ما أخرجه البخاري (5096)، ومسلم (2740) من حديث أسامة قال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».

ومنها: فتنة المال، كما في حديث كعب بن مالك عند الترمذي (2336) قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» والحديث في «الصحيح المسند» لشيخنا الوادعي.

ومنها: فتنة الحرص على الجاه، كما في حديث أبي بن كعب عند الترمذي (2376)، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ذُنْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ هَا مِنْ حَرَصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ».

ومنها: فتن المعاصي والسيئات والبدع والخرافات.

ومن سلم من الفتن نال المقصود، وحصل المراد، ومن وقع فيها سقط على أم رأسه.

ومن أعظم فتن هذا الزمان التي تساقط فيها كثير من الدعاة: فتنة الحزبيات والجمعيات، التي تفسد دين العبد فساداً لا يعادله فساد، تجد من هذا حاله يكذب، يمكر، يدلس، يلهث وراء الدنيا، يزهد من أهل السنة، ويلتمس الأعذار لأهل البدعة، مشابهاً للكافرين في لباسهم ومعتقداتهم، ويرجون النصر، وهيئات!!!

وفتنة التشبه بالكافرين في هذه الأزمان قد عظم شرها، وتطايير شررها، وتفاقم خطرهما.

وقد تقدم الكلام على التحذير منها.

والفتن تدمر الداعي إلى الله عز وجل، وتفتك به فتك الأسود الضاربة الجائعة بالفريسة الضعيفة، فعلى طالب العلم والداعي إلى الله عز وجل كما يجب على جميع المسلمين البعد عن الفتن، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وقال ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» كما في حديث زيد بن ثابت عند مسلم (2867)، وللنجاة والسلامة من الفتن على الداعي إلى الله عز وجل أن يسلك كل طريق يباعد بينه وبين الفتنة.

وقد ذكرنا بعض وسائل السلامة من الفتن في مقدمة كتابي «تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال».

36 - الزهد في الدنيا:

قد تقدم أن من أعظم الفتن التي ابتليت بها هذه الأمة هي فتنة المال والدنيا، وبسبب ذلك ماع كثير من الدعاة، وتركوا الاستقامة، وأخلدوا إلى دار المهانة، نسأل الله عز وجل السلامة.

وقد قيل قديماً:

فَكَمْ دَقَّتْ وَرَقَّتْ وَاسْتَرْقَّتْ فُضُولُ الرِّزْقِ أَعْنَقَ الرِّجَالَ

والطمع في الدنيا وزخرفها رأس المهالك، فقد أخبر الله عز وجل عن كثير من الناس بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16-17].

فالإنسان بطبيعته يغره الحاضر وإن كان الغائب أفضل منه.

وأخبر الله عز وجل أنه أعد الآخرة لمن زهد في هذه الدنيا الفانية: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ
الْآخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: 83].
وهي متاع زائل وإن فرح بها، قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: 26].

وهي القليل: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْتَقَى وَلَا تُنْظَمُونَ فَنِيلاً﴾ [النساء:

[77].

ومما يدل على حقارتها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ،
وَالنَّاسُ كَنَفَتُهُ، فَمَرَّ بِجَدِيٍّ أَسْكَ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ
هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمٍ» الحديث. أخرجه مسلم (2957) عن جابر رضي الله عنه.

وأخرج (2858) من حديث المستورد رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «وَاللَّهِ، مَا
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ».

وهي سجن المؤمنين وجنة الكافرين، فالسجن لا راحة فيه ولا اطمئنان، وإن
تنوعت فيه المطاعم والمشارب.

فمن زهد في الدنيا من المؤمنين سارع في مرضاة ربه وعظم نفعه، يأمر
بالمعروف، وينهي عن المنكر، وينصح، ويصدق بالحق، ويصبر في الله عز وجل،
ويتعلم، ويعمل.

وقد حذر منها رسول الله ﷺ كما في مسلم (2742) عن أبي سعيد: «إِنَّ الدُّنْيَا
حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا؛ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا
النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

ولا ينبغي أن يخدع بها لبيب، ولا ذو عقل سديد.

قال الحسن البصري رحمه الله وقد ذكرت عنده الدنيا:

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٌّ زَائِلٌ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

ويروى عن الحسن بن علي قوله:

يَا أَهْلَ لَذَاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا إِنَّ اغْتِرَارًا بِظِلٍّ زَائِفٍ خُمُ

فأجعل الدنيا طريقك إلى الجنة لا طريقك إلى النار، وقد قال عامر الهمداني:

إنما الدنيا إلى الجنة ولنا طريق والليالي متجر الإنسان والأيام

وهي في أواخر أيامها، فلا تغتر أيها المؤمن بها، أخرج مسلم في «صحيحه»

(2967) عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى

عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتْ بِضُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا

صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُتَقِلُّونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا،

فَانْتَقِلُوا بِخَيْرٍ مَا بِحَضْرَتِكُمْ.

وهل أزاغ قلب عقيل المقطري بعد أن تعلم العلم السنوات الطوال في مركز

الشيخ مقبل إلهي؟؟!!

وكذلك محمد بن موسى البيضاني.

ومحمد المهدي.

وعبدالله بن غالب الحميري.

ومصطفى بن سليمان أبو الحسن المصري.

وفي هذه الأيام نحن نعيش فتنة ابني مرعي: عبدالله وعبدالرحمن العدنيين،

والمأمل لها يجد أنها فتنة قامت على الدنيا، والهلع وراءها، والحرص على تحصيلها

بأي طريقة ليس إلا، وأضافوا إليها تعصبًا وطعنًا ووخزًا وتزهيدًا من حملة السنة الصحيحة في دار الحديث بدماج، وعل رأسهم فضيلة الشيخ الناصح الأمين أبي عبدالرحمن يحيى بن علي الحجوري، وهذه هي طريقة أهل البدع، ولنا بحمد الله رسالة مطبوعة في بيان ما عليه هذه الشريعة الخائنة بعنوان: «الخيانة الدعوية حجر عثرة في طريق السلفية»، والحمد لله.

فهؤلاء مع معرفتهم بالمنهج القويم، والصراط المستقيم، ما أزاغ قلوبهم إلا هي.

37 - ملازمة التؤدة:

التؤدة وعدم الطيشان من أسباب نصرة الدعوة، والسلامة من التميع والغفلة. والعجلة والطيشان من أسباب خذلان العبد والدعوة؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يكل الأمور إلى ذويها، حتى لا يقع ما لا يحمد عقباه، فحين أرسل إلى نجران أرسل أبا عبيدة ابن الجراح الأمين حقًا، كما في حديث حذيفة في «الصحيحين» البخاري (4381)، ومسلم (2420): «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ أَمِينٍ».

فكثير من الشباب الذي لم يعيشوا الأمور ربما وقع منهم الطيشان فضلوا وأضلوا، وكم وقع من بلاء بسبب عثرات الشباب والبعد عن التؤدة.

وأرسل أبا موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن، وأوصاهما بالتطوع وعدم الاختلاف، وبالتيسير وعدم التعسير، فإنه كلما كان الداعي ملازمًا للتطوع كان أبعد عن الطيش والعثرات. وكلما لازم التيسير والدخول في الأمور برفق كلما حالفه الوصول.

وقد أخرج الحاكم (310/3) عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر الأسدي قال: كنت محرماً فرأيت ظبياً فرميته فأصبته فمات، فوقع في نفسي من ذلك، فأتيت عمر بن الخطاب أسأله، فوجدت إلى جنبه رجلاً أبيض رقيق الوجه، فإذا هو عبدالرحمن بن عوف، فسألت عمر، فالتفت إلى عبدالرحمن، فقال: ترى شاة تكفيه؟ قال: نعم، فأمرني أن أذبح شاة، فلما قمنا من عنده، قال صاحب لي: إن أمير المؤمنين لم يحسن أن يفتيك حتى سأل الرجل، فسمع عمر بعض كلامه، فعلاه عمر بالدرة ضرباً، ثم أقبل عليّ ليضربني، فقلت: يا أمير المؤمنين، إني لم أقل شيئاً، إنما هو قاله، قال: فتركني، ثم قال: أردت أن تقتل الحرام، وتتعد بالفتيا، ثم قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: إن في الإنسان عشرة أخلاق، تسعة حسنة، وواحد سيئة، ويفسدها ذلك السيئة. ثم قال: إياك وعشرة الشباب.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

يرحمك الله يا عمر، كيف بك لو كنت في هذا الزمن الذي تطاول فيه أحداث الأسنان سفهاء الأحلام على العلماء الربانيين والدعاة المصلحين؛ لمزاً وتحذيراً، وتخطئة، كأنهم قد فوضوا في ذلك؟! مع أننا لو نظرنا في حصيلتهم لرأيناها حصيلة الخنفساري.

والطيش خلق مستقبح، وفي العالم والسلطان أعظم قبحاً؛ لما يجبر على المجتمع من الولايات، فقد يحل بسببه أو يحرم الحلال، أو يبدع السني البدعي بالسنة، وهو سبب للنفرة لما يقارنه من السب الفاحش، والخلق الدني.

وقد ذم رسول الله ﷺ هذا الصنف، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِذَا حَدَّثَكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَخْرَجَ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ،

وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خِدْعَةٌ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيُخْرِجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفْهَاءَ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيُّمَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه البخاري (3611)، ومسلم (1066).

والحديث يدل دلالة واضحة أن الطيشان في الغالب يلزم أحداث الأسنان؛ لأنهم لم يهذبوا بعد، ولم يتمروا على السكينة والتؤدة والرفق، فيحل منهم ما لا تحمد عقباه.

وما يحصل من تفجيرات من قبل الجهاديين: أتباع أسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، وعبدالله عزام، وغيرهم، إلا بسبب هذا الطيش، وعدم السكينة، وعدم العودة إلى العلماء.

ومعلوم أن الطيش يحصل من قلة العلم، ومن الكبر والتعاضم وعدم التواضع، ومن شدة الغضب، والغضب في نفسه ينقسم إلى قسمين: غضب محمود، وهو الغضب إذا أنتهكت محارم الله عز وجل، وصاحب هذا الغضب يجب عليه أن لا يتجاوز الشرع في تغييره للمنكر.

وغضب مذموم، وهو الغضب لأسباب تافهة.

المهم أن الطيش من أسباب الصد عن الحق؛ لما فيه من ترهيد، ولما فيه من جفاء، ولما فيه من عدم الإنصاف، ولما فيه من تهويل، وكفى بها مذمة أن يقال: فلان طائش. وكما قيل:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

وكم نرى ممن يتهاوى في هذه الأيام بسبب الطيشان، فهذا يخرج على العلماء، وآخر على الأمراء، وهذا متبع لشهواته، وهذا لشبهاته، فالسكينة السكينة.

38- إنزال الناس منازلهم:

رفع الوضيع، وضعة الرفيع، كلاهما من أسباب تمييع الدعوة والدعاة، فعظم - أخي المسلم - ما عظم الله عز وجل، وحقّر ما حقره الله سبحانه وتعالى، ومراتب الناس بقدر ما عندهم من الاستقامة والبر والتقوى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13].

ومن أعظم الوسائل نصراً للدعوة السلفية، وهزيمة للبدعة الخَلَفِيَّة: (أنزال الناس منازلهم).

قال الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وأعظم الناس منزلة هم أهل التقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13]، ومعلوم أن المستقيم على منهج السلف الصالحين هو المتقي حقاً فيكرم، وكلما ابتعد المرء عن التقوى قل إيمانه، فيعامل على قدر ما عنده من الخلل، فلا يُرفع فوق منزلته فيغتر به الناس، ولا يُوضع دونها فيُظلم.

39- بعد النظر عند الدعاة إلى الله عز وجل:

على الداعي إلى الله عز وجل أن يكون عنده بعد نظر، فإن ذلك سبب لظفره، فبعد النظر يبعد عن الطيشان والتسرع والتميع، ويلتزم صاحبه الرفق والتؤدة والنظر في عواقب الأمور، وإليك بعض الأمثلة على هذه الوسيلة الجليلة:

أخرج البخاري (4527)، ومسلم (151) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي».

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث: (اختلف العلماء في معنى: (نحنُ أَحقُّ بالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ) عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ، أَحْسَنُهَا وَأَصَحُّهَا: مَا قَالَهُ الْإِمَامُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْمُزَنِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَاتٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الشَّكَّ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ الشَّكَّ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى لَوْ كَانَ مُتَطَرِّقًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ لَكُنْتُ أَنَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَشْكُ، فَاعْلَمُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَشْكُ، وَإِنَّمَا خُصَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ؛ لِكَوْنِ الْآيَةِ قَدْ يَسْبِقُ إِلَى بَعْضِ الْأَذْهَانِ الْفَاسِدَةِ مِنْهَا احْتِمَالُ الشَّكِّ، وَإِنَّمَا رَجَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَفْسِهِ ﷺ تَوَاضَعًا وَأَدَبًا أَوْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ﷺ أَنَّهُ خَيْرٌ وَلَدَ آدَمَ. قَالَ صَاحِبُ «التَّحْرِيرِ»: قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة: 260] قَالَتْ طَائِفَةٌ: شَكَّ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَشْكُ نَبِيًّا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْهُ» فَذَكَرَ نَحْوَ مَا قَدَّمْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: وَيَقَعُ لِي فِيهِ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْعَادَةِ فِي الْخِطَابِ، فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ الْمُدَافَعَةَ عَنْ إِنْسَانٍ قَالَ لِلْمُتَكَلِّمِ فِيهِ: مَا كُنْتُ قَائِلًا لِفُلَانٍ أَوْ فَاعِلًا مَعَهُ مِنْ مَكْرُوهِ فَقُلْتُ لِي وَافْعَلُهُ مَعِي. وَمَقْصُودُهُ لَا تَقُلْ ذَلِكَ فِيهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَظُنُّونَهُ شَكًّا أَنَا أَوْلَى بِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَكٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ لِمَزِيدِ الْيَقِينِ. وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ. فَتَقْتَصِرُ عَلَى هَذِهِ لِكَوْنِهَا أَصَحَّهَا وَأَوْضَحَّهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا سُؤَالُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِي سَبَبِهِ أَوْجُهَاً، أَظْهَرَهَا: أَنَّهُ أَرَادَ الطُّمَأْنِينَةَ بِعِلْمِ كَيْفِيَّةِ الْإِحْيَاءِ مُشَاهِدَةً بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَا؛ اسْتِدْلَالًا، فَإِنَّ عِلْمَ الْإِسْتِدْلَالِ قَدْ تَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الشُّكُوكُ فِي الْجُمْلَةِ، بِخِلَافِ عِلْمِ الْمَعَايِنَةِ، فَإِنَّهُ ضَرُورِيٌّ. وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَبِي مَنْصُورِ الْأَزْهَرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: أَرَادَ اخْتِبَارَ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ فِي إِجَابَةِ دُعَائِهِ، وَعَلَى هَذَا قَالُوا: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أَيُّ: تُصَدِّقْ بِعِظَمِ مَنْزِلَتِكَ عِنْدِي وَاصْطِفَائِكَ وَخُلَّتِكَ.

وَالثَّالِثُ: سَأَلَ زِيَادَةَ يَقِينٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْأَوَّلُ شَكًّا، فَسَأَلَ التَّرَقِّيَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ؛ فَإِنَّ بَيْنَ الْعِلْمَيْنِ تَفَاوُثًا. قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلَ كَشْفَ غِطَاءِ الْعِيَانِ لِيَزْدَادَ بُنُورَ الْيَقِينِ تَمَكُّنًا.

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحْيِي وَيُمِيتُ طَلَبَ ذَلِكَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِيُظْهِرَ دَلِيلَهُ عِيَانًا. وَقِيلَ أَقْوَالٌ أُخَرُ كَثِيرَةٌ لَيْسَتْ بِظَاهِرَةٍ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ سُؤَالِهِ، فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ رَأَى حَيْفَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ يَتَنَاوَلُهَا السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ وَدَوَابُّ الْبَحْرِ، فَتَفَكَّرَ كَيْفَ يَجْتَمِعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْ تِلْكَ الْحَيْفَةِ؟ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسُهُ إِلَى مُشَاهَدَةِ مَيِّتٍ يُحْيِيهِ رَبُّهُ، وَلَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَلَكِنْ أَحَبَّ رُؤْيَا ذَلِكَ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْا النَّبِيَّ عليه السلام وَالْجَنَّةَ، وَيُحِبُّونَ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الْإِيْمَانِ بِكُلِّ ذَلِكَ وَزَوَالِ الشُّكُوكِ عَنْهُ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْهَمْزَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ هَمْزَةُ إِثْبَاتٍ، كَقَوْلِ جَرِيرٍ: (أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ النَّبِيِّ عليه السلام: (وَيَرْحَمَ اللَّهُ لَوْ طَا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) فَالْمُرَادُ بِالرُّكْنِ الشَّدِيدِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَرْكَانِ وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعُهَا. وَمَعْنَى

الحديث والله أعلم: أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَافَ عَلَى أَصْيَافِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ، ضَاقَ ذُرْعَهُ وَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِمْ، فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ فِي الدَّفْعِ بِنَفْسِي ﴿أَوْ آوَى﴾ [هود: 80] إِلَى عَشِيرَةٍ تَمْنَعُ لِمَنْعَتِكُمْ، وَقَصَّدَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِظْهَارَ الْعُذْرِ عِنْدَ أَصْيَافِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَطَاعَ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ، وَأَنَّهُ بَذَلَ وَسْعَهُ فِي إِكْرَامِهِمْ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا كَانَ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَطْيِيبِ قُلُوبِ الْأَصْيَافِ، وَيَجُوزُ أَنَّ يَكُونَ نَسِيَّ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي هَمَاتِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّجَاؤُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلْأَصْيَافِ التَّأَلُّمَ وَضِيقَ الصَّدْرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لُبِّ يُونُسَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ) فَهُوَ ثَنَاءٌ عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَيَانٌ لِحَبْرِهِ وَتَأَنِّيهِ، وَالْمُرَادُ بِالدَّاعِي: رَسُولُ الْمَلِكِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَتُؤْنِسُنِي بِهِ؟﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؟ [يوسف: 50]، فَلَمْ يَخْرُجْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَادِرًا إِلَى الرَّاحَةِ وَمُفَارَقَةً السِّجْنِ الطَّوِيلِ، بَلْ تَثَبَّتْ وَتَوَقَّرَ وَرَاسَلَ الْمَلِكَ فِي كَشْفِ أَمْرِهِ الَّذِي سُجِنَ بِسَبَبِهِ؛ وَلِتَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِ وَيَلْقَاهُ مَعَ اعْتِقَادِهِ بِرَأْيِهِ بِمَا نُسِبَ إِلَيْهِ، وَلَا خَجَلٌ مِنْ يُونُسَ وَلَا غَيْرِهِ، فَبَيَّنَ نِيَّتَنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضِيلَةَ يُونُسَ فِي هَذَا، وَقُوَّةَ نَفْسِهِ فِي الْحَبْرِ، وَكَمَالَ صَبْرِهِ، وَحُسْنَ نَظَرِهِ، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ نَفْسِهِ مَا قَالَهُ؛ تَوَاضَعًا، وَإِثَارًا لِلِإِبْلَاحِ فِي بَيَانِ كَمَالِ فَضِيلَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

وأخرج الإمام البخاري (21)، ومسلم (150) عَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللَّهِ، إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ

مُسْلِمًا، فَسَكَتُ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللَّهِ، إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ، إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ خَشْيَةً أَنْ يَكُفَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ».

وأخرج البخاري (3124)، ومسلم (1747) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَسًا يَبْنِي بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى عَتَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَلَادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحَبَسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ - يَعْنِي النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا! فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتَكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسٍ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ؛ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا.

وأخرج البخاري (462)، ومسلم (1764) واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خِيَلًا قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَأَنْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

وأخرج البخاري (3231)، ومسلم (1795): عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحِدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ ابْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وما قتال أبي بكر رضي الله عنه لأهل الردة، وإرسال جيش أسامة إلا من هذا الباب.

وقد تقدمت ترجمة أحمد رحمه الله وعدم موافقته للمعتزلة - ولو ظاهراً - في مسألة خلق القرآن إلا من هذا الباب.

40- التوبة والاستغفار:

تقدم أن الذنوب والمعاصي من أسباب التميع، فلزم العبد الاستغفار مما نابه ولحقه.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 3].

وقال تعالى مخبراً عن هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

وقال تعالى مخبراً عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾ [نوح: 10-12].

ففي هذه الآيات بيان من الله ورسله أن الاستغفار سبب للخيرات والبركات والمتاع الحسن في الدنيا والآخرة، وأي متاع يوازي الدعوة إلى الله والاستمرار فيها إلى الممات، والسلامة من البدع والأهواء والمعاصي والشُرور والبلاء.

والمستقيم أكثر من غيره، يحتاج إلى أحياء هذه الشعيرة في قلبه لما لها من الأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

أخرج الترمذي من حديث عبد الله بن بسر: أن النبي ﷺ قال: «حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ دِينَارِ الْحَمِصِيِّ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَزْرٍ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ بُسْرِ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتَغْفَارًا كَثِيرًا»، الحديث أخرجه ابن ماجه (3818)، وهو في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي رحمه الله.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6].

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (شرح الحديث الحادي والعشرين): (وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضى للتوبة والرجوع إلى الاستقامة.). اهـ

وبين الله عز وجل في كتابه الكريم أن الاستغفار سبب للزيادة في الخير، ومن هذا الخير استمرارية الداعي إلى الله عز وجل في دعوته وبره، حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 58].

وفي آيات كثيرات مباركات طيبات بعد وعد الله لنبيه بالنصر والتمكين يؤمر بالاستغفار والذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 53-55].

والاستغفار سبب لبعث عقوبة الله عز وجل عن العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

ذكر ابن كثير رحمه الله في هذا الموضع من «تفسيره» قول ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم. ثم تلا الآية.). اهـ

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرٌ الْعَمَلِينَ﴾ [آل عمران: 135-136].

في هذه الآية دلالة على من لزم الاستغفار وجازاه الله بالجنة، وإنما استحق ذلك باستمراره على الخير وعدم الانقطاع.

أخرج مسلم في صحيحه (2702): من حديث الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

مع حرصه على الخير، فالاستغفار سبب لغفران الذنوب، وستر العيوب، ومرضاة علام الغيوب، وإذا تحصل العبد على هذه الثلاث كان من المنصورين في الدنيا والآخرة.

وجاء عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في سجوده وركوعه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأول القرآن. أخرجه البخاري (4968)، ومسلم (484)، وذلك بعد أن أنزل الله عليه سورة النصر وقرب أجله؛ دلالة أن الاستغفار سبب لاستمرار الخير.

أخرج البخاري (4967)، ومسلم (484) واللفظ لمسلم، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، فَقَالَ: «خَبَرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿۱﴾ فَتَحَ مَكَّةَ ﴿۲﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿۳﴾﴾ فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿۴﴾».

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وإنما كتبت هذه النبذة حتى يقبل المسلم على ما ينفعه، والله الحمد ونسأله

السداد.

ومن وسائل السلامة من تميع الدعوة: الشجاعة، هذه الخصلة العظيمة التي تجعل من المؤمن بركاً زاحفاً على البدع والخرافات والمعاصي والزلات، وعلى المخالفات والشركيات؛ ولهذا ما بعث الله من نبي إلا وكان متصفاً بهذه الصفة، فعن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَشَجَعِ - وفي رواية: - أَشَجَعِ النَّاسِ. رواه البخاري (2820)، ومسلم (2307).

والشجاعة من صفات المدح، وضدها الجبن؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ هَالِعٍ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ» أخرجه أبو داود (2511).

وكان يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ» أخرجه البخاري عن أنس (2893) واللفظ له، ومسلم (2706) في أحاديث غير هذه.

وكما قيل: إن الإسلام ينصر بالمال والبدن.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يستعيز من البخل والجبن؛ لأنها لا ينصران ديناً.

وقال ﷺ: «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِصَاهِ نَعْمًا لَقَسَمْتُه بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَحِدُونِي بِخِيَلٍ وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا». أخرجه البخاري (2821).

والجبان ينطبق عليه ما قال الأشعري كما في «نصرة النعيم» (9/4321): (الجبن خلق مذموم قد استعاذ منه النبي ﷺ، ونحن نستعيز بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ، ويكفي في ذمه أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضه طال سهادته، يفرع من صرير الباب، ويقلق من طنين

الذباب، إن نظرت إليه شزراً أغمي عليه شهراً، يحسب خفوق الريح قعقة رماح، قال الشاعر:

إِذَا صَوَّتَ الْعُصْفُورُ طَارَ فُرَادُهُ وَلَيْثُ حَدِيدِ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِدِ

والجبن ميزة المنافقين: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4].

وقال الله أيضاً عنهم: ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19].

ولننظر في هدي النبي ﷺ في هذه الخصلة حين دعوته، وفي قتاله وغير ذلك من المواطن.

أما في حال دعوته فقد تقدم حديث جابر وطارق المحاربي كيف كان يدعو الناس في الأسواق بين ظهراي الكفار: لا يخاف في الله لومة لائم صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، وقد تقدم أيضاً لما نزلت عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، كيف قام يدعوهم من على الصفاء بعد أن جمعهم إلى غير ذلك من المواطن، وما جبن مرة واحدة في الصدع بالحق الذي أمره الله عز وجل به.

42 - اليقين:

ومن أسباب السلامة من مرض التميع وغيره من الأمراض الدعوية: اليقين؛ ولهذا صح عن أبي بكر رضي الله عنه عند أبي يعلى (1/ 112) أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطُوا فِي الدُّنْيَا خَيْرًا مِنَ الْيَقِينِ وَالْمُعَافَاةِ، فَسَلَوْهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (5/1): (فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا، لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك، إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم. وإما ضعيف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصره، ورزقه وكفاك مؤنتهم، فإرضائهم بسخطه إنما يكون خوفا منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين).

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر، كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمده الله ورسوله فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم). اهـ

ولأن اليقين يدل على الثبات والطمأنينة والاستقرار، قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (3/328): (وأما اليقين فهو طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه، وهو معنى ما يقولون: (ماء يقن) إذا استقر عن الحركة. وضد اليقين الريب، وهو نوع من الحركة والاضطراب، يقال: رابني يرييني، ومنه في الحديث: أن النبي ﷺ مر بظبي حاقف، فقال: «لَا يَرِيئُهُ أَحَدٌ».

ثم اليقين ينتظم منه أمران: علم القلب، وعمل القلب. فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه، وقد لا يصحبه العمل

بذلك؛ إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام، وإن لم يكن ضدًا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب، وإما لغير ذلك.

وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ، فَسَلُوا اللَّهَ» فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا، بخلاف غيرهم، فإن الابتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: 24]، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، فهذه حال هؤلاء.

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ١١ ﴿وَلِذِيقُوا الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 9-12]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية [المدثر: 31].

وأما كيف يحصل اليقين؟ فبثلاثة أشياء:

أحدها: تدبر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق، التي تبين أنه حق.

والثالث: العمل بموجب العلم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]،

والضمير عائد على القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥١ سَتُريَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ﴾ الآية [فصلت: 52-53]. اهـ

43- الرد على المخالفين:

نرى كثيرًا من الناس يستنكر الردود على المخالفين، ولا سيما إذا كان المخالف من أهل السنة، مع أن المتتبع للكتاب والسنة النبوية وآثار السلف يجد ذلك جليًا واضحًا، فالحق هو المتبع والمأخوذ به، ومن الأدلة ما أخرجه البخاري (1572)، ومسلم (1226) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: تَمَتَّعْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَزَلَّ الْقُرْآنُ، قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ.

وأخرج البخاري (1840)، ومسلم (1205) من حديث عبد الله بن حنين: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ وَالْمِسْوَر بْنَ مَخْرَمَةَ اخْتَلَفَا بِالْأَبْوَاءِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: يَغْسِلُ الْمُحْرِمُ رَأْسَهُ، وَقَالَ الْمِسْوَرُ: لَا يَغْسِلُ الْمُحْرِمُ رَأْسَهُ، فَأَرْسَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ إِلَىٰ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ وَهُوَ يُسْتَرُّ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُنَيْنٍ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَسْأَلُكَ: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ؟ فَوَضَعَ أَبُو أَيُّوبَ يَدَهُ عَلَى الثَّوْبِ فَطَاطَأَهُ حَتَّىٰ بَدَأَ لِي رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ لِإِنْسَانٍ يَصُبُّ عَلَيْهِ: اصْبُبْ، فَصَبَّ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ، وَقَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُهُ ﷺ يَفْعَلُ.

وأخرج البخاري في صحيحه (3670) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُوبَكْرٍ بِالسُّنْحِ، - قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ

يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ - وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي، طُبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَالِفُ، عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُوبَكْرٍ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]، قَالَ: فَتَشَجَّ النَّاسُ بَيِّكُونَ. الحديث.

وأخرج مسلم في صحيحه (1406) عن عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَامَ بِمَكَّةَ فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا - أَعْمَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ - يُفْتَنُونَ بِالْمُنْتَعَةِ - يُعَرِّضُ بَرَجُلٍ - فَنَادَاهُ فَقَالَ: إِنَّكَ لِحَلْفُ جَافٍ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ الْمُنْتَعَةُ تُفْعَلُ عَلَى عَهْدِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ - يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَجَرَّبْ بِنَفْسِكَ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَهَا لَأَرْجُمَنَّكَ بِأَحْجَارِكَ.

وهذا قليل من كثير في ردود الصحابة بعضهم على بعض؛ لأن الحق واحد وإن اختلفت الاجتهادات، وكلنا مطالب بالعودة إلى الحق والتمسك به.

قال ابن رجب رحمه الله في كتاب «الفرق بين النصيحة والتعيير» (6/1): (وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدب في الخطاب وأحسن في الرد والجواب فلا حرج عليه، ولا لوم يتوجه إليه، وإن صدر منه الاغترار بمقالته، فلا حرج عليه، وقد كان بعض السلف إذا بلغه قول ينكره على قائله يقول: (كذب

فلان)، ومن هذا قول النبي ﷺ: «كذب أبو السنابل»؛ لما بلغه أنه أفتى أن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً لا تحل بوضع الحمل حتى يمضي عليها أربعة أشهر وعشر).

وقال رحمه الله في نفس الكتاب (2/1): (وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضاً؛ ولهذا نجد في كتبهم المصنفة في أنواع العلوم الشرعية من التفسير وشروح الحديث والفقه واختلاف العلماء وغير ذلك ممتلئة بالمناظرات وردّ أقوال من تُصَغَّفُ أقواله من أئمة السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم).

وقال رحمه الله في (9/1): (ومن عُرف منه أنه أراد برّده على العلماء النصيحة لله ورسوله فإنه يجب أن يُعامل بالإكرام والاحترام والتعظيم كسائر أئمة المسلمين الذين سبق ذكرهم وأمثالهم ومن تبعهم بإحسان). اهـ

وقال العلامة عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله كما في «الدرر السنية في الكتب النجدية» (5/5): (فما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف وأخطأ كائناً من كان، ولو كان أعلم الناس وأتقاهم. وإذا كان الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأمرنا باتباعه وترك ما خالفه، فمن تمام ذلك أن من خالفه من العلماء مخطئ ينبه على خطئه، وينكر عليه). اهـ

وقال العلامة صالح الفوزان حفظه الله: (نحن نحب العلماء والله الحمد، ونحب الدعاة إلى الله عز وجل، لكن إذا أخطأ واحد منهم في مسألة فنحن نبين الحق في هذه المسألة بالدليل، ولا ينقص ذلك من محبة المردود عليه ولا من قدره). اهـ «الأجوبة المفيدة» ص(175).

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله في كتاب «العلم» ص(229): (يجب على من عثر على وهم إنسان ولو كان من أكبر العلماء أن ينبه على هذا الوهم وعلى هذا الخطأ؛ لأن بيان الحق أمر واجب وبالسكوت يمكن أن يضيع الحق لاحترام من قال بالباطل؛ لأن احترام الحق أولى بالمراعاة. لكن هل يصرح بقائل الوهم أو الخطأ؟ أو يقول: توهم بعض الناس فقال كذا وكذا؟

الجواب: ينظر لما تقتضيه المصلحة، قد يكون من المصلحة ألا يصرح، كما لو كان يتكلم عن عالم مشهور في عصره موثوق عند الناس، محبوب إليهم، يقول: قال فلان: كذا، وكذا وهذا خطأ؛ فإن العامة لا يقبلون كلامه بل يسخرون منه ولا يقبلون الحق، ففي هذه الحالة ينبغي أن يقول: من الخطأ أن يقول القائل كذا وكذا، ولا يذكر اسمه، وقد يكون هذا الرجل الذي توهم متبوعاً، يتبعه شذمة من الناس وليس له قدر في المجتمع فحينئذ يصرح؛ لئلا يغتر الناس به، فيقول: قال فلان كذا وكذا وهو خطأ). اهـ

هذا هو ديننا واعتقادنا إذ لا معصوم إلا الكتاب والسنة، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

فإذا كان هذا في حق من كان من أهل السنة، فما بالك بأهل البدع والضلالات والزندقة والمجادلات.

شروط وآداب الرد على المخالف⁽¹⁾ :

أولاً: الشروط المتعلقة بالعمل:

1- الإخلاص لله عز وجل، فإن هذا يجعل للرد بركة وتسديد؛ لأن عز وجل قد وعد بظهور ما يراد به وجهه، والذاب عن حوزة الدين من البدع والضلالات بالقلم واللسان والبيان كالذاب عن حوزته بالسيف والسنان والبنان. قد أخرج البخاري (123)، ومسلم (1904) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَعْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَائِهِ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (235/28): (ثم القائل في ذلك بعلم لا بد له من حسن النية، فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد، كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء. وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله، من ورثة الأنبياء، خلفاء الرسل.). اهـ

2- المتابعة لشريعة رسول الله ﷺ في الاعتقاد والرد، إذ عدم المتابعة لرسول الله ﷺ خلل وشين، وسبب للضلال والانحراف. ولما ترك عبدالله بن كلاب مذهب الاعتزال، وذهب يرد على المبطلين بغير طريقة رسول الله ﷺ وقع في هوة سحيقة، وحفرة عميقة، تبعه عليها كثرة كاثرة، وأصبحت طريقته طريقة باثرة لم يسلم منها إلا من سلمه الله عز وجل.

(1) هذا المبحث منتقى مع زيادات واختصار من كتاب الردود لبكر بن عبد الله أبو زيد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (5/556): (وابن كلاب لما رد على الجهمية لم يهتد لفساد أصل الكلام المحدث الذي ابتدعوه في دين الإسلام بل وافقهم عليه..). اهـ

وقال مروان بن محمد الطاطري رحمه الله: ثلاثة لا يؤتمنون في دين: الصوفي والقصاص ومبتدع يرد على أهل الأهواء..). اهـ «ترتيب المدارك» (1/150).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (3/326): (قال المروذي في هذه المسألة؟ إنه سمع أبا عبد الله لما أنكر على الذي قال: لم يجبر، وعلى من رد عليه جبر فقال أبو عبد الله: كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا في جوابها، وقال: يستغفر ربه الذي رد عليهم بمحدثه، وأنكر على من رد بشيء من جنس الكلام؛ إذا لم يكن له فيها إمام مقدم..). اهـ

3- موافقة منهج السلف الصالحين. وهذا أمر مهم؛ إذ لا معرفة حققة للكتاب والسنة الصحيحة والعقيدة السلفية القويمة إلا من طريقهم، فهم أعلم الناس بمراد الله عز وجل ومراد رسوله ﷺ. وهم نقلة الأخبار ومؤلفي الأسفار، وما من خير إلا وسبقونا إليه، وما من شر إلا وحذروا منه؛ ولهذا قال الله عز وجل مثنيًا على طريقته: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم..). اهـ «مقدمة سنن الدارمي» (205).

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله في رسالته المشهورة إلى عدي بن أرطاة رحمه الله: أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحَدَثَ الْمُحَدِّثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَكُفُّوا مُؤَنَّتَهُ، فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا، فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ وَالْحُمَقِ وَالتَّعَمُّقِ، فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِنَفْسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى، وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى، فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحَدَّثَهُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ، فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي، وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ، وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مُحْسَرٍ، وَقَدْ قَصَرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَّوْا، وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَعَلَّوْا، وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ. أخرجہ أبو داود (4612).

وقال ابن بطة رحمه الله في «الإبانة» (1/245): (فلله در أقوام دقت فطنتهم وصفت أذهانهم وتعاليت بهم الهمم في اتباع نبيهم وتناهت بهم المهجة حتى اتبعوه هذا الاتباع، فبمثل هدى هؤلاء العقلاء إخواني اهتدوا ولائثارهم فاقتفوا ترشدوا وتنصروا وتجبروا). اهـ

ثانيًا: الشروط المتعلقة بالقائم بالرد:

قال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

فعلى هذا فمن أراد أن يرد على أهل الباطل، ومن يقوم بالدعوة إلى الله عز وجل أن تكون لديه العدة التي ينصر بها الدين.

من هذه الشروط:

1- الأهلية؛ لأن الراد مدافع عن دين الله عز وجل فإما أن يقول بعلم وإما أن يسكت بحلم، فإن قال على الله عز وجل بغير علم فقد ارتكب جرماً عظيماً قرنه الله عز وجل بالشرك به. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

وقال ابن تيمية رحمه الله في «درء تعارض العقل والنقل» (3/374): (وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة؛ فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار؛ فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة، وقد ينهى عنها إذا كان المناظر معانداً يظهر له الحق فلا يقبله - وهو السوفسطائي - فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة بينة بنفسها ضرورية وجعلها الخصم كان سوفسطائياً ولم يؤمر بمناظرته بعد ذلك، بل إن كان فاسد العقل داووه، وإن كان عاجزاً عن معرفة الحق - ولا مضره فيه - تركوه، وإن كان مستحقاً للعقاب عاقبوه مع القدرة، إما بالتعزير، وإما بالقتل، وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلا بالقهر.

والمقصود أنهم نهوا عن المناظرة من لا يقوم بواجبها، أو من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة، أو فيها مفسدة راجحة، فهذه أمور عارضة تختلف

باختلاف الأحوال. وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة تارة أخرى، وفي الجملة، جنس المناظرة والمجادلة فيها محمود ومذموم، ومفسدة ومصلحة، وحق وباطل. اهـ.

2- الاستقامة القولية والفعلية. قد تقدم شروط الاستقامة العقدية، ونذكر هنا استقامة الظاهر، فهي من باب العمل بالعلم. فليكن الداعي إلى الله عز وجل أحسن الناس قولاً، وأجملهم سمناً، وأرفقهم، إلى غير ذلك من صفات الكمال التي تجعل لرده قبولاً، أما إذا كان ظاهره الطلاح لا الصلاح، فربما صرفت القلوب عن قبول كلامه.

ثالثاً: الآداب المتعلقة بالمردود عليه:

المردود عليه إما أن يكون فرداً أو جماعة. وهنالك أمور مهمة يتفطن لها قبل الرد:

1- توثيق كلام المردود عليه من كتبهم أو أشرطتهم.

2- تحديد مأخذ المخالفة.

3- إنصاف الخصم.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتُوا قَوْمِينَ يَالْقِسْطَ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ يَالْقِسْطَ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

4- فتح باب العودة للخصم واحتوائه.

5- المردود عليه إما أن يُذكر وصفه وإما أن يعيّن. وهذه تعود إلى المصلحة، فإن كان المخطئ من أهل السنة، وكان الستر عليه أنفع، رد الخطأ مع الستر عليه لعله أن يرجع. فإن لم يعد ذلك لا بأس بإظهاره. وإن كان من أهل البدعة فيذكرون ولا كرامة.

رابعاً: الآداب المتعلقة بالرد ذاته:

1- المطالبة بتصحيح الدعوى. قال ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» (143/4): (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَلْكَارُ إِلَّا أَتِيَا مَأْمُودَةً﴾ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: 80﴾. فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما، فلزم ثبوت الآخر. فإن قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا أَلْكَارُ إِلَّا أَتِيَا مَأْمُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم، فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتف قطعاً، فتعين أن يكون خبراً كاذباً قائله، كاذب على الله تعالى). اهـ

2- تفنيد شبهة المخالف. قال ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (164/20): (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين). اهـ

3- الحذر الشديد من عدم رد الشبهة مع إظهارها ثم يجيد عن الإجابة عنها، فربما علقت في ذهن مستمعها.

4- الإقناع بالدليل؛ لأن الحق في الموافقة بالدليل، فإذا لم يقتنع به الخصم بقيت الشبهة. فينظر في السبب الذي جعله لا يقبل هذا الدليل، فإن كان يرى عدم صحة الحديث يُبَيِّن له صحته وصحة شواهدة إلى غير ذلك. وإن كان يرى ما يعارضه جمع له بينه وبين المعارض، أو بيان نسخ أحدهما، أو الترجيح بينهما. وإن كان ممن ينجح إلى عدم القول بخبر الآحاد يُبَيِّن له حجية خبر الآحاد. وإن كان ممن ينكر الأحاديث ويعتقد القرآن فقط رفعت عنه الشبهة. وهكذا.

5- مجانية التشهي والتحكم بالدليل. قال ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» (144/4): (فهذا هو الذي تسميه النظائر والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه، إما من تقليد من تعظمه، أو موافقة ما تريده، قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له وعليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا تجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له.). اهـ

6- حسن الصياغة؛ لأن الركافة في القول أو السياقة يؤدي إلى عدم حصول المطلوب، ويؤدي إلى ضياع الحق.

1- الجهاد في سبيل الله عز وجل والذود عن الدين القويم، فهذا من أفضل القربات والأعمال وجهاد أهل البدع والكفریات والخرافات نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله. قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (3/9-11): (إذا عرف هذا، فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا: إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين. الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها. الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيّنات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله. الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السموات.

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان، إحداها: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]، فأخبر أن

إمامة الدين، إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النَّفَاقِ» أخرجه مسلم (1910). اهـ

2- إحياء لمنهج الله عز وجل الذي أرسل من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب وشرع من أجله الجهاد. فدين الله الحق وكتابه رد على المخالفين من الكفار والملحدين.

3- إحياء لسنة رسول الله ﷺ.

4- إحياء لمنهج السلف الصالحين.

5- نصر الحق الذي أنزله الله تعالى.

6- رد الباطل.

7- نصر السنة.

8- قمع البدعة.

9- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- 10- النصيحة للمسلمين. دل عليها حديث تميم الدارى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قلنا لمن قال «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ». أخرجه مسلم (55).
- 11- المحافظة على الفطرة.
- 12- رد الشبهات.
- 13- أحياء منهج السلف الصالحين في الجرح والتعديل.
- 14- نشر العقيدة الصحيحة.
- 15- التحذير من الشر.
- 16- الدعوة إلى الخير.
- 17- هداية من أراد الله هدايته.
- 18- الصولة على أهل الباطل.
- 19- تكثير سواد أهل الحق.
- 20- إذلال أهل الباطل.
- 21- تنقيه الساحة الإسلامية من البدع والخرافات والأقوال الشاذة المخالفة.
- 22- رفع الحرج عن الأمة؛ لأن الرد على المخالفين للحق القويم واجب كفائي: إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.
- 23- الرد على المخالفين من العمل بالعلم.
- 24- الرد على المخالفين من طرق وأساليب نشر العلم.

والعجب كل العجب أن تجد من يتهم أهل السنة والجماعة بأنهم شغلوا أنفسهم بالردود، وأكثروا منها.

أقول: فكان ماذا؟! أليست الردود - كما تقدم - متعينة، بل قد تجب على بعض من لديه أهلية؟!

ثم إن هذه الردود ما هي إلا قليل من كثير، فلدى العلماء وطلاب العلم من المؤلفات والمخاطبات الشيء الكثير مقابل ما يُسمى بالردود.

ثم إن الكثير من كتب أهل العلم أُلِّفَتْ لهذا الباب، فاستفاد الناس منها. فأغلب أبواب وكتب «صحيح البخاري» ردود على المخالفين من أهل البدع وغيرهم، وكتاب «خلق أفعال العباد» و«رفع اليدين» و«القراءة خلف الإمام» كلها من هذا الباب، فلا يقول بهذا القول ولا ينطلي إلا على من جهل منهج السلف وطريقهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خاتمة الفصول

وقبل الختام، اعلم أن أسباب التميع في الدعوة السلفية كثيرة جداً، والعلاجات والنتائج كذلك، لكن ذكرنا المسائل الجامعة التي يدخل تحت كل بند منها مسائل كثيرة، نسأل الله عز وجل العون، ومما ينبه عليه هنا أن القناعة بدين الله عز وجل الحق، الذي هو السلفية الحققة، هو من أعظم أسباب النصر والثبات على الحق، وكما تقدم معنا مراراً حديث هرقل، وفيه: هل يترد منهم أحد سخطاً لدينه؟ فقال أبوسفيان: لا، قال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

ويدل أيضاً على ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند البخاري (16)، ومسلم (43): «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ».

الفصل الأخير

توبة المبتدعة والممينة

يشترط للتوبة إلى الله عز وجل من البدعة والتميع عدة شروط:

الأول: الإسلام. الثاني: الإخلاص. الثالث: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة. الرابع: الإقلاع عن الذنب. الخامس: الندم على فعل الذنب. السادس: العزم على عدم العود. السابع: البيان. الثامن: الإصلاح.

فهذه شروط توبة المبتدع، وقد ألفت - بحمد الله - في هذا الباب مؤلفاً مستقلاً بعنوان: «شروط التوبة إلى الله» ذكرت فيه شروط توبة جميع أنواع المعاصي.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160]

قال ابن كثير: (هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسوله.). اهـ

والبدعة هي: الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله، فمن دان ديناً لم يأمر الله ورسوله ﷺ به فهو مبتدع بذلك، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21] قاله شيخ الإسلام في

«الاستقامة». وقال الشاطبي: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. اهـ

والبدعة سبب لموت القلوب وغفلتها وقسوتها، وأصحابها أبعد الناس وأزهدهم في السنن والآثار، وأتبعهم لأهوائهم والشيطان، قال ابن القيم في «اجتماع الجيوش»: (فصاحب السنة حي القلب مستنيرة، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمة.). اهـ

وهي باب الشرك قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (1/63): (ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33]، فالإثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان.). اهـ

وخطر المبتدع على الدين، وضرره أعظم ضرراً من مرتكبي الكبائر، قال ابن القيم في «الداء والدواء» ص(100): (ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ، والعاصي ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه، والمبتدع يشرع في الدين ما لم يأذن به الله، والعاصي ليس كذلك، والمبتدع يرى فعله ديناً، والعاصي ليس كذلك، إلى غير ذلك.). اهـ

ولما كان الأمر على ما ذكر فإن لتوبة المبتدع شروط زائدة على بقية الذنوب.

قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (1/125-126): (ومن تاب من بدعة مفسقة أو مكفرة صح إن اعترف بها وإلا فلا). اهـ

وقال في الشرح: (وأما البدعة فالتوبة منها بالاعتراف بها والرجوع عنها واعتقاد ضد ما كان يعتقد منها). اهـ

وقال (1/127): قال ابن عقيل في «الإرشاد»: (الرجل إذا دعا إلى بدعة ثم ندم على ما كان وقد ضل به خلق كثير وتفرقوا في البلاد فإن التوبة صحيحة إن وجدت الشرائط، ويجوز أن يغفر الله له ويقبل توبته ويسقط ذنب من ضل به بأن يرحمه ويرحمهم). اهـ

ونقل رحمه الله غير ذلك وهو: (أن توبته صحيحة، لكن تبقى حقوق الأدميين لا تسقط، فيكون مأزورًا بضلالهم، وهم مأزورون بأفعالهم). اهـ

وقال ابن القيم في «عدة الصابرين» ص(5): (ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك، أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160]

وهذا كما شرط في توبة المنافقين، الذين كان بذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول ﷺ، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل

اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشرّكين، وأن يخلصوا دينهم له بدل إظهارهم رياء وسمعة، فهكذا نفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان. اهـ

واعلم أن للعلماء قولين في قبول توبة المبتدع من عدمها:

الأول: قول جماهير العلماء بقبول توبة المبتدع؛ لعموم أدلة قبول التوبة إذا توفرت فيها الشرائط، منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].
ومنها قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: 3].

ومنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11].

والقول الثاني: ما ذهب إليه مجموعة من السلف إلى عدم قبول توبة المبتدع، واستدلوا بما أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (21) وصححه الألباني رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ حَتَّىٰ يَدْعَ بِدْعَتَهُ»، ومثل حديث أبي سعيد عند البخاري (4351)، ومسلم (1064)، وفيه عن الخوارج: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ»، قالوا، وقوله: «ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ» دليل على عدم توبتهم ومن في حكمهم من أهل البدع، ومما روي عن السلف في ذلك قول الحسن البصري: (أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة) أخرجه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» ص(55)، وقول عطاء الخراساني عند اللالكائي (1/141): (ما يكاد الله أن يأذن

لصاحب بدعة بتوبة)، وعن أبي عمرو الشيباني نحوه عند ابن وضاح، وقول سفيان الثوري عند اللالكائي (1/ 132) وغيره: (البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها).

وقال الشاطبي في «الاعتصام» (1/ 106): (فاعلموا أن البدعة لا يقبل معها عبادة من صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا غيرها من القربات، ومجالس صاحبها تنزع منه العصمة ويوكل إلى نفسه، والمأثي إليه وموقره معين على هدم الإسلام، فما الظن بصاحبها وهو ملعون على لسان الشريعة، ويزداد من الله بعبادته بعداً، وهي مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، وموانعة من الشفاعة المحمدية، ورافعة للسنن التي تقابلها، وعلى مبتدعها إثم من عمل بها، وليس له من توبة).

والتحقيق في هذه النصوص وما جاء في معناها: أنها محتملة لمعنيين:

المعنى الأول: أن أهل البدع لا يوفقون للتوبة ولا ييسرون لها فلا تقع منهم أصلاً إلا أن يشاء الله، وهذا المعنى صحيح بلا ريب، وقد دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وواقع حال أهل البدعة.

أما أدلة الكتاب فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110]، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: 75].

قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (9/10): (ولهذا قال أئمة الإسلام، كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله. فما دام يرى فعله حسناً وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمتافقين وطوائف من أهل البدع والضلال). اهـ

وقال (684/11) بعد أن ذكر أثر سفيان المتقدم: (وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا: إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة، بمعنى أنه لا يتوب منها؛ لأنه يحسب أنه على هدى، ولو تاب لتاب عليه، كما يتوب على الكافر. ومن قال: إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً، ومن قال: ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة، فمعناه: ما دام مبتدعاً يراها حسنة لا يتوب منها، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة، فإنه يتوب منها كما يرى الكافر إنه على ضلال، وإلا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة، تبين له ضلالها، وتاب الله عليه منها، وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله). اهـ

قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (4/48): (قال أبو الفرج الهمداني: سمعت المروزي يقول: سئل أحمد عما ورد عن النبي ﷺ «إن الله احتجز التوبة عن كل

صاحب بدعة حتى يدع بدعته» أيش معناها؟ فقال أحمد: لا يوفق ولا ييسر صاحب البدعة لتوبة. اهـ

ومع ذلك فالله ﷻ يتوب على من تاب وجمع شروط التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: 25]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: 104]، وقال: ﴿فَنَنْتَابُ مِنَ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 39]، وقال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه» أخرجه البخاري (2661)، ومسلم (2770) عن عائشة - رضي الله عنها -.

فعلى كل من تعاطى شيئاً من المعاصي، صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، أن يتوب إلى الله عز وجل؛ امتثالاً لأمره: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

الخاتمة

وبعد هذا، فاعلم - وفقك الله لطاعته - أن أهل السنة والجماعة هم أمة للأمة - إن شاء الله تعالى - ، يدلونهم على الهدى، ويحذرونهم من الباطل والردى، ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه عنده مسلم قال: رَفَعَ رَأْسُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسُهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ». فكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة للأمة، وفي قول الزهري رحمه الله ما يدل على ذلك، قال: (التمسك بالسنة نجاة) أخرجه الدارمي في «مقدمة سننه»، وهذا القول متلقى عن علمائه من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم. فمن أراد لنفسه السلامة من العطب الديني والأخروي والديني والعملي فليلزم طريقة السلف الصالحين في أخذهم بدين رب العالمين، والبعد عن طريق الخلف المبطلين.

وقد تكلمت عن هذا في مؤلف خاص، عسى أن ييسر الله عز وجل بطبعه قريباً، تكلمت فيه عن طريقة السلف في التوحيد والعقيدة والصلاة والأخلاق والمعاملات، وعنونه بـ«سلامة الخلف في طريقة السلف». أسأل الله عز وجل القبول.

وقبل أن أنتهي أذكر ما قاله الشاطبي رحمه الله في كتابه «الاعتصام» (58-55/1) في شكوى أهل زمانه، قال رحمه الله: (وربما أَلْمُؤَا فِي تَقْبِيح مَا وَجْهَتْ إِلَيْهِ وَجْهَتِي بِمَا تَشْمُزُّ مِنْهُ الْقُلُوبُ، أَوْ خَرَجُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضِ الْفِرَقِ الْخَارِجَةِ عَنِ السَّنَةِ شَهَادَةً سَتَكْتُبُ وَيَسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

فتارة نُسبَتْ إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه، كما يعزى إلى بعض الناس؛ بسبب أنّي لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة.

وتارة نُسبَتْ إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم؛ بسبب أنّي لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص؛ إذ لم يكن ذلك شأن من السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب. وقد سئل أصبغ عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين فقال: هو بدعة، ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة. قيل له: فدعاؤه للغزاة والمرابطين؟ قال: ما أرى به بأساً عند الحاجة إليه، وأما أن يكون شيئاً يصمد له في خطبته دائماً فإني أكره ذلك. ونص أيضاً عز الدين بن عبدالسلام على أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أُضيفَ إليّ القول بجواز القيام على الأئمة؛ وما أضافوه إلا من عدم ذكرى لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة أُحمَلُ على التزام الحرج والتنطع في الدين؛ وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره. وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك. وللمسألة بسط في كتاب «الموافقات».

وتارة نسبت إلى معادة أولياء الله؛ وسبب ذلك أني عادت بعض الفقهاء المبتدعين المخالفين للسنة المنتصين بزعمهم هداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة؛ بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها وهي الناجية ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي بيان ذلك بحول الله.

وكذبوا عليّ في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال.

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبدالرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه؛ إذ حكى عن نفسه فقال: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً دعائي إلى متابعتي على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك - كما يفعله أهل هذا الزمان - سماني موافقاً، وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماني مخالفاً، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سماني خارجياً، وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً، وإن كان في الرؤية سماني سالمياً، وإن كان في الإيمان سماني مرجئياً، وإن كان في الأعمال سماني قدرياً، وإن كان في المعرفة سماني كرامياً، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبياً، وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضياً، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فما أجيبُ فيهما إلا بهما سماني ظاهرياً، وإن أجبت بغيرهما سماني باطنياً، وإن أجبت بتأويل سماني أشعرياً، وإن جحدتهما سماني معتزلياً، وإن كان في السنن مثل القراءة سماني شفعوياً، وإن كان في القنوت سماني حنفياً، وإن كان في القرآن سماني حنبلياً، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار إذ ليس في الحكم والحديث محاباة قالوا: طعن في تركيتهم. ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرءون عليّ من

أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئاً. وإني مستمسك بالكتاب والسنة، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم). اهـ

هذا، ويقول الله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21]، ويقول: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۚ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَارُ ۚ وَيَنْجِبُهَا الْأَشَقَى﴾ [الأعلى: 9-11]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، فمن هذه الآيات علمنا أن الله عز وجل أمر من لديه أهلية وقدرة بالتذكير والتوجيه والتعليم إلى غير ذلك. وأمر من جاءه العلم بالقبول والاستفادة والبعد عن الغفلة.

فهذا جهد المقل، وضعت بين يديك أيها المسلم، لك غرمه وعليّ جرمه، فاستفد منه، ولا تكن ممن قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَأَ أَؤْتِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16]، ولا من أولئك الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «وَوَيْلٌ لِلْآفِتَاءِ الْقَوْلِ، وَوَيْلٌ لِلْمُصَرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عمر رضي الله عنهما وهو في «الصحيحة» برقم (482).

فمن استجاب لله عز وجل ولرسوله ﷺ نفع نفسه. ومن أعرض فلن يضر إلا نفسه، ولن يهلك على الله إلا هالك.

أما الداعي إلى الله عز وجل فليكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: 8]، وكما قال الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

وأشكر الله أولاً وآخرًا على نعمه العظيمة، ومن أجلها: نعمة الإسلام، والسنة، وطلب العلم النافع على يد العالمين الجليلين: أبوي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي، ويحيى بن علي الحجوري، وأشكر والديّ، وكل من أحب وساهم في نصرة الإسلام وأهله.

وسبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

كتبه: أبو محمد عبدالحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

وكان الابتداء به ككلمة في 20 جمادى الثانية 1430

وانتهيت منه ككتاب في أوائل شهر صفر 1432

بدار الحديث السلفية بدمّاج

فالحمد لله على التمام

ونسأله القبول

**

*

وكان آخر تعديل لي عليه في يوم الأربعاء 25/ جمادى أولى/ 1432 في أيام تسلط الحوثيون على بلاد صعدة بأجمعها، ولم يبق إلا دار الحديث بدماج وما حولها بتقدير (كيلومتر مربع)، ومع ذلك نرى لطف الله عز وجل بعباده حيث صرفهم عنا، وكفانا شرهم، وبوّر مكرهم، فنسأله تعالى المزيد من فضله وعفوه ولطفه، وأن يحفظنا ويحفظ درانا ودعوتنا وبلاد المسلمين، وكان سبب سقوط صعدة في يد الحوثيين هو ما حصل في صنعاء من قيام أحزاب اللقاء المتمثلة في المشترك: حزب الإصلاح التابع للإخوان المسلمين، والحزب الاشتراكي، وحزب البعث، والحزب الناصري، وحزب الحق التابع للرافضة، ومن إليهم، بالثورة على النظام الذي يتزعمه الرئيس علي عبدالله صالح، فمن قواعد السلف: (فرقتهم الأفكار وجمعهم السيف)، فلا حول ولا قوة إلا بالله من تسلط الكافرين على المسلمين، وتقليد المسلمين للكافرين، وبالله نستعين، والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

3	مقدمة الشيخ العلامة يحيى بن علي الحجوري حفظه الله تعالى
4	مقدمة
7	سبب التوسع في هذا البحث
9	الفصل الأول: التمهيد
24	الأمر بلزوم الجماعة والاتباع والنهي عن الفرقة والابتداع
27	باب بيان أن سبب الاختلاف والافتراق
31	باب الحث على لزوم السنة
33	التميع مقصد المخالفين لدين رب العالمين
37	تعريف التميع
39	شبهة الرد عليها
42	صور التميع
43	حكم التميع
44	كل مبتدع مميح
45	رمي الغلاة أهل السنة بالتميع
46	التمييز بين أهل البدع وأهل التميع
47	متى يعامل الرجل معاملة أهل البدع
48	حكم المميعة على أهل السنة
48	الفرق بين الرفق والتميع

48.....	ضرر أهل التميع على الدعوة.....
51.....	مَن الذي يحكم على الشخص بأنه مميّع؟
53.....	حكم الاستفادة ممن كان سنيًّا ثم تميع
55.....	أصناف المخالفين لمنهج السلف وطريقة أهل الاستقامة
57.....	أساليب المميعين:
57	1- المكر والكيد:
58	2- الخداع:
59	3- ومن أساليب المميعين لدين رب العالمين: الخيانة:
59	4- ومن أساليبهم: الكذب والتكذيب:
60	5- ومنها التلون:
60	6- ومن أساليبهم: الغدر:
61	7- ومن أساليبهم: الغش:
62	8- ومنها: التغرير:
62	9- المجادلة بالباطل:
62	10- ليس الحق بالباطل وكنتم الحق:
62	11- التفريق بين المؤمنين أهل الاستقامة:
63	12- ومن وسائل المميعين لدين رب العالمين: السَّريَّة:
63	13- إثارة النعرات القبلية:
63	14- الجمعيات:
64	15- ومن أساليبهم الماكرة: إنشاء الحزبيات:
65	16- ومن أساليبهم: إنشاء المؤتمرات:

- 17- بذل الأموال: 65
- 18- ومنها التشكيك في نيات الدعاة إلى الله عز وجل ومناهجهم: 65
- 19- ومنها الإشادة بمن كان على طريقتهم وباطلهم؛ خيانة للناس وتغريباً لهم: 79
- 20- ومنها الوشاية بأهل الاستقامة والحق واستعداد السلطنة عليهم: 79
- 21- ومن أساليبهم: تسمية الباطل بأسماء ظاهرها عدمه: 80
- 22- ومن أساليبهم: الصبر على تمرير شرهم: 80
- 23- ومن أساليبهم: دعوتهم إلى الرفق: 80

الفصل الثاني: أسباب تميع دين المسلمين المنهج السلفي القويم 82

- 1- الرياء: 83
- 2- قلة الفهم: 87
- 3- قلة الإنصاف: 89
- 4- عدم الحرص على معرفة الحق: 90
- 5- قلة الدعوة إلى الحق: 96
- 6- الجهل: 97
- 7- سوء القصد: 101
- 8- الحرص على الدنيا: 102
- 9- المكر بالدين والدعوة: 107
- 10- المصالح: 108
- 11- عدم التوبة النصوح: 112
- 12- تعظيم الرجال تعظيماً غير شرعي: 114
- 13- مجالسة المميعين أو أهل البدع: 115
- 14- التقليد: 116
- 15- التأويلات الفاسدة: 117

16- الشبهة:	132
17- عدم القناعة بالمنهج السلفي وما هو عليه من الصفاء والنقاء:	135
18- الحرص على التكثير والتجميع:	136
19- التعلل بمواجهة أعداء الإسلام:	137
20- المراعاة الشديدة لرضا المخلوقين المربوبين:	139
21- التوسع في باب وسائل الدعوة مع أنها توقيفية:	140
22- التوسع في الحرص على هداية المخالفين:	140
23 - الطمع فيما في أيدي الناس:	141
24- الجبن والخوف:	143
25- الورع البارد:	145
26 - الخيانة:	146
27- قلة الغيرة على دين الله الحق:	159
28- ضعف جانب الولاء والبراء:	160
29- ضعف الإيمان:	161
30- البحث عن أنصاف الحلول:	162
31- التقارب مع المخالفين:	163
32- التخذيل:	163
33- الضعف في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:	165
34- عدم العمل بالعلم:	166
35- المداهنة:	168
36- مقاضاة الأغراض مع أهل السنة والجماعة والعلماء الصادعين بالحق:	172
37- التهوك والتحير:	173
38- النزول عند الحزبيين والمبتدعة:	175
39- زعمهم البدء بالأهم فالأهم:	175

- 40- دعوتهم إلى الرحمة والشفقة وسلامة الصدر على المسلمين: 176
- 41- التظاهر بنصرة السنة: 177
- 42- التملق: 178
- 43- عدم الصراحة: 179
- 44- جعل العلم مكسباً: 180
- 45- التحريف للحق: 181
- 46- اللامبالاة: 182
- 47- عدم الأخذ بنصح أهل العلم المميزين الأثبات: 183
- 48- الطعن في فهم أهل العلم: 183
- 49- إتباع الهوى وعدم التجرد للدليل: 185
- 50- الطبع: 187
- 51- التشكك في الحق الذي هو عليه: 187
- 52- عدم الصبر على الثبات: 188
- 53- الجهل بأهل الباطل ومقالاتهم المخالفة للحق: 189
- 54- عدم تصور الباطل على ما هو عليه: 190
- 55- صدور الباطل من شيخ له قبول: 192
- 56- انتساب أهل الباطل بجليل القدر: 193
- 57- تقاعس أهل الحق عن التحذير من التميع وصور الباطل: 194
- 58- اعتقاد المميع المبطل أنه على حق: 196
- 59- الكبر: 197
- 60- العجب: 198
- 61- الحسد: 199
- 62- التفريط في تحري الحق والأخذ به؛ إعرافاً: 202
- 63- اعتقاد غموض الحق واشتباؤه: 203

- 64- عدم إفصاح صاحب الحق بالحق الذي يدعو إليه: 204
- 65- الجدل المذموم والمراء وحب الظهور والغلبة: 205
- 66- التعصب للأباء والأجداد والإخوان والخلان: 209
- 67- العوامل السياسية والاجتماعية: 211
- 68- الإصرار على التمسك بالخطأ وعدم التراجع عنه بعد معرفته للحق والصواب: .. 214
- 69- المجاملة والتزلف للخاص والعام: 217
- 70- رد كثير من الممذهبة والمتحزبة لكل ما يخالف قواعد أهوائهم ونحلهم: 219
- 71- عدم العودة إلى منهج السلف عند الاختلاف: 222
- 72- الالتباس بين ماهو من الرأي وبين ما هو من الدين: 224
- 73- إتباع زلات العلماء: 225
- 74- استغلال سكوت العلماء: 226
- 75- استخدام قواعد أهل البدع: 227
- 76- القياس الفاسد: 228
- 77- الأخذ بالمتشابه وعدم الجمع بين الأدلة: 231
- 78- الغفلة عن سؤال الهداية من الله عز وجل: 233
- 79- الغلو: 234
- 80- أسلوب المخاطبة بالحق: 235
- 81- الرضى بالعلم اليسير: 235
- 82- علم الكلام: 237
- 83- الأخذ ببعض الحق وترك البعض: 238
- 84- التلقي والتلمذ على غير موثوق من كتب ومشايخ: 239
- 85- أثر البيئة والنشأة: 240
- 86- توسيد الأمور إلى غير أهلها: 242
- 87- تلقي العلم النافع على أيدي الأصاغر: 243

- 88- العصية الجاهلية: 249
- 89- التساهل في تربية النشء: 251
- 90- تقديم العقل على النقل: 252
- 91- العمل بظواهر النصوص دون الرجوع إلى بيان رسول الله ﷺ وصحابته: ... 254
- 92- اتباع الظن: 255
- 93- اعتماد أهل البدع على الحيل: 255
- 94- تقسيم الدين إلى قشور ولباب، أصول وفروع: 260
- 95- إتيان الأقوال الشاذة: 261
- 96- اعتماد أهل البدع على الجزئيات دون الكليات: 262
- 97- الإعراض عن الكتاب والسنة علمًا وعملاً: 263
- 98- الفقر: 264
- 99- كثرة أهل البدع في الإسلام: 266
- 100- الركون إلى المبطلين بدعوى أن نواياهم حسنة: 269
- 101- الفتور: 270
- 102- الذنوب المعاصي: 272
- 103- قبول حظوظ النفس: 279
- 104- قبول وساوس الشيطان: 282
- 105- عدم صلاحية المرء لسبيل السنة: 284
- 106- الكذب: 286
- 107- ضعف المهمة: 288
- 108- عدم الرد على المخالفين للحق وأهله: 289
- 109- الجمعيات: 291
- 110- تعدد الجماعات: 293
- 111- عدم النظر في عواقب الأمور: 294

- 112- عدم الاستجابة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ابتداءً: 294
- 113- مجاهرة أهل البدع بما هم فيه: 296
- 114- السرية: 297
- 115- التميع يهدم قواعد الجرح التي سار عليها السلف: 298
- 1- قول بعضهم نصح ولا نجرح وفي بعضها نصح ولا نهدم: 298
- 2- لا نجعل خلافنا في غيرنا سبباً للخلاف بيننا: 299
- 3- قولهم بتأثير تغير الزمان ومراعاة المصلحة في هجر المبتدعة: 300
- 4- ومنها رد خبر الثقة والتشكيك فيه: 301
- 5- إلغاء منهج امتحان الناس: 301
- 6- ومنها لا نقبل الجرح حتى يجمعوا عليه: 302
- 7- ومنها رد الجرح المفسر: 304
- 8- قولهم: كلام الأقران يطوى ولا يروى: 307
- 9- التقليد في منهج الجرح والتعديل: 308
- 10- القول بمذهب الموازنة بذكر الحسنات والسيئات: 311
- 116- عدم الرجوع إلى العلماء الراسخين: 314
- 117- غربة أهل السنة: 315
- 118- عدم تأثير مخالفة المنهج إذا صحت العقيدة: 315
- 119- العاطفة: 317
- 120- مشابهة المشركين: 317
- 121- أنصاف طلاب العلم والدعاة: 323
- 122- الجواسيس: 324
- 123- حط العلماء المخذولين من العلماء الربانيين: 324
- 124- الجامعات والمدارس الاختلاطية والمبتدعة ومعاهد اللغات: 331
- 125- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة: 332

- 126- التصدّر للتأليف ممن لا يحسن: 333
- 127- طعن أهل الباطل في علماء السنّة وحملتها والإشادة بعلماء البدعة: 335
- 128- تظاهر دعاة التميع بالعلم والتحقيق: 336
- 129- الاغترار بالأسماء: 337
- 130- القواعد الأصولية التي تشبث بها المميعة وتجرحهم إليه: 339
- 1- التوسع في قاعدة المشقة تجلب التيسير: 340
- 2- التوسع في قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح: 340
- 3- التوسع في ضابط الإكراه: 343
- 4- التوسع في قاعدة الاضطرار: 347
- 5- قولهم: لا إنكار في مسائل الاجتهاد: 347
- 6- الأمور بمقاصدها: 348
- 7- دعوتهم إلى نبذ قاعدة سدّ الذرائع: 349
- 8- الضرر مُزال: 351
- 9- قاعدة: الغاية تبرّر الوسيلة: 351
- 10- الاستحسان: 352
- 11- المصالح المرسلّة: 352
- 12- قولهم كل مجتهد مصيب: 357
- 13- قولهم: ردّ ما خالف القواعد المعتمدة: 358
- 14- تقديم الرأي الفاسد على الدليل: 359
- 15- تميعهم بحمل المجل على الفصل في كلام غير المعصوم: 360
- 16- قاعدة: الغاية تبرّر الوسيلة: 364
- 17- قولهم بعدم حجية خبر الآحاد: 364
- 18- قوله: نحن رجال وهم رجال: 370
- 19- قولهم: العادة محكمة: 373

131- بعض المصطلحات العصرية التمييزية:	375
1- النظام العالمي الجديد:	376
2- زعمهم أن الدين أفيون الشعوب:	377
3- دعوتهم إلى الحريات العامة:	378
4- دعوتهم إلى التنوير:	379
5- دعوتهم إلى التسامح الديني:	382
6- دعوتهم إلى تطوير الدين:	383
7- دعوتهم إلى المعاصرة:	384
8- قولهم بتجديد الخطاب الديني:	384
9- قولهم باحترام جميع الأديان:	386
10- قولهم: بعض الأحكام تحتاج إلى إعادة نظر:	387
11- قولهم: الحرية الدينية:	388
12- قولهم: الأديان السماوية:	388
13- دعوتهم إلى التطبيع:	389
14- قولهم: الدين لله والوطن للجميع:	390
15- زعمهم أن الدين سبب الطائفية:	392
16- دعوتهم إلى تطبيق روح الإسلام:	395
17- دعوتهم إلى وسطية الإسلام:	396
18- الديمقراطية:	404
19- الدعوة الماسونية:	414
20- الدعوة إلى الإنسانية:	416
21- الدعوة إلى ما يسمى بالتعايش:	417
22- الدعوة إلى العولمة والعالمية:	417
والمعاملة مع أهل الكتاب تكون في باين:	419

- أولاً: الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين:..... 419
- 1- كون الدين كله لله بإسلامهم أو أعطائهم الجزية أو قتالهم:..... 419
- 2- عدم مواليتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين وتحريم محبتهم:..... 419
- 3- تحريم التشبه بهم:..... 421
- 4- الحذر من كتبهم ومروياتهم:..... 421
- 5- تحريم ابتدائهم بالسلام وتقديمهم في العبور والمرور:..... 422
- 6- تحريم تهنتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:..... 422
- 7- تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:..... 422
- ثانياً: الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق وقيام العدل والإحسان:..... 423
- 1- عدم الإكراه في الدين:..... 424
- 2- الإحسان إليهم والعدل في معاملاتهم وتحريم أذيتهم وحفظ ذمتهم:..... 424
- 3- حسن جوارهم:..... 425
- 4- عيادة مريضهم:..... 425
- 5- جواز دخولهم مساجد المسلمين للحاجة عدى المسجد الحرام:..... 426
- 6- الصدقة على فقراء أهل الذمة:..... 426
- 7- الحقوق المعيشية في السكن والتنقل والتكسب:..... 426
- 8- جُل طعام أهل الكتاب ونكاح العفيفات من نسائهم:..... 427
- 9- تسميت عاطسهم:..... 427
- فصل في الحركات الداعية إلى تمييز الدين بدعوى التقارب بين الأديان 428
- 1- وحدة الأديان:..... 428
- 2- إخوان الصفا:..... 429
- 3- العالمية:..... 430
- 4- المونية (حركة صن مون التوحيدية):..... 431
- 5- التغريب:..... 431
- 6- أصحاب وحدة الوجود:..... 431
- 7- البانتشاسيلا:..... 432
- 8- البابية والبهائية:..... 433

435	9- العلمانية (ECULARISM):
438	10- الماسونية:
438	11- الروتاري:
439	12- الباطنية والرافضة:
440	13- دعوة الإخوان المسلمين دعوة تمييعية:
442	14- الديمقراطية:
443	15- دعوة جماعة التبليغ دعوة تمييعية:
444	فصل في الدعوات المنشقة من الدعوة السلفية دعوات تمييعية
446	خاتمة الفصل
448	الفصل الثالث: نتائج التمييع
448	1- التمييع سبب التنكر لمنهج الجرح والتعديل:
449	2- التمييع سبب لهدم قواعد الجرح والتعديل:
449	3- التمييع سبب المداهنة:
449	4- وسبب من أسباب مجالسة أهل البدع:
450	5- وسبب للركون إلى المبطلين:
450	6- وسبب للإعراض عن طريق أهل الحق المنصفين:
450	7- وسبب للبعد عن هدي سيد المرسلين:
451	8- وسبب لإهمال جانب الولاء والبراء:
451	9- وسبب للبعد عن منهج السلف الصالح:
451	10- ضرر التمييع على الأمة أعظم من ضرر الغلو:
451	11- التمييع من سبل الشيطان للمكر بالسنة والإسلام:
452	12- التمييع فيه مشابهة للمنافقين:
452	13- التمييع حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الله عز وجل:
452	14- وسبب لزعة الناس عن دينهم:

- 15- المميع يُؤتى من قبله الإسلام: 452
- 16- المميع قاطع طريق على أهل الحق: 453
- 17- المميع من شر أهل البدع: 453
- 18- التميع سبب لضعف الإيمان: 454
- 19- التميع يؤدي إلى زيادة البدع وظهورها: 454
- 20- بسبب التميع ينتج إتهام لمنهج السلف وطريقتهم بالغلو والتشديد: .. 454
- 21- ينتج بسبب المميعين عدم التصفية والتربية: 455
- 22- ينتج عن التميع التخذيل لأهل الحق مع أن تخذيلهم من كبائر الذنوب: 455
- 23- بسبب منهج التميع يترك الرد على المخالف: 456
- 24- من نتائج التميع: المشابهة لمذهب المرجئة: 457
- 25- ومن نتائج التميع: ضعف الدعوة السلفية: 458
- 26- المميعون مسلوبو الثقة من أنفسهم وثقة الناس فيهم لعدم ثباتهم: 458
- 27- المميع يكثر سواد أهل البدع: 458
- 28- التميع سبب للبس الحق بالباطل: 458
- 29- التميع ظلم: 459
- 30- التميع كتم للحق: 459
- 31- التميع سبب لإضعاف العقيدة الصحيحة لدى كثير من الناس: 460
- 32- المميع يريد التركيب بين الحق والباطل: 460
- 33- محق بركة العلم: 460
- فصل في نتائج الاستجابة لدعاة تميع الدين 461
- أولاً: إلغاء حق الله سبحانه وتعالى: 461
- ثانياً: الطعن في الله عز وجل وحكمته وعدله وعلمه والطعن في رسوله ﷺ: 463
- ثالثاً: هذا القول منهم يؤدي إلى الطعن في كتاب الله المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن: 466
- رابعاً: في هذه الدعوة طعن في رسالة محمد ﷺ من أسها إلى رأسها: 467

467	خامسًا: في هذه الدعوة إلغاء أحكام أهل الذمة:.....
468	سادسًا: في هذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام المواريث في الكتاب والسنة: ..
468	سابعًا: القول بهذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام نكاح المسلمين:
468	ثامنًا: هذا القول يؤدي بل قد أدى في بعض البلدان إلى الدعوة إلى إلغاء أحكام الردة: ..
474	تاسعًا: القول بهذه الدعوة يضعف جانب الولاء والبراء:
478	عاشرًا: القول بهذه الدعوة يُضعف جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ..
479	الحادي عشر: ويلزم من هذا القول إلغاء شعيرة دعوة الكفار إلى الله:
479	الثاني عشر: ويلزم من هذا القول تعطيل منهج الجرح لأهل الباطل والتعديل لأهل الحق: ..
479	الثالث عشر: فيه الطعن في الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله: ..
480	الرابع عشر: فيه تكريم العصاة والملحدين وإقصاء المستقيمين:
480	الخامس عشر: فيه الطعن في رسل الله سبحانه وتعالى:
480	السادس عشر: فيه الرضا بالطعن في الله عز وجل:
481	السابع عشر: فيه الرضا بالطعن في جبريل والملائكة عليهم السلام:
482	الثامن عشر: فيه الرضا بالكتب المحرفة تفصيلًا:
482	التاسع عشر: فيه تعطيل أحكام جنائز الكافرين وإلحاقهم بالمسلمين:
483	العشرون: فيه جواز الدعاء للكافرين:
483	الحادي والعشرون: فيه الرضا بالشركيات والبدع والخرافات:
483	الثاني والعشرون: فيه أيضًا: جواز بدائهم بالسلام وعدم التضييق عليهم في الطريق: ..
483	الثالث والعشرين: فيه إهدار الكتب والعلم والتعليم:
483	الرابع والعشرون: فيه تعطيل أحكام الكافرين في الآخرة:
485	الخامس والعشرون: فيه احترام الرأي والرأي الآخر:
485	السادس والعشرون: فيه تقديم الكتاب والسنة للمفاوضات:
485	السابع والعشرون: فيه إلغاء عزة المؤمنين وإعزاز من أذلم الله:
485	الثامن والعشرون: المساواة بين المساجد والكنائس في الأحكام:

- التاسع والعشرون: الرضا بالصلاة الباطلة المخالفة لصلاة المسلمين: 486
- الثلاثون: فيه الرضا بحج الكفار إلى المشاهد والأماكن المبتدعة الشريكة: ... 486
- الحادي والثلاثون: فيه المساواة بين طهارة المسلمين ونجاسة الكافرين 486
- الثاني والثلاثون: فيه جواز عتق رقبة من اليهود والنصارى في الكفارات: .. 486
- الثالث والثلاثون: فيه القول بالمساواة مع المسلمين: 486
- الرابع والثلاثون: فيه جواز دفع الزكاة إلى الكافرين: 487
- الخامس والثلاثون: فيه جواز الإمارة فيهم: 487
- السادس والثلاثون: فيه عدم الخروج على الحاكم الكافر: 487
- السابع والثلاثون: فيه جواز الأمر بالنصرة لهم: 487
- الثامن والثلاثون: فيه تولي من حاد الله ورسوله ﷺ: 488
- التاسع والثلاثون: فيه إثبات الإيمان لهم: 488
- الأربعون: فيه القود بينهم وبين المسلمين: 489
- الحادي والأربعون: فيه التكافؤ بين دماء المسلمين ودمائهم: 490
- الثاني والأربعون: فيه جعل ديتهم كدية المسلم: 490
- الثالث والأربعون: فيه أمضاء أمانهم وعهدهم: 491
- الرابع والأربعون: فيه إبرار أقسامهم: 491
- الخامس والأربعون: عيادة مريضهم: 491
- السادس والأربعون: في إلغاء فوراق اللباس وجواز التشبه بهم: 491
- السابع والأربعون: فيه قبول شهادتهم وتعديلهم: 491
- الثامن والأربعون: فيه جواز دخولهم المسجد الحرام: 492
- التاسع والأربعون: فيه جواز استيطانهم في جزيرة العرب: 492
- الخمسون: فيع الرضا بجميع معاملاتهم: 492
- الحادي والخمسون: فيه قبول أخبارهم ورواياتهم: 493
- الثاني والخمسون: فيه لا يقتل جريحهم في الحرب ولا يجوز سبيهم ولا أخذ غنائمهم: 493

الثالث والخمسون: إلغاء باب الغزو والجهاد:	493
الرابع والخمسون: فيه أن التقارب مع الأديان رغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام:	493
الخامس والخمسون: فيه الرضا بالصلاة إلى غير القبلة:	494
السادس والخمسون: فيه الرغبة عن الصراط المستقيم:	495
السابع والخمسون: فيه لبس الحق بالباطل:	495
الثامن والخمسون: فيه ابتغاء لدين غير الإسلام:	496
التاسع والخمسون: تميع دين الإسلام ومفهوم الإيمان:	496
الستون: فيه طمس الخصائص المميزة للدين الإسلامي:	497
الحادي والستون: تقدم أنها طعن في النبي ﷺ، وزد على ذلك أنها طعن في رسالته:	497
الثاني والستون: فيه الاعتقاد أن القرآن غير مهيم على الكتب السابقة:	498
الثالث والستون: المناداة بإخضاع النص القرآني للنقد:	498
الرابع والستون: فيه أن هذا القرآن غير صالح لهذا الزمن:	498
الخامس والستون: التحاكم إلى الطاغوت:	499
السادس والستون: فيه حرم لإجماع المسلمين:	499
السابع والستون: فيه تصحيح دين اليهود والنصارى:	500
الثامن والستون: فيه المداهنة في دين الله عز وجل:	500
التاسع والستون: فيه المحبة لليهود والنصارى قاتلهم الله:	500
السبعون: فيه الفتنة عن بعض ما أنزل الله:	500
الحادي والسبعون: فيه إمضاء للقاعدة الباطلة: (نتعاون فيما اتفقنا عليه): ..	500
الثاني والسبعون: فيه رفع الأحكام الشرعية من القرآن والسنة بكفر اليهود والنصارى:	501
الثالث والسبعون: فيه عدم التفريق بين حكم الله عز وجل وحكم غيره: ...	501
الرابع والسبعون: فيه التفريق من أجل الكفار:	502
الخامس والسبعون: فيه الدفاع عن الخائنين من يهود ونصارى ومارقين: ...	502
السادس والسبعون: فيه إلغاء لمنهج المهجر للمخالف في المعتقد:	502

- السابع والسبعون: فيه الإلغاء لأحكام الشهادة في قتال المسلمين مع الكفار: 502
- الثامن والسبعون: فيه الحكم بالنار للقتيلين من المسلمين واليهود والنصارى: 503
- التاسع والسبعون: فيه هدم لأسس الدين ودعائمه العظام: 503
- الثمانون: فيه الاعتراف بأعياد الكفار: 503
- الحادي والثمانون: الرضا بجميع البدع: 508
- الثاني والثمانون: فيه جواز الصلاة على أي صورة كانت: 508
- الثالث والثمانون: فيه جواز الصيام على أي صورة كانت: 508
- الرابع والثمانون: فيه عدم التفريق بين قراءة القرآن وبين قراءة التوراة والإنجيل المحرفين: 508
- الخامس والثمانون: فيه عدم التفريق بين ما هو من طعام المسلمين، وما هو من طعام المشركين: 508
- السادس والثمانون: فيه جواز الحلف بمربوبات القوم: 508
- السابع والثمانون: فيه إجراء وقبول وصاية اليهودي والنصراني على المسلم: 508
- الثامن والثمانون: إلغاء أحكام الهجرة من بلاد اليهود والنصارى إلى بلاد الإسلام: 508
- التاسع والثمانون: جواز التجنس بجنسيات اليهود والنصارى: 508
- التسعون: جواز التحاكم إلى محاكمهم: 509
- الحادي والتسعون: جواز الركون إليهم: 509
- الثاني والتسعون: فيه جواز التعاون مع اليهود والنصارى في إحياء أعيادهم: 509
- الثالث والتسعون: فيه جواز الصلاة على أي وجه كان من الأوجه الثلاثة: 509
- الرابع والتسعون: فيه إغلاق باب النصيحة لله عز وجل ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم: 509
- الخامس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الألوهية: 509
- السادس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الأسماء والصفات: 509
- السابع والتسعون: فيه خفض الجناح لهم: 509
- الثامن والتسعون: فيه لا فرق بين حفظ القرآن العظيم الناسخ والمهيمن على غيره المحفوظ من التبديل والتحريف وبين حفظ التوراة والإنجيل المحرفين المبدلين: 510
- التاسع والتسعون: يلزم منه دخولهم في الشفاعة في أهل الكبائر والشفاعة في دخولهم الجنة: 510

المائة: فيه جواز التفضيل بين لغتهم وبين العربية:.....	510
الواحد بعد المائة: العهد التي بين المسلمين واليهود والنصارى إذا كانوا كلهم أصحاب	
حق سيكون تحصيل حاصل:.....	510
الثاني بعد المائة: القول به يقتضي دخول اليهود والنصارى في أمة محمد ﷺ ..	510
الثالث بعد المائة: وفيه محاولة تعطيل قدر الله الكوني:.....	510
الرابع بعد المائة: هذه الدعوة تقرب بين ما فرق الله عز وجل، وتجميع ما فرقه:.....	510

الفصل الرابع: وسائل السلامة من هذا المرض الخطير وغيره من الأمراض الدعوية 512

1- نصره الله عز وجل بامثال شرعه وأمره واجتناب نهيه وزجره:	520
2- الإخلاص لله عز وجل:	523
3- المتابعة لطريقة النبي ﷺ:	526
4- العلم النافع:	529
5- العمل بالعلم:.....	532
6- الصبر على الدعوة والتمسك بالحق:.....	534
7- رفق الدعاة إلى الله عز وجل في دعوتهم:	537
8- الحرص على تفهيم الناس لدينهم:.....	541
9- الحرص على تنمية الأخوة الدينية:.....	543
10- التدرج في الدعوة إلى الدين:	545
11- التخول بالموعظة بين الحين والآخر تذكيرًا للغافل وتعليلًا للجاهل: ...	548
12- بناء المساجد والمراكز العلمية:	550
13- بذل النصيحة للمسلمين:.....	551
14- إنكار المنكرات:	553
15- الدعوة بالتى هي أحسن:	556
16- التحذير من أهل الباطل بجميع أنواعهم:	559
17- الثناء على أهل السنة دلالة عليهم:.....	566

- 18- مجالسة الصالحين والبعد عن مجالسة المبتدعين والمميعين: 570
- 19- قهر أهل البدع والتقرب إلى الله بمجانبتهم ومهاجرتهم: 575
- وإليك بعض المواقف الدالة على منابذة السلف لأهل البدع والأهواء: 577
- 20- وجود أهل العلم والاستفادة منهم: 582
- 21- الأخذ بيسرية الدين وعدم التشدد والغلو: 586
- 22- الحرص على الأخوة الإيمانية: 592
- 23- الغيرة على منهج السلف الصالح: 594
- 24- مداراة الدعاة للناس تالفاً لهم على الحق: 595
- 25- الثبات على الحق: 597
- 26- صدع أهل السنة بالحق: 600
- 27- البعد عن مواطن الريب: 602
- 28- التواضع للحق وأهله: 604
- 29- شكر الله عز وجل على نعمه: 607
- 30- الخلق الحسن: 610
- 31- التثبت في نقل الفساق: 611
- 32- العدل: 613
- 33- التصدي لكل ما يلوث دعاة الحق: 615
- 34- الرجوع إلى الحق: 621
- 35- البعد عن الفتن: 626
- 36- الزهد في الدنيا: 632
- 37- ملازمة التؤدة: 635
- 38- إنزال الناس منازلهم: 638
- 39- بعد النظر عند الدعاة إلى الله عز وجل: 638
- 40- التوبة والاستغفار: 643

41- الشجاعة: 647

42- اليقين:..... 648

43- الرد على المخالفين: 651

شروط وآداب الرد على المخالف: 655

أولاً: الشروط المتعلقة بالعمل: 655

ثانيًا: الشروط المتعلقة بالقائم بالرد: 657

ثالثًا: الآداب المتعلقة بالمردود عليه: 659

رابعًا: الآداب المتعلقة بالرد ذاته: 660

فوائد الرد على المخالفين للحق والدليل والسنة والتنزيل: 662

خاتمة الفصول..... 666

الفصل الأخير: توبة المبتدعة والممiece. 667

الخاتمة..... 674

المحتويات..... 680